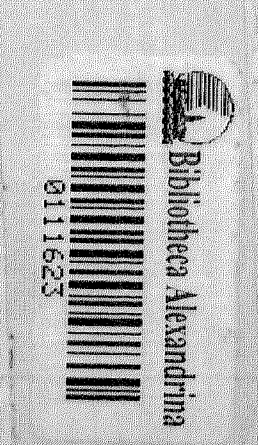
نخبة من الباحثين

نحن وأطفالنا

ترجمة

جوهر سعد



دراسات اجتماعية (٣٢)

الإشراف الفني :

زهير الحمو

نحن وأطفالنــا

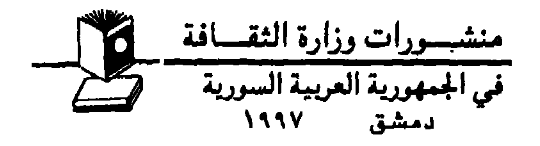
دراســـات اجتمـاعيـة

« ٣٣ »

نخبة من الباحثين

نحن وأطفالنا

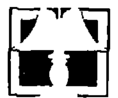
ترجمة
جوهر سعد



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٧

العنوان الأصلي للكتاب:

Мы и наши дети



Библиотека семейного чтения

نحن وأطفالنا = Мы и наши дети / .
نخبة من الباحثين؛ ترجمة جوهر سعد . - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٧ . - ٣٩٢ص؛ ٢٤سم . - (دراسات اجتماعية؛ ٣٣).

١- ١٥ر٣٧٠ س ع د ن ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- سعد ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع- ١٣٣٦ / ٩ / ١٩٩٧

الأطفال في رحاب الأهل

إن العلاقة المتبادلة بين الأسرة والمجتمع هي أشبه ما تكون بالحلقات المتداخلة حيث الحلقة الصغرى تضم الأهل والأقارب، فيما الحلقة الكبرى تحتوي على كل الحياة التي تضم كل التواصلات المتشابكة المتكونة في رياض الأطفال، وفي المدرسة وفي الباص وفي الحي، بالنسبة للأطفال، وفي المصنع وفي المخبر، والمعهد بالنسبة للكبار.

القرابة - هي مسؤولية عظيمة للكبار تجاه الصغار، ومسؤولية الصغار تجاه الكبار. إنّ ما يمكن أن نطلق عليه إسم الرعاية هو الحق الذي تستوجبه القرابة الخاصة، والاهتمام الخاص، إنها التصورات الأولى عن الخير والشر، عن الاحترام والواجب، وباختصار فإن العائلة هي صورة مصغرة ونموذج عن المجتمع. في هذا النموذج، أو بشكل أدق، في هذه الخلية الاجتماعية توجد المعايير الأكثر أهمية للعلاقات البشرية المتبادلة أو لا توجد.

إن ما يربط بين الأب والأم والإبن والإبنة والجد والجدة هي خيوط غير مرئية من التقاليد التي يمكن أن نعتبرها عائلية، وتشمل جميع هذه الحلقات العائلية الضيقة. ومن الجدير بالملاحظة ان كل ما يجري في العائلة له علاقة بالعالم. فأصغر الأمور التي لا نلاحظها مباشرة ستظهر عاجلاً أم آجلاً في السلوك، وفي التقييمات وفي الاحتكاك مع الآخرين، وهذا يشمل الكبار والصغار على حد سواء.

يترعرع الطفل في الحقيقة على خط أهله، حيث يحمل في داخله الروح الحقيقية لأسرته. فإذا كانت هذه الروح العائلية صادقة، فإنها تساعده

على العيش وسط الناس الآخرين، أما إذا كانت غير صادقة فإنها تعيقة في حياته.

وعلى كل أسرة أن تتذكر جيداً بأن مبادئها ستخضع للإختبار بكل تأكيد. فإما أن تساعد هذه المبادىء الأطفال على مواجهة الحياة وهذا الخير بعينه، وإما أن تضعهم على هامش الحياة وهذه مصيبة.

هذا لا يعني على الإطلاق بأن كل المبادىء بلا إستثناء، الفاعلة خارج حدود الدائرة العائلية، أصيلة.

غالباً ما يحدث بأن المبدأ أو المعيار العائلي الصادق، يمكن أن لا يصمد أمام الاختبار في الوسط الذي يربّى فيه الطفل، حيث ينبغي علينا عندئذ أن نبذل قصارى جهدنا لتصحيح ذلك التشويه بحذف ما ليس ضرورياً وتصحيح الخطأ، فالأمور نسبية إلى حد ما.

ويمكن لهذه الإستدلالات أن تظهر على شكل خطوط عامة في العائلات العادية والطبيعة، فالعلاقات بين الناس لا يمكن أن تستمر على أحسن حال من دون نزاعات ومشاكل مهما كانت هذه العلاقات واهية. ولكن ذلك يجب أن لا يستدعي الخوف، إذ أنه يدل على النمو والتطور.

تحتاج الحقائق إلى مزيد من التكرار لتثبت مصداقيتها، فهي كالأوتار التي يجري إختبار قدرتها على التحمل وعلى قابليتها للكسر.

إن فكرة التسامح تشكل الأساس في العلاقات العائلية، وهذا ما يجب أن يميز الأزواج والزوجات إلى حد بعيد، إذ أن عدم القدرة على ضبط النفس والتفاهم مع الإنسان الآخر القريب منك، ستؤدي إلى الفراق والانفصال، وإلى تيتم الأطفال وتربيتهم من قبل النساء فقط.

ولذلك يجب أن نؤكد في أبحاثنا الاجتماعية على فكرة التسامح ضمن العائلة، لكي نحافظ على وحدة الأسرة وعلى مستقبل الأطفال.

إن للمرأة العاملة الحق في زعامة البيت، هذا صحيح ولكن علينا أن لا نتسرع في ذلك. فعندما تأخذ المرأة الكثير على عاتقها، فإنها أحياناً لا تفكر أبداً بأن الأفضل من بين هذا الكثير يمكن أن تنساه، بحيث يؤدي ذلك إلى تحطيم الأسرة.

تخلق الهزات العائلية وعدم الاستقرار العائلي، مشاكل جديدة في التربية، وهي كفيلة بتحطيم كل الحقائق التي تبدو صامدة أمام الموت وثابتة لا تتغير، وخاصة إذا كان الأب أو الأم أو كلاهما قد ربيا أولادهما عليها.

ويتحمل الأبوان المسؤولية المباشرة في ذلك، بسبب مشاركتهما في تلك الهزات العائلية. يجب أن نشد الطفل إلى العائلة كما لو إلى واحة قلبية رائعة، ولكن ما العمل عندما - وللأسف - يتحول هذا الشدّ إلى حركة عكسية، حيث ينسحب الفتيان من العائلة الى الشارع أو إلى أي مكان خارج البيت، هربا من الجو العائلي.

الأطفال هم العيون التي نرى بواسطتها، وهم الآذان التي نسمع بها، إنهم تكرار لفضائلنا ونواقصنا، إنهم يملكون العالم من خلال رؤيتهم لنا، فهم لا يصغون إلى أي شيء كان عندما يسمعوننا، وإنما إلى الحقائق السامية التي يتضمنها الحديث. وما داموا تكراراً لنا فإنهم يخلقون خيرنا وشرنا مضاعفا عشرات المرات. وعلى الأهل ألاّ يشتموا الأطفال عندما يرتكبون خطأ فظيعا، بل يجب أن يبحثوا في داخلهم وفي حياتهم وسلوكهم، عن الخطأ الذي ارتكبوه في تربية أطفالهم.

الكتاب الذي بين أيدينا مكرس للتربية العائلية. ولكن بالرغم من صحة هذا المفهوم، أردت أن أوجه الانتباه إلى الشيء الرئيسي وهو أنه من غير الممكن تربية الطفل إنساناً مفيداً للمجتمع بالكلمة الصادقة فقط.

عليه أن يقتدى بخطاكم أنتم الكبار، ففي ذلك كل الحقيقة.

فالأهل الذين يوفقون بين كلامهم وعملهم على مرأى من الأطفال، سيحصلون على نتائج إيجابية في تربية أطفالهم. أما إذا كان الإنسان البالغ يفعل عكس ما يقول، فإن العقاب لن يجدى نفعاً بعد ذلك.

لا توجد أي قوة يمكنها غرس الحقيقة من غير أن تقترن بالفعل. إقتران الكلمة بالفعل يعني الاخلاص الصادق والحب الحقيقي، الذي يمهد الطريق للسعادة العائلية.

* * *

لمن وضع هذا الكتاب ولأي شيء؟

التربية: ظاهرة اجتماعية مدهشة. الكل يتصورها، وقلة هم من يدرك كنهها وأسرارها. إنها ذلك المجال من المعرفة، التي يمكن أن تشعر خلالها، بأنك قائد غير مهيأ أو معدّ لهذا الغرض، إنها علمٌ فيه شيء من الإلهام والحدس، وفنٌ فيه كثير من العلم. فالتربية تجمع بين العلم والفن، لذلك من الصعب الكتابة عنها تحديداً. وتكمن الصعوبة أيضاً في أن غالبية الأُسَرْ، وعلى الرغم من إعترافها بأهمية العلم التربوي، وخبرة التربية الاجتماعية، تعتمد على مشاعرها وتصوراتها في التعامل مع أطفالها أو في تربيتهم.

الكل يعترف ويُقرّ، بأن للتربية أسرارها وقوانينها ومبادئها، ولدى كل منهم الرغبة في النفاذ إلى جوهرها، وإتقانها، لكي لا يوجهوا أطفالهم في هذه الحياة خبط عشواء، بل في إتجاه ثابت، مبعدين بثقة العوائق التي يمكن أن تعترض حياتهم. لكن كل ذلك نظري وإفتراضي. فعندما تمس القضية الجانب العملي - طفلك أنت على سبيل المثال - فإن الصورة تتغير بشكل حاد، هنا نحس بأننا أكثر إطلاعاً، وحدة نظر وتبصراً.

وهذا طبيعي تماماً. فما من أحد يعرف حسنات وعيوب الطفل على نحو موضوعي وأفضل من الذي يتواصل معه بشكل يومي، ومنَ الذي يرتبط به بجملة من الواجبات وعلاقات النسب والواجب الاجتماعي.

يعتبر الأهل إبنهم مخلوقاً فريداً ولا مثيل له، ومن الصعب أن يستسلموا لفكرة بأن إبنهم هو كجميع الأبناء الآخرين. وتحدوهم الرغبة

دائماً في أن يجدوا فيه ذلك الشيء الذي يثبت ذلك الاستثناء أو الفرادة. وهذه النظرة ليست وليدة المصادفة. إنه «نداء الدم»، ذلك النداء الأبدي الجبار الذي يجبرنا على النظر إلى أطفالنا كإستمرار للنوع البشري، وكتجسيد لأفضل وأنقى ما فينا، وكرجائنا الأخير الذي لا غنى عنه. كم نتمنى أن يتحقق ذلك الرجاء؟

غالباً، وبغض النظر عن إرادتنا، نرى طفلنا كما نريد أن نراه. هذا الخداع الذاتي العذب، يجعلنا بسيطين بشكل عجيب، وعديمي التبصر بشكل مدهش، ومولعين بكل ما يتعلق بإبننا أو إبنتنا، بالرغم من أننا في علاقتنا مع الأطفال الآخرين نكون في غاية الحكمة وبُعد النظر. العيش في عالم الأوهام ليس صعباً إلى هذا الحد، ولكنه لا يخلو من الخطر. وعندما تزول الأوهام ويبدو الواقع غير زاه، كما أردنا له أن يكون، وبقدر ما تكون الفجوة كبيرة بين الآمال المرتقبة والنتائج الضئيلة - التي حضلنا عليها - تكون خيبة الأمل مريرة.

ومرة أخرى نحاول إيجاد الذريعة لنخفف من مرارة إخفاق تصوراتنا عن كون طفلنا «ليس كالآخرين»، وأنه يتطلب نوعاً خاصاً من التعامل، وعناية خاصة. . هذه الفكرة مغرية إذ تعطينا إمكانية تسويغ تصرفنا بنظرنا نحن فحسب.

ومن الطبيعي في مثل هذه الحالات، أن نفهم أفكار ومشاعر الأهل. ولكن الفهم لا يعني الموافقة دائماً. إذا كان كلّ الأطفال من النوع الفريد فلا بد أن توجد في هذه (الفرادة) بعض السمات والقوانين المشتركة.

مهما اعتمد الأهل على خبرتهم الشخصية وعلى حدسهم فلن يستطيعوا الإفلات من قوانين التربية. فبالحب وحده لا تستطيع أن تبني سعادة طفلك. كتب مكسيم غوركي بهذا الصدد قائلاً «حتى الدجاجة تحب أطفالها. أما تربيتهم فهذا عمل عظيم، يحتاج إلى موهبة ومعرفة عميقة بالحياة».

لهذه الكلمات أهميتها في أيامنا هذه، حيث يعالج المجتمع القضايا المهمة والحيوية جداً، المتعلقة بإصلاح المدارس. لاحظوا أن الحديث لا يدور عن تحسين ما أو تغيير جزئي في الثقافة الجماهيرية، بل يدور الحديث عن ولادة نوع جديد، وعن تحطيم مبدئي وجذري للقوالب الجامدة من العادات في تربية وتعليم الجيل الناشيء، وعن التخلّي عن بعض المبادىء السيكولوجية والتصورات ووجهات النظر المتوارثة.

إصلاح المدرسة مفهوم عميق وواسع جداً. إنه يعني تعليم الأطفال وتحضيرهم للحياة وللعمل بشكل أفضل، وأن نصوغ لهم بشكل جيد وضعاً حياتياً فعالاً. على عاتق من يقع هذا العناء؟ على المجتمع أم على المدرسة؟ إنه بالتأكيد على عاتق المدرسين والمربيين.

وما هو دور العائلة والأهل في هذه الحالة؟ على هذا السؤال يوجد جواب دقيق جداً.

(الأهل مدعوون لرفع سمعة المدرسة والمدرسين، ولتربية أطفالهم على إحترام ومحبة العمل، ولإعدادهم للنشاط المفيد إجتماعياً، وتعويدهم على النظام والإنضباط، والمحافظة على قوانين حياة مجتمعنا، والإهتمام بتطورهم الجسماني وتعزيز صحتهم).

وبإختصار فإن مبادىء الإصلاح تتركز في برنامج كامل من الأفعال لكل عائلة، لكل أم ولكل أب ولكل جد وجدة. كنا نودّ أن نتكلم عن قوانين التربية الهامة، لكي نبين للأهل تلك الطرق الممكنة، التي إذا ما سلكوها يستطيعون القيام، بنجاح، بالواجب الإنساني والوطني.

من الصعوبة بمكان أن تكون مشهوراً في مجال التربية، إذ أن خبرة كل مرب ولو كان الأكثر مهارة والأكثر معرفة وحكمة (وفريداً) إلى حد ما، تنطوي على بعض العناصر الذاتية. وهناك، أيضاً، الخبرة الجماعية ونصائح الناس الذين يمتلكون ذخيرة قيمّة من الوقائع والإستنتاجات والملاحظات، التي إختبرتها السنون الطويلة.

ولهذا السبب، جمعنا في هذا الكتاب أفكار ونتائج البحوث العلمية، ومواد العمل التربوي وبعض المقالات في الأدب الاجتماعي في الصحافة، التي تعكس خبرة الجماعة في التربية.

نحن ندعو القراء إلى المشاركة في هذا المؤتمر الفريد من نوعه، حيث سنناقش فيه المسائل الحيوية لتربية الأطفال، وسنقترح فكرة التبصر الجدّي في الأمر.

واضع هذا الكتاب رئيس قسم التربية في معهد التربية بمدينة / سفرد لوفسك/ البروفسور في العلوم التربوية / أ. س بيلكين/ ، اختار شكل الحوار من أجل تقديم المعلومات. المحاورات الأربع الأولى تبحث في الأسس العامة للتربية العائلية. يدور الحديث هنا حول الأهداف التي تلوح للأهل لدى اختيار سبل أولادهم في الحياة. إن مسألة التربية والمهنة تحدد إستراتجية وتكتيك كل السياسة العائلية. إنطلاقاً من هذا السؤال الهام يبدأ المغزى الاجتماعي للتربية، ولقد أوليناه إهتماماً خاصاً في المحاورة الأولى.

كيف يجب أن يكون الأب والأم لكي يحسّنا آداء مهمتهما الصعبة في تربية الجيل الجديد؟ وما هي السمات الأخلاقية والفكرية التي يجب عليهما امتلاكها؟ وكيف تُقيّم العلاقات بين أعضاء الأسرة؟ هذا محتوى المحاورة الثانية.

أما المحاورة الثالثة فتتحدث عن فنّ التربية العائلية، والإحتمالات الممكنة للعلاقة بين الأهل والأطفال ضمن العائلة؛ والأخطاء النموذجية في إختيار الأسلوب ونبرة الصوت التي تحدد الجو السيكولوجي للعائلة.

إنّ التربية دون نفوذ الأهل وهيبتهم داخل الأسرة، كالبحّار من دون شراع ودفّة في بحر الحياة العاصفة. الكثير من مصائب الأهل تبدأ وتنتهي في الصراع من أجل النفوذ، الذي يمكن أن يكون حقيقياً، أو واهياً. هذه القضية تبحثها المحاورة الثالثة أيضاً.

متى تبدأ التربية، وفي أي سن؟ كيف نربي الطفل قبل سن المدرسة؟ ولماذا يعتبر سن المراهقة صعباً؟ ولماذا يصبح الطفل المطيع عنيداً وسليطاً؟ لماذا يعارض طلاب الصفوف العليا آراء أهاليهم بالرغم من أنهم سلّموا بها في السابق. كل تلك الأسئلة وكثير غيرها تعكس التداخل المعقد في تربية الأطفال واختيار أسلوب التربية حسب العمر. عن هذه القضايا ستتكلم في المحاورات الأربع التالية:

يمكن أن نصوغ الفكرة الرئيسية لكل المحاورات كالتالي:

سعادة العائلة في الأطفال، أما سعادة الأطفال ففي أيدي العائلة التي تسعى لجعلهم سعداء، وتكافح من أجل ذلك. كتابنا هذا ليس مرجعاً شافياً.

سنعتبر أن مهمتنا قد تحققت إذا ما أجبر هذا الكتاب القارىء على التفكير جدياً بالمسائل المقترحة.

* * *

المحاورة الأولى

من نربّي؟

ظهور الطفل في العائلة

إن قدوم إنسان جديد، حدث سعيد على نطاق المجتمع، ولكنه عادي أيضاً. فقد أتينا إلى هذا العالم بهدوء وبشكل غير ملاحظ، لم تضرب المدافع، ولم تنفخ الأبواق، لكن ظهورنا إلى النور كان أيضاً عيداً واحتفالاً. ويتم الإشارة في إطار العائلة إلى هذا الحدث، كما إلى ولادة الأمير وريث العرش.

إن كلاً منّا طفلٌ في عائلته. ويفرح المجتمع بولادة جميع الأطفال الذين هم إستمرار للجنس البشري، وتحتفل العائلة أيضاً بولادة فرد جديد حامل لتقاليدها، ويحتفظ بقيمها المادية والروحية المتراكمة عبر الأجيال السابقة.

العائلة هي الخلية الأساسية في المجتمع وجزؤه الأساسي المكون. ومهما كان عالم العائلة ضيقاً ومستقلاً، فإنها ترتبط بالمجتمع بخيوط لا تحصى، حيث يعطيها إمكانية العيش بجو من التقارب الروحي والجسدي مع الطفل، الذي يؤمن عالماً طفولياً لا يعوّض، ويطور كفاءاته ومواهبه.

بما أن العائلة هي الخلية الأساسية في المجتمع فإن فرحها ينعكس سلباً عليه، ورفاهيتها وتوازنها تساعد على النمو الروحي في المجتمع. يفكر الأهل بالدرجة الأولى بكيفية إستقبال المولود الجديد. فالجميع يفكرون بأدق

التفاصيل: أين سيوضع السرير، أية نوابض ستوضع لعربة الطفل، ما هو لون غطاء السرير، القبعة، أردية الطفل، وما هو النظام الغذائي الذي يجب إتباعه لإطعام الطفل إلخ.....

يترعرع الطفل وتتغير مشاغل الأهل، ولكنها تدور دائماً في إطار القضايا العائلية. ويبدأ الأهل عاجلاً أم آجلاً بالشعور بالحاجة الماسة إلى تحديد مستقبل طفلهم. ليس فقط من موقع شخصي، ولكن من موقع إجتماعي أيضاً. ماذا سيصبح إبنهم، ما المكان الاجتماعي الذي سيشغله، وما هي السمات التي سيحوز عليها كمواطن؟ إنها أسئلة صعبة ومبدئية، وليس من السهولة الإجابة عليها، والتهرب منها غير جائز، لأنها تشكل المواقع المفتاحية لعلم التربية الأخلاقي.

كل عائلة عبارة عن عالم جديد ومجهول. لذا من المهم جداً الدخول إلى هذا العالم من موقع ثابت وواضح تماماً. فهو كالبوصلة التي ستهدينا إلى الإتجاه الصحيح، وتسمح لنا بالتمسك بالإتجاه نفسه بثبات.

مَنْ نربي؟ وما هو الهدف من التربية؟ هذه الأسئلة بلغة العلم، هي علم منهج التربية. والهدف يحدد طرق الحصول عليها أو بلوغها. ومن المهم جداً بلوغ الهدف النبيل بوسائل نبيلة. وبغض النظر عن التربية التي نريدها لطفلنا - ذكياً، محباً للعمل، متطوراً بشكل منسجم وشامل - يجب علينا، في المقام الأول، أن ننشىء فيه مواطناً، هذا يعني إنساناً بإمكانه العيش وسط الناس، ومخلصاً لمثله، ومستعداً للدفاع عنها، وعن المجتمع الذي أعطاه الحياة، وعن سعادته. فهل التعارض ممكن بين الأهداف الإجتماعية والعائلية في التربية؟

يحدث ذلك أحياناً، فهذا ليس سراً. فالمجتمع يتمسك بقيم معينة، وكل شخص يناضل من أجل أن يحوز عليها، إذ يتم بلوغ إتساق التطور الإجتماعي عبر الاقتران بين العام والفردي. أما العائلة فتتطلع إلى قيم

أخرى، ولديها مقياس آخر لقياس الغنى المادي والروحي، وتنظر إلى مغزى الوجود وأهداف التربية بمنظار آخر.

الإنسان الإجتماعي مواطن بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، لأنه لا يحمل في داخله أية أنانية ضيقة، فهو شخصياً يقدر على الأمتثال لحاجات الناس حوله، وبإستطاعته الإحساس بآلام الآخرين، ومساعدة الضعفاء والمرضى والشيوخ.

تربية المواطن لا تعتبر موضوعاً خاصاً محدداً سلفاً بأطر تقليدية أو مشروطة. المواطنة هي صفة مشتقة. فهي تنمو على تربة من العلاقة الطيبة والعميقة للأهل والمدرسة بواجباتهم، وتتدفأ بعطف الناس، الذين يرافقون الطفل من الخطوة الأولى من حياته حتى يبلغ سن الرشد والاستقرار العاطفي.

بأي شيء يرتبط نجاح مثل هذه التربية؟ ما الذي يشكل المحور الأساسي في مواطنية الإنسان الشاب المعاصر؟ من نربي بالدرجة الأولى وقبل كل شيء؟ الجواب واضح: نحن نربي إنساناً محباً للعمل.

يجب أن ننظر إلى تربية الجيل الناشىء على حب العمل، كعامل هام في صياغة الشخصية، وكوسيلة في تلبية حاجات الإقتصاد الوطني من احتياطي العاملين.

يشكّل تضافر الجهود الجماعية للمدرسة والعائلة والفرق الإنتاجية، ووسائل الإعلام الجماهيري، والأدب والفن، وكل أوساط الرأي العام، في تربية حب العمل عند كل إنسان شاب، مهمة إقتصادية في الدرجة الأولى وذات أهمية أخلاقية وإجتماعية. إن ما يستدعي إنتباهنا مما سبق، هو دور العائلة بالدرجة الأولى. فما هي الإمكانات التي تمتلكها لتقدمها لأطفالها على صعيد تحضيرهم / السيكولوجي/ والتربوي؟

دخل هذا المفهوم إلى وعينا وأصبح جزءاً من علاقاتنا الإجتماعية،

بحيث ننسى أحياناً مغزاه السياسي والإقتصادي. إنّ تربية الإنسان الذكي والمثقف والشريف الضحيح الجسم، يتطلب جهوداً خاصة. ولا نكتشف إنسجام تطوره ووجوده الاجتماعي إلاّ في العمل فقط. أنْ تكون مواطناً حقيقياً، يعني أن تكون إنساناً كادحاً وعضواً فعالاً في المجتمع تشارك في خلق الخيرات المادية، والروحية، وقادراً على العطاء بكامل قواك وقدراتك. علينا أن لا نفهم العمل بهذه البساطة وبشكل أحادي الجانب ـ فهو لا يقتصر على جهود الإنسان الجسدية فقط، بل الذهنية والأخلاقية أيضاً. فالعمل بالنسبة للطفل الذي لم يدخل المدرسة، يرتبط باللعب بشكل أساسي، وبالخدمة الذاتية، وبالقيام أو بتنفيذ بعض الواجبات العائلية، والإجتماعية المحددة.

أما بالنسبة للطفل الأكبر سناً، فإن العمل يرتبط عنده بالإضافة إلى ما ذكرنا، بالدراسة. أما العمل بالنسبة للمراهق فهو العمل الذهني المفيد إجتماعياً، بالإضافة الى العمل المنتج في أشكاله الأولى، والمرتبط بخلق منتوج نهائي مفيد.

إذا أردنا أن نعالج مسألة صياغة الشخصية إنطلاقاً من موقع إجتماعي حياتي فعال، علينا بالضرورة أن نبدأ من «جلالته» ـ العمل. إنه العمل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، بكل تجلياته ودلالاته. لقد أعطى عالم التربية الروسي المعروف «ب. آ. سوخوملينسكي» أهمية عظيمة لتربية المراهقين أو الأحداث على العمل. ولذلك سنبدأ محاورتنا الأولى بمقالة «ب. آ. سوخوملينسكي» عن تربية التلاميذ على العمل، حيث ننصح بقراءتها باهتمام، إذ تحتوي على جوهر الشخصية التربوي ليس للمدرسة فقط، وإنما للعائلة أيضاً.

* * *

ب ـ أ ـ سوخوملينسكي

العمل والحياة (الروحية) للمراهقين

(هذا الفصل من كتاب «ولادة المواطن»)

دور العمل في التطور الشامل للشخصية

يُدعى العمل بالمربي العظيم. ولكن قوته التربوية لا تتكشف عندما تكون يدا المراهق مشغولة بشيء ما. فالعمل المفصول عن التربية الفكرية والذهنية والأخلاقية والجمالية والعاطفية والجسمية، وعن الإبداع، عن الإهتمامات والحاجات، عن العلاقات المتشابكة للمراهقين الخاضعين للتربية ـ هو عمل قسري ـ ويسعى المراهق لتركه بأسرع ما يمكن، لكي يتوفر له المزيد من الوقت لأعمال أكثر جاذبية وإمتاعاً.

المشكلة الكبرى في أكثر المدارس، هي فشلها في غرس حب العمل عند الأطفال. وهذا يفقر الحياة الداخلية للإنسان في الوقت الذي تتكون لديه آراءه وقناعاته. غالباً ما يسيطر الكسل والخمول على الإنسان كمصيبة شديدة الوطأة وكعيب، ليس لأن الشخص لا يريد أن يعمل شيئاً، ولكن لأن ذلك العمل لا يجذبه ولا يملأ قلبه ولا يترك أثراً إيجابياً في وجدانه.

إنّ المعرفة العميقة للعالم وللذات، والتربية الذاتية كسمات محدّدة للحياة الداخلية في سنوات الفتوة، غير ممكنة من دون أن تؤكد ذاتها في العمل. ومن غير الممكن إطلاقاً أن تتطور الشخصية تطوراً شاملاً ومتناسقاً من دون أن يعاني الإنسان ويحس بالفخر بما تصنع يداه. هنا تكمن السعادة

وكمال الحياة ـ على الإنسان أثناء الإبداع أن تتملكه وتسيطر على مشاعره الفكرة التالية: (من أنا؟ أين مكاني في الحياة؟ أين طريقي في الحياة؟ ما الشيء الذي أنا قادر عليه؟). لا يمكن أن تبرز هذه الفكرة لدى الإنسان إلا عندما يكون قد أظهر أو عبّر عن ذاته في شيء ما، إستهواه، أو توصل إلى نتائج هامة بالمقارنة مع أترابه. أنا أرى أن كل شخص خاضع للتربية هو قبل كل شيء شخصية مولعة بشيء ما، ذات روح وثابة باحثة دائماً عن هدف العمل الإبداعي، تسعى بشغف لفهم أسرار العمل اليدوي المهني.

العمل ـ هو أساس التطور الشامل والمتناسق. هذا يعني من جهة التجربة العملية أن العمل يتحكم بنمو التطور الجسدي والعاطفي والجمالي والأخلاقي والذهني، وبقيام الأساس الفكري. فالعمل ليس مجرد ترسيخ للمعلومات النظرية، التي تم الحصول عليها أثناء الدرس وتصحيح لها. فهذه الرابطة بين العمل والمعلومات يجب أن تأخذ منحىً أكثر عمقاً وحساسية: تطور ذهني ـ عمل، ذهن ـ عمل. الحل الحاذق لهذه القضية أثناء تربية الأحداث له أهمية استثنائية.

ومن المهام الرئيسية للتربية الذهنية والعملية إيجاد العمل الكفيل بتطوير تلك القوى والقدرات وإدخال الإنسان في عالم الإبداع، حيث يمكن بلوغ النجاح هنا فقط عندما نجد حلاً لكل منهما على حدة. يصبح العمل أساساً للتطور المتناسق للشخصية أيضاً، لأن الإنسان يؤكد ذاته كمواطن من خلال عمله. حيث لا يشعر بأنه قادر على الحصول على خبزه اليومي فقط، بل حتى على تحويل ما يدور في ذهنه إلى شيء حسي.

المواطنية يجب ألا تكون في العبارات الطنانة فقط، بل يجب أن تنبع من داخل الإنسان ـ إنها من أهم قواعد التربية على حب العمل، بالإضافة إلى السرور الذي تتركه المعرفة وإدراك العالم في نفس الإنسان. يعتبر الشعور بأهمية العمل حافزاً عاطفياً قوياً، وملهما في العمل الصعب، حيث

العمل الصعب هو العمل الوحيد الذي بإمكانه أن يربي. يبدع الإنسان الجمال عن طريق معرفته للعالم بواسطة العمل، إذ يؤكد في ذاته الإحساس بجمال العمل. وبذلك يتم بلوغ وحدة العمل والتربية الجمالية.

التعوّد على العمل

يتوحد التعود على العمل في عمر الفتوة مع تفهم دور العمل كحاجة داخلية هامة. فالمراهق تشغله فكرة موقعه في هذه الحياة، ويسعى بوعي للتعبير عن ذاته وتأكيدها في هذه المرحلة. إذ أن فكرة الإنسان عن العمل لا تقل أهمية عن كيفية العمل ومقداره، حيث تضفي الأشياء التي يملأ بها وقت فراغه رونقاً خاصاً على حياته الداخلية، وتساعد على إكتمالها وتطورها.

إن العمل المتعدد الجوانب، الذي يهدف إلى معرفة العالم وإمتلاكه، وإلى تعبير الشخصية عن ذاتها وتأكيدها في العمل المبدع، وإشباع الوقت الفارغ بالعمل الذي يغني الحياة الداخلية هو الذي يمنح الإنسان السعادة.

يكتسب النظام والإنضباط في العمل في سني الفتوة أهمية خاصة. ويجب على كل مراهق أن يرى في القيام بنظام العمل اليومي، وتجاوز الصعوبات، وسائل التربية الذاتية للإرادة. أنا مقتنع جداً بضرورة توفير الوقت من أجل التربية الذهنية وحب العمل. وبتوفير هذا الشرط تحديداً، يمكن للمراهق أن يعبر عن ذاته في العمل، الذي يكشف إلى حد كبير عن قدراته ومواهبه. إن توفر عنصر الرغبة في العمل لدى المراهق يفعم حياته الروحية بالخصب ويثرى عالمه الداخلي، ويصبح بإستطاعته إستخدام الزمن كمصدر للخير والسعادة.

تربية المواطن على حب العمل

لقد كان أملي أن يُلهم قَسَمُ الأطباء القديم «أحترق لأُنيرُ للآخرين» الفتيان والفتيات وينفح قلوبهم، ويوقظ فيهم الإحساس بالعزة والكرامة. فالسعادة الحقيقية تكمن في خدمة الناس. حاولت إيصال هذه الفكرة إلى فتياني (الخاضعين للتربية) عبر كل ما يفكرون به ويعملونه. إنّ أكثر ما يقلق المراهقين هي القصص عن البطولات التي تمت بإسم خير الناس وسعادتهم. إنها الخطوة الأولى في تربية روح المواطنية. فالتأثّر والإنفعال بما أنجزه الإنسان يعتبر الحافز المباشر الذي يضيء الدرب للآخرين.

يبدو ذلك للوهلة الأولى عملاً سهلاً: إذا صنع المواطنون الفتيان شيئاً ما بأيديهم، فإن ذلك يعني أنهم يعيشون إحساس الحب والواجب تجاه الناس الآخرين. أما إذا كانوا لا مبالين تجاه العمل الذي يقومون به، ويضجرون منه، فإن ذلك لن يترك أثراً طيباً في نفوسهم. على المواطن الشاب أن يعمل لأجل الإنسان بقلب مفتوح ونظيف وبأفكار مضيئة ومفرحة. ويجب أن يقدم هذا العمل السعادة ويلهم الأفكار السامية. ويجب أن يزدان الشعور بالتعب المضني من جراء هذا العمل بالإحساس بفرحة الحياة وبالسعادة. فالعمل الحقيقي غير ممكن من دون كد وتعب. كيف يمكننا أن نكشف للمراهق الخاضع للتربية مبدأ حب العمل هذا؟ إن تربية المواطن على حب العمل يجب أن يأخذ بعين الإعتبار بعض قواعد التقنية التربوية. فالعمل من أجل الناس يجب أن لا يكون بقوى جسمانية جديدة فحسب، بل بقوى روحية جديدة أيضاً. يجب علينا تحضير المراهق داخلياً من أجل العمل، وأن ننظف قلبه من كل ما هو عرضي وعابر.

لقد حاولت وسعي لكي تسيطر على وعي الأطفال وخاصة المراهقين منهم الأفكار المضيئة، وذلك قبل الشروع بالعمل لأجل الناس. إن ما يترك أثراً إيجابياً في نفوسنا هو ما نخلقه بأيدينا من أجل الآخرين. هذا الإحساس

يلهم حماس الفتيان إذ أنهم يضعون جزءاً من قلوبهم في العمل الذي يقومون به.

هناك في الأرض الخالية - حيث تقرر تشييد مسكن للعمال الزراعيين - شجرة سنديان باسقة، لها من العمر عشر سنوات من السهل اقتلاعها أثناء البناء. هل توجد إمكانية لإنقاذها؟ إذا قمنا بنقلها إلى مكان آخر فإنها ستجلب السعادة لأكثر من جيل لاحق. إنه عمل ليس سهلاً أبداً. إذ يلزمنا أن ننقل مع الجذر حوالي المتر المكعب من التربة. صحيح أنه عمل شاق ولكنه يدخل السرور إلى النفس. فالسنديان يعيش أكثر من مئتي سنة، ويجد أكثر الناس منتهى السعادة تحت ظلال أغصانه.

ذلك التصور الرائع عن العمل يوقظ عند الفتيان والفتيات، الأفكار المضيئة والسامية التي يتعذر الالهام والخيال من دونها.

مع إقتراب موعد إنجاز العمل الذي سيقومون به يغمرهم شعور عامر بالسرور والفرح. ومن المهم جداً أن يرى الفتيان والفتيات الذين بلغوا سن الفتوة، الأشياء المادية التي صنعتها أيديهم في سني طفولتهم. فالأطفال الذين كنت أربيهم كانوا كل سنة يضيفون إلى عملهم شيئاً ما. وبفضل ذلك أصبح العمل بالنسبة لهم جزءاً من حياتهم. إن تربية المواطن على حب العمل، يمتزج كلياً مع الشعور بالكرامة الذاتية. ولا يعني العمل من أجل الخير العام إنكاراً للذات أبداً ولا عزلاً للإنسان. فابتهاج الناس بالعمل يعتمد على شعور شخصي بالسعادة، وبالكرامة الذاتية وعزة النفس. وحسب تعبير / آ. ب. لونا تشارسكي/ فإن الشخصية هي جذر المجتمع أو أصل المجتمع. ومن الهام جداً أن يكون الاعتزاز بالعمل عند المراهق في أساس مشاعره كمواطن، وأن تسيطر عليه فكرة التفوق في العمل عند الإنسان، وفي السعي لأن يصبح كل إنسان معلماً حقيقياً في عمله، ولكي يتغلغل فيه الإبداع، ويغدو حافزاً إنفعالياً قوياً للنشاط.

من الضروري مساعدة كل انسان على إكتشاف ذاته وإبرازها في العمل المحبوب، وعلى إمتلاك المعلومات والمهارات الضرورية. كل ذلك يعتبر الف باء المدخل الفردي لتربية الشخصية ضمن جماعة العمل.

الشخصية العاملة ضمن جماعة العمل ليست جمهرة لا شخصية لها، تعمل حسب الأوامر والتعليمات فحسب. فجماعة العمل لا وجود لها من دون شخصيات لها إعتبارها.

إني أرى أن تربية جماعة العمل تكون في إكتشاف مكمن النشاط لدى كل مراهق، وإيقاظ الموهبة عنده. على المراهق في سنوات الفتوة أن يبلغ نجاحات مميزة في مجال معين، وأن يحوز على إهتمامه شيء واحد يلهمه، وأن يصبح عمله إبداعاً حقيقياً بالنسبة له. لقد انتظرت بقلق واضطراب هذه اللحظة، التي يزداد فيها إهتمام المراهق بشيء واحد إلى درجة ينسى معها كل شيء آخر. ويدور الحديث عن البحث المتعمق الذهني والإبداعي والإنفعالي في تفاصيل وأسرار المهنة، تعتبر هذه اللحظة نتيجة طبيعية لعمل المراهق الإبداعي، الذي يشتغل به خلال وقت محدد. للتعمق في العمل، تلزمنا شخصية تملك القدرة على أن تُظْهِرَ بشكل محسوس، وواضح خضوع القوى الجسدية للفكرة المبدعة. إن إلهام العمل المبدع، أو الإلهام الذي يبعثه فينا العمل المبدع، ومعايشة مشاعر الفخر والإعتزاز، وخاصة عندما أكون ماهراً في عملي، أو عندما تكون لدي «يدان ذهبيتان» وأحظى بالإحترام لأني سيد عملي - كل ذلك يعتبر ولادة حقيقية للمواطن.

كان عند (كوليا) الكثير من التسليات العملية. فقد عمل بمتعة في قسم البحث العلمي، وفي تصميم النماذج. وكانت عنده أيضاً هواية الرسم، وكان يهوى أيضاً جمع اللوحات من نتاجات الفن التعبيري الجميل. ولكن ها هو في الصف السادس قد بدأ بالعمل ضمن مجموعة الشباب من هواة الميكانيك. إنه لم يستطع الإنفصال عن المحرك الصغير، لقد فكه وركبه،

ونظفه ووضع له الزيت. وركبوا في حرفة المدرسة آلة لنشر المقاعد، ووصلوا المنشار بمأخذ كهربائي. وأثناء إصلاح الخطوط الكهربائية ظهرت الحاجة إلى وصل المنشار بمحرك الاحتراق الداخلي. هذا العمل كان بالنسبة إلى كوليا بمثابة الدفعة التي أملت عليه التعمق في دراسة ميكانيك الآلات. وبطلب من كوليا أخلوا له زاوية في قاعة المحطة الكهربائية التعليمية المدرسية (للصفوف العليا)، حيث وضع محرك إحتراق داخلي صغير، ووصل به مولداً كهربائياً للتيار المتناوب. ووصل المصابيح الكهربائية بالشبكة. كل ذلك كان بحجم صغير، حيث بدت المحطة الكهربائية مثل اللعبة، وحازت على إهتمام التلاميذ الصغار. بدأت تتفتح تحت قيادة كوليا وتتوهج إهتمامات ودوافع جديدة. وصل الحِرفي الشاب بالمحرك الكهربائي بعض الآلات الصغيرة مثل: منشار كهربائي للقطع، مرواح - ومصهر كهربائي. وفي الصفين السابع والثامن أصبح كوليا حرفياً ماهراً في قضايا الإصلاح والتجميع الكهربائيين، وفهم بصورة رائعة محرك الإحتراق الداخلي. لقد شهدنا هنا ولادة مواطن مليء بمشاعر الكرامة الذاتية. فالإحترام الواعي للذات وللناس الأخرين، هي نتيجة إيجاد الإنسان لنفسه، ونتيجة التفكير الجدي بمستقبله. الشعور بالعزة وبالكرامة الذاتية وما يرتبط بذلك من إحساس باكتمال الحياة - تلك هي أسس الوعي الذاتي التي تضرب جذورها بعيداً في حرفة العمل.

لا يوجد على الأرجح، طفل مثل كوليا له هذا القدر من الإهتمام والولع بالعمل. لقد أولع بزرع الزهور وبالعمل في مزرعة لتربية المواشي، وبزراعة محاصيل الذرة. ولكن أياً من هذه الأعمال لم توقظ عند الفتى الإلهام الحقيقي. وها هو قد بدأ يعطي الأفضلية لصناعة المعادن على المخرطة، وللتصميم ووضع الموديلات. وفي نهاية السنة السادسة من الدراسة، استولت عليه هذه الرغبة تماماً بحيث أهمل كل الأنواع الأخرى. وغدا قطع الآلات والأجهزة والموديلات، وتحضيرها بالوسائل اليدوية على

المخرطة عمله المحبب، وأخذ على عاتقه وبإشراف مدرس المهنة تحضير منشار القطع الكهربائي. وأصبح ذلك اليوم الذي وصل فيه كوليا منشاره بمحرك كهربائي صغير، عيداً بالنسبة له. وشعت السعادة من عينيه «قال كوليا بعد عدة سنوات من مغادرته المدرسة: في ذلك اليوم شعرت بنفسي إنساناً حقيقياً. إذ كنت أشعر قبل ذلك بأني لست كالآخرين بل أسوأ منهم، وبدءاً من ذلك اليوم إنكشف لي العالم بشكل آخر، لقد أصبح الناس أكثر طيبة. . .» إن المراهق الذي يجد في سنوات فتوته عمله المحبوب يكون قد خطا خطوة كبيرة على طريق النضج الأخلاقي.

(العمل والجمال)

إنحصر إهتمامي بجعل العمل وسيلة وأساساً لتحسين مشاعر تلاميذي المراهقين الذين أُربيهم، ولكشف جمال الإنسان والعالم المحيط بهم. فالمصدر الأول للمشاعر الجمالية في العمل هو إبداع الجمال. والجمال الإنساني منتشر في كل مكان. ولا بُدّ أن تحين تلك اللحظة الإحتفالية الهامة في حياة كل مراهق، عندما ينتقل من قسم البحث العلمي في المدرسة، ومن الحديقة المثمرة، ومن البيت البلاستيكي إلى مجال العمل الواسع. هذه الخطوة يحسها المراهق كدخول إلى عالم الكبار، وكإنضمام إلى القضايا العامة ويتم الإحتفال بهذا الحدث، كأنه عيد، عيد العبور الأول في الحياة.

كان إنتقال تلاميذي إلى الصف السادس مترافقاً ولأول مرة بطقوس إحتفالية، وأصبح الفتيان والفتيات يعملون في قطعة من الأرض تابعة لمعسكرهم الطليعي، ومنذ ذلك الحين بدأ العمل الطويل والدؤوب في تلك القطعة من الأرض. كان المراهقون يزرعون القمح كل سنة، ويحاولون قدر المستطاع تسميد الأرض وريّها، وتحضير البذور بشكل جيد. لقد كان بعث الخصوبة ثانية إلى تلك الأرض عيداً لا ينسى.

واحتفل المراهقون بهذا العيد عن كل سني فتوتهم. وتركت مشاعر الفرح التي عاشوها في هذا اليوم أثراً لا يُمحى في قلوبهم. إذ كان ذلك نتيجة عمل دؤوب استمر عدة سنوات.

في ذلك اليوم الإحتفالي، عندما تم زرع القمح في الأرض، التي كانت لعدة سنوات خلت أرضاً خالية ميتة، وأصبحت الآن حقلاً مثمراً، قدّم عمال القرية التهاني بالنصر للمراهقين.

إن أعياد الغمر الأول والعنب والحصاد تؤكد الإحساس بجمال العمل.

اشتغل الفتيان والفتيات بالحصاد لمدة أسبوعين. كانت تلك أياماً سعيدة بالنسبة لهم، استهلّوها بالإحتفال بعيد الحصاد التقليدي، المتمثل بحصاد عشرات الأمتار المربعة من الأرض المغطاة بالعنب، تلتها أيام العمل الحقيقية في حصد الدريس باليد وبالحصادة الآلية وجمعه وتكديسه.

كانوا يقضون لياليهم في الحقل يحضرون الطعام بأنفسهم، ويطالعون الكتب مساء، ويستمعون إلى قصص وحكايات الناس الأكبر منهم سناً.

العمل وتربية الإرادة

إحساس البجهة بالعمل هو إحساس فريد وخاصّ، من الممكن مقارنته، ربما، مع الشعور، الذي يعانيه الشخص الذي يصعد إلى قمة جبل مرتفع. فالطريق هنا وعر وشاق. كل خطوة تحتاج إلى جهود هائلة لبلوغ الهدف النبيل الذي وضعه الإنسان أمامه، ألا وهو بلوغ القمة. إن ارتقاء الإنسان قمة الجبل يعني أنه يرفع من قدر نفسه، ويؤكد كرامته الذاتية. ويشعر بنفسه قوياً وشجاعاً، وقادراً على تخطي الصعوبات الجديدة. على كل مراهق في سني الفتوة أن يصعد إلى هذه القمة، فأنا أرى في ذلك مهمة

تربوية هامة جداً. ومن شأن العمل أن يكون أداة متميزة لتصليب أو تعزيز الإرادة.

تعبر هذه القاعدة التربوية عن وحدة الجسدي والروحي، حيث يتطلب العمل حشداً عظيماً للقوى الجسدية والروحية.

ذهب المراهقون إلى الحقل لإحضار العلف للحيوانات، رغم البرد القارس، لأن عقيدة حب العمل قد ترسخت عندهم جيداً، وستساعدهم على تخطّي الصعوبات المحتملة التي ستواجههم. فالعمل ضروري للإستمرار في الحياة.

وهكذا تمّ شحن العلف الى المزرعة. وتعب المراهقون كثيراً، إلا أنهم كانوا فرحين يغمرهم الإحساس بالفخر. ولا يمكننا أن نعيش هذا الشعور بالفخر والكرامة إلاّ عن طريق العمل فقط.

ولا يمكننا بلوغه في أية ظروف أخرى أثناء الحياة المدرسية. إن من عاش هذا الشعور، يكون قد توصل إلى معرفة الحكمة الحياتية القائلة بأن سعادة الحياة تغتسل بالعمل ولا بد من بلوغها. هذه الفكرة ستصبح قناعة شخصية لكل مراهق.

صيرورة الطفل مواطناً لا يمكن حصرها فقط بالتربية على حب العمل. فأيّ عمل إبتداء من أبسط أشكاله وحتى أكثرها تعقيداً، الإنتاجية منها على سبيل المثال، يرتبط دائماً بمجموعة لا نهائية من العلاقات البشرية والروابط العائلية، وبما يرافقها من أجواء سيكولوجية.

فالمواطنية في هذه الأجواء هي كالأوكسجين الذي نتنفسه، نحيا بوجوده، ونختنق عند قلته.

والدناءة وضيق الأفق والفظاظة والجفاء هي كغاز / أول اكسيد الكربون/ ، فما العمل للحيلولة بينها وبين تسميم المناخ العائلي؟

رئيس تحرير مجلة / تربية التلميذ/ المرشح في العلوم التربوية / ل. ف كوزنيتسوف/ يعتبر أن المكان الأول في أسس التربية العائلية يجب أن يشغله الإنتباه إلى العالم الداخلي للطفل. من دون ذلك لا تستطيع الأسرة أن تحل قضاياها. وتظهر في المقالة أسئلة متنوعة عن العلاقات الأسرية. ولهذا التنوع منطقة الذي يقود في نهاية المطاف إلى شيء وحيد رئيسي هو تربية الواجب والمسؤولية.

* * *

ل. ف. كوزنيتسوف
العناية بالطفل وبعالمه الداخلي وبمصالحه وواجباته

(فصل من كتاب جذور المواطنية)

عند / أ. س. مكارينكو/ بعض الكلمات التي يمكنها أن تكوّن قاعدة من نوع خاص لكل عائلة: «تنحصر منظومتنا التربوية كلها، في تحقيق شعار العناية بالإنسان، ليس العناية بمصالحه وحاجاته فحسب، بل العناية بواجباته أيضاً». إن الشعور بالواجب أمام الوطن له أساسه في التجليات الأولى للواجب أمام الأهل. وتتسع بالتدريج التواصلات الإجتماعية للأطفال وتكتسب عملية تربية الشعور بالواجب عمقاً أكثر فأكثر.

بيد أن مفاهيم «ممنوع»، «يجب» هي التصورات الأولى للطفل عن واجباته، التي تدخل نطاق حياته على شكل مفاهيم بسيطة يمكنه استيعابها. ويسعى الطفل لأن يسلك سلوكاً يرضى عنه الكبار. إن مديح الأهل للطفل قبل سن المدرسة، له أهمية كبيرة، إذ يُدفع الطفل للقيام بأعمال لا يريد القيام بها أصلاً. المديح أو الإستحسان هو منظم لسلوك الطفل وحافزٌ لتطوره الأخلاقي. وإعتماداً على ذلك يبدأ الطفل بالتمييز بين الفعل الذي يلقى إستحسان أهله وبين الفعل الذي يثير غضبهم، بين ما هو مسموح به وبين ما هو ممنوع.

أما إذا سمحنا اليوم للطفل بكل شيء، ومنعنا ذلك عنه في الغد، فلا يتشكل لديه أي وضوح في تصوراته عن المسموح به أو الممنوع.

يفترض حنان الأهل الصراحة فيما يتعلق بتنفيذ الأطفال لواجباتهم. ثقوا بأطفالكم واعتنوا بهم، وحاولوا وسعكم مشاركتهم إهتماماتهم وتحقيقها. ولكن كونوا دائماً حازمين بخصوص قيامهم بواجباتهم، آخذين بالحسبان رغبات ومتطلبات الناس الأخرين.

لا يكفي محاسبة الطفل على فعل أحمق قام به، بل يجب علينا أن نبين له، كيف يجب عليه أن يتصرّف في مثل هذه الحالة، عندما نقول له: «لا تفعل ذلك أبداً» يجب أن نضيف: «وإنما يجب أن تفعل هكذا. . . .» ونريه عيانياً كيف يجب عليه أن يتصرف بالتحديد. من يستطيع أن يعلم أولاده أصول السلوك سوى الأسرة؟ لدى الأسرة إمكانات أكبر بكثير من إمكانات المدرسة في التأثير على سلوك الطفل، لأنها تلاحظ أقل خلل في سلوك الولد أو البنت وتستطيع أن تدخل تعديلاً في سلوك كلّ منهما في بدية الإنحراف.

هل توجد أُسرة لا تحب أطفالها؟ كلٌ يحب طفله. وبالرغم من ذلك فالأطفال مختلفون، فمنهم الطيب، ومنهم من يغلب عليه العناد. لماذا يحصل ذلك؟ تكمن القضية كلها في كيفية حبنا لأطفالنا. فالقضية معقدة إلى حد ما. وليس من قبيل الصدفة أن بذل علم التربية الكثير من الجهود في سبيل هذه القضية ولسنوات طويلة. ويقول / س. مارشال/ : (ليكن العقل عندكم طيباً، وليكن قلبكم ذكياً). ولكن أن تجعل قلبك ذكياً تجاه طفلك المحبوب ـ فذلك هو الأكثر صعوبة. تلاعب الأم طفلها قليلاً، وبعد ذلك تقول له بهدوء وثبات: (أما الآن فالعب وحدك، لديّ بعض الأعمال) أو (أنا تعبت) أو (لديّ الرغبة في قراءة كتاب). يعبر الطفل عن عدم رضاه بالبكاء ويطلب من أمه أن تلاعبه ولكنها مشغولة الآن بعملها ويبقى عليه أن يجد لنفسه تسلية ما. ويبدأ الطفل بالفهم تدريجياً بأن له الحق في اللعب مع أمه عندما لا يكون لديها أي عمل، وعندما تريد هي ذلك، ولكن عندما

تكون الأم مشغولة لا ينبغي أن نطلب منها العناية والإنتباه، يجب أن تتشكل عنده القدرة على التسلية الذاتية وعلى أخذ رغبات أمه والناس الآخرين بالحسبان. ينصح المربي / ي. سبتا لونسين/ الأم الشابة بأن لا تسرع إلى طفلها بمجرد بكائه، لكي لا يتشكل عنده إنطباع وكأن جميع من حوله خدم له بحق. ولا أن تُبطىء كثيراً، لكي لا يشعر بأنه وحيد، ومهمل من قبل الجميع. فالطفل الذي يراقب أمه وهي تعد له الطعام وينتظرها حتى تنتهي من ذلك ـ تنشأ عنده تدريجياً القدرة على الصبر. وتتشكل سمة الطاعة عند الطفل، إذا امتنعت الأم عن تلبية رغباته الفوضوية، غير آبهة لصراخه وإعتراضاته الحادة. يبدأ الطفل تدريجياً بفهم دوره تجاه من يحيط به من الناس، ودورهم تجاهه، فلا هم وُجدوا لأجله، ولا هو وُجد لأجل نفسه فقط.

هكذا تبدأ ولادة الشعور أو الإحساس بالواجب والعدالة. ويتعلم الطفل التحكم برغباته ونزواته. هنا يكمن مبدأ تربية الارادة.

الملاطفة من دون تطفل، والصرامة من دون تعنت تافه ـ هذا ما يلزم الطفل. إنّ إظهار الحب نحو الطفل وإنتظار المشاركة والإستجابة منه ـ شيئان متلازمان لا يوجد أحدهما من دون الآخر.

من السهل جداً تشكّل التعنت أو الإصرار الجامح عند الطفل. إذ من نتائجه أن يشعر الطفل ليلاً ونهاراً بمطلب لا يقاوم في إطعامه وإعطائه الحلوى، وفي اللعب معه وملاطفته. عندها، على الأرجح، سيعتاد بسرعة على إعطاء الأوامر للمحيطين به والإستبداد بهم. وسيعبرّ بشكل عاصف، إذا لم يهتم الأهل به، ولم ينفذوا كل رغباته. من الضروري تعليم الطفل التعبير عن رغباته بصيغة طلب مهذبة وليس بصيغة فرض، وتعليمه بأن يكف عن الغضب في حال عدم تلبية طلبه، لا شيء يمكن بلوغه بالصراخ والدموع، وأن نعلمه الإهتمام بنفسه أيضاً.

من المؤلم أن نرى أحياناً، كيف أن الطفل المدلّل يتقبل كل شيء كواجب تجاهه من دون أي شكر أو أي تعبير عن الفرح والسرور. إليكم بعض الأمثلة على ذلك.

ـ دخلت إحدى الأمهات إلى مركز البريد، حاملة على ذراعيها طفلة عمرها حوالي أربع سنوات. وعندما وضعتها على الأرض انفجرت بصراخ حاد، اضطرت معها الأم إلى حملها ثانية على ذراعيها. وهكذا دواليك، ما أن تضعها حتى تبدأ بالصراخ. عندها صاحت الأم «لقد تعبت، لقد حملتك على ذراعي طوال الطريق، ففي خمس دقائق على الأقل» ولكن الطفلة لم تسكت. يتخذ التعنت والإصرار عند بعض الأطفال شكل الحساسية المفرطة، التي يختفي وراءها سعي الطفل إلى تحويل أهله إلى خدم له.

ـ طفلة عمرها ثلاث سنوات تنادي أمها بالحاح: «ماما، تعالي إلى هنا، تعالي بسرعة»! تجيبها الأم من المطبخ»: إنتظري دقيقة». ولكن الإبنة تصر من دون توقف «تعالي إلى هنا، تعالي، تعالي». تبين أن الطفلة تريد أن تسأل، إن كانت قد فهمت شروط المسألة بشكل صحيح. لقد كان باستطاعتها أن تذهب بنفسها إلى أمها مصطحبة معها الكتاب.

ـ «ماما، حلّي لي ضفيرتي»، «ولكنك تستطيعين ذلك بنفسك»! حلّي ضفيرتي، حلّي ضفيرتي»!

ـ «جدتي مرجحيني!» يتناهى صراخ من فناء البيت، ويتكرر هذا الصراخ أقوى فأقوى، حتى تأتي الجدة. من السيء أن تترسخ عند الطفل قناعة بأن أهله خدم له فحسب.

ـ طفل مرح في السادسة من العمر، كان يركض بخفة ونشاط في الباص، وبلمح البصر وجد نفسه أمام امرأة جالسة بالقرب من النافذة، تحمل سلة منزلية على ركبتها، نظر إليها بالحاح وارتباك قائلاً: لماذا تجلسين هنا، ألا ترين أنه يجب عليك أن تخلي لي المكان، فهذا مكاني المفضل.

تنازل له أحد الركاب عن مكانه فجلس وأخذ ينظر بطرف عينه إلى تلك المرأة، التي تحمل السلة، والتي لم تقف عند ظهوره. لقد تعود الصغير على تنازل الكبار عن أماكنهم له، ولكن أمّه لم تقدر أو لم ترد أن توضح له بأن عمره الآن لا يسمح له بطلب ذلك.

ـ هناك إبنة كانت تضع لأمها الشرط التالي: «حسنٌ، سوف أذهب إلى روضـة الأطفال ولكن على شرط أن تكوني عند الباب في اللحظة التي أفتح فيها عيني بعد القيلولة». لقد رق قلب الأم لأنها تحب ابنتها، وكانت تأتي من العمل بأسرع ما يمكن، لكي تكون في الوقت المناسب عند الباب كما قالت ابنتها. إن الأم والإبنة راضيتان الآن. ولكن إذا كانت الأم راضية ومرتاحة الآن فإنها لن تكون كذلك مستقبلاً، فالبنت ستعتاد على وضع الشروط وإعطاء الأوامر واخضاع أمها لرغباتها. ولن يقتصر الأمر على هذا الحادث الصغير بل سيتعداه إلى مواقف أخرى، لأنها ستشعر بنفسها سيدة الموقف في كل شيء، وستتصرف بوقت أهلها وجهدهم كما يحلو لها.

ـ توحي الأم لإبنها أو إبنتها «أنت بهجة حياتي، أنت سعادتي، أنا أعيش فقط من أجلك»، ويقتنع الطفل السريع التصديق بذلك: هذا يعني أن الأمر هكذا يجب أن يكون. يُعتبر مبدأ العدالة من أهم مبادىء تربية الكائن الصغير، فإذا ما تم الإخلال به فإن العلاقات المتبادلة بين الناس تبدو للطفل في شكل مشوه ومقلوب. ويبدو شيئاً فشيئاً بأنه يشكل العنصر الأساسي في العائلة، حيث يعتقد بأن وجوده كاف لجلب الإرتياح والغبطة لوالديه. قال / ب. آ. سوخوملينسكي/ بأنه يمكننا أن نحكم على سلامة تربية الطفل كمواطن أو عدمها من خلال لفظة كلمة (ماما). بحنان فرح أو بإصرار وجموح. تصل القناعة العميقة لبعض الأطفال في فرادة حقوقهم إلى حد مذهل. إذ يعتاد البعض منهم منذ سني طفولتهم الأولى ـ كما يقال على «شفط الحقوق». إنك تجد أحياناً في مؤسسة البريد رسائل يوجه فيها

الأطفال بكل وقاحة التهم إلى أهلهم، بأنهم لا يبتاعون لهم شيئاً من الثياب الجديدة، التي تتماشى مع الموضة، وعموماً «لا يشترون لي ما أريد».

إليكم إحدى الرسائل التي كتبتها (تانيا) من الصف الثالث أمس. «مرحبا بهيئة التحرير»: عندما ذهبنا إلى السوبر ماركت أنا وأمي، ركضنا أنا وأختي إلى قسم الألعاب، واستعرضنا الكثير منها، ولكن عندما نادينا أمنا لنشاهد الألعاب وتنتقي لنا إحداها أجابت قائلة: ثمنها مرتفع، ويوجد عندكم الكثير من الألعاب في البيت. ولكننا لا نريد أن نلعب دائماً بتلك الألعاب نفسها، نريد اللعب بألعاب أخرى». نفهم مما كتبته تانيا بأن لديها الكثير من الألعاب، هذا يعني أن الأم لا تعارض إطلاقاً وبشكل دائم إبنتها في مشترياتها، وحدث أن رفضت الأم شراء الألعاب لهما هذه المرة، أو في مرات أخرى، فأسرعتا إلى كتابة رسالة غاضبة إلى هيئة التحرير توضحان فيها حقهما في الحصول على كل ما تطلبانه، وهما ممتعضتتان الآن لأن الأهل خذلوهما.

إليكم رسالة أخرى من إبنة أكبر قليلاً. «مرحبا بهيئة التحرير» إسمي فيرا، أدرس في الصف السادس. أمي لا تتبع معي الأصول الصحيحة للتربية. يُسمح لأخي بالتنزه حتى الساعة العاشرة والنصف مساءً، أما أنا فأتعرض للتأنيب إذا أتيت إلى البيت في الساعة العاشرة. ولا يسمح لي بالتنزه ثانية، ولا يشترون لي ما أريده. إني أبكي من هذه الطريقة في التربية».

من أين للأطفال هذا الإصرار تجاه الأهل، وهذا السعي الحثيث للحصول على حقوقهم الإستثنائية؟ إن الجواب على هذا السؤال يمكن أن نجده في رسالة «ل. د. سوبوتينا»: «تجلب أمي إلى البيت أحياناً بعض الحلويات اللذيذة، بيد أنها تحذرنا قائلة: «هذا الشيء لـ (سيريوجا) إيّاكم أن تلمسوه». إن الطفل من وجهة نظرنا، ليس غبياً، إنه يتشرب ذلك بشكل رائع، ويعتاد على ذلك، ويبدأ بالبكاء والصراخ إذا ما سمح أحد الكبار

لنفسه أن يمد يده إلى ذلك الشيء اللذيذ، ومن الصعوبة إقناع الطفل بأن عليه أن يقاسم الآخرين.

كان من الممكن أن تجري الأمور بشكل مختلف تماماً. أن تُقْدِمَ الأم، وبحضور الجميع بقسمة هذا الشيء اللذيذ بالتساوي وتوزعه عليهم، بحيث يشعر الجميع بالرضى. عند عدم توفر الخبرة الكافية لدى الأهل في قضايا التربية، فإن الطفل الوحيد في الأسرة سيصبح مركز إهتمام الجميع، ليس عنده أية التزامات، ويكتسب فرادته وخصوصيته من وحي الأهل.

لقد كتبت مارينا من الصف الثامن موضوعاً هذا نصه: «عندما يكون في العائلة طفل وحيد، فإنه يصبح مركز اهتمام الأهل ومغزى وجودهم». تذكّرنا هذه الأسرة بالمجموعة الشمسية إذ يمثل الطفل الشمس، بينما بقية أعضاء الأسرة يمثلون الكواكب الدائرة حول الشمس. إعتادت بعض الأسر إعتبار طفلها فريداً وعبقرياً. إنهم يعاملونه على أنه شخص غير عادي: «أنت أفضل من الآخرين، لا تساو نفسك بالآخرين». يقول المعلمون بأن الجدات غالباً ما يرافقن تلاميذ من الصف الخامس، يحملن لهم حقائبهم، ويرتبّن لهم لباسهم المدرسي ويَقُدْنَهُمْ إلى الصف، أما في البيت فيرتبن لهم دفاترهم، وكتبهم في الحقيبة.

يعتاد الطفل في مثل هذه العائلة، على الطلب فقط: يطلب الرعاية والحنان والخيرات المادية. لا تتكون لديه الخبرة الشخصية بأن يعتني بالمقابل بأقاربه، ولا يتبلور عنده الشعور بالواجب الأخلاقي تجاه أسرته، التي يترعرع فيها، ويمكن أن يستحيل هذا في وقت متأخر إلى نقص في الشعور بالواجب كمواطن.

الأسرة عموماً كريمة تجاه طفلها، وغالباً ما يتقبل الطفل ذلك كواجب من الأهل، ويعتبر في بعض الأحيان أن ذلك حق له - إذ يدّعي لنفسه كل ما تملكه الأسرة من فضائل وأشياء حسنة.

ومن هنا تنبع ظاهرة يمكن أن نسميها بالنمو المفرط للحق في وعي التلميذ. فهو يعلن عن طيب خاطر عن حقوقه، ويشعر بالوقت نفسه بانعتاقه من الواجبات. لا تقع على عاتق مراهقي اليوم الهموم المادية التي تخصهم وتخص أسرتهم، وغالبا ما يتم إعفاؤهم وإبعادهم عن الواجبات المنزلية، كالإعتناء بالأطفال الصغار في البيت، على سبيل المثال، وترتيب البيت والملابس الخ... لا تتشكل لدى أطفال هذه الأسر الطيبة الرعاية والإحساس بالمسؤولية والإستقلالية - تلك السمات الضرورية للمواطن.

تزداد صعوبات التربية بشكل مضاعف مع تحسن ظروف الحياة. حيث تزداد المصاريف أولاً، ويصبح من الممكن الإستغناء عن عمل الأطفال في المنزل ثانياً.

ولكن ماذا يعني القيام بالواجبات تجاه العائلة؟ إنها حسب كلمات /أ. س. مكارينكو/، خبرة الاهتمام والعناية بالناس الآخرين، فهي ليست عملاً فقط، ولكنها عمل ورعاية. إذ أن غياب الواجبات تجاه أعضاء الأسرة الآخرين يعني غياب الإهتمام بهم.

يقول أحد التلاميذ لأمه: كل ما هو موجود هنا لنا جميعاً، فلماذا لا أستطيع أخذ ما أريد من دون طلب السماح؟ «أنا أريد، وأعلن صراحة عما أريد»، «أريد أن أسمع الموسيقى ولذلك أفتح المذياع».

في كل جملة من هذه الجمل إعلان عن حقوقه... وفي كل منها أيضاً الرغبة والخبرة في التوفيق بين رغباته ومتطلباته وبين رغبات ومتطلبات الناس الآخرين القريبين منه. هناك خطر جدّي على الإنسان اليافع من تركيز جلّ اهتمامه على ذاته، وعلى إرضاء رغباته ونزواته. إذا لم يأخذ الطفل موقعه كأحد أفراد الأسرة، ويحمل على عاتقه جزءاً من المسؤولية تجاه أسرته، فإنه يتحول إلى كائن يتطلب الرعاية الأبوية الكريمة يوماً بعد يوم. ولا يرى الطفل سوى رغباته فقط، ولا يكترث برغبات الناس الآخرين، وهذا يشكل خطراً على المجتمع والطفل في آن واحد. إذ يترك بصماته

السلبية على مصير الطفل لاحقاً. ينتظر الطفل من الناس المحيطين به الخضوع لفرديته المتميزة. مثل هذه المعاملة، يلقاها ضمن أسرته فقط. إذ أن المدرسة تعامله كبقية التلاميذ الآخرين من دون تمييز، وهذا ما يبعث فيه القلق والإستياء ويتوهم بأنه منبوذ، وبأن جميع من حوله غير لطيفين ولا مبالين. هكذا يتشكل الإنسان المعزول عن الناس الآخرين، وغير المقتنع. إذا لم يكن لدى الطفل في الأسرة أية واجبات فإنه لا يعرف أبداً قيمة العمل الأمومي (قيمة الأم في البيت). ومن العبث أن ننتظر منه حتى أبسط الأشياء، كالاعتراف بالجميل تجاه الأم على إهتمامها الدائم به. تعتبر إحدى التلميذات أن عملها هو الدراسة، أما الكيّ والخياطة فمن إختصاص أمها. تصوراتها عن حقوقها مشوهة. هنا يكمن جنين علاقة الإزدراء أو الإستخفاف بالعمل ذي الطابع غير الذهني، وبالإنسان الذي يقوم بذلك العمل. هذه العلاقة ستتحول لاحقاً، و وستكون في أساس العلاقة مع الناس الآخرين ومع المجتمع. الأم تمسح الأرض، والإبن الكبير جالس على الكرسي مع كتابه من دون أن يحرك ساكناً، لأنه عندما عرض على أمه المساعدة إحدى المرات قالت له: «لا عليك، أنا أقوم بالعمل بنفسي!». تعبّر السيكولوجيا الإستغلالية عن نفسها بشكل واضح في روح الإستهلاك والعالة والسعي للعيش على حساب الآخرين. هل من المعقول أننا نربيّ في أسرتنا أطفالاً إستغلاليين. بالطبع لا. بيد أنّنا سنصل إلى هذه النتيجة إذا لم ندرك عواقب بعض أفعالنا وسلوكنا تجاه أطفالنا. يكمن أحد أهم أسرار التربية في استثارة بعض رغبات الطفل والقيام على تطويرها من دون أن نقوم باستثارة الرغبات الأخرى إطلاقاً، أمّا في حال ظهورها فنعلّم الطفل على التحكم بها والتخلص منها.

توجّه / ف. آ. سوخوملينسكي/ إلى التلاميذ الخاضعين للتجربة قائلاً: «إذا أردت أن تعمل ما تريد فقط، وإذا كانت فعاليتك أو نشاطك لا يستثار إلاّ بهاجس اللذة، فإن حياتك ستكون فارغة من أي شيء ثمين أو

مقدّس، ولن تفهم روحك معنى الحب والاخلاص، وستكون رغباتك منحطّة ومشوهة، فالحياة من دون رغبات بشرية نبيلة، فارغة وكئيبة، الواجب هو مدرسة الرغبات السامية عند الإنسان».

يتحمل الأهل عن طيب خاطر إنتقاص حقوقهم، ولكن الطفل يكبر وتكبر طلباته أيضاً إلى درجة يعجز الأهل عن تلبيتها حتى بالتقتير على أنفسهم. أما الأبناء فيتعتبرون ذلك قساوة، وإخلالاً بالعدالة من قبل الكبار تجاههم.

غالباً ما يستعمل /أ. س. مكارينكو/ مصطلح (استهلاك لا مبرر له). إنه يعني ذلك الاستهلاك الخارج عن نطاق الأشياء الضرورية اللازمة لحياة الطفل العادية ولتطوره العادي: كإستهلاك مواد البزخ والأبهة والملذات غالية الثمن على حساب الأهل. تقول العامة بهذا الصدد: طفل كهذا / لا يعرف قيمة النقود/ لا يعرف الجهد المبذول للحصول عليها.

كل شيء يبدأ من الأم التي تحركها غريزة الأمومة وحبّ طفلها، حيث تسأل دائماً طفلها المحبوب: «ماذا تريد؟ أتريد هذا أم ذاك»؟ هذه الأسئلة والاستعداد لتلبية أية نزوة يمكن أن توقظ لدى الطفل الكثير من الحاجات، حتى تلك التي لم تصنعها الطبيعة في الكائن البشري. يبدأ الخيال بتصوير الكثير من المواضيع المرغوبة للطفل المدلّل. إنه لا يقدّر قيمة ما يوجد عنده، ويبدأ بحسد أترابه على إقتنائهم أشياء لا وجود لها عنده. هذا الحسد قادر على تسميم الروح نهائياً، وزعزعة الأسس الأخلاقيّة. من غير الممكن إقتناء كل شيء بمجرد الرغبة في ذلك ـ ينسى بعض الأهل توضيح هذه الحقيقة البسيطة لأولادهم.

كتب /آ. س. مكارينكو/ : يجب على الطفل أن يفهم جيداً، في سن مبكرة إنْ أمكن، بأن تلك النقود التي يجلبها الأهل إلى البيت لا تشكل فقط شيئاً مريحاً يمكن إنفاقه، ولكنها أيضاً أجرٌ مقابل عملٍ إجتماعي كبير

ومفيد. على الإنسان منذ سنواته الأولى أن يعرف قيمة الجهد المبذول لإنتاج الخيرات المادية. لا يوجد فرح يقارن بفرح قلب الأم عندما ترى إبتسامة إبنها وابتهاجه بالهدية التي تمّ شراؤها له. في سبيل هذه الفرحة نحن مستعدون أن نحرم أنفسنا من الشيء الكثير. يستقبل الطفل أمه بالسؤال: وماذا جلبت؟ فإذا لم تشتري له شيئاً، يخرج مستاءاً ومتعضاً. تمضي السنون وتكبر الإبنة، فهي الآن ليست بحاجة إلى الألعاب ولكنها تستاء كثيراً وتخاصم أمها لأن صديقتها اشترت زوج أحذية جديد، أمّا هي فمضطرة أن تنتعل أحذية قديمة لتواكب الموضة.

لقد ذكر /آ. س. مكارينكو/ مراراً، بأن على الأهل، من جانبهم، ألا يقدموا أية تضحية. إذا كان الأهل يتمتعون بحياتهم وينعمون بالغبطة والسرور، يرتادون المسرح، ويقومون بالزيارات، ويخيطون لأنفسهم ثياباً جديدة، فإن ذلك بحد ذاته يشكل تربية جيدة لأطفالهم. على الأهل أن يعيشوا على مرأى من أطفالهم حياة ملؤها السعادة والسرور. أما الأهل الذين يرتدون الثياب الرثة، والأحذية البالية، ويقتّرون على أنفسهم، ولا يذهبون إلى المسرح، وتضحياتهم في سبيل أطفالهم قميئة ومضجره، فَهُم من أكثر المربين سوءاً. لقد رأيت في حياتي أسراً كثيرة تعيش في بهجة وسرور، إذ يعيش الأب والأم حياة سعيدة مرحة وخالية من الفسق والفجور، والإدمان على الخمر. هنا نجد الأطفال الجيدين تحديداً. لقد استنتج /آ. س. مكارينكو/ بأن الأم، التي تتحول إلى خادمة، تفقد روعة وبهاء حياتها الشخصية العامرة، وتصبح نتيجة ذلك أمّاً فاقدة القيمة. والأم التي تحصر واجباتها في خدمة أطفالها فقط، تصبح عبدة لأطفالها وليست أمّاً مربية.

يجب على الأهل أن يطلبوا من أطفالهم القيام بواجباتهم وأن يضعوا حداً لتطاولاتهم على حقوق غيرهم. لا يملك الإنسان الحق بأن يحمل على عاتقه مسؤوليات الآخرين أو أن يتعوّد الإختباء وراء ظهر الآخرين.

يسعى الكثير من الأهل إلى عدم تكليف أولادهم أية مشقات أو متاعب، إنه يدرس ويزور أصدقاءه، ويتسلى في ما تبقى عنده من الوقت. وإذا توانى التلميذ في دراسته، فإنه يدرس قليلاً ويتسلى كثيراً. ليس سراً على أحد، أن الكثير من التلاميذ لا يتعاملون بإخلاص وضمير مع الدراسة التي هي عملهم الرئيسي وكأنه ليس واجباً عليهم، بالإضافة إلى أنه لا يتم تكليفهم بأي عمل في البيت.

تصوروا أن يترعرع الإنسان من غير أن يقوم بأية واجبات. فمن أين سيحصل في هذه الحالة على الخبرة الشخصية في التعامل الجدي مع مختلف المسائل في المستقبل؟ أمضى الطفل نهاره في اللعب مع رفاقه في الفناء إلى وقت متأخر. فأشفقت عليه الأم وقالت له: «لقد حان وقت نومك، ولم تحضّر دروسك بعد، ما العمل؟ لا عليك إستلق على فراشك وأنا سأكتب للمعلمة بأن حالتك الصحية كانت سيئة هذا اليوم». . أو تقول الأم إذا وجد إبنها صعوبة في حل إحدى مسائل الرياضيات، «إتصل بزميلك في الصف واسأله عن كيفية حلّ هذه المسألة». وفي المرة القادمة ومن غير أن يتعب نفسه أبداً في حل المسألة سيأخذ سماعة الهاتف ويهتف لزميله. وغالباً ما يقوم الأهل بحلّ وظائف إبنهم أو إبنتهم، ويكتبون بالنيابة عنهم مواضيع الإنشاء. (يبقى على التلميذ أن ينقلها فقط إلى دفتر نظيف)، كما ويرسمون عنهم أيضاً.

لا يسمح الأهل الحكماء أو الفطنون لأنفسهم أو لغيرهم بأن يكتبوا وظائف أولادهم أو أن يقوموا بالواجب عنهم، إنهم يدربونهم على أن ينفذوا ما كلفوا به بإخلاص ومسؤولية. إن مفاهيم الواجب والالتزام، والمسؤولية إذا ما تمّ التأكيد عليها منذ الصغر تصبح في صميم حياة الإنسان وتجلياً طبيعياً لسلوكه. فالواجبات غير الصعبة التي تتطلب تدخل الآخرين يجب أن يقوم بها بنفسه، لأن المجتمع سيطلب منه مستقبلاً القيام بواجبه

كمواطن، حيث لا الأم ولا الأب ولا الجد أو الجدّة يستطيعون القيام بهذا الواجب عوضاً عنه.

يشكل تنظيم حياة الأطفال المهمة اليومية الرئيسية للأهل. فالحياة المنظمة والمحددة بشكل دقيق، التي تميز بشكل واضح بين ما هو مسموح وما هو ممنوع، هي الحياة التي يسود فيها النظام والانضباط.

كتب «يا. كورتشاك»: «في الحياة التي يتسم فيها الوضع بالفوضى والتفكك فإن القليل جداً من الأطفال المتميزين يمكنهم التطور والتقدم بشكل طبيعي».

لكي نربي أناساً انضباطيين علينا التوصل إلى أن يتعوّد الفتى أو الفتاة على الجد الدائم، وأن لا يكتسبوا خبرة الحياة الفوضوية الخالية من المسؤولية.

تشير الإحصائيات إلى أن أغلب الجنح ترتكبها مجموعات من المراهقين الهائمين في الشوارع، التي تتسم حياتهم بعدم الانضباط والتنظيم. هناك ٧٠٪ من الجنح ترتكب مساء في الليل. هذا يعني أن الأهل إذا راقبوا عودة أولادهم المراهقين إلى البيت فإن هذا بحدّ ذاته قادر على أن يحدّ جوهرياً من عدد الجنح المرتكبة. فالمراهقون المجتمعون لا يفكرون إطلاقاً بالقيام بأي فعل غير قانوني، إذ أن نية الإجرام تظهر عندهم فجأة. من الممكن أن يثيرهم، على سبيل المثال، أحد الأشياء من طريقة وضعه، أو غياب صاحبه عنه، أو أن يخطر على بالهم تفتيش جيوب إنسان سكران. إن معظم مرتكبي الجنح من الفاشلين دراسياً وممن يخرقون النظام والانضباط ولا يُعهد إليهم بشيء.

إنهم لا يحبون الموسيقى ولا يمارسون الرياضة، يدخنون ويعاقرون الخمرة، ويلعبون الورق. فهم يرثون هذا التشوه في الإهتمامات والمتطلبات من أسرهم. إن ما يشكل عند المراهق الإستعداد لارتكاب الجنح هو فقدان الإهتمام بالتعليم، والتسكع الذي لا هدف له، والعزلة الداخلية.

قَدَّمَ أحد الأفلام الوثائقية السؤال التالي إلى أهالي بعض الأحداث الذين ارتكبوا جنحاً: «هل حاولتم البحث مع أطفالكم في المسائل الأخلاقية والتفكير عميقاً بالعالم المحيط، بالخير أو بالشر»؟ قالت الأم: أنا لا أعرف كيف أجيب عن هذا السؤال. من الممكن أن يكون التقصير في انشغالي بالعمل، ومن الممكن أن لا أكون قد أوليته الإهتمام الكافي. لقد كنت أتخاصم معه دائماً، وكنت أقدم له الوعظ والنصيحة على صعيد سلوكه في المدرسة وفي الشارع، وأحذره دائماً من مغبة إرتكاب حماقة ما.

قال الأب: حاولت الحديث معه، ولكننا لم نجد أية لغة للتفاهم، أو أية مصالح مشتركة. حاولت تعليمه اللغة الأجنبية. واشتغلت معه بالجبر والفيزياء ولكنه لم يفلح في إستيعاب تلك العلوم. كنت أتوقع حصول بعض التقدم. لكن الشيء الرئيسي وهو القرب الروحي من الأولاد كان مفقوداً، فالطفل يبدو معزولاً في عائلته. يجب أن نعير الطفل إهتماماً خاصاً بحلول المرحلة الإنتقالية من العمر لكي يكون لديه إحتكاكات سيكولوجية متينة مع الأهل والأصدقاء، ولكي تسير أمور دراسته على خير ما يرام، ولكي يشارك أكثر في العمل الإجتماعي.

تُظهر الاستطلاعات بأن نسبة الآباء والأمهات الذين يقضون أوقات فراغهم مع أولادهم تصل من / ٢٨٪ إلى ٥٠٪/ . ليست القضية في عدم كفاية وقت الفراغ، وإنما في كيفية تنظيمه. يفضل حوالي / ٧٥٪/ من الأهل قضاء وقتهم الضائع في التثقيف الذاتي ورؤية برامج التلفاز، أو التواصل مع العائلات الأخرى. ولكن كلاً من المراهقين والأهل تجمعهم إهتمامات أكثر جاذبية وفتنة. وخاصة عندما يكون الأولاد في سن صغيرة، أي قبل أن يذهبوا إلى المدرسة: كالرياضة والسباحة والسينما والتصوير - إرتياد المسارح والمتاحف والحفلات الموسيقية. هناك كثير من الأهل يفضلون الذهاب إلى الأماكن العامة أو القيام بنزهة خارج المدينة من دون اصطحاب أطفالهم

بحـجـة أن ذلك يوفـر لهـم جـواً هادئاً ومـريحـاً . ولكن بالمقـابل كم يكون إصطحاب الأطفال مفيداً، إذ يقدم لهم الكثير، ويعمق علاقاتهم وتواصلهم مع ذويهم .

غـالبـاً مـا تأخذ الأمـور المنحى التـالي : الكبـار المنهـمكون في عـملهم والمهتمون بفرض النظام في البيت ، يتعاملون مع طفلهم ، بشكل أساسي ، بعبارات اللوم والتأنيب والأمر : «ابتعد» ، «إهتم بنفسك» ، «إلعب وحدك» . تراود الأهل هنا رغبة في التخلص من الطفل . فالطفل في مثل هذه الأسر يُعاني من الوحدة واليتم الروحي ، ولا يشذ عن ذلك أطفال الأسر الميسورة ، إذ يعـاني أطفـالهـا من اليـتم الروحي أيضـاً ، بالرغـم من أنهـا تلبي لـهم كل حاجاتهم في المأكل والملبس .

يروي أحد مدراء المدارس ما يلي : «طلبنا من الآباء إحدى المرات ، أن يملؤوا استمارة بعنوان : وقتي مكرس لتربية أبنائي» ، كان الموضوع مشروطاً جداً ، فالتربية يجب أن تستمر حتى في حال غيابنا عن البيت .

يبدو أن هذه الطريقة أعطت نتائج جيدة ، إذ قالت لي إحدى الأمهات اللواتي لهن أبناء في المدرسـة : مـاذا فـعلتم بزوجي؟ كـان سـابقـاً لا يهـتم بالأولاد ، أما الآن فعلى العكس تماماً ، يأخذهم معه للنزهة ، ويبحث معهم مختلف الأمور الحياتية والخاصة ، ويساعدهم في تحضير دروسهم» .

كتبت / ل . كوفالوفا/ ، بأن والدها يقضي الشطر الأكبر من وقته مع حفيده ، وينظم له وقت فراغه عن وعي وتبصر : «الوالد بالنسبة لي فرحتي وفخري واعتزازي» ومثالي الأعلى في كل شيء . والدي رئيس فرقة عمل الميكانيكيين ، عمل كل حياته تقريباً في معمل واحد . الجميع يحبه ويحترمه . كان بيتنا دائماً شبيهاً بالمقر أو بأركان الحرب . يأتي الناس إليه بأفراحهم وأتراحهم يعرضون مشاكلهم ، وكان يذهلني شيء واحد ، هو كيف يجد والدي الوقت الكافي ليساعد الجميع . كان أبي عاملاً ممتازاً ، يبتدع دائماً

شيئاً ما من أجل الإنتاج، ويحشد كل طاقاته بسرور وإبتهاج. الجميع يعمل في أسرتنا، من دون إستثناء. فالعمل يغمر الجميع بالسعادة والسرور. بالإضافة إلى الدعابة والضحك، الذي يفيد على صعيد التربية أيضاً. من المدهش أن أبي خلال /٣٥/ عاماً من حياته المشتركة مع أمي حافظ على مشاعره الرقيقة الطاهرة تجاهها، وكان يهديها الزهور، ويسعى دائماً ليقوم بأي عمل يجلب لها السعادة والسرور.

لقد كبرت وتزوجت وأصبح عندي ولد، وأنا أشعر بالسعادة بأن لدى إبني جداً كهذا، إنه لا يشيخ أبداً على صعيد الروح. عندما بلغ إبني من العمر ثلاث سنوات، بدأ أبي يتعامل معه كما يتعامل مع أحد الكبار: إصطحبه معه أثناء الإجازة وأراه أرض الوطن، أخذه إلى موسكو ولينيغراد وإلى مدن أخرى.

أما الآن وقد بلغ من العمر إثني عشر عاماً، فقد عرف بمساعدة الجد، أسرار تصميم الطائرات، وصنع بيديه عدة موديلات للطائرات مع محركاتها. إنه الآن يصور بالكاميرا السينمائية، وينسخ ويركب. وبمساعدة الجد صنع الصواريخ بمهارة وأطلقها. كل ذلك كان يلزمه التحضير التقني العميق، الذي يحوز عليه أبي، والذي بفضله بدأ يحوز عليه إبني أيضاً وأصدقاؤه. أنا سعيد جداً بوالدي الذي يتابع بكل طاقته التي لا تنضب، ويرصد كل ما هو جديد. يجتمع في بيتنا دائماً الكثير من الشبان، ويعمل أهلي الطيبون الأحباء كل ما بوسعهم لكي تُثير قضية العمل إهتمامهم.

يبدو لي والدي بأنه خبير في كل شيء على الإطلاق، ولكنه اعترف لي منذ فترة قائلاً: «أتعرفين يا ابنتي، يطرح هذا الولد أحياناً بعض الأسئلة التي تضطرني إلى الذهاب إلى المكتبة وقراءة المزيد من الكتب والمجلات، وذلك لكي لا أفقد السعادة والشهرة ولكي لا أتخلف عن الحياة».

إن نقص الإهتمام الكافي، ليس هو السبب الوحيد لشعور الطفل

بنفسه بعيداً عن أهله. فاستحالة التوصل إلى إقامة علاقات جيدة مع الأهل، وعدم شعوره بالإحترام الكافي من قبلهم، يؤدي به إلى معاناة مختلف درجات الوحدة والإنفراد.

تكتب (لودا) من الصف التاسع: «إن أمي تصرخ في وجهي دائماً، لمجرد حصولي على بعض العلامات الضعيفة نسبياً. أشعر بالإستياء في البيت. وأبي يصرخ دائماً في وجهي أيضاً. هذا يعني أن الجميع يكرهونني في البيت، من فضلكم قولوا شيئاً ما لأهلي، إنهم يقاطعونني تقريباً، وأنا أصبحت كبيرة. قولوا لي من فضلكم، هل يمكنني الذهاب إلى السينما أو اللعب، إذا ما كانت دراستي بدرجة وسط». «إنهم يذكرونني دائماً بالدراسة، ولكني أدرس قدر استطاعتي». إذا أخفق أحد أصدقائنا، أو لنفترض أنه ارتكب خطأ بنفسه، أو تعثّر، فإننا نسرع لمساعدته، نشاركه عواطفه، نواسيه، ونسعى لمساعدته. ولكن ها هو أبنك أنت أتى إلى البيت وقد حصل على علامة ضعيفة، هل تعرف أي إخفاق هذا بالنسبة له! يمكن أن يصل أحياناً إلى حد الشعور بفاجعة حقيقية. هل أصابه الكسل؟ أو هل أنّ تأخره ميئوس منه، وهل توصل إلى درجة لا يستطيع معها مواكبة البرنامج الدراسي؟ وهل يعني أنه تخلّف إلى الأبد، ولن ينال أبداً علامات جيدة، ولن يذهب إلى المدرسة، أو يأتي منها بوجه ضاحك بشوش؟ وهكذا، أين هو سعينا السريع والحثيث لتقديم المساعدة والدعم له؟ أم أن جاهزيتنا تنحصر دائماً في تقديم كلمات اللوم والتأنيب فقط؟ هل على الأم أن تصرخ بوجه إبنها الذي كسر الكأس، على سبيل المثال، فهو يشعر الآن بانزعاج شديد مما حدث ويحتاج إلى المواساة بدلاً من الصراخ والشتم. على الأم أن لا تشفق على الكأس المكسورة، وإنما عليها أن تشفق على حب وحنان طفلها، وعلى علاقة التفاهم معه.

قال / أ. س. مكارينكو/ : «حياة الأطفال أكثر غنى من حياة الكبار

من حيث قوة العاطفة، والقلق، وعمق الإنطباعات؛ من حيث الطهارة وجمال التكيّف الإرادي. ولكن الهزات التي تواجههم في هذه الحياة لا تعتبر كبيرة فقط وإنما خطيرة أيضاً. هذه الحياة بأفراحها وأتراحها قادرة على أن تهز الشخصية بعمق وعلى أن تخلق شخصيات ذوي طباع جيّدة عالية أو أناس ذوي طبع منعزل وشرس ومثير للشبهة». ما يدهشنا أحياناً هو قلة تهذيبنا في علاقتنا مع الكبار، وفي عدم سيطرتنا على أعصابنا في علاقتنا مع أولادنا. ما يلزمنا هو قليل من الإبداع في توجيه سلوك الطفل، وأكثر قليلاً من روح النكتة والمزاح وسيكون كل شيء بعدها على ما يرام. التواصل أو الإحتكاك السيكولوجي مفقود، ورأينا غير مسموع، لقد فقدنا الهيبة، يجب أن نعمل ما بوسعنا للحفاظ على تلك الخيوط الدقيقة، التي لا ترى بالعين المجردة، والتي تربط داخل كل منا بالآخر، هذه الخيوط كالخطوط الكهربائية التي يسري فيها تيار ذو توتر عال. نحن نقطعها بصراخنا وبشتمنا الولد، والإنتقاص من كرامته - عندها تتعطل الدارة، ويتوقف التيار الكهربائي - أنت تصرخ كالأطرش في الجانب الآخر من الخط، ولكن من دون جدوى، لا أحد يسمعك على الجانب الآخر. تريد أن تقول شيئاً ما جيداً، ولكن كلماتك لن تكون مسموعة. لأن الإتصال مفقود. فليس من السهل إصلاح التماس السيكولوجي. تقف إحدى الأمهات الجميلات على محطة الباص، ترتدي فستاناً أبيض ويقف إلى جانبها ولدنحيف. إنها تنظر حولها بفخر وكبرياء، وتجيب عن أسئلة إبنها باقتضاب - نعم، كلا، إنتظر، لنذهب. إنّ الطفل في هذه الحالة يبحث عن التواصل، عن التمّاس مع أمه، أمّا الأم فقد كانت لا مبالية تجاهه وباهتة تماماً. ولم يبلغ الطفل العاشرة، حتى بدأنا نلاحظ علامات الإنقطاع في الدارة لقد كفّ هو عن الكلام مع أمه.

الروابط العاطفية لها الأولوية في الأسرة. كل عضو في الأسرة كبيراً كان أم صغيراً، يبحث في أعضاء الأسرة الآخرين عن صديق حميم، يمكن أن يشاطره أمانيه واهتماماته، أو أن يأتمنه على أسراره. يعبّر أعضاء الأسرة

الشباب عن هذه الحاجة بشكل حاد. ومن المهم أن نهتم دائماً بالحفاظ على جاذبية الأسرة والمدرسة بالنسبة للطفل - هاتان المؤسستان التربويتان الأكثر أهمية في المجتمع.

يحتاج الطفل إلى حبنا ورعايتنا بشكل دائم. ولكن الحب الذي كان ينتظره منّا عندما كان صغيراً، يختلف كليا عن الحب الذي يحتاجه في الكبر.

كتب / ف. آ. سوخوملينسكي/ : «بأن لدى الأطفال تصوراتهم عن الخير والشر، عن الشرف والعار، وعن الكرامة الانسانية ولديهم مقاييسهم في الجمال. وأَعْتَبِرُ أنه من الضروري أن تصبح طفلاً، إلى درجة ما، لكي تستطيع الدخول إلى القصر الأسطوري، الذي اسمه الطفولة. بهذا الشرط فقط يكف الأطفال عن النظر إليك كشخص تسلل إلى عالمهم الأسطوري، وكحارس يحفظ هذا العالم، لا مبال وغير مهتم بما يجري داخله» من المهم جداً إكتشاف الطريق المؤدي إلى هذا العالم الأسطوري الذي اسمه الطفولة، على أن لا تَبْقى فيه عندما يغادره ابنك أو ابنتك، وإنما عليك الانتقال الى عالم اسطوري آخر هو عالم الفتوة، والشباب. كما يكبر الطفل ويخرج من قماطه الطفولي، كذلك يكبر ويخرج من عالم العلاقات الوثيقة التي تشكلت مع الأهل أثناء الطفولة.

يكبر الأولاد وتتغير نظرتهم تجاه العلاقة التي تربطهم بالأهل، فهذه العلاقة يجب أن تكون بعيدة عن الوصاية التي كنا نظهرها تجاهم عندما كانوا صغاراً. ولكنهم مع نموّهم وكبرهم يريدون منا أن نوجه اليهم رعاية أكبر وليس العكس.

«قالت الأم لابنها أثناء زيارتها له في معسكر الطلائع: لماذا أصبحت نحيفاً هكذا، أنت لا تأكل شيئاً على الأرجح. آه!! لقد عضك البعوض. أليس مكانك رطباً ومعرضا للمطر؟ قل لي يا حبيبي، هل تلبس معطفك أثناء المطر؟ ماذا حلّ بأحذيتك المطاطية»؟ من الواضح أن الذي تكلم مع ذلك

الإبن الوحيد هو اهتمامنا به والشعور بالألم نحوه. أما هو فبالكاد سيطر على نفسه، لكي لا يخشن الكلام. لقد خاب أمله بلقاء أمه، بعد أن انتظر لقاءها بفارغ الصبر، لكي يسمع منها أخيراً هذه الأسئلة المضجره.

لا يتحمل الأطفال النواح فوق رؤوسهم، إذ يؤدي بهم ذلك إلى القرف من حياتهم السعيدة ومن مشاعر الإحترام الذاتي.

يصبح خوفنا على الطفل حاجزاً بيننا وبينه. ويؤدي به ذلك إلى عدم البوح بأسراره لأمه. فهو لا يستطيع أن يخبرها بأنه تشاجر مع الآخرين، أو أنه قفز عن السور، أو خاض في البرك حافياً أثناء المطر، لأنها ستنفجر فوراً باللوم والعتاب، إذ يشط بها الخيال كثيراً من جراء ذلك وتتساءل ما الذي يمكن أن يحدث لابنها من جراء هذا السلوك.

يحدث أن يحب الإبن أمه كثيراً، ويشتاق اليها، ولكن معشرها مضجر ومتعب، بسبب صراخها الذي لا مبرر له، وبسبب ردود فعلها العاطفية ودموعها، وبسبب غضبها وحتى بسبب نظراتها المليئة بالحب والإخلاص.

ما يحتاجه الطفل هو الرعاية الدائمة، من غير أن يلاحظ ذلك، ومن دون لجاجة والحاح أيضاً. «يعتبروني في البيت صغيراً مع أني بلغت السادسة عشرة من العمر، احكموا بأنفسكم، ألم يضجرني بعد هذا الوعظ الدائم؟ أسئلة طوال الوقت، إلى أين ذهبت، أين كنت، وهكذا دواليك، إلى أن تنفجر فجأةً، وتبدأ بالإجابة بضجر، ويجيبونك أيضاً بالطريقة نفسها. ويتعنتون لأتفه الأسباب. إني أنتظر بفارغ الصبر نهاية هذا العام الدراسي، لكي أذهب إلى أي مكان آخر أكمل دراستي فيه. كنت أفكر في البداية بأن أتابع دراستي بعد الثانوية، ولكني قررت بعد قليل من التفكير بأن ذلك لا جدوى منه، لأنك ستسمع الوعظ يومياً، هذا الوعظ الذي يمكن أن يؤدي بك إلى الجنون. لم يمر يوم إلاّ ويطال الوعظ شيء جديد، وحاول عندها أن

تتبرّم أو أن تظهر الضجر، عندها ستقوم القيامة، وسيدورون حولك ويوبخونك. ما إن يتعب أحدهم حتى يبدأ الآخر.

يمكن أن لا تثقوا بذلك ولكنني أوكد لكم بأن ما هو مكتوب هنا حقيقة واقعة. إني أنظر بكل أسف وحسرة إلى الشباب الآخرين، وأغبطهم على علاقتهم الطيبة بأهلهم، الذين لا يثقلون عليهم، كما يجري معي. أطلب منكم أن لا تذكروا كنيتي «فلاديير».

التعامل مع الأهل، الغاضبين أبداً والذين لا يملّون من توجيه اللوم والعتاب، يصبح عذاباً، ويسعى الفتى في هذه الحالة إلى التخلص والذهاب إلى أصدقائه.

كتب / يا. كورتشاك/ : بأن الصمت أحياناً أو المشاركة، يمكن أن تؤدي إلى الشعور بالإمتعاض، هذا فيما يخص مجال العواطف السلبية.

أما بخصوص الحب، الذي ينتمي إلى مجال العواطف أو المشاعر الإيجابية، فإنه يأخذ أحياناً شكل الطغيان. وبالرغم من أنه لا يوجد بالنسبة لنا شيء على وجه البسيطة، أكثر قيمة من الإنسان الذي نحب، فإننا نسومه أحياناً ألوان العذاب، نسأل مراهقاً آخر: كيف تستطيع العيش في هذا الجو؟ ويسارع الأهل إلى الإجابة، ولماذ لا يعيش، طالما نقدم له كل ما يحتاجه، ولا يبقى عليه سوى الدراسة فقط. إلا أنّ كل الدلائل تشير إلى أنه يعاني في حياته العائلية، ولا يستطيع مواكبة البرنامج الدراسي، ويعتبر من المتوسطين في الصف. يسود جو الخصام في البيت، والإحترام مفقود، تلك هي المصيبة، ولا يوجد في الأسرة ذلك الشخص الذي يمكنه أن يقول له من كل قلبه، أنا أقدّرك. ذلك ما يحتاجه بالتحديد.

إليكم رسالة أخرى:

هيئة التحرير المحترمة: ليس عندي الآن أحد أقاسمه همومي، ولذلك قررت الكتابة لكم. اسمي لودا، عمري / ١٤/ أربع عشرة سنة، ولدت في

مدينة صغيرة، وجميلة ولكني لا أتوق إليها عندما أكون بعيدة عنها. يمكنكم أن تسألوا عن السبب وأنا أجيبكم بكل بساطة، إن أهلي وأقاربي يعيشون فيها: الأب والأم والأخ والأخت وابن الأخت. عندما كان أخي في الجيش لم ينتبه إليّ أحد، أما الآن وقد أنهى خدمته العسكرية وعاد إلى البيت بات الجميع يكرهني، عدا ابن أختي الصغير، لأنه صغير بعد ولا يتجاوز عمره خمس سنوات. أنا نفسي لا أعرف سبب كرههم لي بهذا الشكل، لا يسمحون لي بمشاهدة التلفاز، ولا الترنم بإحدى الأغنيات، حيث يطلب مني مباشرة بأن أكف عن ذلك لأن أحداً ما لا يريد سماع صوتي. ما أشد أساي عندما أسمع أمي تقول لي «لا تذهبي إلى هناك»، لا تفعلي هذا «لا تذهبي إلى السينما والحفلات الموسيقية، فأنت ما زلت صغيرة». إني أستأذنهم في وضح النهار للذهاب إلى السينما مع زملائي في الصف. وهل أنا صغيرة إلى هذا الحد، مع أن الفتيات اللواتي في صفي يذهبن إلى السينما نهاراً». ما هي الحقوق التي يناضل الأطفال من أجلها بفعالية ونشاط، إنها ببساطة حقهم في الاحترام والرعاية، حقهم في الإستقلالية، حقهم في الحفاظ على أسرارهم، وتكوين روابط خارج البيت، وفي المشاركة في العمل الاجتماعي؛ وفي الوقت الذي يمكن للإبن والإبنة أن يقضوه حسب ما يشاؤون، وحقهم في تنظيم وقت فراغهم، وفي اختيار تسلياتهم وحقهم في أن يحددوا بأنفسهم شكل لباسهم. يحسّ الأطفال بشكل رائع بما تعنيه هذه العبارة الصارمة: «لا تعارض طبعي». هل تعني أن الحياة العائلية سجال بين الأهل وأولادهم، لتحديد إلى من ستؤول مقاليد السلطة. أو أن الاهتمام الحقيقي والأصيل بأطفالنا هو ما يُملي علينا ذلك لكي نعيش بعزة وكرامة.

عندما تكون الصراحة امتداداً طبيعياً للعطف والمحبة، فإنها كفيلة بتربية تلك السمات الإيجابية التي نتوخاها. وكلما زاد احترامنا للإنسان وتقييمنا له انتظرنا منه الكثير وطلبنا منه الكثير. المطلب نفسه يبدو كأعتراف

بالإمكانات الكامنة الكبيرة، وبالقوى الإبداعية، وبقدرات الإنسان، وكمؤشر على مقدار الإحترام الذي نوليه إياه. عندما نطلب شيئاً من الشخص هذا يعني أننا نثق بقدرته على تلبية طلبنا، والذهاب إلى أبعد من ذلك، والحصول على الكثير. ولا يخامركم الشك أبداً، فالطفل نفسه يحس بذلك. يطلب الأهل منه لأنهم على علم بقدرته على القيام بكل شيء على خير ما يرام، يكفيه فقط أن يرغب بذلك وأن يبدأ بالعمل بشكل حقيقي. إن مجرد الطلب من الطفل كفيل بزيادة ثقته بنفسه.

العملية التربوية الحقيقية غير ممكنة من دون الإصرار، ولكن شكل التعبير عن الطلب، وطابع ومحتوى الطلب نفسه، يجب أن يكونا نتيجة دراسة مسبقة معمقة علينا أن لا نتوقف عند صغائر الأمور وألا ننجرّ وراء إستيضاح الإساءات التافهة. يجب أن يكون للمطلب سموّه الخاص. في علاقاتنا مع أولادنا وخاصة فيما يتعلق بتعويدهم على الأناقة، أو الإختلاف على نوع تسريحة الشعر عند الفتى أو الفتاة، يجب أن لا ننسى الشيء الرئيسي وهو علاقاتهم بواجباتهم، يجب أن تقترن الصرامة أو الإصرار مع الإعتراف بالإستقلالية المتزايدة للفتى أو الفتاة، ومع احترام حقوقهم المتنامية أكثر فأكثر.

كتب / آ. س. مكارينكو/ : «لا الطغيان ولا الغضب، والصراخ، ولا التوسل، والتضرع، ولا الإستعطاف وإنما التصرف العملي الجدي والهادىء هذا ما يجب أن يعبر عن تقنية الانضباط الأسري ويظهر للعيان. يجب أن ينشأ عندكم وعند أطفالكم وعي بأنكم تملكون حق التصرف كأحد أفراد الأسرة الآخرين. كل أب أو كل أم يجب أن تتعلم إعطاء الأوامر، ويجب ألاّ تحيد عنها أبداً. تلعب الصداقة مع الأطفال، والعلاقة الحنونة واللطيفة بهم، دوراً هاماً في كيفية صياغة وصاياكم وأوامركم لهم. . ». يجب أن لا نطلب من الطفل الشيء المستحيل، ذلك الشيء الذي لا يمكنه القيام به. «ماذا حدث، لماذا لم تنم»؟ هكذا تصرخ الأم في وجه ابنها الذي

استيقظ وذهب إلى المطبخ ليشرب. ولكن هل يستطيع الطفل أن ينام بوجود ضيف في البيت، أو يعج البيت بالأصوات؟ إنه عمل غير مثمر، لا جدوى من إجبار الطفل الحيوي والممتلىء حماسة على أن يصبح هادئاً، وقادراً على التركيز، أو الطفل المتشكك والمتجهم على أن يصبح إجتماعياً وصريحاً، أو الطفل الذي يحب ذاته ويتصرّف على هواه، على أن يصبح متواضعاً ووديعاً يجب أن نفكر قبل أن نعطي الطفل أمراً، إن كان باستطاعته تنفيذه. إن عدم تنفيذ الطفل للأمر يعرض هيبة الأهل للمعاناة، لذلك فمن الأفضل أن يكون هنا توفيق أو تناسق مسبق بين قرارنا وبين جاهزية الطفل لتنفيذه.

كثير من المصائب العائلية تحدث، لأن المطالب التي نطلبها من الأطفال لا تقترن بالإحترام الحقيقي لهم.

إليكم ما كتبته لينا: «أمّي هي الإنسان الأكثر قرباً مني، وبالتالي أتمنى أن يكون أبي قريباً مني أيضاً، ولكن لا أحب أبي للأسف، ولا أحترمه ـ أكرهه ـ أنا لا أكرهه بسبب معاقرته الخمرة. أكره ذلك الإنسان لأنه لا يستطيع أن يكون إنساناً وسط الناس. سأبلغ قريباً السادسة عشر من العمر، ولم أعرف حتى الآن سوى الخصومات والمشاحنات والمشاجرات، التي تزداد مع مرور الزمن. إن العائلة التي ينعدم فيها الإحترام المتبادل بين أعضائها لا ترى السعادة ولا الكرامة. إن والدي في حالة دائمة من عدم الرضى. نحن أربعة في العائلة، وهو يحب الأخت الصغرى. ولكن حبه لها غير صادق. إليكم مثالاً على ذلك: طلب إحدى المرات من الأخت الصغرى أن تجلب له الرسالة التي تلقاها الأخ الكبير من إحدى الفتيات، وقرأها. وعندما سأل أخي عن الذي قرأ رسالته، أجابته الأخت الصغرى بأنها هي التي قرأتها. ولكنها اعترفت أخيراً بأنها لم تقرأها بل أحضرت الرسالة إلى أبيها فقط.

عمر أخي / ١٧/ سبعة عشر عاماً، وعندما يحاول أن يبرهن شيئاً يسعى أبي إلى ثنيه عن طريق الثرثرة أو الفرقعة بأصابعه. ماذا سنحصل أو

ماذا سنستفيد نحن الأطفال في هذا الجو العائلي؟ ما أصدق الكلمات التي تقول، بأنه إذا كان طبع الإنسان يتشكل بالظروف، فكم بالأحرى أن تصبح الظروف إنسانية!! يجب على الإنسان أن يربي نفسه بنفسه، بيد أن طبعه يتأثر كثيراً بالجو العائلي الذي يعيش فيه. إذا لم يستطع الأهل أن يودعوا أي شيء لدى أبنائهم، فأي شيء يمكن لهؤلاء الأبناء أن يحملوه للناس الآخرين؟ يطلب الأب الإحترام، ولكنه لا يستحقه. فهو لا ينطق بكلمة رجاء وأحياناً يهدد بالضرب. بل علينا الإصغاء فقط، فهل معجمنا لا يحتوي إلا على كلمات من أمثال: «يجب»، «يلزم»، «ممنوع»، من دون كلمة «ممكن».

نحن والأطفال لا نملك الحق في أن نكلم الأب بأي شيء. فهو يصرخ: «أنا لست بحاجة، إلى إرشاداتكم». إنه لا يتزحزح عن رأيه محقاً كان أم غير محق.

يوجد عندنا في العائلة بعض الناس الذين يحاولون إرضاءه، أمي أحياناً، أو أختي الصغرى فاليا. وغالباً ما يذكرنا بأنه يعيش من أجلنا. ولكن ماذا أعطانا أهلنا - هل كسونا، ألبسونا الأحذية وعلمونا؟ ذلك قليل. فهم لم يعلمونا أن نحبهم ونحترمهم، أما نحن الأطفال، فلم نورث لأهلنا سوى المتاعب والصعوبات. لأنك إذا لم تحترم شخصاً ما، فإنه لا يمكنك أن تقوم بأي عمل من أجله. لقد جلب لنا والدنا الكثير من الضيم والدموع وغالباً ما كان يطرد أختي الكبرى وأخي الكبير من البيت.

«اخرجوا ولا تعودوا ثانية» - هكذا يقول لهم، وكل ذلك بسبب أشياء تافهة. لو طردهم من البيت وهو في حالة السكر لكان ذلك شيئاً مفهوماً. فهو يعتقد أن تصرفه صحيح ولا يأخذ برأي أحد. لا أعرف، إن كانت هذه الرسالة ستبدو لكم قاتمة وكئيبة. من الممكن أن أكتب الكثير. ولكنكم لن تفهموني حق الفهم، لأنكم لم تروا بأم أعينكم ذلك الوضع الذي أعيش فيه.

يقول الناس «نتمنى لكم أيها الأطفال طفولة سعيدة». ولكن أين هي السعادة في حياتي، في طفولتي؟ إنها السنة الأولى التي أعيشها في هذه المدينة، عندي أصدقاء جدد. نعم، إني أفهم، كفتاة في السادسة عشرة من العمر، ماذا تعني الصداقة والحب الأول، والرفاقية. إني أعرف الكثير من الأشخاص الطيبين، الرائعين والجيدين. فالحياة رائعة بالناس الذين يزينوها».

أمامكم لوحة من الحياة العائلية الصعبة، حيث الجميع يشعرون فيها بالتعاسة. الأم هنا ضعيفة لا تستطيع السيطرة على الوضع في البيت. فهي تحاول إرضاء الأب، وتخفي عنه هفوات الأطفال لكي لا ينهال عليهم وابل جديد من الغضب. والأم تعاني من الوضع السيء للأطفال، ومن تمسّك الأب بصغائر الأمور، ومن لجوئه إلى العقاب الجسدي لأتفه الأسباب. إنها تتضرع إلى الأطفال لكي يصمتوا، عندما يكون الأب غاضباً، إذ تسعى إلى تلافي وقوع الحدث، وبذلك تقع بين نارين. فالأولاد يحترمون الأم الضعيفة ويشفقون عليها، ولكن إحترامهم لها ليس كما يجب. ما هو هدف التربية الذي قصده الأب المسلح بالعصا وبمجموعة من المحرمات؟ الهدف هو تربية شخصية إمتثالية، تسير بركاب الشخص الأقوى وليس لها رأيها الخاص وتنتظر الأوامر. لم يسأل الأب إطلاقاً، على الأرجح، عن هدف التربية، فهو يسعى لتثبيت نفوذه وهيبته فحسب. وهذا متاح له الآن ما دام الأولاد صغاراً. ولكن الأسرة ليست المؤسسة الوحيدة التي تمارس التأثير على الأولاد، هناك المدرسة أيضاً وكل المجتمع. يزداد مستوى الوعي الذاتي في عمر الفتوة والمراهقة، ويترافق مع الاحتجاج والامتعاض من القمع الذي يمارس على الشخصية.

هل هناك أب لا يحب أطفاله؟ لا، إنه يحبهم ويتمنى لهم السعادة. يقول الأب إنه (عاش من أجل الأطفال) ومن المرجح تماماً أنه كذلك. ولكنه لم يستطع أن يخلق في العائلة جواً من التفاهم المتبادل والمساعدة المتبادلة.

لا يعطي الوالد هنا أطفاله فرصة لأن يقولوا كلمة، أو يعبروا عن رأيهم، ولا يرغب في الإصغاء اليهم، ويرفض حججهم المعقولة، هذا يعني أنه لا يترقى على صعيد تربية أولاده. لا تنحصر الترقية على صعيد المهنة فقط، بل تتعداها لتشمل شخصية الإنسان وطريقة تربيته لأولاده. ليس نحن من يقوم بالتربية فقط بل يشاركنا أطفالنا في ذلك عندما يكبرون، إذ يدخلون بعض الإصلاحات إلى سلوكنا كمربين.

ينطلق والد / لينا/ من مواقع صحيحة. فهو يريد أن يربي أولاده بحيث يكونوا أناساً جيدين. ومطالبه، على الأرجح، عادلة بمحتواها، ولكن التعنّت والإصرار يؤديان إلى نتيجة عكسية. فالشعور بعزة النفس والكرامة مرهف جداً عند الشبان. حيث يؤدي المطلب الفظ والجلف إلى الشعور بالإهانة. هذا الشكل غير اللائق الذي نقدم فيه مطلبنا، يفقده محتواه وعدالته. وكما تكتب لينا، فإن والدها يلح ويطلب باستمرار. بيد أن الإصرار لا يكمن في أن نقول لابننا أو لابنتنا باستمرار ماذا عليهم أن يفعلوا. من المهم أن يعرف الطفل، بأنه توجد بعض القواعد، سهلة الفهم بالنسبة له يجب عليه أن يتبعها في سلوكه، ويتحمل مسؤولية مخالفتها أمام الأهل. عندما تصبح هذه القواعد في أساس جو العائلة وتشكل الركيزة الأخلاقية لسلوك الأطفال، تنتفي الحاجة إلى التذكير الدائم بها. ففظاظة الأهل وقلة أدبهم تجاه أطفالهم، يصبح بالنسبة للأطفال مثالاً يُحتذى في السلوك. لقد أظهر المعهد المختص بدراسة أسباب وسبل مكافحة الجريمة، بأن الجنح في العائلات التي تسود فيها العلاقات الفظة أكثر بعشر مرات منها في العائلات، التي تحتفظ بعلاقات تفاهم عادية بين أفرادها. بين مقالات / ل. ن تولستوي/ ، التي يتحدث فيها عن خبرته التي اكتسبها أثناء عمله في إحدى المدارس، نجد قصة تتحدث عن أحد أدواره التربوية.

«إن أكثر ما يقلق تولستوي هو الفعل أو السلوك الخطأ الذي لا يمكنه إصلاحه. سرق أحد الأطفال كتاباً وخبأه في الصندوق. فالصقت له على

الصندوق ورقة مكتوب عليها كلمة / سارق/ التي تعني شيئاً آخر تماماً. قالوا لي: هل فعلت ذلك، لكي تعاقبه بالخجل. لماذا؟ ماذا يعني الخجل؟ وهل الخجل يقلل من الميل نحو السرقة؟ فمن الممكن أن يشجع عليها. ولكن ما ارتسم على وجهه من تعابير، يمكن أن يكون غير الخجل؟ اني أعرف على الأرجح بأن ذلك ليس خجلاً وبأنه يمكن أن يكون شيئاً ما آخر تماماً، قد نام في داخله بشكل دائم وكان لا ينبغي علينا إيقاظه».

لا يقول لنا تولستوي بأنه أيقظ المربي تحديداً داخل المراهق، بعد أن انتقص من كرامته. ولكن كل منطق أفكار الكاتب الذي نتبعه في كل مؤلفاته عن الطفولة يوحي بأن الاهانة قد سببت للطفل مشاعر الإبتعاد عن الناس ورفضهم، وعدم الثقة بهم، وكرهه لهم عموماً.

وبهذا الشكل تتمزّق الروابط الإجتماعية للمراهق. يؤكد تولستوي بأن الإكراه في التربية أو إستخدام العنف، يكون فقط نتيجة التسرّع وعدم الإحترام الكافي للطبيعة الإنسانية. أليست فكرته صحيحة وعادلة، بأننا نسرع أولاً بأول إلى العقاب، لأننا لا نريد أن نضيع الوقت في البحث عن وسائل أخرى.

يحتاج الأطفال إلى الحنان والرعاية لكي يشبّوا أناساً يستطيعون فهم الناس بدقّة، وليس أناساً جلفين قساة. وتلزمهم أيضاً القساوة والإصرار المعقول لكي لا ينشأوا عديمي الإرادة، مخنثين وفاقدي الحيوية، يلزم الأطفال القساوة واللطف، وهما على نقيض اللامبالاة، وهم يشعرون بذلك. إنهم يصفحون عن الإنسان البالغ، إذا ما غضب منهم بسرعة، وإذا ما شعروا بأن ذلك بدافع الحب والإهتمام بهم.

وكما أكد / ف. آ. سوخوملينسكي/ ، بأن التعامل اللطيف مع الأطفال يعتبر مصدراً للتماسك المعقول، والتساهل، على أن جور وطغيان الكبار يولد عند الأطفال الرفض والتعنّت والخروج على الطاعة. يمكننا المحافظة على التواصل السيكولوجي إذا استطعنا من خلال تعاملنا مع

الطفل، أن نجسد حقوقه كشخصية نامية متطورة، ونسعى لأن يقوم بواجبه عن طيب خاطر. من المهم جداً تعليم الأطفال، أن يتحكموا عن وعي بسلوكهم الخاص وخاصة عندما ينفذ الأطفال كل المتطلبات من دون تركيز، وتنمو عندهم القدرة على المراقبة الذاتية. إن من سيعاني قبل كل شيء من قلة الإنضباط الذاتي هم الأطفال، وستعاني الأسرة من ذلك لاحقاً ومن ثم المجتمع.

وهل للطفل أن يتعلّم ربط مصالحه ورغباته مع مصالح ورغبات الناس الآخرين معتبراً ذلك واجباً بسيطاً؟ هنا وفي هذا الشيء البسيط تتجلّى درجة نضج الإنسان كمواطن. تربية مشاعر الامتنان والتقدير تجاه الأهل، والسعي بالمقابل إلى الاهتمام بهم كاهتمامهم بنا، تلك هي الركيزة التي تتطور على أساسها تدريجياً مشاعر الإمتنان والتقدير تجاه الشعب والوطن والشعور بالواجب تجاههم. إذا انعدم الإحساس بالواجب تجاه الأمور الصغيرة، فإنه سينعدم أيضاً تجاه الأمور الكبيرة، وذلك هو منطق صيرورة طباع أطفالنا.

عالم الأسرة هو نموذج مصغر جداً عن المجتمع وعاكس له. في قوانين تطورها، وفي تنوع هذه القوانين يمكن أن نشاهد تلك القضايا نفسها التي تعالج على مستوى الدولة. يجب أن تبدأ التربية منذ الخطوات الأولى للطفل، وتستمر طوال العمر، على شرط ألا نُهمل البداية. فالأسرة تملك الوسائل الكافية والإمكانيات لكي تقود بشكل صحيح التربية على حب العمل.

يجب على الأهل في خضم هذا التنوع الكبير، أن يجدوا بالحدس وبغريزة القلب الحنون، ذلك الشيئ الضروري، الذي يجب أن ينفذ إلى داخل الطفل ويشكل محور تطوره كمواطن، ويتجسد في كلمات ذات مدلول شمولي مثل (ماما)، (وطن)، (خبز)، (سلام). إن كلمة (عمل) يجب أن تشغل المكان الأول في هذه القائمة. ولكن عليها، للأسف أن لا تشغل هذا المكان دائماً.

لا أحد يتحمل ذنباً أكثر من الأهل بهذا الصدد. ليس كل ما يحسب عملاً باستطاعته أن يربّي وليس كل ما يربي يسمى عملاً. لقد أطلق / ف. آ سوخوملينسكي/ تسميته (كدّ الروح) على قدرة الطفل على معايشة أو معاناة الوجه الغريب والآلام الغريبة، ولكن هل تفهم كل أسرة مغزى هذا الكدّ؟.

(طفلنا يستطيع العمل) هكذا تتكلم الأم الحنون بفخر عن إبنتها ذات الخمسة عشر ربيعاً، فهي تسوّي السرير بنفسها، وتمسح البلاط في غرفتها، وتذهب إلى المخزن لشراء الخبز. إنها تقوم بالضبط بنفس تلك الواجبات تقريباً التي يقوم بها الأطفال الأصغر منها سناً أو حتى أولئك الذين لم يدخلوا المدرسة بعد. على أن هذا «الطفل المُحِبّ للعمل» قد فاق أهله من حيث التكوين الجسدي، ولم يحرك ساكناً لكي يساعد أهله في قلع النباتات الطفيلية، على سبيل المثال، أو تنظيف الحوض في الحديقة، ويذهب عن طيب خاطر إلى عيادة الطبيب كي يحصل بكل الوسائل والطرق على إعفاء من المعسكر التدريبي الرياضي، ولا يعرف قيمة النقود التي يحصل عليها أهله ولا يستطيع الحفاظ على أشيائه وأشياء غيره. الحياة لا تراوح مكانها ـ كل زمان وكل عمر له فهمه للتربية على حب العمل، ويعطيه معنى جديداً. ولكن هناك معايير إنسانية عامة ومعايير عابرة لتقييم هذا المفهوم. لقد ناقشت الأسرة مسألة تقليدية هي أين سيرتاح إبنهم البالغ من العمر خمسة عشر عاماً؟ لا يمكنه الذهاب إلى معسكر الطلائع لأن عمره لا يسمح له. وأية رحلة عادية مع الأهل إلى الجنوب أو إلى أي مكان آخر، حسب بطاقة سفر سياحية لا يمكن أن تسجل في جدول الاجازات. ولكن التسكع غير الهادف والذي لا جدوى منه في الشوارع، ولمدة شهرين أرعبت أعضاء مجلس العائلة. وفجأة اقترح الإبن قائلاً: نظموا لي رحلة إلى أي مكان للعمل. سأقضي وقتي بالعمل وسأكسب لقاء ذلك بعض النقود. ولأي شيء أنت بحاجة إلى النقود؟ هكذا استفسرت الأم بحذر.

ـ لأي شيء؟ سوف أنفقها كما يحلو لي. سوف لا أطلب منكم النقود لكي أذهب مرة إلى السينما ومرة أخرى لشراء البوظة. لقد بدت حجج الإبن جدية. إذاً علينا أن نلحقه بعمل مفيد. المسألة عن مكان العمل كانت واضحة. فالإبن يريد أن يصبح طبيباً وبالتالي لا بد له من العمل في المستشفى.

عندها فقط تكشفت القضايا الحقيقية. فهذا المراهق ذو الخمسة عشر ربيعاً والذي لا يملك هوية، يمكن أن لا يحبذ قسم الكوادر، علماً بأن الحاجة إلى فرد بهذا العمر عظيمة للغاية. وبعد عناء شاق وطويل من قبل الأهل، وافق، أحد الأطباء الرئيسيين وتم قبول الفتى ممرضاً لفترة عمل مؤقتة.

عمل هنا طوال شهرين. كان ذلك وقتاً حقيقياً مليئاً بالعمل. لقد كان من واجبه العناية بالمرضى، وبالعاجزين، وكبار السن، وسماع الأنين والشكاوى و. . . . . . كلمات الشكر الصادقة. وبترجمة ذلك إلى لغة العلم، يمكننا القول بأن ذلك كان عملية تربوية دامت شهرين تعرض خلالها لتأثير تربوي كثيف.

ولقاء عمله حصل على بعض النقود، التي أنفق معظمها في شراء الهدايا لذويه. كل ذلك ليس سوى فصل في حياة أسرة واحدة، وكان من الممكن أن لا يكون الكلام عنه مفيداً أو أنه لا يستحق ذلك لولا أن القضية ليست خاصة. المصيبة هي أن هذه القضية ما زالت موجودة على كل حال. ليست القضية في الإستراحة (حيث يعمل المجتمع على حلّها بنجاح) بقدر ما هي في العمل، وفي قضية الوقت الضائع عند المراهق. لا توجد حاجة للبرهنة، كما يقول /ك. د. أوشينسكي/ على أن تمضية الوقت بلا قصد أو هدف يفسد الإنسان. فالمراهق نشيط بجوهره وبعطائه. نحن نسعى لنملأ وقت فراغه بالتسليات. ولكن جوهر المسألة يكمن في أن نملأ وقته بعمل حقيقي له أهمية إجتماعية. حتى الصيف بخصوصيته يقدم إمكانات كبيرة.

هل كل أنواع العمل قادرة على التربية؟ كلا! فالمسألة لها طابع

أخلاقي. من وجهة نظر علم التربية ليس كل عمل يؤدي وظيفة تربوية، وإنما ذلك العمل فقط، الذي يقدم للإنسان وخاصة للمراهق إمكانية اختبار قواه.

يجب على الأطفال أن يعتادوا على العمل بشكل حقيقي، وكلما كان ذلك أبكر كان أفضل. فاللعب أثناء العمل لا يجدي نفعاً، وهو نقيض العمل الحقيقي الفاعل. من المهم أن يفهم ذلك الكثير من الأهالي غير القادرين على تخطي هذا الحاجز النفسي. «ما هذه الإستراحة؟ إمتعضت إحدى الأمهات التي لها إبن في الصف الثامن. الطفل لم يرفع رأسه طوال السنة عن الطاولة وذهب إلى الدروس العملية، وفوق كل ذلك عليه أن يعمل في الصيف».

لقد حدث هنا إختلاط بسيط. فبالرغم من أن العمل الدراسي للتلميذ ليس سهلاً، فهو على كل حال عمل ذهني. أما العمل الجسدي، الذي يتقبله المراهق عن طيب خاطر، فيتم تنفيذه في ظروف جديدة، ومن خلال التواصل مع البالغين - إنه عمل يرفع من مستوى إحترام الذات، ويسهل معرفة الحياة. تشهد الدفعة الأولى من النقود التي يتلقاها المراهق لقاء عمله على النضج الحقيقي، الذي يكوّن السعي نحوه باعثاً رئيساً في حياته. . . كتب / ف. آ. سوخوملينسكي/ «يجب أن يَنْفُذْ العمل باسم الواجب العام إلى داخل روح الشخص، إلى حياته الداخلية - هنا يكمن جوهر التربية كمواطن في سنوات الفتوة والشباب الباكر». ولا يمكننا إلا الموافقة على ذلك.

هذه الأفكار التي صرحت بها للصحافة هي أفكاري[1]. لقد تم تخفيض سن الأهلية للأحداث من أجل قبولهم في العمل، وتشكلت ظروف مواتيةمن أجل قبول التلاميذ في العمل الإنتاجي، ولكن هل حدثت / بيريسترويكا/ أو إعادة بناء سيكولوجية على صعيد الأسرة نفسها ضمن هذا البرنامج؟ إلى درجة ما، وكما يقال فإن الجليد بدأ يذوب. وعلى كل

---

(١) / آ. س. بيلكين/ المراهق يريد أن يعمل. عامل أورال/ ١٩٨٠ : ٢٠ تموز.

الأحوال يجب علينا أن نفهم أنه من دون الأسرة، ومن دون علاقتها العمقية المتبصرة بتلك القضية، فإن التربية المدنية للجيل المراهق سوف لا تؤتي ثمارها، أي أن فعاليتها غير كافية.

كان شيئاً ممتعاً وغنياً بالمضمون أن يتم إختيار بعض مواد إحدى أعداد مجلة / العائلة والمدرسة/ (١٩٨٣/ العدد-٢-/ ، التي تتحدث عن التربية الإقتصادية للأطفال في العائلة. وعن القدرة في أن تصبح ربّ عائلة، غيوراً مهتماً بخيرك وخير الوطن.

إسترعى انتباهنا، من بين هذه المواد، مقالة المرشح في العلوم التربوية / ف. ايبوليتوف/ الموجّهة إلى الأهل مباشرة.

ف - ايبوليتوف

الحرص أو حسن التدبير

- إمكانات الأسرة -

إن سوء التدبير وعدم الحرص كفيل بالقضاء على كل شيء. تصوروا أن الأشياء التي نبذل قصارى جهدنا لنصنعها ترقد هنا وهناك مرمية تحت السماء المكشوفة . . . . وهذا بدوره يفقد أكثر الأعمال إبداعاً وأكثر الآلات حذقاً وتفنناً من مغزاها.

إننا مهما ابتعدنا سنعود حتماً إلى مسألة طباع الناس التي تمس التربية بالدرجة الأولى، وسيقودنا هذا بدوره إلى السؤال عن كيفية نشوء تلك السمة التي نطلق عليها إسم الفوضى أو سوء الإدارة وأحياناً التبذير أو الإسراف. هل نتيجة التربية السلبية أم نتيجة غياب التربية؟ وكيف ستتغلب على ذلك؟ من المفيد أن نعرف بأن تربية الحرص قد لا تتطلب أية جهود، فهذه السمة تولد وتتطور بنفسها.

تؤمن التربية الصحيحة للأطفال على حب العمل، تشكيل سمة

الحرص وسط السمات الأخرى الجيدة للإنسان. وكل من يتعوّد على العمل يجد فيه المتعة واللذة ويقدر قيمة الوقت ويحس بفائدة العمل وجماله. وستتشكل عنده في هذه الحالة سمة الحرص ولن يترك الذرة الصفراء تحت السماء المكشوفة وتحت المطر مهما كانت الظروف، ولن يرمي بالأدوات كيفما اتفق. فالحرص يبدو وكأنه سمة لا تنفصل عن التربية على حب العمل.

عندما يتمثل الأطفال سلوك أهلهم، فإن كل شيء يسير من تلقاء نفسه ومن دون أية مشقات أو متاعب، ولا تبرز مسألة التربية الخاصة بالحرص في الأسر المتكاتفة التي يسودها التفاهم والمساعدة المتبادلة.

هناك طريقة لتربية الأطفال اقترحها جان جاك روسو وهي «طريقة العواقب الطبيعية». ومفادها أن تبقى لفترة زمنية محددة من دون ذلك الشيء الذي خربته، لترى مدى حاجتك إليه، ومدى إستمراريتك في الحياة من دونه.

يجب أن لا نلوم أطفالنا، ونحملهم مسؤولية فشل محاولاتنا معهم، ونتفهم (عدم رغبتهم في الإصغاء). إننا غالباً ما نتكلم بحماسة وصدق، بيد أننا لا نرى بالمقابل الإنطباعات التي ترتسم على وجوه أطفالنا. يجب علينا الإنتباه والمراقبة، ولنر مدى تأثير كلماتنا ونبرة صوتنا عليهم، وما هي الحجج التي تؤثر وما هي الأشياء التي تمر مرور الكرام. يوجد في جعبتنا مبدآن تربويان، يقول الأول منهما بأنك إذا (ارتكبت خطأ، فعليك تحمل مسؤولية ذلك بنفسك). أما المبدأ الثاني وهو الأقوى فيقول بأنك إذا (ارتكبت خطأ فسوف تنال جزاءك). ولكن أفضل وسيلة لك ولطفلك هو في إصلاح ما خربه الطفل من دون تذمر.

وبالمناسبة فإن أكثر العائلات تسعى إلى تعويد أطفالها على القيام بالخدمة الذاتية ومن المناسب هنا شعار سوفوروف القائل: «كلما كان

التدريب أقسى، كان خوض المعركة أسهل). ولكن ترجمته إلى مفردات الحياة العائلية لا يعني بأن التدريب هو عذاب التربية العائلية، والمعركة هي صراع الطفل مع الحياة عندما يكبر، والقساوة هي صعوبة تعليم الطفل. أما السهولة فهي ليست في المستقبل البعيد، أي بعد خمسة عشر عاماً، وإنما هي بعد سنتين إلى ثلاث سنوات، عندما تستطيع الأم من دون خوف أن تعهد إلى الطفل غسيل الصحون (المغسلة، الحمام، المرحاض).

ماذا علينا أن نعلّم الأطفال؟ يجب أن نعلّمهم، على الأرجح، ما يستطيع الأهل القيام به. وتزداد درجة إستيعاب الأطفال لهذه الأعمال كالتحكم بالمكواة (ولكن ليس من دون خطر)، بحضور الأب المهتم والمنتبه والأم اليقظة.

ويمكنكم مبدئياً تعليم الطفل كل الخبرات التي تقومون بها بسهولة.

أما إذا كنتم تواجهون صعوبة في تعليم طفلكم، حتى يصل بكم الأمر إلى الاستسلام، فالأجدر بكم أن تبحثوا عن علّة ذلك في دخيلتكم.

الخدمة الذاتية للطفل وقيامه ببعض الأعمال المنزلية، كل هذا ما زال مستمراً في العائلات التي فيها بنات. ولكن واحسرتاه، إذا كان الأطفال من الذكور فقط، فالمذنب الأكبر في التبذير وفي الضلال عن الطريق القويم، وفي التصرف السخيف بالمواد والمؤن هو الأخ الكبير. ويعود ذلك إلى أن الحصة الأكبر من الخدمة الذاتية، والمشاركة في تحضير الطعام، وفي الغسيل والتنظيف، تقع على عاتق النساء والفتيات، وليس على عاتق الرجال والفتيان. إن حب العمل بالإضافة إلى سمة الحرص التي تتبع ذلك بشكل طبيعي، يجب أن تتشكل عند الأولاد وعند الشباب. على الرجال الكبار على أقل تقدير أن لا يعيقوا الأم بمثالهم الشخصي الأحمق، وألاّ يواسوا الأولاد قائلين: «حطمّ الراديو ـ هذا شيء تافه، نشتري واحداً آخر». ينصح علماء التربية الأهل عادة بالإمتناع عن إعطاء المواعظ.

الكتب التربوية التي تتناول موضوع التربية على حب العمل، متوفرة بما فيه الكفاية، ولستم بحاجة إلى الاعتماد على إكتشافاتكم البيتية البسيطة. ولا يكلفكم ذلك سوى أن تمضوا أمسية واحدة أو أخرى أو عشر أمسيات في قاعة المطالعة. يجب أن لا يغيب عن ذهننا عند القراءة، الأخطاء الإعتيادية التي يقع فيه الكبار أثناء تدريبهم لأطفالهم على العمل.

إليكم هذا المبدأ الأساسي الذي يجب على كل واحد منا أن يفهمه: إن الإنسان البالغ من العمر/ ٥/ إلى / ١٢/ سنة بحاجة إلى أن يعتاد على العمل، وأن يتقن الحركات اليدوية بالدرجة الأولى، كالنشر والثقب، والمعجنة، والغسل، واللصق، وتركيب البراغي في المعدن وفي الباب. . .

يجب على الصغار أن يقوموا بما يستطيعه الكبار، والحد الأقصى هو من / ١٢ إلى ١٣/ سنة. أما ما يتعلق بالغسيل، فهو إلزامي حتى للفتيان، ولا يضير الفتيات أيضاً المعجنة والدهان. من استطاع فهم قيمة الوقت والتعب والأدوات المستخدمة، ومن رأى جمال المصنوعات (أو بشاعتها لأن هذا ممكن أيضاً)، من مرّ عبر هذا الطريق مراراً، ولم يفقد عزمه (حيث كان الكبار يساندونهم في الوقت المناسب ويمدحونهم) ذلك هو من سيقدّر عمله وعمل الغير والخير الإجتماعي.

إليكم نصيحة بسيطة قديمة تقول: من المفيد أن يشارك الأطفال في الجلسات العائلية فيما يخص المشتريات «لمن/ لماذا/ ماذا/ ومتى»؟ والمصاريف الجارية وفيما يخص ميزانية الأسرة عموماً. المسائل النقدية ـ مسائل حرجة ـ والأوقايل هنا كثيرة، فالكثيرون حتى الآن يرتاعون إلى درجة مخيفة، إذ أنهم ينسبون إلى المال قوة ذاتية قادرة على الفساد. هناك أسئلة أبدية تواجهنا حول المال: هل يمكننا إعطاء النقود للأطفال، متى وما هي الكمية؟ وهل يمكننا إرسالهم لشراء بعض الحاجيات؟ يجب أن لا نبالغ ـ أن لا نرتجف بمجرد ذكر المال وألاّ نبخل. والإقتصاد في المصروف؟ طبعاً

وهل يعقل غير ذلك. . . . أن نسأل الحساب عن كل قرش؟ هذا ممكن، ولكن شرط أن يجري بطريقة معينة وبشعور من المرح والمزاح. وماذا إذاً. . . إذا ذهبت فتاة عمرها ثلاثة عشر عاماً، لتمسح البلاط عند الجيران مقابل أجر مدفوع بمعرفة والديها، وكلاهما لا يحرك ساكناً، فهذه النقود لحسابها الخاص. لقد كان ذلك يقيناً، ولا بد من توضيح الأمر، تلبية لنداء الرأي العام. تبين بأن البنت هي الكبرى في الأسرة، ولها أخوة كثر أصغر منها، وميزانية الأسرة ضعيفة، ولقد اشتغلت التلميذة بنفسها لتغطي مصروفها الخاص في الذهاب إلى السينما والمسرح والسيرك. عندما سمع الأهل للمرة الأولى أن ابنتهم تمسح البلاط عند الجيران وثبوا مندفعين لتقصي الأمر، نظروا وخمنّوا الوضع ولكنهم لم يحركوا ساكناً. أخذت أجراً؟ نعم. مقابل جهدها؟ مبارك عليها إذن. وأطل المربي أيضاً، زان الأمر: دراسة البنت جيدة أرادت أن تذهب إلى المسرح ولذلك أخذت تعمل بأجر.

يجب أن لا نخاف من المال. يجب أن نخاف من عبادة الأشياء، وألا نخاف من الحرص أيضاً. هل يجب أن يعرف الأطفال أسعار البضائع والأشياء الأخرى في المخازن؟ ولما لا؟ إنهم سيعرفونها بأنفسهم، إذا شاركوا في المشتريات، وليس عن طريق (الطلب الملح). لندعهم مع الأهل يجربون ويخططون.

وبالمناسبة فإن «مبدأ العواقب الطبيعية» يعمل هنا أيضاً. يمكن ترتيب الأمر بحيث تبقى ميزانية الأسرة متوازنة خلال الشهر، والمصاريف على قدر المداخيل. من الممكن أن يقوم بذلك الإبن البالغ اثني عشر عاماً. ومن الطبيعي أن يكون الترتيب الطبيعي لتربية الحرص، كالكثير من الخطوط الأخرى في تطور الحالة النفسية للطفل، حيث تصعد من المواد الحسية الملموسة إلى المفاهيم والظواهر المجردة. المحافظة على الشيء أهون من المحافظة على الوقت، والمحافظة على الوقت أهون من المحافظة على الجهود الخاصة والعمل الخاص.

لكي نتعلم المحافظة على الوقت من المفيد أن نتبع هذه الخطوة العملية البسيطة: أن توزع اليوم إلى فترات زمنية (زمنك) و (وزمن الغير). على سبيل المثال: أن تخصص فترة المساء بعد تحضير الدروس لقضاء شؤونك الخاصة.. من المفيد جداً أن تعوّد نفسك ضمن الأُسرة، وتعوّد طفلك على توزيع اليوم إلى فترات زمنية، وخاصة عندما يستعجلونك في شيء.. وعندما لا يستعجلونك... (لا تستعجلك) الدروس فقط فالظروف تستعجلك أيضاً.

ليس بالضرورة أن تسير العملية التربوية إلى الأمام فقط وبخط مستقيم وتتطور بشكل منهجي، من دون خصومات وهزات عائلية. كل شيء محدد مسبقاً، كل شيء موزون، كل شيء مفهوم.... لا، الأمر بعيد كل البعد عن ذلك. وعلى الرغم من وجود برنامج واحد لتربية جيل المراهقين، ونظام تعليم واحد، فإن كلّ عائلة تفهم الكثير من مبادىء البرنامج على هواها. إن ذلك شيء طبيعي، ولكن هل يلتقي دائماً هذا الفهم مع وجهة النظر الإجتماعية.

منذ عدة سنوات نشر المهندس / ف. سيروف/ مقالا في المجلة الدورية «الجريدة الثقافية» بعنوان من نربّي؟ وأحدثت جدالاً عاصفاً.

عبّر الكثير من القراء عن رفضهم الحاد للفكرة الأساسية التي أوردها / ف. سيروف/ والتي يمكن أن نصوغها على الشكل الآتي: يجب أن نربّي مناضلين، أناساً قادرين على بلوغ الهدف، لا يستسلمون للشكوك والتأملاّت ولا يعانون الكثير بصدد الإخفاقات الحياتية.

يتراءى لنا للوهلة الأولى بأن وجهة النظر هذه تحمل الكثير من النقاط العقلانية. ولكن بقليل من التبصر والتفكير العميق، يصبح من الصعب علينا إن لم يكن من المستحيل أن نقبل دون تحفظات، الكثير من مبادىء المؤلف.

على أية حال لنعطي القارىء فرصة للتعرف بنفسه إلى هذه المقالة.

ف. سيروف

من نربّي؟

أريد أن أتقاسم وإياكم أفكاري التي تقلقني منذ فترة طويلة، سأورد لكم واقعة تثير الشجون: عاملة في مجتمع كيميائي عمرها ١٥ عاماً أقدمت على الانتحار، والسبب - حب فاشل - قد لا يكون هذا التوضيح كافياً لأنه لا يكشف كل أبعاد المأساة.

نعم، لقد حدث في ذلك المساء عندما رفضها الفتى الذي أعجبها، وباءت بالفشل جميع محاولاتها للزواج منه. ولكن بعد أن فكّرتُ بما حدث، وبعد أن اطّلعتُ على تفاصيل جديدة وجديدة عن حياتها، توصلت إلى إستنتاج، بأن السبب ليس هنا ولكن في شيء آخر. لقد كان ذلك باعثاً فقط.

أنا أسمح لنفسي بأن أتجرد قليلاً وأُذكّر القارىء بإحدى الروايات التاريخية الأدبية:

رواية ستيفان زفايغ وهي بعنوان (لهفة القلب). بطلة القصة (إديت) وضعت حداً لحياتها بالإنتحار بسبب فشل حبها. لقد تأثرت بمهارة الكاتب الموهوب وتابعت كل أفكاره وكنت مقتنعاً بها كل القناعة. وقلقت على مصير الفتاة التعيسة الحظ.....

وفجأة.. (وأرجو أن تفهموني بشكل صحيح) أنا لا أحاول أن أسوق الماضي بإسم الحاضر، ولا أطلب بأن تتشكل مجموعة سريعة من إعادة صياغة كل ما هو كلاسيكي، بما يتوافق مع الأفكار الجديدة، ولكني أحسست فجأة بأني لم أعد أحزن على (إديت)...

حاول الكاتب ستيفان بكل ما لديه، من خلال هذه الرواية، أن

يحملني على البكاء، وأظن أن هذه الرواية قد بللّت في وقتها الكثير من الوسائد بالدموع وجعلتها ندية، ولكن أن تجلعني أنا ـ إنسان اليوم، إنسان منتصف القرن العشرين، الذي ترعرع منذ نعومة أظفاره على النماذج البطولية ـ أحزن على هذا المصير التعيس لفتاة قضت بالإنتحار من أجل حب فاشل. لقد سميت نفسي بربريا، صنماً، حجراً، ولكن أسفي وحزني لم يزدد أبداً. بدأت بعد ذلك أرتب وأنظم أفكاري: وأسقطت ذلك على وضع المرأة المحرومة من الحقوق في بداية القرن العشرين، وعلى مشاركتها السلبية في الحياة الإجتماعية، ومظهر تسامحها تجاه إديت.

ولكن إديت تلك ـ تعود لزمن آخر ولظروف أخرى. ماذا يمكننا أن نقول عن شخص يكرر ما فعلته «إديت» في الوقت الحاضر، مع أنه لا يملك نصف المسوّغات التي كانت لدى بطلة القصة؟

من الممكن أن يكون ذلك قاسياً، ولكني لا أشعر بالحزن على هذه الفتاة أيضاً، إني أمتلىء غيظاً، فقط لأن هذه الفتاة فارقت الحياة من دون أن تبحث عن الأفضل. وما يقلقني ويزعجني أكثر هو أننا نربّي أطفالنا عاجزين إلى حد كبير أمام هذه الحياة. ألم ننسى أيضاً بأن أطفال اليوم سيصبحون غداً في صفوف المناضلين؟ يجب علينا أن نربّي عندهم مشاعر الصلابة منذ الطفولة، والدفاع الذاتي والحزم، وحتى القساوة عندما تكون هناك حاجة إلى ذلك. الإنتحار على أرضية الحبّ تطرف خطير، بالاضافة إلى أنه دليل على ضعف النفس ومحدودية الإهتمامات. وهل يمر يوم من دون أن نصادف تجليات لهذه السمات أكثر سطحية وأقلّ وضوحاً، إذ ينشأ منها حب الذات والأنانية ـ وكل ما يخطر على بال. . . .

إحدى قريباتي من الفتيات لم تدخل المعهد، ولا تزال حتى الآن تعتمد على أهلها من غير أن تقرر الإبحار بشكل مستقل في خضمّ هذه الحياة. . . . ولَدَت طفلاً لتقوم الجدة بتربيته! أمّا هي فتهتم بالتوافه.

يحاول بعض الأصدقاء بالحق والباطل منع أطفالهم الذين لهم من العمر سبع سنين، من الذهاب إلى العمل الصيفي في المزرعة (سيتعب من جراء العمل، فالكدّ بانتظاره بعد) ولكن الطفل مسرور على كل حال.

من المخجل الدخول إلى المخزن أحياناً بسبب الصراخ المتواصل للأطفال الصغار: «بابا» اشتر لي! ماما خذي لي ذلك! أنا لا أريد! «إني بحاجة». لم يشتروا له لعبة، إنها مأساة، ويدخل في نوبة هستيرية، ويضطر الأهل إلى شراء اللعبة له. ألا تلاحظون أن المأساة تبدأ من هنا، وتنتهي في الخامسة والعشرين من العمر؟

أنا لا أريد لإبنتي أن تنشأ شجاعة جريئة، وأن لا تنحني أمام أي مكروه. يلزمها قبل كل شيء إرادة قوية، أما ما تبقّى فيأتي لاحقاً.

من ننشيء؟ من نربي؟ أنا لا أريد من الأهل أن يتـمـعنوا في هذه القضية، ولا أريد أن أعقّد المسألة بإضافة المزيد إليها، فالآن يترعرع عندنا الكثير من الشباب الممتاز. ولكن العيوب كثيرة هي أيضاً. هناك الأشخاص الدائمو الشكوى، والأنانيون والذين يستسلمون أمام أول عائق أمامهم. هؤلاء الأشخاص يجب أن لا يوجدوا أبداً. إن عصا السباق قد نقلها لنا أو قد سلمنا إياها أُناس شجعان.

المجلة الثقافية

٩/ايلول ١٩٧٤

في رسالة / ف. سيروف/ الكثير من الأفكار التي يمكن أن ننصح الأهل بها. أليس محقاً عندما يحتج على الأهل الذين لا يرسلون ولدهم البالغ من العمر سبع سنين إلى العمل الصيفي في المزرعة، أو عندما يدين الفتاة التي لا تدخل المعهد، والتي لا تعتزم الدخول في خضمّ الحياة بشكل مستقل؟

نعم، نحن نريد أن نرى أطفالنا شباباً، أقوياء، أشداء، شجعاناً

ومبدئيين ولكن. . . وعلى كل الأحوال ما هو الشيء الذي يستدعي الشك والإرتباب وحتى الإحتجاج الداخلي في هذه الرسالة؟

تعالوا نقرأ معاً بتروّ الكلمات التالية: «يجب أن نُسَلّح أطفالنا منذ نعومة أظفارهم بمشاعر الصلابة والدفاع الذاتي والصرامة، وحتى بمشاعر القساوة أيضاً، عندما يحتاج الأمر إلى ذلك».

هذه الفكرة التي وردت في رسالة / ف. سيروف/ كانت سبب الإحتجاج وحتى الإستياء أيضاً. هل المأثرة أو البطولة ممكنة، إذا كان الإنسان، في اللحظة التي يجب أن يقذف بنفسه إلى النار، لإنقاذ حياة طفل، أو أن يدافع بجسده عن فتاة لا حول لها ولا قوة في شارع معتم، ويجبر ذلك الشقي المستهتر أن يعود إلى رشده، أن يسترشد فقط بغريزة حفظ الذات؟

تصوروا ذلك المجتمع المؤلف برمته من الأشخاص «الذين تسيرهم مشاعر الدفاع عن النفس»، والمقترنة أيضاً بمشاعر «القساوة عندما يتطلب الأمر ذلك»، كما يقترح / ف. سيروف/ . المعذرة إنْ قلت لكم أن هذا ليس مجتمعاً بشرياً، وإنما قطيع من الحيوانات تقوده الغرائز البهيمية.

ألن يقود ذلك إلى أن ننسى هذه المفاهيم كالغيرية والتضحية بالذات والطيبة والإخلاص وبعض الأخلاقية والروحية الأخرى، التي لا معنى للعلاقات البشرية الطبيعية من دونها.

هل من الممكن أن نرضى أو نوافق على منطلق كهذا في فهم الحياة، وبالتالي في فهم التربية. عن هذا الموضوع يحدثنا الفيلسوف / غ. باتيشيف/ .

/غ. با تيشيف/
منطق قانون الطوارىء أو حالة الطوارىء

من الملاحظ أحياناً أن الإنسان يبدأ بفهم حقيقة أمر ما بشكل أفضل، عندما يحاول أحد ما أن يدحضها بشكل حاسم. إن رسالة المهندس

/ ف. سيروف/ تؤدي هذا الغرض، وقد أدّت هذه الخدمة التي نوهنا إليها حيث ساعدت الكثيرين على إدراك القيم التي سعت هذه الرسالة إلى نفيها بشدة.

لا بأس، أن يرتعد البعض خوفاً لدى سماعهم الحكم الصادر عن المهندس / ف. سيروف/ : (لا مكان للضعفاء على هذه الأرض). إنه شعار بسيط كأي شاخصة طريق. على كل الأحوال نشكر المهندس / ف. سيروف/ لأنه أشار إلى موضوع الخلاف بدقة وبشكل مباشر، وتحدث عن السمات التي يجب أن نصوغها كنقاط إنطلاق، أو كحجر أساس، وعن السمات الأخرى المشتقة منها، (ما هي السمات التي تحتل المكان الأول، وما هي السمات التي تحتل المكان الثاني). هل يمكننا في واقع الحال، أن نستمر في الوعظ عن قيمة بعض السمات الرائعة للأخلاق البشرية، من غير أن نعرف من أين نشأت ومن أيّ مبدأ. من أين نبدأ؟ ماذا يجب أن يوجد في أعماق الروح الخفية التي تحدد بنفسها وبشكل حازم كل السمات وإمكانات الإنسان الأخرى؟ إذا كان هذا المصدر العميق موجود كقوة - قوة بذاتها - فلنقلّب الأمر ولنر ماذا يعني كل هذا. تنشأ من هذه القوة سمات لا غبار عليها: الشجاعة - البطولة - التضحية بالنفس - الصلابة، وإرادة الكفاح. بيد أننا لا نريد أن نستعجل الأمور، ما هو العنصر الأولي المحركّ في هذه القوة بالذات؟ العنصر البناء الخلاّق؟ أو على العكس الشيء المدمرّ المدعو لتخطي العوائق والصعوبات؟ ينطلق هذا السؤال المتعمّد (المماحك) من تصور صحيح. إذا كنا نحن وإياكم منهمكون بالبناء، وفي الوقت نفسه جادّون في حماية هذا البناء من الأعداء، ومن المخربين، عندئذ يجب أن نحميه بالعقل. ولكن المسألة تكمن في أن القدرة على حل القضايا المعمارية، لا يمكن أن نقتبسها من خبرتنا في مقاومة المخربين أو في مجابهتهم.

عندما يعتمد المهندس / ف. سيروف/ على «القوة» كما هي، فهو يتصرف بشكل منطقي تماماً، ويعالج هذه «القوة» باقترانها الذي لا ينفصم مع

المقاومة لهذه القوة. كما في القانون تماماً: لا يوجد فعل من دون رد فعل. ينتج عن ذلك، أن «القوة» هي قبل كل شيء مقاومة، وينتج أيضاً أن العنصر الأولي المحرك «للقوة» هو ضرورة الوقوف ضد شيء ما. يتلخص منطق / ف. سيروف/ بما يلي: تنشأ القوة وتكبر من الإصطدام بعوائق عدائية لها - ليس مهماً ماهية هذه العوائق هل هي كائنات بشرية أم لا - إنهم جميعهم متساوون بوقوفهم قوة مضادة سلبية. القوة - هي وليدة التناقض، وتنحصر في سعي الطاقة والإرادة في تخطي العوائق، وفي القدرة على الهجوم النشط، والتخطي والإنتصار، شعارها - النضال ضد، الصراع مع الأشياء والناس كما لو أنهم كانوا أشياء يمتلكون الوعي فقط. . . . ولكن كما أشار بحق الكاتب / جوخو فيتسكي/ أثناء مناقشة مع / ف. سيروف/ بأن الصراع ضد أسهل بكثير من الصراع من أجل. يقال لنا أحياناً، ليكن الله معه، ومع «المنطق الخالص» لـ/ ف. سيروف/ . وماذا يريد في الواقع وفي الحياة العملية؟ يريد ذلك، ليجد ما يريد. ونحن وإياكم إذا أردنا نجد.

لنتذكر سوية، / أولغا بيتروفنا فرونينا/ ، من مقالة بعنوان «مهنة الدكتورة فرونينا» لكاتبها / الكسندر بورين/ والمنشورة في (الجريدة الثقافية). بطلة هذه المقالة بعيدة عن المزاح وعن التطرف المبالغ فيه. إنها غارقة في تحقيق هدفها عبر منطقها الخاص. . . . ولكن تخلق حولها دائماً «مجالاً من الأرض المحروقة»؟ لماذا لا تستطيع هي أن تحيا بشكل آخر، عدا أنها تزرع التناحرات والصدامات القاسية؟ إنها بنضالها من أجل قضايا هامة ومفيدة، وبصرفها طاقة تحسد عليها، لا ترى ولا تريد أن ترى، وفي السياق النهائي، غير قادرة على أن ترى أي شيء في العالم المحيط بها سوى الأشياء والوسائل المكرسة لتحقيق هدفها. الأشياء والناس وسائل سواء بسواء. وكا قالوا عنها: عندما تلقي التحية عليكم، فهي لا تلقيها عليكم وإنما على مقدار علاقتكم بقضيتها.

تستحق هذه «الشخصية القوية» الوقوف عندها قليلاً، إذ نكتشف تحت قناعها الفاخر الرومانتيكي، إستقامة إلى حد التعصب، تتيح لها إستبدال العلاقات البشرية بعلاقات بين الأشياء(شيئية)، لا تترك مكاناً للشخصية، ولعالمها الأخلاقي ولكرامتها. وهناك شيء جوهري آخر: من أجل استنبات «شخصية قوية كهذه» يلزمنا مناخ من التوترات العدائية، إذ يجب تحويل كل الخلافات إلى تناقضات عدائية، بالإضافة إلى التهديدات الدائمة ووجود «الأعداء» ـ في العمل، في الحياة العادية وحتى في المنزل. وإذ أن هذا المناخ هو الذي يغذّي فقط ويساعد قوة كهذه، هذه القوة التي تكشف طبيعتها السلبية فحسب. إذا لم يكن لديك «عدوّ» فيجب عليك أن تجده ـ هذا هو مبدأ «الشخصية القوية».

كل القضية تكمن في المبدأ، وليس في علم الأخلاق، وفي قواعد السلوك.

عبثاً أخذ البعض على / ف. سيروف/ عدم التهذيب والخشونة وبعض الأخطاء المماثلة الأخرى. فالحديث لا يدور عن الأساليب الخارجية للمعاملة، وإنما عن المبدأ الأخلاقي «أو اللا أخلاقي»، الذي يستجيب لمنطق صراع كهذا، هذا الصراع الذي هو قبل كل شيء ضد، هذا المنطق لا يستثني إطلاقاً عند مناصريه، الأساليب الخارجية «الديموقراطية»: أتريدون ـ سوف نهديكم إبتسامة عريضة، وسوف نشد على أياديكم. ونلاحظ بلطف نجاحاتكم في العمل وفي حياتكم الشخصية. وإذا وضعنا جانباً الأحداث الضرورية، فإن ذلك سيكون سلوكاً صادقاً بالنسبة لـ «الإنسان القوي». وفقط، على هذه الديموقراطية الخارجية التي يمتلكها، يجب علينا أن نمنحه حق عدم الأسف والرحمة ـ أو على الأرجح، من أجل فائدتنا وخيرنا ـ ليس فقط على أنفسنا وإنما عليكم أيضاً ـ عدم الشفقة والأسف، ليس لأنكم أنتم سمحتم لهم بذلك وأسفتم على ذلك من بعد ـ وإنما بكل بساطة، لأن لدى

«الشخص القوي»، القدرة على الحسم وإتخاذ القرار، وعنده إرادة لذلك، أرأيتم؟

المهندس / ف. سيروف/ يطرح مثاله بشكل مكشوف وكاف: بالعمل «من غير أن تشفق على نفسك وعلى المقربين. هكذا تجري الأمور». لماذا «تجري الأمور هكذا» بالتحديد؟ لا تجري الأمور هكذا إطلاقاً بسبب السعي نحو «قلة العناية» أو «اللطف»، وإنما بسبب ذلك المنطق الذي يمحو كل الحدود الفاصلة بين المجرى العادي للحياة وبين الأوضاع المأساوية الطارئة. وبسبب المنطق الذي يحاول أن يدخل المأساة إلى حياتنا العادية وأن يدخل أيضاً معايير قوانين الطوارىء.

كيف لنا أن لا نتذكر / فرونينا/ ثانية هنا؟ إنها مخلصة لقضيتها، فهي تعمل بسرور وحبور، وبنكران للذات. ولكنها في الوقت نفسه تحول كل قضية إلى ساحة قتال، إلى ساحة للصدامات التناحرية الحتمية، وتحول كل المساعي التي تحت تصرفها من أجل النصر والنجاح. لا توجد أية معايير سوى النجاح في العمل، سوى النتيجة المحسوبة والملموسة. هذا يعني، أنه لا توجد حتى القواعد الأخلاقية ولا الضوابط عدا ما يقرره العقل أثناء العمل، وعدا ما يعود على القضية من منفعة.

تقول فرونينا: لندعهم يناقشون في المعايير الأخلاقية، وفي الوسائل غير المسموح بها، على أن هناك من أخفق منهم في الصراع، ومنهم من لم يعمل بشكل حقيقي ولم يسعَ للنصر. هذا هو مصير غير الناجحين، هذا هو مصير الضعفاء. فالمنتصر هو من يبرهن عن قوته بالنجاح الفعلي، ويحصل في الوقت ذاته على تصديق من كل الجوانب، فهو قد عانى الحرمان والمصائب، والتضحية والنفقات. لقد سجل «الإنسان القوي» هذه الجوانب في عداد الوسائل، هذا يعني أن أي فقدان في تلك الوسائل سيتم التعويض عنه بالنتيجة النهائية، وبتحقيق الهدف.

إن أية نتيجة مهما كانت عظمتها وجبروتها لا يمكن أن تكون حاسمة في عملية التقدم التاريخي ـ الثقافي البشري ـ.

ولذلك فإن كل الاسنادات على النتيجة المستقبلية، التي بإسمها تبرر جميع «النفقات»، تُخفي في الواقع إستحواذ «الانسان القوي»، على الحق في أن يضع في الميزان الحسابات التقنية ـ المنطقية لمصائر القريبين والبعيدين، من دون أن يسألهم عن ذلك. الحق في «عدم الإشفاق» على الآخرين، الحق في أن نتعامل مع كل إنسان آخر كما نتعامل مع كميات الطاقة والأشياء الأخرى، هنا يكمن جوهر شخصية الإنسان الذي يسعى إلى تحويل هؤلاء الناس إلى قيمة متناهية في الصغر، في ترسانة الوسائل والمواد المفيدة. إنه منطق قاسٍ. إنه منطق بكل تأكيد، وجهة نظر، مبدأ، وليس نتيجة مزاج أحمق. إن محاولات المهندس / ف. سيروف/ في صرف النظر عن المطابقة بين الشجاعة والصلابة، باطلة لا جدوى منها، طالما يتمسك بمنطقه الذي اختاره بنفسه. القضية لا تكمن في عناده وإنما في القاعدة: الصلابة موجودة حيث يوجد الصراع. وهكذا فإن منطق القوة «الصراع ضد» يتطلب أن نتبعه، حيث يجب أن لا نتبع الأوهام العاطفية، فهي ضعيفة ولا تبرهن إلا عن ضعفها. ليس مصادفة أن يقلق المهندس / ف. سيروف/ على مصير أولئك الأطفال الذين «تسير أمورهم وحياتهم العائلية بيسر وهناء». اليسر أو البحبوحه هو الخطر الذي يخيم بجناحيه على التربية! ولكن حسب مبدأ (الصراع ضد) فإن كل شيء يجب أن يأخذ هذا المنحنى. إذا عجز التناقض المريع عن تحطيم اليسر والهناء، فإنه لا يوجد أي شيء يمكنه أن يوقظ القوى الفعالة للكائن البشري، ولا شيء يمكن أن يعزز إرادته.

هذا هو الخيار بين شيئين. إما روح العداء المتحفزة والموجودة في المقدمة، وإما الخمول المتلفح بالراحة والنعيم ولا وجود لخيار ثالث.

وعيب هذا المنطق يتراءى لنا شيء ما غير محتمل لا يمكن تصوره،

وهو أن الإنسان المتشكل يمكنه أن يكتسب بنفسه ولنفسه القدرة على تكريس حياته من أجل مثال سام أو فكرة سامية.

لا يجري هذا الإكتساب في واقع الأمر إطلاقاً تحت ضغط الظروف الإستثنائية لحالة الطوارىء، وليس في جو من التناحرات الأبدية، وإنما على العكس، في ظروف مواتية تماماً وعادية. مع كل ما يرافق الحياة من تناقضات عادية وقضايا يوقظها الإنسان في الحياة الخلاّقة، من خلال إستقصاءاته وما يجده أثناء ذلك. يطور إمكاناته ويرفعها حتى المسؤولية الأخلاقية الذاتية عن كل أعماله الجارية في هذا العالم الواسع وقراراته، وعن ضميره الطيب. إذا تعمقنا في التفكير قليلاً، نجد أن «منطق القوة» لا يثق بإمكانات الإنسان. ويتكل على منطق صراع القوى المتضادة التي تُعَلّمنا دروسنا وتصوغ طباعنا حيث لا تتاح لنا حتى فرصة الإستراحة.

لقد تذكرت مقالة / فاليري ألفيف/ بعنوان «وثبة نحو الغنيمة». فالشخصية الرئيسية هنا نموذج تام لـ «الإنسان القوي». إنه متعصب يلغي تحته كل الناس الآخرين. فهو أعطى كل شيء لأسرته، سنوات عمره وصحته، ولم يأسف على شيء. إنه ينام قليلاً، دائماً مع مرؤوسية، لا يوجد أي حاجز بيروقراطي. ويخلق أينما وجد جواً متوتراً إلى حد كبير، وموقفاً ضاغطاً، هجومياً، واستنفاراً دائماً. أُمنيته الوحيدة إستنفار عسكري دائم، حيث يمكنه في هذه الظروف فقط أن يعتصر كل شيء حتى النهاية، من الآلات، ومن الناس، ومن الوسط الطبيعي، من دون أن يوقفه شيء. فالأحوال العادية السلمية تربكه، وتحرمه من الإكتساب (الإنتاج) الجائر، ومن العمل القاسي لبلوغ النجاح بأي ثمن. «الآلة تضني وتجعل الناس يُقدمون على أية مجازفة، وهي لا ترحم أيضاً، كل شيء مسموح به، كل الوسائل جيدة. لقد عرفنا منذ زمن بعيد: أن المنتصر لا يخضع للمحاكمة... فالجميع يسرعون نحو النجاح»...

لا ينبغي أن نتعجب من أن ذلك «الإنسان القوي» يوجد في حالة نزاعية دائمة مع مرؤوسيه في العمل، وخاصة أولئك العمال الحقيقيون الذين لا يتهاودون مع الإنتاج الهمجي المدمر، من أجل النجاح والمجد. إنه يحتاج إلى قدراتهم البشرية، إلى عملهم، وإلى فنهم، وسرعة بديهيتهم. وفي الوقت نفسه لا يشكل هؤلاء الناس بالنسبة له سوى مادة خاضعة للصرف والإنفاق. وهكذا فإنه يقود معهم صراعاً طويلاً مضنياً، منفقاً قوى غريبة، ومستعداً للمجازفة بحياة الآخرين - إن اقتضى الأمر - من الضغط العلني والسرّي حتى الديماغوجية والمتاجرة بالمشاعر والأهداف المقدّسة. بيد أن موقف «الإنسان القوي» الذي يتشكل أو يتكون بشكل حتمي تجاه قضايا الحياة الإجتماعية وصعوباتها له أهمية خاصة. الإنسان القوي، ليس في حالة تسمح له بالتمييز بين حوادث الخصام والأفعال العدائية الحقة، وبين المشاكل الحياتية العادية التي تتطلب التغلغل السلمي إلى جوهرها الخصوصي.

ليس لديه، من أجل ذلك لا المقاييس ولا الثقافة الضرورية. فسلبية التفكير تمنعه من إدراك، التناقض الجدلي القائم في كل قضية حقيقية والتي تحتاج إلى البراعة لحلها ابداعياً. ولكنه حتى لو أدرك هذا التناقض، فإنه لن يفهمه إلاّ في إطار تناحري. فهو يتوجس شراً من التناقضات، ويرى فيها شيئاً غير محتمل لا يطاق. ولكن بالرغم من أن التناقض شر مرغوب فيه، وحتى ضروري، لأنه يعطي الأساس للاستنفار العسكري وحشد الطاقات لإستئصاله ومحقه. فإنه في الوقت نفسه، لا يعتبر بالنسبة إلى هذا الإنسان باعثاً طيباً للإستقصاءات والأبحاث الإبداعية المتنوعة، وللحلول الجديدة، وإنما هدفاً للهجوم - الهجوم ضد عدو مفترض. ولذلك فإن «الإنسان القوي» يوجه كل عدائيته للقضايا - الهامة أيضاً - وضد البحث الإبداعي والغني بالمضمون. هكذا هو البيروقراطي.

إنّ من يبحث عن الحلول مذنب بنظره، ومتسبب بنشوء القضايا

الإشكالية. ولهذا السبب كان البرنامج التربوي الذي طرحه المهندس / ف. سيروف/ مرفوضاً رفضاً باتاً من وجهة نظر آفاق ومهام الإنسان المتطور كلياً وشمولياً. إذ أن المنطق عنده منطق معكوس: الصراع ضد القوى العدائية خاضع للصراع من أجل التقدم نحو المثل الأعلى، هذا يعني أن التربية العائلية والمدرسية يجب أن تبدأ، وبالضرورة في جو إنساني حريص، وخلاّق. يجب أن تبدأ التربية إنطلاقاً من المثل الأعلى الإيجابي. على المربّي في البداية أن يتقبّل بنفسه، ويتشرّب السبب الذي يؤدي بالإنسان إلى التضحية بالنفس، يتلو ذلك إيجاد السبب ومن ثم الجاهزية أو الإستعداد للقيام بذلك.

باختصار - في البداية المثل الأعلى الإنساني الأصيل، يتلوه القوة من أجل تجسيده، في البداية الجوهر الإنساني العميق، وبعد ذلك - أساليب التعبير الفعالة عنه.

بالحقيقة، فإن كل القوى البشرية لا تبدأ من مقاومة عالم الأشياء، ولا من الصراع ضده «حيث يَعْتَبِرُ الناس من الأشياء أيضاً ولكنهم أشياء واعية» وإنما من الصلة بالآخرين وبعوالمهم البشرية والشخصية.

مفاهيم «الآخرين» المستوعبة داخلياً والمعترف بها، ليست مواضيع للتأثير في الآخرين. إنها ليست مواضيع لعمل الخير والإسعاد، تقوم بها من أجلهم من دون أن يطلبوا ذلك بأنفسهم... عندما يكون الآخر بالنسبة لي، عبارة عن موضوع للإحسان لي فقط ولمساعدتي في أعمالي - وذلك وفقاً لإعتقادي الخاص، وماذا يعني الخير أو عدم الخير بالنسبة له - فإنه لا وجود لأية علاقة بشرية حقيقية هنا، ولا توجد أية أرضية لها. «الآخر» الحقيقي، ببساطة ليس أياً كان أهتم به وأصبوا إليه، وأشغف به، إنه عالم آخر مستقل وشخصي، أقبله بكل نواقصه وعيوبه. أن ننسى ذلك - هذا يعني فقداننا للشيء الإنساني في الإنسان، وأن نأخذ بعين الاعتبار، ما طاب لنا - السمات، المآثر، المنصب - ولكن ليس الإنسان الحي بذاته.

أما ما يخص / ف . سيروف/ فإنه ينبغي أن نعترف بأن المنطق الصارم الذي اختاره للوصول إلى السعادة، لا يصمد هنا، حيث توجد عنده تصورات تقود عبر الطريق القويم - بعيدة عن مفهوم «الإنسان القوي». إذا كان / ف. سيروف/ يؤمن من صميم فؤداه بحق كل شخص بـ «أن يملك هدفاً سامياً فردياً» - كل شخص تحديداً - فإني سأدعمه على هذا بالتأكيد. تربية الجيل المراهق، يجب أن تنحصر تحديداًفي مساعدة كل فرد على أن يرتفع إلى ذلك المستوى، المدني التعليمي الأخلاقي. حيث مهمات المجتمع الكبرى، المهمات التاريخية الثقافية، لا تبدو بالنسبة لهم شيئاً ما عالياً لا يمكن بلوغه، وإنما قضية واضحة وصريحة والمسؤولية مضاعفة أمام الإنسان، إنها قضية ذهنه الخاص وضميره أيضاً.

نحن نكبر، ويجب علينا أن ننشيء جيلاً عنده الإمكانية لقبول المهمات الإجتماعية على مسؤوليته الخاصة، وأن يكون مسؤولاً عن تنظيمها وصياغتها وحلّها.

الجريدة الأدبية

١٣ - آب عام ١٩٧٥

يجب علينا أن نسترشد تحديداً بذلك المدخل الذي صاغه /غ . بانيشف/ في كلماته الختامية، وأن نعير إنتباهاً خاصاً إلى الكلمات التالية عن قانون إصلاح المدرسة: «يجب على المدرسة أن تنشيء، تعلّم وتربّي الأجيال الشابة، على أن نأخذ بالحسبان تلك الظروف الإجتماعية التي سيعيشون ويعملون فيها». هذه الكلمات تمسّ إلى حد كبير مهمات الأسرة.

نحن، الأهل نسعى دائماً ليكون عند أطفالنا نموذج ما للمحاكاة، بطل ما، ليكون مقياسا لهم، يقيسون من خلاله كلماتهم وأفعالهم. من المفيد أن

يوجد بطل كهذا يستحق الإحترام الفعلي، وأن يوجد ذلك الطفل الذي لديه مفاهيم عن الشخصية الفَذّة المرتبطة بالسمات التالية: الطيبة، حب العمل، الإخلاص، الشجاعة، والقوة الجسدية. ولكن المصيبة في أن يرى الطفل في الشخصية «القوية» القوة الجسدية فقط، والقساوة وقوة العزم، حيث لا يأنف من إستخدام أية وسيلة من أجل الوصول إلى هدفه. وهذا أمر سيء إذ لا تترعرع شخصية مفيدة للمجتمع - وإنما شخصية أخرى تماماً.

إنّ الزمن كفيل بتقديم أبطاله. ونحن نثق بهؤلاء الأبطال ونحاكيهم.

بمن نثق ومن سيحاكي أطفالنا الآن؟ الأغلبية - رواد فضاء، كشافون شتيرليتس[1]، تريتياك «رياضي سوفيتي»، رودنينا[2]، ممثلون مشهورون. . . وكلما ازداد الأبطال إزدادت الإهتمامات، لكن هناك بعض الشباب الذين يمارسون بعض الفرز والإختيار. ومن السيّء أن يتحول إحترام الفنان المشهور أو الرياضي إلى عبادة. عبادة الفن إلى عبادة الأصنام، والحماسة، إلى ميل تاريخي.

ليس مصادفة، أن كتبت إحدى التلميذات، إلى جريدة «كومسمولسكايا برافدا» عن مثلها الأعلى وهو الفنان والإنسان، الذي تجسد لها تحت إسم ميخائيل بيارسكي. ولكن معرفة التلميذة به محصورة بمشاهدتها لبعض أفلامه الصاخبة، فهي لا تملك أية معلومات عن حياته اليومية العادية بعيداً عن الشاشة.

بالرغم من أن هذا الفنان هو كغيره من الناس له مآثره وله أخطاؤه، فهل من المعقول أن نعلنه بهذه السرعة مثلاً أعلى؟ ومن المستبعد أن يرحب ميخائيل بيارسكي بهذا الإختيار أو ما يشابهه.

شيء جميل أن نعرف، ماذا يعتقد أهل هذه الفتاة بهذا الخصوص، وكيف تعاملوا مع إعلانها هذا، وهل كانوا على علم بمثل إبنتهم العليا؟

(١) (٢) شخصيات وطنية سوفيتية.

والأسوأ من ذلك، أن يصبح دور «الشخصية القوية» على نطاق الفناء أو الشارع، حداً لأحلام الطفل.

إنه مستعد لأن يصبح ظلاً ضعيفاً لهذا أو ذاك من الشباب، فقط لأن كل قدراته ومهاراته تنحصر في مداعبته لأوتار الغيثار والتسكع مساءً والطرب على أصوات جوقة من السكارى تشبه العواء المتقطع، وفتح الباب برفسة من قدمه، والإجابة بنذالة ووقاحة على نصائح الأكبر منه، هل نعرف عن ذلك أم لا؟ أعود فأذكر ثانية، بأن العملية التربوية هي عملية ثنائية الجانب، نحن نربّي الطفل، وهو بنفسه يربّي نفسه ويربينا بذلك أيضاً.

من نربّي نحن؟ إنه سؤال موجه للأهل. «ماذا أُريد أن أصبح»؟ هذا السؤال يسأله الأطفال بأنفسهم. في الحقيقة لا يسألونه بشكل واعٍ، ولكن بشكل مخفي وحدسي، ولكنهم يسألونه. وبشكل أدق، إنهم مجبرون على السؤال لأنهم من دون هذا التحديد الذاتي لا يمكن أن يصبحوا مواطنين حقيقيين. ويمكن أن نفرح، فقط عندما تتطابق أسئلة «الآباء والأطفال» مع أجوبتهم. أما إذا لم يكن هناك تطابق، فإن ذلك يستدعي التفكير الجدّي.

هل هو قليل، ما يريده الأهل لطفلهم! من المهم جداً أن يصبح موقعهم بالنسبة له موقعه أيضاً، السمات الشخصية للأم والأب هي نقطة الإنطلاق، وسماتهم فيما يخص العمل والخدمة، بالإضافة إلى إنجازاتهم ونجاحاتهم على صعيد العمل سوف تأتي لاحقاً في النقطة الثانية، وفي النقطة الثالثة: وجهات نظرهم السياسية والإيديولوجية. تشابك هذه السمات يعطي الطفل تصوراً عن المظهر الأخلاقي والإيديولوجي للأهل بشكل متكامل، لا يمكن أن توجد التربية العائلية خارج السياسة. أن تكون أباً حقيقياً أو أماً حقيقية هذه ليست مهمة إنسانية فقط، ولكنها سياسية أيضاً.

كيف تتشكل القاعدة الإيديولوجية للأسرة؟ هناك طرق مختلفة، ولكن ليس من سماع الأخبار، أو عن طريق النقاشات ومن الإيماءات.

لنترك هذه الوسائل للمدرسة ولوسائل الإعلام الجماهيري التي تعالج مثل هذه المهام مع قدر متفاوت من النجاح. يعالجونها بشكل محترف وماهر.

يتخلل عقيدة الأهل الإيديولوجية حيثيات الجو العائلي: الجدران، الموبيليا بالإضافة إلى القضايا اليومية والإحتفالية.

هل فكرتم يا أعزائي، ولو مرة واحدة، في تصرفاتكم أمام شاشة التلفزيون؟ ماذا قلتم مثلاً بعد أن شاهدتم الأخبار؟ كيف تعاملتم مع الأحداث العالمية والأوضاع الداخلية؟

يمكننا الإستمرار في تعداد مثل هذه الأسئلة، ولكن مغزاها واضح على ما أعتقد. لقد اتضح من الحديث مع الأهل (حوالي ٢٠٠؟) أن الخمس منهم فقط من يحاول أن يوجّه إنتباه أطفالهم إلى ما يجري. أليس ذلك قليلاً؟.

إنه لأمر غريب. إننا نقضي الساعات في الإستفسار عن أصدقاء إبننا، ما هي نجاحاته في الدراسة، وما هي نواياه ليوم الغد، أولسنة تالية أو لخمس سنوات! ونقلق جداً عندما نعلم أن إبننا خدع أحداً ما، أخطأ بالكلام أو أظهر خوفاً. نسرع لنطلب مشورة التربويين أو الناس ذوي الخبرة.

أنا لم أتكلم بعد عن المشاغل المرتبطة بصحة الطفل، حيث لا مجال للمهادنة هنا. ولكننا وبالرغم من كل ذلك، ما دمنا نخفق في تربيته السياسية العقائدية، وننسى دوره الخاص، فإننا نكون قد خسرنا كأهل كل مواقعنا الأخرى. نعم، ليس بهذه البساطة أن تكون أماً أو أباً! يجب عليك أن تعرف الكثير، وتستطيع الكثير، وأن تجيب على الكثير، وأن تتنبأ بالكثير أيضاً. كيف يجب على الأهل أن يكونوا، لكي يقوموا بواجبهم كمواطنين، وأن يصنعوا من أطفالهم ومن أنفسهم أناساً سعداء فعلياً؟ عن هذا الموضوع تتحدث المحاورة التالية:

المحاورة الثانية
أي أب أنت؟ أي أم أنت؟

أي عامل

من الخفير حتى الوزير - يمكن إستبداله بمثله أو بعامل أكثر كفاءة منه. لكن من غير الممكن أبداً إستبدال أب جيد بآخر.

ف.آ سوخو ملينسكي

«الأطفال - سعادة الحياة» - إنها فكرة عميقة ولكنها تنطوي على تناقض عميق أيضاً.

الطفل بحد ذاته لا يمكن أن يكون مصدراً للسعادة؛ إن ما يشكل المصدر الحقيقي لسعادة الأب والأم هو ما استطاعا غرسه في ذلك الإنسان الذي يكررهم.

ف. آ سوخو ملينسكي

«الأصل»، «والد»، «جنس»، «ولادة»، «أبوّة»، و«أمومة»، كل هذه الكلمات تؤكد على رابطة بيولوجية معينة، على رابطة مشروطة وراثياً. نعم، الطفل يولد والزوجان يغدوان أبوين.

عندما يرى الطفل الصغير النور، فإنه يحصل مباشرة على حق المواطنية. يعطيه المجتمع حقه في الدفاع، ويصون حياته وصحته ويحفظ له حقوقه، ويؤمن له المستقبل. ولكن العالم كبير جداً، والطفل صغير بالمقارنة معه، حيث لا يفهم مكانه في المجتمع البشري، ولا يستطيع أن يقوم

بواجباته. إنه لا يستطيع بنفسه وبشكل مستقل، أن يعبر الطريق من المهد وحتى البلوغ ويصبح عاملاً مفيداً في المستقبل.

سوف تمر الكثير من السنين حتى يصبح المستهلك الذي لا حول له ولا قوة، مبدعاً، منتجاً للخيرات المادية والروحية. من هنا تنبع أهمية الأهل بالنسبة له. يقدم له المجتمع الكثير، ولكن ليس كل شيء. ولا يمكن لأي شيء أن يحل مكان الأسرة بالنسبة للطفل. أي دفء في الشتاء البارد، لا يمكن أن يعوض رقة ودفء يد الأم، ومهما كان الإهتمام الإجتماعي لا يمكن أن يرتقي إلى مستوى لطف الأب.

أن تكون أباً أو أماً فذلك ليس مهنة وليس واجباً أيضاً في المعنى المتعارف عليه لهذه الكلمة. إنه مطلب طبيعي إنه السعادة. وهو في الوقت نفسه مسؤولية عظيمة. ليس من الصعب، أن تصبح أباً أو أماً، لأنك تنفذ قانوناً بيولوجياً أبدياً لاستمرار الجنس البشري. ولكن الصعوبة تكمن في أن تصبح أباً حقيقياً أو أماً حقيقية وأن تفهم وتقدر إلى درجة كبيرة خصوصية (عبئك اللذيذ وحلو المذاق).

من الصعب جداً أن تكونوا أهلاً حقيقيين، لأن حياة الإنسان المنهمكة في تنفيذ هذه الواجبات، متخمة بآلاف القضايا المتنوعة التي لا يساعدنا أحد على حلها. إنّ خبرة وتجربة كل عائلة لا تتكرر، والأوضاع العائلية يمكن أن تكون فريدة إلى درجة أنه لا يمكن أن تُجدى معها (الأجوبة الجاهزة)، ولا النصائح التي يقدمها علماء التربية والحكماء والناس المحنكون ذوو الخبرة إلى الأهل. يصبح الأهل أهلاً فقط عندما يبدؤون بالفهم الجليّ والواضح لهذه الحقائق غير الحكيمة.

كل ذلك يُعتبر البداية فحسب، إنه الف باء التربية العائلية. هناك الكثيرون ممن يفهمون مسؤولياتهم، ويتصورون محيط واجباتهم العائلية. ولكن لا يتاح للجميع أن يجسدوا ما يرغبون في الواقع. ليس لأنهم لا

يريدون ذلك إطلاقاً، وإنما لأنهم لا يعرفون كيف تتم هذه العجيبة المدهشة ـ التربية، ولا يعرفون أي تأثيرات معقدة غير مرئية للعين البسيطة، وأي قوى سيشكل طفلهم، وأي طبع سيتخذ، وأي إرادة، ولا يعرفون أيضاً سماته الأخلاقية. أية دوامة غريبة للأحداث، وأي تشابك عشوائي للظروف يمكن أن يحدد مصيره. وهل هناك وضع أصعب من وضع أولئك الآباء والأمهات، الذين يرون كيف يحمل تيار الحياة الجارف إبنهم إلى المجهول ولا يستطيعون أن يقدموا له يد المساعدة.

إن موقف هؤلاء الأهل الذين لا حول لهم ولا قوة، الواقفين على شاطىء الحياة، يمكن أن يرضي فقط أولئك، الذين قايضوا منصب أبيهم أو أمهم العالي بقيم كاذبة، والذين أنفقوا كل حياتهم على الأشياء التافهة، أو انغمسوا في عالم مصالحهم الأنانية. إننا نأسف على هؤلاء الناس لأنهم بأيديهم حرموا أنفسهم أجمل سعادة وفرح على الأرض ـ ألا وهو أمل الإستمرار من خلال أطفالهم، وأن ينقلوا إليهم أحسن السمات، المتراكمة عبر الأجيال.

يمكن للشخص (الواقف على الشاطىء)، أن يستدعي ليس فقط مشاعر الأسف، بل مشاعر العطف والحنو أيضاً، وخاصة عندما يدور الحديث عن أولئك الذين يرغبون بإخلاص في القيام بواجبهم تجاه أولادهم، ولكنهم غير قادرين على ذلك. إن معرفة (جدول الضرب) غير كاف للتربية بل يجب معرفة (جبر) المهنة العائلية. نعم المهنة تحديداً، التي ينبغي علينا تعلّمها كأي شيء آخر. عند ذلك تصبح تربية الأطفال قضية ممتعة وسهلة أيضاً. ليس عبثاً أن كتب / أ. س. مكارينكو/ : «التربية الصحيحة منذ الطفولة الباكرة عمل ليس بهذه الصعوبة كمايبدو للجميع. صعوبة هذا العمل تُقاس هنا بقوة كل شخص، كل أب وكل أم». «الرياضيات العالية» في التربية العائلية، تبدأ فقط عندما يفكر الأب والأم بشكل جدّي وعميق بقدرتهم التربوية، ويمعنون في ذواتهم ويحددون

السمات الأبوية التي يحوزون عليها وأي سمات يجب عليهم أن يكتسبوها. يسرع إلى مساعدتهم في هذا الموضوع الدكتور في العلوم التربوية، البرفسور /أ. و. بينت/ لنترك الكلمة له.

آ.و. بينت

أي أب أنت؟ أي أم أنت؟

(فصل من كتابه «هذا لكم أيها الأهل)

الأم... إنها تحس، تشعر، تحب طفلها، تقلق، وتتألم من أجله، عندما يحين موعد ظهوره إلى النور. ماما! - ماما - إنها الكلمة الأولى التي يلفظها الطفل بابتسامة ملؤها الفرح. ماما - هي الكلمة، التي يكررها الإنسان في لحظات الألم والعذاب.

تحب الأم طفلها صحيح الجسم كان أمْ مريضاً، جميلاً أو مشوهاً، موهوباً أو عديم المواهب، محاطاً بالمجد أو فاشلاً. وتفهم آلامه دائماً، وتمد له يد المساعدة، وتعطيه آخر قطعة خبز. الحب الذي لا حدود له، الحب النقي الطاهر الخالي من المصلحة - هو حب الأم. فالأم التي لا تملك هذا الشعور - هي إستثناء نادر، وخطأ الطبيعة. القوة العظيمة للحب الأمومي غير المحدود، تدعم سلطة الأهل وهيبة الأم، ولكن بإمكانه أيضاً وبالتدريج أن يُعوض هذا أو ذاك، ويدّمره. عندها تصبح تربية مواطن المستقبل صعبة جداً.

إن الحب الأمومي القوي ولكن غير المتبصّر والأعمى يحول التربية إلى عمل صعب غير مثمر، فهو يقتل الطفل، ويجلب التعاسة للأم نفسها بالدرجة الأولى.

«سنوات طفولتنا كانت مليئة بالمحرمات، فلتكن طفولة أطفالنا مليئة بالسعادة ولا تشوبها شائبة». الأمهات اللواتي ينطلقن من هذا المبدأ في تربية أطفالهن، يغمرونهن بالهدايا وهم في المهد، ويغضضن النظر عن تقلباتهم

ونزواتهم ويخصصن الأشياء اللذيذة لهم فقط. ويتحول الإبن بالتدريج إلى صنم صغير، يخضع له الكبار. إن طغيان هذا الولد «الكائن المحبوب» سوف لا يثقل على الأهل حتى سن العاشرة، أما بعد ذلك فسيبدأ بالتسلية ويستلذ بها، لأن الطفل سيكبر ويصبح مراهقاً، ومن ثم شاباً ولن تلزمه الألعاب بعد الآن، وإنما الأشياء الثمينة: ساعة، آلة تصوير، معطف حديث، دراجة، ونقود للذهاب إلى السينما والمسرح، ولشراء المثلجات.

أشياء كهذه، هي فوق قدرة الأهل المادية، وخاصة إذا كانت الأسرة من دون أبٍ. ولكن الأولاد اعتادوا على أن يفكروا بأنفسهم فقط، ويتقبلوا إهتمام الأهل بهم كواجب.

إنها الثمار الأولى فقط لتجليات الحب الأمومي غير الصحيحة تجاه أطفالها. ومن أكثر الجروح عمقاً التي يمكن أن تلحق بالأم، هي عندما تدب فيها الشيخوخة ولا تجد لها مكاناً، لا في قلب أولادها ولا في بيوتهم، عندئذ وعلى مضض منها وبعد أن تتغلب على ألمها الداخلي وتدوس على قلبها، تلجأ إلى المحكمة للتذكير بحقوقها وواجباتهم تجاهها.

الثمار المرّة للحب غير المتبصّر تجاه الطفل، لا يحصدها الأب والأم فقط. فالإنسان الذي تعلّم منذ الطفولة أن يأخذ من الآخرين دون أن يعطي، نادراً ما يستطيع أن يكون زوجاً وأباً رقيقاً، منتبهاً ومحباً وصديقاً مخلصاً. إنه دائماً وأينما وجد وفي كل الظروف، يفكر قبل كل شيء بنفسه، وبرغباته وبأسباب راحته. إذا استمعنا إلى بعض الناس الذين يمارسون عملاً صعباً في اللجان المختصة ببحث مشاكل المراهقين، فإننا سنعرف الكثير من القصص المحزنة التي تثير الشجن بما يخص المراهقين الشباب والشابات، الذين شوهتهم محبة الأهل غير المتبصرة. ولكن غالباً ما يبدأ الأولاد حياتهم بشكل غير صحيح، أو يترعرعون بطبع منكسر أو منقبض بسبب الآباء السيئين. الآباء السيئون شر عظيم. ونحن ليس لدينا الحق في التهاون أكثر مع الضرر الذي يلحقونه بالتربية.

أظهرت الإحصاءات غير العلنية لعلماء التربية ـ بأن النسبة الأكبر من التلاميذ المتخلفين عقلياً، غير الإنضباطيين، المتشردين ـ والذين يقومون بالمشاجرات، هم أطفال لآباء سكّيرين (كحوليين) يعاقرون الخمرة بإستمرار.

الأب السكّير هو مجرم من وجهة النظر التربوية، يسمم روح الأطفال بسم زعاف، ويسلبهم طفولتهم.

«. . . . انتهت طفولتي. انتهت باكراً، لأني عندما خرجت إلى المجتمع الواسع، لم أخرج وإسمي كوليا، بل كإبن للسكّير، ذلك الإنسان الذي لا يعتبر إنساناً. شيء مخجل حقاً! لقد وجدوا أبي البارحة في الفناء، في حالة سكر شديد، لقد أضحك وسلّى الآخرين لفترة طويلة، قبل أن يحضروه إلى البيت مصحوباً بقهقهاتهم، طلب أبي أمس النقود بإلحاح من الجميع من أجل شراء الخمرة. . . .». هكذا يقول أحد أبطال مسرحية ك. فينا: «غلطة آنّا»، وهكذا يمكن أن يقول كل الأطفال الذين يعاقر آباؤهم الخمرة. يجب أن نتصارع مع الإدمان ـ إنها معركة ليست سهلة، ولكن يجب أن نربحها، لأنها من أجل أطفالنا.

يوجد لدينا بعد مثال آخر على الآباء السيئين ـ إنهم أولئك الآباء الذين يتركون عائلاتهم وبالتالي أطفالهم في سبيل حب جديد.

يشكل خروج الأب من الأسرة عند الأطفال وبشكل دائم جرحاً روحياً بليغاً. الحنين والإشتياق إلى القريب، الإنسان الحبيب، عزة النفس المهانة، هناك الخجل من الآخرين، على أنك قد رُميتَ وكأنك شيء تافه؛ تبين أنه غير لازم؛ الشفقة على الأم أو الحقد عليها، تغيير الوضع المادي ـ هذه الإنفعالات والخوالج القوية التي تفوق قدرة الأطفال على التحمّل، تسبب عندهم ردود أفعال متنوعة. فمنهم من ينغلق على ذاته، ومنهم من يصبح قاسياً وشرساً، ومنهم من يترك التعليم. . . .

ويزداد معهم الأمر صعوبة إذ يظهر في طبع هؤلاء الأطفال الذين أُسيءَ إليهم وأُهينوا من أقرب الناس إليهم، الشك والإرتياب، الجلافة وحب الانتقام، القساوة والكذب ـ وغالباً ما يفقدون الثقة بالناس وبأنفسهم وبالشيء الأساسي في الحياة، وهو الحب الحقيقي العميق المخلص والكبير.

أيها الآباء! اتّعظوا، وحاولوا أن تضعوا أنفسكم مكان طفلكم المهجور، الذي رأى فيكم دائماً السند، والمدافع الأول. ولكن إذا كان لا بد من الإنفصال عن الأم، عليك أن تفعل كل ما بوسعك لتجعل عواقب هذه الغلطة الحياتية العظيمة أقل إيلاماً للإبن أو الإبنة، لكي يستمر شعور الأطفال بتأثير الأب وبإهتمامه بهم إلى حد ما.

تعتبر سلطة الأب قوة عظيمة وأصيلة في تربية الأولاد. ولكن المصيبة هي أننا لا نحس غالباً بهذا التأثير الأبوي، حتى في العائلات التي ليس فيها سكيرون وحيث يعيش الآباء مع أطفالهم.

«من دون أب»، «يتيم» هذه الكلمة يمكن أن تسمعها غالباً من المعلمين أو أن تقرأها على صفحات الجرائد.

«لقد تعرفت إلى أسر ست من المجرمين الأحداث. يعيش ڤاسكا مع أمه فقط، فهو لا يعرف أباه، وبهذا الشكل يعتبر يتيماً بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، واكتشفت نفس الآباء عند الخمسة الآخرين، حيث يقفون تجاه أولادهم موقف المتفرج من غير أن يتدخلوا، ويتركونهم لأمهم أولاً، وللمعلم ثانياً. لا يوجد لديهم الوقت للإشتغال بالأولاد. ولكن لديهم ما يكفي من الوقت لإضاعته في لعب الشطرنج، والورق، أو في معاقرة الخمرة مع أحد الأصدقاء، أو في الصراخ بإحتدام في الملعب. ولكنهم غير قادرين على أن يعطوا من وقت راحتهم ساعة أو ساعتين لأطفالهم.

مِنْ هؤلاء الآباء البوابون، وعمال في مصلحة المياه، والأكاديميون والدبلوماسيون. كل الأطفال شبعى، ويرتدون الملابس، ويحتذون

الأحذية، ولديهم جميعاً إمكانية إنهاء المدرسة بنجاح، ومتابعتها في أحد المعاهد أو التوجة إلى العمل، إلاّ أنهم جلسوا على كرسيّ الإتهام. الأمهات يبكين، والآباء واقفون مطأطئي الرؤوس. تعساء! لقد نهبوا أنفسهم وسرقوا أرواح أولادهم. ان أولادهم، بواقع الحال (يتامى) أيضاً. هكذا عبّرت عن سخطها وامتعاضها الصحفية والمربية / آ. بروتوبوفا/. نعم، إن أمور تربية الشباب، لا تسير عندنا على ما يرام أو كما ينبغي. يتحمل مسؤولية ذلك أولئك الآباء الذين يتملصون من أولادهم، ويحصرون واجباتهم الأبوية فقط في التحصيل المادي أو التأمين الماديّ للعائلة. أما الآن وقد أصبح معظم النساء يعملن كما الرجال في المصانع، والمؤسسات فإن على الزوج ألاّ ينسى أنه بعد العمل خارج البيت، يبدأ عند النساء يوم عمل آخر في البيت: الذهاب إلى المخازن، تحضير العشاء، تنظيف البيت، تحضير الغذاء لليوم التالي، الغسيل، الخياطة. . . . هل تبقى الأم عندئذ في حالة تسمح لها بالأداء الجيد لمهمتها على صعيد تربية الأطفال؟ وعموماً بأي حق، يضع معظم الآباء حتى الآن واجباتهم الأبوية والبيتية على كاهل زوجاتهم؟

حتى الآن وطالما يتطلب العمل داخل المنزل وقتا لا يستهان به، فإن على (الجنس القوي) أن يأخذ على عاتقه نصف هذا العمل. من المخجل لنا نحن الرجال أن نتمسك بالمقولة القديمة القائلة: بأن عمل البيت للنساء فقط فذلك معيب لنا. ما دام النساء قد استطعن أن يتعلّمن الكثير من المهن الصعبة، وأن يصبحن مهندسات، مربيات ورائدات فضاء، فهل من الصعب علينا، أن نتغلب على بعض الأعمال المنزلية البسيطة. والرابح من هذه العملية هم الأطفال بالدرجة الأولى وخاصة على صعيد التربية العائلية. في الأسرة، التي يعمل فيه الأب والأم بالأعمال المنزلية، يبدأ الأطفال أيضاً بمباشرة ذلك. تستطيع الأسرة بأكملها كمجموعة، أن تتغلب بسهولة على الأعمال المنزلية العادية، حيث تضع بضع ساعات من العمل المشترك بداية التأثير الأبوي الجيد، وتصبح دروساً عملية في التربية على

حب العمل، وفي تربية علاقة الصداقة والإحترام والتفاهم تجاه الأم وتجاه بعضهم البعض.

عدا ذلك فإن روح التعاون على العمل ضمن الأسرة تعطي الأم بضع ساعات من الفراغ تتيح لها إمكانية الجلوس مع الأب والتفاهم على تنظيم أوقات فراغ الأطفال. يقول الأولاد في مثل هذه الأسر: «إننا لا نشعر بالملل. والوقت الأكثر متعة هو وقت المساء، حيث يلتم شمل الأسرة، ونلعب في أغلب الأحيان مع أبينا وأمنا. هناك الكثير من الألعاب الجيدة، والبعض منها مبتكرة في حينه. يقوم الأب أحياناً بتنظيم مسابقة لنا أنا وأختي، ويطرح علينا الأسئلة. ويعجبنا جداً الرسم من الطبيعة. وغالباً ما نقرأ في الأمسيات الكتب والجرائد بصوت مسموع، ونناقش بعض المقالات.

يوجد عندنا غرفة للأحياء تحتوي على بلابل وأسماك نستمتع بمراقبتهم. ونقوم أنا وأبي في أيام العطل ببعض الأعمال الحرفية: كصنع أحواض للسمك أو سيارة آلية بمحرك مطاطي، ونطمح في صنع راديو صغير. أما أمي مع أختي لوسيا، فتشتغلان بالأعمال اليدوية. ونحن على موعد كل اسبوع نجتمع و. . . نناقش خلال هذا الإجتماع أمورنا المدرسية، وحصيلة كل منا، خلال الأسبوع، وأحياناً يأتي إليّ رفاقي في المساء، ونشاهد خلالها بعض الأفلام التي نعرضها على آلة العرض السينمائية.

جمعت أمي منذ مدة ليست بالبعيدة، كل شباب البناية الذين قاموا بالإستعدادات والتدريبات اللازمة من أجل تقديم حفلة موسيقية، وحضر لمشاهدتها كل ساكني البناية، لقد أعجبتهم الحفلة. أرأيتم أنه لا وقت لدينا للملل.».

قرأت رسالة ڤوفا هذه مصادفة، أمام جاري، بحضور إبنه ساشا ذي العشر سنوات، وعندما انتهيت من قراءتها صاح الولد جذلاً:

ـ شيء رائع لماذا لا نعمل الشيء نفسه!.

تململ والد ساشا واسترسل في التفكير. . . يوجد هنا ما يستوجب التفكير، وهذا لا يخصّ والد ساشا فحسب، وإنما جميع الآباء. . . .

يجب أن يكون اللعب مع الأطفال أحد الطرق الرئيسة في التربية وخاصة في الأسرة. هناك التسليات أو الألعاب الجدّية والمرحة، الصاخبة والهادئة، والأدبية والرياضية والحسابية والموسيقية - هذه الألعاب المتنوعة تلبي رغبة الأطفال في الإبداع والحركة، وتطور عندهم سعة الفكر، وحب الإستطلاع، وتعلمهم أن يكونوا مخلصين متماسكين متيقظين لبقين دقيقي الملاحظة، شجعاناً، وننقل إليهم في هذه اللحظات، خبراتنا، وأذواقنا، إهتماماتنا وعاداتنا الجيدة. إننا نلاحظ الكثير من الأشياء الجيدة في سلوك إبننا أو إبنتنا ومزاجهم وميولهم بالإضافة الى الحصول على إمكانية تربيتهم الجيدة من دون اللجوء إلى الوعظ الملحاح. فالشكوى من أن الكثير من الآباء والأمهات لا يعرفون أطفالهم جيداً، يعود إلى أنهم لا يستخدمون الوقت اللازم لتربية أطفالهم، ويُفَسَّر ذلك على الغالب، بالتواصل النادر مع الأطفال في وقت الفراغ.

أمامي الآن حوالي مائتين من المواضيع الإنشائية التي كتبها تلاميذ من الصفوف الرابع، الخامس، السادس، السابع وذلك في المدرسة التي يدرس فيها إبني. مائتان من التلاميذ كتبوا عن أحلى الأيام وأحلى الأمسيات في حياتهم. (كان ذلك يوم الأحد)، (مساء السبت)، (يوم رائع) - هكذا كانت عناوين المواضيع تقريباً. ومن المرجح، أن يسعد الأهل بمعرفة أن الكثير من الأولاد، وخاصة من الصفين الرابع والخامس تذكروا أكثر من أي شيء تلك الرحلات التي قاموا بها مع الأهل إلى المتحف، المسرح، السيرك وإلى الصيد، وجمع الفطر، وإلى التزلج على الجليد.

«إني حزين فقط لأن أبي لم يأخذني معه سوى مرة واحدة إلى صيد السمك. وكانت تملؤني الرغبة في أن أذهب وإياه مرة أخرى». هكذا انتهى أحد المواضيع الإنشائية.

وهناك الكثير من التلاميذ، الذين أبدوا أسفهم وحزنهم على غرار الموضوع السابق. إنك تشعر خصوصاً، وأنت تتصفح هذه المواضيع، كم تتوق أرواح هؤلاء الأطفال إلى أهلهم وخاصة في هذه المرحلة من العمر.

الكثير من الكبار، بدلاً من أن يفرحوا لذلك، ويتحينوا أوقات الفراغ ليزدادوا قرباً من أطفالهم، فإنهم غالباً ما يتهربون من أطفالهم، لتفادي التوتر والتركيز الضروري الذي يفرضه التواصل مع الأولاد.

إنّ التواصل مع الأطفال، الذي يحقق لهم المتعة، بالإضافة إلى التربية، تتطلب مؤهلات تربوية محددة على الأب والأم أن يحوزا عليها.

هناك عبارة تقول: «يجب أن تولد مربياً».

إلا أننا إذا اعتمدنا في تربية أطفالنا على أناس ذوي موهبة تربوية فطرية، فإن القسم الأكبر من الجيل المراهق سوف يكون غير مؤهل لتربية أحد. الأطفال موجودون في كل عائلة تقريباً، أما الإمكانات التربوية فهي كالأشياء الأخرى الكثيرة لا يمتلكها الناس بالفطرة، عدا القليل منهم.

أن تحبو الطبيعة بعض الناس، بمؤهلات غير موجودة عند الآخرين، فهذا سرها الخاص، ولا يعرفه أحد. ولكننا نعرف شيئاً واحداً بالتأكيد، وهو أن الكثير من الإمكانات بما فيها التربوية، كالقدرة على الملاحظة، التخيل، اللباقة... الخ، التي تساعد على الوصول إلى قلوب الأطفال من الضروري أن يطورها الأهل ويكملوها.

هل قوة الملاحظة التربوية ضرورية للأهل، ولماذا؟

يجب علينا معرفة الطفل بشكل جيد لكي نربيه تربية صحيحة. وللقيام بذلك تلزمنا الإمكانية على ملاحظة الأمور البسيطة في سلوك الأطفال، التي تلقي الضوء على سمات الطبع المتولد، وأن نستشعر بدقة التغيرات الطارئة في الأفكار، ونتحسس أقل التبدلات في المزاج.

عاد الإبن من المدرسة جذلاً جداً.

سأله الأب: ما هو الشيء الذي يفرحك؟ هل حصلت على علامة جيدة، أو أن أحد أصدقائك قد أنقذك من ورطة ما؟

لا إن صديقي بيتيا غبي لأنه أعطاني عدسة مكبرة مقابل ثلاثة أسلاك ملونة صغيرة.

هكذا أجاب الصغير ماداً يده إلى جيبه، حيث أخرج العدسة المكبرة. هذه هي القضية إذن؟ خدعت صديقك وسعيد بذلك أيضاً، ألا يمكنني أن أفرح أنا أيضاً، لأن لدّي إبناً بهذا الذكاء، ولكنه خال من الضمير؟

ارتبك الابن وقال متلعثماً:

ـ نعم... أنا لم أطلب منه أن يبادلني فهو بنفسه قام بذلك.

ـ إني أرى أنك لم تصبح بعد شخصاً سيء النية ـ قال الأب بنبرة مختلفة ـ ولكن ما حدث ليس جيداً على كل حال.

وبعد عدة أيام، عاد الأب وذكره ثانية بقضية العدسة المكبرة.

قال الإبن: لقد قلت لصديقي أني أعطيته الأسلاك هدية مني: أما العدسة فهي ليست ضرورية لي....

جرت هذه الحادثة مع إبني ويبدو لي، إن هذه الحادثة تُظهر، كيف أن قوة ملاحظة الأهل تساعد على أن تجتث من الجذور وتجلو وتطوّر بعض السمات السلبية في طبع الأطفال. من دون القدرة على التدقيق بانتباه في سلوك الأطفال، صعبٌ جداً على الأهل أن يبحثوا في الدوافع التي أدت بإبنهم أو بإبنتهم إلى القيام بهذا الفعل أو ذاك، وبالتالي يصعب عليهم تقييم سلوكهم بشكل صحيح، ربما تكمن هنا غالبية أسباب الخصومات وسوء التفاهم بين الكبار والصغار.

وصفت إحدى الأمهات إبنتها بالمخادعة، لأنها نسيت أن تعطيها باقي النقود بعد عودتها من المخزن. قالت الأم أن ذلك كان للتخويف فحسب

لكي تعرف أني أتابعها دائماً. إنّ هذا الشك غير صحيح بالطبع ويزعج ويسيء إلى «إيرا» تلك الفتاة الصادقة والمخلصة. أمٌّ اخرى يمكن أن تتصرف بشكل آخر، فالمعلمون والجيران والمعارف ينبهونها بشأن إبنها الذي غالباً ما يكذب ويحمّل أخطاؤه للآخرين. فهي بدلا من أن تتابع سلوك إبنها وتراقبه، فإنها تزعل من الجميع، وتتشاجر مع الجميع، وتكف عن المجيء إلى اجتماعات الآباء، وتمتنع عن العمل في لجنة الأهالي، وتتحدث بامتعاض واستياء عن الهجوم غير العادل على إبنها. هذا «السند» الأمومي يقدم أسوأ خدمة للشخص المترعرع (الناشيء لتوه).

قوة الملاحظة التربوية ليست في الشك والتجسس، إنها الحالة الدائمة لمتابعة الطفل، ومتابعة سلوكه وأفكاره وأفعاله والسعي الموضوعي الجاد لفهمها (الأفكار والأفعال). قوة الملاحظة هذه تساعد الأهل على فهم عالمه الداخلي ومشاعره وإدراك دوافع أفعاله ورؤية ذلك الشيء الجيد في الأطفال، الذي يجب علينا أن نشجعه ونهذبه، وذلك الشيء السيء الذي يجب علينا أن نستأصله ونسويه.

* * *

الخيال التربوي وحاجة الأهل إليه

«لكي نحكم على الطفل بعدل وأمانة، يجب ألا نسحبه من عالمه ونأتي به إلى عالمنا، وإنما على العكس يجب علينا نحن أن نرحل إلى عالمه»[1].

إني دائماً أتذكر هذه الكلمات، عندما يدور الحديث عن الخيال التربوي كقدرة تربوية. يبدو لي، أن هذا الخيال، يجب أن يتجلى لدى الأهل بشكل رئيسي في قدرتهم على الغوص في عالم الطفل الداخلي، والتأثر بمزاجه، وفهم أفكاره ومشاعره بشكل واضح وجلي". «مطالبنا تجاه الخيال التربوي للمعلم، أعمق وأوسع». إننا نرى من رسالة والدة جينينا، وعمره ثماني سنوات، ما الذي يحصل لو أن هذه القدرة غير موجودة.

«. . . . وأخيراً إشتريت لإبني الهدية التي وعدته بها منذ زمن بعيد: ثلاث علب مليئة بالجنود والمدافع والدبابات. وكانت فرحته عظيمة.

بعد الشكر الجزيل وإبداء العواطف الصريحة، رتب جنوده وأسلحته على طاولة الغداء وبدأ المعركة. لقد استولت المعركة على أفكاره. أخذ / جينينا/ يطقطق بلسانه معطيا أوامر معينه، تارة يبتعد ومنظاره عن الطاولة وتارة يقترب منها. . . . لقد تورد خداه وسطعت عيناه. . .

عاد الأب في هذا الوقت إلى البيت وظهرت عنده فجأة رغبة نادرة في التكلم مع إبنه، بعد أن جلس على الديوان بشكل مريح في نفس الغرفة التي يلعب فيها الطفل، نطق موجهاً كلامه إلى الطفل:

---

(١) ن. ي. بيروغرف مختارات من الأدب التربوي- موسكو ١٩٥٣ ص ١٠٠.

ـ تعال إليّ يا بني لأقبلك وأدللك.

ولكن / جينينا/ لم يسمع أباه بالطبع، لأن الخيال قد حمله في هذه اللحظة بعيداً إلى عالم المعركة. عند ذلك بدأ الأب يغضب:

ـ يالك من إبنٍ شرير ألا ترى كم أنا منهك، وأنت لا تريد أن تقترب مني.

ـ لا تعقني يا أبي. لا أريد! ـ أجاب الإبن وهو يغيّر من وضعية عساكره. عندئذ وثب الأب من على الديوان، ضرب الطاولة بقبضته وصرخ غاضباً:

ـ هكذا تتكلم مع أبيك أيها الفظ؟

بكى جينيا، وانتهت اللعبة... »

حدث ذلك بالطبع لأن والد جينا لم تكن عنده لا الرغبة ولا القدرة في الإعتماد على خياله، ليشارك إبنه في لعبته: أن يتخذ من نفسه عدواً في المعركة، ويبدأ الهجوم... وهل تبخل على الإنسان البالغ مخيلته عندما يريد أن يدخل الفرح إلى قلب إبنه! البالغون، الذين لديهم هذه الموهبة الموفقة يستطيعون الحوار مع الأطفال بشكل رائع، وأن يبتكروا لهم ألعاباً ومشاريع غنية بالمضمون ومسليّة. في هذه العائلات، تحتل الألعاب حيزاً لا بأس به. وهذا هو المطلوب، لأن اللعب في عمر الطفولة هو المعيار، حيث يجب على الطفل أن يلعب دائماً حتى ولو كان يقوم بعمل جدّي.

اللعب ليس لهواً فارغاً، إنه يطور قوى الطفل الجسمانية ونشاطه، والمبادأة الإبداعية الإستقلالية، سرعة البديهة، وعدم المهادنة مع الإخلال بالقواعد، ويشبع حاجات الأطفال الرومانسية، ويغذي مختلف الخوالج العاطفية. غالباً ما تجري الألعاب بشكل ممتع في تلك الأسر، التي يهوى فيها الكبار الغناء، القراءة التعبيرية، الرسم، وصنع بعض الأشكال من المواد البلاستيكية اللينة، أو يمتلكون إمكانية الخياطة أو التمكن من حرفة معينة الخ...

هذه الإمكانات الخاصة بالإضافة إلى الخيال، تُملي على الأهل وبشكل خاص مشاريع جذابة أخّاذه وغير عادية، وتعطيهم إمكانية تجسيدها. الألعاب الجيدة المتنوعة ضرورية كالهواء للكبار والصغار. ومن عيوب الخيال التربوي، أن يحمّل الأهل أقوال أولادهم أحياناً، مفاهيماً وتصورات تخص الكبار فقط، ولذلك فإنهم لا يستجيبون كما ينبغي على كلماتهم وأسئلتهم.

كتب لي أحد زملائنا في المهنة منذ فترة وجيزة الحوار التالي الذي دار بينه وبين إبنه البالغ من العمر سبع سنوات، وهو حالياً في الصف الأول الإبتدائي.

«عدت مساء إلى البيت، كان الإبن جالساً إلى طاولته يكتب. سألته:

ـ ماذا تعمل يا بني؟ أجاب:

ـ أَحُلّ الوظيفة البيتية. (لقد قالها باختصار. م).

لقد صعقت. ما هذه الكلمة! إنه التأثير الضار للشارع مرة أخرى. كل هذه الأفكار خطرت على بالي بسرعة، وفي الحال تغير مزاجي ونبرة صوتي وصرخت به:

ـ ماذا تقول؟

أجاب الإبن وعلى محياه علائم الدهشة من غضبي:

لقد قلتها باختصار، إني أحل الوظيفة البيتية.

أرأيتم، لقد ارتبكت في الأمر، والأنكى من ذلك أنه أمر تربوي».

هذه المشاهد وما يشابهها، ظاهرة متكررة في التربية العائلية.

لنتذكر الكتاب الظريف، الفكه للكاتب / ف. برين خولستا/ بعنوان «فن الأبوّة» أو «المهارة في أن تكون أباً»!

يصف هذا الكتاب في أحد فصوله أمسية في عائلة بيتيا الصغير:

«يتمتع الجميع في بيتنا هذا بالسلام والهدوء. انتهت ماريانا من غسيل الأواني، أما أنا «الأب» فتمددت لثانية واحدة على الديوان، لكي أنعم ببعض الراحة قبل الأمسية. دخل بيتيا الصالون ومعه سيارة إطفاء. كان باب الغرفة مفتوحاً إذ كنت أسمع كل كلمة تقال في المطبخ. وفجأة ومن دون سابق إنذار، توقف الصوت المزعج للإطفائية (تو-تو-تو) و (بي-بي-بي) وتناهى إلى سمعي صوت بيتيا الناعم والبريء يسأل:

- ماما من أين أتيت؟

- ماذا قلت يا بني؟

- أنا أقول من أين أتيت؟

- من أين أتيت؟ أتيت.... أنت، كلا. من الأفضل أن تسأل أباك عن ذلك بل أنا سأخبره بذلك.

ذهبت الأم راكضة إلى الأب، وبدأت الجلبة.... بماذا ستجيب الإبن؟ اقترح الأب:

- يمكن أن نقول له ببساطة - إن اللقلق هو الذي جلبه؟

إعترضت الأم قائلة:

إلى هذه الدرجة أنت جبان ومن طراز قديم أيضاً. كن شجاعاً واذهب إلى إبنك واشرح له.... بكل بساطة، بشكل صريح ومفهوم.

تكلّم الأب في غمرة اضطرابه العظيم وتلعثم بعد كل كلمة عن الأزهار والنحل، وكيف يتمّ التلقيح فيما بينها، وذكر شيئاً عن آدم وحواء، وعن بطن الأم، وأخيراً وبعد أن تشوش كل شيء نهائياً، سأل إبنه السؤال الذي كان يجب أن يبدأ منه الحوار:

- قل يا بني، لماذا يجب عليك أن تعرف بشكل حتمي، من أين أتيت؟ فأجابه الإبن:

قال لي بيتر، بأنه عاش سابقاً في القرية، وبعد ذلك أتى إلى هنا. وسألني: وأنت من أين أتيت؟ ولذلك تراني أسأل. . . ».

إنه مرة أخرى حوار الطرشان بين الأهل وأطفالهم، الحوار بلغات مختلفة. ليس لمثل هذه الحوارات أيّ تأثير تربوي، وإنما يجريها الأهل بقصد تحويل إنتباه الأطفال. الخيال التربوي المرتكز على أساس الإنطباعات الصادقة، يساعد الأهل، على أن يتمثلوا بأمانة نموذج أفكار ومشاعر أطفالهم، أو سبب هذا أو ذاك من الأفعال، وأن ينقلوا أنفسهم إلى العالم الداخلي لأطفالهم، ويفهموهم بشكل أفضل وأن يكونوا بالنسبة لهم محادثين ممتعين وأصدقاء جيدين ورفاقاً في اللعب.

وكما قال /آ. س. مكارينكو/ ذلك ضروري، لكي يقدم لنا «الأداة التربوية»، هذا يعني أن يبدي تأثيراً تربوياً فعالاً في كل ما يفعله الأطفال من دون نصائح مملة.

ماذا تعني اللباقة التربوية وفي أي شيء يجب أن تتجلّى عند الأهل

كما أن اللباقة التربوية ضرورية للمعلم، كذلك هي بالضرورة نفسها لكل أبٍ ولكل أم، إنها تفترض الملامسة الحذرة لعالم الإنسان الداخلي.

هذه اللباقة يجب أن تكون أثناء تعاملنا مع الأطفال، أكثر حساسيةً ورهافةً، ذلك أن حياة الأطفال، كما قال أكثر من مرة /آ. س. مكارينكو/ أكثر غنى بالمقارنة مع حياة الكبار، بقوة عواطفها وانفعالاتها، وباضطراب إنطباعاتها وبنقاء وجمال توتراتها الإرادية، في أي شيء تتجلى اللباقة؟

أولاً، في القدرة على التكلم إلى الطفل من دون أن نجرحه، أو أن نسيء له، أو نهينه. نحن نُفاجأ لسوء الحظ، في كثير من الأسر بعلاقة الكبار

الفظة وغير المهذبة مع أطفالهم. هذه الحالة لا تقلقنا نحن فقط وإنما تقلق الأطباء النفسيين أيضاً. فيقولون بأن الأمراض الناشئة عن الكلمة الفظة، والسلوك غير المهذب ـ تتسع بين الأطفال. «الكلمة الفظّة هي محرض سلبي. إنها تؤثر على الجملة العصبية للإنسان، وعبرها تؤثر سلبياً على كل أعضاء الجسم وتشنجه. وعند ذلك يعاني بالدرجة الأولى القلب والأوعية الدموية».

الإنسان ككائن حي، وكرد على الحديث المزعج، يستجيب بتقلصات وتشنجات حادة لأوعية القلب والدماء. ويجب أن تنتبهوا إلى أن المحرّض يمكن أن يستمر لعدة دقائق، وأما ردة الفعل عليه فيمكن أن تستمر عدة ساعات، وحتى عدة أيام هكذا كتب البروفوسور / ف. غ. اوغلوف/ .

لماذا يحرص الأهل كثيراً على وقاية أطفالهم من الأمراض المعدية، ومن أمراض الرشح والزكام، في الوقت الذي يتعاملون فيه بقسوة مع حالة جملتهم العصبية.

كنت إحدى المرات، في زيارة لإحدى الأسر، وراقبت بارتياح كيف أن الإبنة نينا التي لها من العمر اثنتي عشرة سنة، كانت تساعد أمها في أعمال البيت. ولكنها كسرت المزهرية عن غير قصد عندما كانت ترفع الأواني عن الطاولة.

ـ ماذا فعلت؟ صرخت الفتاة برعب ونظرت بحزن عميق إلى الشظايا.

وتحول وجه الأم المشرق والمرحب بالضيوف فجأة إلى وجه مليىء بالغضب وصرخت بإبنتها.

ـ اخرجي من هنا حالاً، لا مكان هنا للمغفلين.

خرجت الإبنة من الغرفة وهي تغالب دموعها. بدأ الضيوف بالإنصراف إلى بيوتهم، حيث تكدر مزاجهم نتيجة هذا الحادث. وجدتُ نينا في المطبخ وهي في حالة هستريا.

ـ وأنا أيضاً آسفة جداً على كسر المزهرية. فأنا لم أكسرها عن قصد. قالت نينا وهي تنشج. كان من الصعب جداً تهدئة الفتاة وإيجاد المبررات الكافية أمام أمها. ولكن الأم كانت بحاجة أيضاً للمواساة. وقالت:

ـ كم مرة عاهدت نفسي بألا أفقد صوابي، والأنكى من ذلك بحضور الآخرين. ولكن، من دون فائدة. . . . هذا شيء مخيف.

الأمر هنا معقد إلى حد ما، فالقضية لا تنحصر في أن البالغين لا يدركون مقدار الضرر من جراء جلافتهم، الذي يلحقونه بصحة أولادهم وتربية طبعهم، وإنما في أنهم لا يستطيعون ضبط أنفسهم أو أن الصبر يعوزهم، وبالتالي تصبح الكلمة غير المهذبة والمهينة أسلوباً عادياً مشوهاً لتربية الأطفال على التعقل والحكمة.

الكلمات الخشنة، والصياح الدائم لها أثر تربوي سيء.

أن تجرح كرامة الآخرين، وتنتقص من عزّتهم الإنسانية يؤدي إلى تعقيد العلاقة بين الكبار والصغار في العائلة، ويستدعي ردة فعل موازية من حيث الجلافة والخشونة، ومقاومة داخلية لمتطلبات الكبار، وهذا يعني، خصومات جديدة، تؤدي إلى تعب الجملة العصبية عند الأطفال وتعكر حياة الجميع. . . .

لقد تلقيت رسالة من أحدهم، تنتهي بهذه الصيحة اليائسة: «ما العمل؟ لقد تناولت الكثير من الأدوية، وابتلعت أنواعاً كثيرة من الحبوب ـ وبالرغم من كل ذلك، فإني أبدأ بالصراخ على إبني لأبسط الأسباب».

ما العمل ؟ إنه سؤال معقد. . . لكي نجيب عنه بشكل مفصلّ، كأي سؤال آخر مرتبط بالتربية، يجب أن ندرس بالتفصيل حياة هذه العائلة، وأن نتنفس هواءها. إلا أن هذه النصائح، كما يبدو لي، ستكون مفيدة لكل عائلة تريد الإنتهاء من الصراخ المهين والشتائم.

أولاً، حاولوا ألاّ تتكلموا مع طفلكم مباشرة بعد قيامه بعمل ما.

لم تعد إبنتكم، مثلاً، في الساعة العاشرة ليلاً كما قلتم لها، وإنما في الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً. من الطبيعي أن يقلق الجميع على هذا التأخير الذي دام ساعتين ونصف الساعة.

فإذا ما بدأ الحوار عن سبب هذا التأخير مباشرة والجميع في حالة عصبية متوترة، فإن ذلك سيؤدي حتماً إلى استعمال كلمات حادة ومهينة. ولذلك فإن إنفعالات الإبنة سوف لا تتركز على شعورها بالذنب، وإنما على الإستياء من الإهانة الموجهة إليها. يجب ألاّ يبدأ أي حديث تربوي هام في مثل هذا الجو المحموم.

ولكن إذا فتحت الباب وقلت لابنتك بنبرة هادئة وصارمة: «غداً صباحاً ستحكي لي، لمذا لم تأت إلى البيت في الوقت المناسب» - فإن الأثر التربوي سيكون مختلفاً تماماً. هذا الانتظار حتى طلوع الفجر، يجبرها على التفكير بعمق وتبصّر، وأن تتصور قلق أهلها عليها، وأن تأخذ عهد على عاتقها بألاّ تكرر ذلك أبداً. لتتقلب الفتاة من جانب إلى آخر، ولتعذّب نفسها بنفسها لهذا القلق الذي سببته لأهلها. إنه العقاب الأكثر فعالية الذي تتلقاه هذه الفتاة.

وستزول عند الأهل أيضاً موجة الغضب أثناء الليل، وسيأخذ الحديث في الصباح منحى آخر، وسيتخذ نبرةً وطابعاً تربوياً فعلياً.

النصيحة الثانية هي إختيار الزمان والمكان المناسبين للحديث الجدّي. فالأحاديث الطارئة والسريعة، لا تجدي نفعاً ولا تترك الأثر الضروري.

تأهب الإبن للذهاب إلى التزلج. إنه الآن في ثيابه الرياضية. لقد إنتعل حذاء التزلج وكان ينتظر بلفهة لا مثيل لها لقاءه مع أصدقائه في الملعب الجليدي. وفي هذه اللحظة بالذات إقترب الأب من الإبن وبدأ يستوضح منه عن اليوم الفائت من المدرسة، وطلب منه تقريراً عن إبداع الفنان ريبين.

أجاب الولد على مضض وبكلمات مقتضبة. فكان أن غضب الأب وحنق، فخرج الولد، وصفق الباب وراءه ولم يتم الحديث. من المذنب؟. ويمكن أن يحدث هذا أيضاً: الفتاة في حضرة صديقاتها، وبينما كن يتحدثن بحماسة وحيوية، ويضحكن، دخلت الأم وقالت موجهة الكلام إلى إبنتها «لينا! ألا تخجلين، لقد أكلت فطيرة أخيك مرة أخرى».

شعرت لينا بالخجل الشديد. ليس لأنها أخذت فطيرة الآخرين، وهذا لا يجوز طبعاً، بل لأن والدتها وجهت لها الملاحظة أمام زميلاتها.

توجيه الملاحظات إلى الأولاد بحضور رفاقهم لا تبدي على الإطلاق الأثر التربوي المطلوب. وعلى العموم، هل يجب علينا دائماً أن نعلن أي ذنب أو إثم أو نوجه ملاحظة جارحة؟ أساليب التعبير عن عدم رضانا، يمكن أن تكون متنوعة جداً، والأطفال يتقبلون تلك التي يُظهر فيها الأهل لباقة وأدباً أكثر.

«كيف لا يمكننا أن نحب مثل هذا الأب؟ إنه متميز. إذا ما ارتكبنا خطأ ما، فإنه يورد بهذا الصدد، حادثة حياتية معينة. تجلس أحياناً وتستمع إليه وتفكّر، هل هذا حدث فعلاً، أم أنه من اختلاق الفكر وفقط من أجلنا؟ ولكن مهما كان الأمر فإنك بعد سماع هذه الأقوال، تراك مملوءاً رغبة في أن تفعل شيئاً ما جيداً.

منذ عدة أيام، حصل أخي على درجة ضعيف في فحص الجغرافية:

ـ لقد أجبت عن سؤال واحد فقط، وبالرغم من ذلك حصلت على درجة ضعيف.

ـ سأله الأب بهدوء: / كم عدد الأسئلة التي وردت في الامتحان؟

ـ سؤالان أو ثلاثة، ويمكن أن تكون أربعة ـ هكذا أجاب الأخ مرتبكاً.

ـ أنت تعتبر بأنهم لم يقدروا عملك حق قدره. وأي عمل هذا، إذا كنت لا تعرف كم عدد الأسئلة التي وردت في الامتحان؟ وتابع الأب بين

المزح والجد: لم تجب إلا عن سؤال واحد، وهاهم قد وضعوا لك علامة مناسبة لإجابتك، لا تأسف أبداً، ولا تبرر ذلكَ لنفسك، حصلت على درجة ضعيفة، هذا لأنك تستحق ذلك، ويجب عليك ألاّ تفكر بالعلامة الضعيفة التي حصلت عليها، وإنما بسبب حصولك على هذه العلامة الضعيفة، وبهذا الشيء الذي لم تعرفه، وما السبيل إلى تفادي ذلك.

هذا هو أبونا، إنه هكذا دائماً.

هذه الكلمات الصادقة مأخوذة من كتاب المعلمة. / ل. غ. غريغوريان/ «الأطفال والأهل». في هذا الكتاب الصغير الممتع، يتكلم التلاميذ فقط، بحيث يسمح لنا نحن الكبار، أن ننظر إلى أنفسنا وإلى الجوانب القوية والضعيفة في تربيتنا العائلة، بعيون أطفالنا الذين نربيهم، وهذا مفيد جداً. غالباً ما يكون المزاج السيء لدى الأب والأم سبباً في سلوكهم غير المهذب. إن بعض الإزعاجات في العمل، وشجار ما مع أحد الزملاء في العمل، أو شيء ما يؤلمنا بالإضافة إلى المزاج العكر، كل هذا ينصّب على رؤوس الأطفال. حاولوا أن تنظروا إلى أنفسكم في هذه اللحظات بعيون إبْنكم أو إبنتكم. عندها ستفهمون بالطبع، بأنه لا يجوز إجراء أي حوار، وبالأخص مع الأطفال. توجد نصيحة أخرى بعد. ليتخذ حديثكم مع أطفالكم نبرة النصيحة، وحاولوا أن تبتعدوا قدر الإمكان عن الأوامر القطعية، على أن تتخذ هذه الأوامر طابع الرجاء.

وتصبح الحاجة ملحّة إلى ذلك، بقدر ما يصبح الأطفال أكبر سناً. إليكم بعض العبارات التي تدل على علاقة الكبار المحترمة والمؤدبة بالصغار، التي تعزز العلاقات الحميمة في العائلة والتفاهم المشترك: «إعمل معروفاً»، «عندي رجاء»، «كيف تعتقد أنت؟»، «ماذا تقول بهذا الصدد؟»، «أنا لا أنصح بذلك». لا تفترض اللباقة التربوية القدرة على التكلم إلى الصغار فقط، وإنما الإصغاء إليهم أيضاً. ومن أجل ذلك علينا أن نحترم شخصية الطفل، وأفكاره، مشاعره، خوالجه، ميوله ورغباته....

إبن في العاشرة من عمره يسأل أباه: بابا، مَنْ الكاتب الذي يعجبك أكثر من الجميع؟ ويجيب الأب:

- من الأفضل لك أن تحكي لي عن سلوكك اليوم في المدرسة.

الإبن يتكلم عن شيء، والأب يتكلم عن شيء آخر تماماً.

كتب لنا أحد التلاميذ ما يلي: (لو كان الأهل مهتمين بحياتك، فإنه من الصعب عليك أن تخفي عنهم شيئاً. ستقول لهم عن طيب خاطر كل شيء، وكل ما يجول بذهنك، وبذلك تكشف خفاياك. ولكن ما العمل، إذا كان أهلي يهتمون بدراستي فقط، وبالأصح لا يهتمون بدراستي وإنما بالعلامة التي أحصل عليها)؟

لم يطلبوا مني أبداً أن أحدثهم ولو بكلمة واحدة عن حياتي في المدرسة، أو عن حياتي الشخصية. حتى عندما أذهب إلى السينما، فهم لا يسألونني عن الفيلم الذي شاهدته، أعجبني أم لا. قضيت فترة الصيف كلها عند جدتي في القرية. وحدثت لي خلالها مغامرات كثيرة، ومتنوعة، وفرحت كثيراً لأنه أصبح عندي ما أرويه عند ما أعود إلى البيت. ولكن عندما عدت إلى البيت، لم يسترع إنتباه أهلي إلا شيء واحد وهو أن صحتي قد تحسنت قليلاً، ولم يسألوني أبداً عن الكيفية التي قضيت فيها عطلتي، كنت مرتاحاً هناك أو لا. حاولت أن أحدثهم قليلاً عن الأوقات الممتعة التي قضيتها هناك، ولكنهم قاطعوني قائلين.

ستحدثنا عن ذلك في يوم من الأيام، لا وقت لدينا الآن لسماعك.

أما أنا فقد سكت. وذلك «اليوم من الأيام» لم يأت أبداً. تختفي عند الطفل الحاجة الماسة للحديث عن أفراحه وأتراحه وعن شكوكه، عندما يصطدم مرات كثيرة، بمقاطعته أثناء الحديث، أو الإنشغال عنه بشتى الوسائل. وسيأسف الأهل على ذلك عاجلاً. لأن الطفل عندمايبلغ المراهقة، فإن كل ما سيفكر فيه أو ما سيقلقه لن يبدو للأهل أشياء بسيطة أو تافهة. ولكنهم سيجدون الباب موصداً أمامهم للدخول إلى عالمه الداخلي.

«شيء في ذاته». هكذا يسمي أحد زملائي إبنه. في هذا العمر، عمر المراهقة، يصبح كل الأطفال تقريباً منغلقين. لقد تعززت إنعزالية الإبن في هذه الأسرة بسبب تصرفات الأب. أمّا الآن فالأب كلّه رغبة للجلوس مع إبنه والإصغاء إليه بكل سرور، لكي يعرف بماذا يهتم، وماذا يقلقه، من هم أصدقاؤه، أين يمضي أمسياته، ولكن الإبن يتحاشى الحديث معه. تتجلى اللباقة التربوية للمربي أيضاً في السعي للإعتماد على الشيء الأفضل الموجود عند الإنسان، لدى إختيار أساليب ووسائل التأثير التربوي... «أن نتعامل مع أقربائنا، كما يستحقون بالضبط، فإننا نجعلهم بذلك أكثر سوءاً. يجب أن نتعامل معهم كما لو كانوا أحسن مما هم في الواقع، وبالتالي نجبرهم على أن يصبحوا أفضل» ذلك ما قاله غوته.

وكتب/ ل. ن. تولستوي/: «إبحث في الناس الآخرين دائماً عن الجانب الحسن وليس عن الجانب الرديء».

هذا المبدأ التربوي الهام يجري خرقه مراراً في العلاقة مع الأطفال.

- ساشا، أنت ولد سيء جداً!

- كوستا وفينيا أحسن منك بكثير.

- لينا، لماذا أنت بطيئة إلى هذه الدرجة، أُنظري إلى غاليا، إنها تفعل كل شيء بسرعة وبشكل جيد.

ينهال هذا النوع من العتاب كالمطر على رؤوس الأطفال في بعض العائلات. إنهم غير لبقين، لأنهم ينالون من كرامة أطفالهم ويسيئون إليهم، ويحطمون ثقتهم بأنفسهم. فهم يسببون الكراهية والنفور بين الأولاد، والظلم أيضاً لأن أحد الأولاد إذا كان باستطاعته أن يعمل شيئاً ما أفضل من الآخر، فإن باستطاعته أن يفعل الكثير مما هو أسوأ. فالهفوات التي يقع فيها الأطفال غالباً ما تسببها خصوصية مزاج الأهل، أو أخطاؤهم التربوية. يعجز الأهل في هذه الحالات عن إعادة أطفالهم إلى الصواب من دون

المساعدة الودية والطيبة من قبلهم. يمكن أن تقول الأم لابنتها لينا الشيء نفسه ولكن بشكل آخر.

لينا، لقد تعلمت أن تلبسي وتتناولي فطورك بسرعة. والآن حاولي تعلّم الكتابة بسرعة. لقد استغرقت البارحة في كتابة وظيفة اللغة الروسية نصف ساعة، أنا واثقة من أنك اليوم إذا اعتمدت، تستطيعين أن تكتبيها خلال / ٢٥/ دقيقة وبالجودة نفسها. الحوار مع الطفل بهذا الشكل والثقة به، تثير لديه بعض المشاعر الأخرى، كالرغبة في أن يجرّب قواه، والرضى النابع من ملاحظة الآخرين لنجاحاته في الصراع ضد عجزه، والشكر على حسن النوايا الخ...

من المحتمل ألاّ تستطيع الفتاة في المرة الأولى أن تنهي كتابة وظيفتها خلال / ٢٥/ دقيقة، ولكن الأم تطيب خاطرها وتقول: «لا عليك إذا لم تنجحي اليوم في كتابة الوظيفة خلال / ٢٥/ دقيقة فباستطاعتك كتابتها في الغد».

إن سلوك الأهل غير المهذب وغير اللبق، بغض النظر عن كيفية تجلّيه، يسبب ردة فعل سلبية عند الأولاد على صعيد السعي نحو الأفضل والقيام بأعمال جيدة.

السخريات المهينة، والنعت بألقاب مختلفة، والصفعات واللطمات، واللاآت اللانهائية، والسعي إلى التمسك بمطلب ما، طائش، قيل بلحظة إنفعال، والشكوك التي لا أساس لها، كل ذلك يزيد من عنف الأطفال ويضرّ بهم. وعندما يكبر الأطفال سوف يعاملون أهلهم بالأسلوب نفسه الذي عوملوا به.

عن القدرات التنظيمية لدى الأهل

لكلّ أسرة حياتها الخاصة. ولا يتحدد طابعها بالإمكانات المادية فقط، وبالظروف السكنية، وبعدد أعضاء الأسرة، وبعلاقاتهم المتبادلة، ولكن

بقـدرة الأب والأم أيضـاًعلى التنظيم الصـحـيح للعـمـل، للدراسـة، للإستراحة، للميزانية، وللعمل المنزلي، هذا يعني خلق جو في البيت يساعد على التربية الجيدة للأطفال.

لنحـاول أن نتطلع في البـداية إلى تنظيم العمل المنزلي من وجهـة نظر تربوية. يرسو العمل المنزلي في أغلب العائلات بشكل أساسي على شخص واحـد هو الأم أو الجـدة (إن وجـدت). بعض هؤلاء النسـوة يأخـذن على عـاتقهن عبئاً ثقيلاً عن طيب خاطر، بإسم الحب غير العادي تجاه أبنائهن. ولكن غالبية الأمهات والجدات ينهضن بهذا العمل لأنهن لا يستطعن جرّ (جذب) أعضاء الأسرة الآخرين إلى الأعمال المنزلية، والطلب منهم التنفيذ الفوري لواجب معين.

إن التنظيم غير العـادل للعلاقـة بين أعضـاء الأسرة، يؤثر سلبـاً على المناخ العـائلي، بالرغم من أن كل شيء مـرتب ومنظم في هذه الأسـرة، من تقديم وجبات الطعام في موعدها، إلى العناية بالثياب ونظافتها. فالأم في حالة دائمة من التعب والغضب والإستياء، نتيجة عدم رغبة الآخرين في الأسرة في مساعدتها، وخاصة إبنها الذي ينشأ نموذجاً فريداً للإنسان القاسي الذي يجب إعالته.

إذا افتقدت المرأة إلى الخبرة، وإلى قدرتها على إدارة الأمور المنزلية بمفردها، بالإضافة إلى تقاعس أعضاء الأسرة الآخرين عن مساعدتها، فإن اللوحة التي ترتسم أمامنا هي التالية: اللهاث الدائم في البحث عن شيء ما، الأواني قـذرة، الأسرّة غيـر مرتبـة، الطعـام جاف ليس لـه مذاق، الغبـار، القذارة، الفوضى. . . الخ. ويساعد هذا الجو على تنشئة أطفال كسالى، مهملون، وسخون، وغير مرتبين. العـمل المنزلي لا يجعـل حيـاة الأسـرة مريحة فـقط، بل يعتبر، كـأي عـمل مفيـد آخر من أهم الوسـائل في تربيـة الأطفال.

وبالطبع، يجب أن يسعى الآباء على قدم المساواة مع الأمهات الى التنظيم العادل له، والسؤال المطروح الآن هو: في أي شيء يتجلّى هذا السعي؟ هناك جواب جيد عن هذا السؤال، كتبه أحد الآباء إلى أحد أصدقائه وقرأته في «جريدة المعلم» تحت عنوان «ومن سيحضّر الغداء؟».

اليكم الرسالة:

«ماذا سأخبرك عن زوجتي وابنتي! إبنتي ماشا تكبر، وأنا وإياها أصدقاء حميمون، فهي ترافقني دائماً إلى الباب عندما أذهب إلى العمل، وتنتظر عودتي على أحرّ من الجمر. وترجوني أن أنزع نظارتي لتجلس إلى جانبي وتتحدث إليّ ونلعب معاً، نتخاصم، نقرأ ونرقص أحياناً. هل يمكنك أن تتصور كم يسعدني ويفرحني تعلق هذه الطفلة بي. لقد اعتبرت ذلك دائماً من مآثري. أما الآن فقد ظهر عندي إحساس مفاجيء بالذنب تجاه زوجتي. فهي تُطْعمنا، وتغسل لنا ثيابنا وتعتني بنا. ولم يبق عندها الوقت الكافي للجلوس مع إبنتها ماشا والتواصل معها. لقد أظهرت الإبنة أسفها أكثر من مرة قائلة: أمي تقول لي على الدوام إما «أبداً»، أو «بعد ذلك»، أو أنها تقول لصديقتها لوسا: «عندكم كل شيء على ما يرام - أما عندنا - الأم تكوي، الجد يعتني بالجدة، والبابا يذهب إلى كرة القدم».

إنّ إنشغال الأم بالملبس والمسكن والطعام، يمتص كل وقتها حتى النهاية، بحيث لا يتبقى منه شيء. لقد اعتدنا على ذلك، حتى الأم نفسها اعتادت على ذلك أيضاً، وهكذا استقر الأمر، فهي ترسلنا إلى النزهة، توفر لنا الجو للقراءة، واللعب والحوار، وتكون مسرورة وراضية لأنها تستطيع القيام بأعمال المنزل من دون عراقيل. وها هي النتيجة: أصبحت ماشا ترى في أمها ذلك الشخص الذي يتوجب عليه أن يخدمنا. فقد قلت لإبنتي إحدى المرات: نادي أمك لتذهب معنا إلى التزلج. فأجابتني بدهشة: «ومن سيحضّر طعام الغداء؟!» إن ماشا من وجهة نظري، تحترمني أكثر من أمها، وتسترشد برأي أكثر، أما أنا فأعرف شيئاً واحداً، وهو أن زوجتي تستحق

هذا الاحترام ليس أقل مني. كنت اعتبر نفسي سابقاً زوجاً مثالياً، لأني حررت زوجتي من الطفل لكي لا يعيقها في أعمال المنزل. أما الآن فقد فهمت بأني صديق سيء لزوجتي، إذ يجب علي أن أعيد الأمور إلى نصابها، ولذلك بدأت في الأيام الأخيرة بعد عودتي من العمل على تحريض ماشا على مساعدة أمها في أمور المنزل، ليتسنى لنا بعد ذلك القيام (سوية) بنزهة مشتركة أو التفرغ للقراءة. إن ذلك يعجب الفتاة الآن ولكن لا أعرف الى متى. أتت البارحة صديقة ماشا لزيارتها، فأجلستها على المعقد بالقرب منها، وتسابقتا بحماسة وشوق في تحضير البطاطا، قبل أن تجيء الأم. أما عندما شمرّت عن ساعديّ ولبست المئذر، وبدأت بغسيل الأواني، عندها إبتهجت الفتاتان أيما ابتهاج. لقد وضعت اليوم الراديو في المطبخ، وأرى، من إبتسامة زوجتي الصامتة أنها لاحظت ذلك وقدرت اهتمامي، ولكنها على الأرجح لا تثق في ديمومة ذلك.

ولمتابعة ذلك النظام وتكريسه اقترحتُ على إبنتي مشروعاً جذاباً ومثيراً، لتنظيم حفلة موسيقية بيتية على شرف الأم. فاشترينا الإسطوانات التي تحتوي على الأغاني التي تعجب الأم، وحفظناها عن ظهر قلب».

تحضرني الآن قصة صغيرة قرأتها في إحدى الجرائد وعنوانها «يوم إستراحة للأم»، حيث تروي فيها الأم التي تملك عدة أطفال، تقليد عائلي رائع، بطله الأب.

لقد كتبت: «لا يُسمح لي بعمل أي شيء يوم الأحد. يقوم الجميع في هذا اليوم بالعمل نيابة عني، يقدمون الطعام ويرفعونه، ويغسلون الأواني. كان يقوم بذلك الزوج والأولاد. قاموا به وهم في غاية الفرح والسرور. لقد أخذتني الغيرة، فطلبت منهم أن يكلفوني بعمل ما، ولكنهم رفضوا ذلك بتاتاً. فقد أعجبتهم هذه اللعبة في «يوم إستراحة الأم»».

قام أحد معارفي بتنظيم العمل المنزلي لأطفاله بشكل جذاب. وكان

هو وزوجته يكتبون في دفاتر أطفالهم ما يتوجب عليهم القيام به من أعمال منزلية، حيث إتخذت شكل الوظيفة البيتية. إن من ينفذ العمل المنزلي بشكل ممتاز، يثبت علمه الخاص على الصاروخ، ومن تكون نتيجة عمله جيدة فقط، فإنه يثبت علمه على الطائرة، أما من يقوم بعمله المنزلي بشكل مقبول فقط، والنتيجة في هذه الحالة تكون وسطاً، فإنه يثبت علمه على الباخرة. ومن لا يقوم بعمله يُحرم من العلم. وفي نهاية كل عشرة أيام، يقوم الأخوة وهم أَخَوَان وأخت بتقييم نتائج مسابقاتهم، والمنتصر هو من يكون قد وضع علمه أكثر من الآخرين على الصاروخ.

وباختصار، فإن أشكال تنظيم العمل المنزلي يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة جداً. والشكل الأكثر نجاحاً، يمكن أن يستمر ومثال على ذلك «يوم إستراحة الأم».

العادات الجيدة هي من المسائل التنظيمية المهمة في التربية العائلية.

بقدر ما تكون التقاليد الجيدة في الأسرة أكثر، يكون الجو الذي تعيش فيه الأسرة أكثر غنىً ومرحاً. التقاليد: أي ما يخصك من عادات شائقه وترتيبات قريبة من القلب تُعطي إمكانية التنظيم الجيد للحياة ضمن العائلة، وخصوصاً أيام العطل: أمسيات السبت، أيام الآحاد، العطل الصيفية وفي كل أيام الأعياد.

في بعض العائلات، على سبيل المثال، لا يخرج الأهل من البيت أبداً في عيد رأس السنة، وإنما يحتفلون به في البيت مع أطفالهم: كل منهم يحضر للآخر الهدايا والأقنعة الكرنفالية، وأغطية الرأس، ويكتبون لبعضهم البعض الرسائل والتمنيات، ويصدرون جريدة «فكاهة السنة الجديدة». هذا التقليد الرائع لا يملأ قلوب الأطفال بأحاسيس السعادة والمرح فحسب، بل يقوي لديهم أيضاً شعور الحب والإمتنان تجاه الأهل. ويعودوهم على أن يحسوا بالفرح والسعادة، من خلال تواصلهم مع بعضهم البعض. هؤلاء الأهل سيكونون ضيوفاً مرغوبين جداً على أطفالهم عندما يكبرون.

أمّا بالنسبة إلى عيد ميلاد الطفل، فإن كل أسرة تحتفل به بشكل يختلف عن الأُسَر الأخرى، وأحياناً يحرم الإبن أو الإبنة من هذا العيد السعيد، عن طريق دعوة الأهل للناس الكبار الذين يشربوا نخب هؤلاء المولودين الجدد. فالطفل يفضل أن يحتفل بعيد ميلاده مع أترابه. في تلك الأسر التي يقضي فيها الأب أو الأم جزءاً من يوم عطلتهم الأسبوعية أو من إجازتهم مع أطفالهم، يترعرع الأطفال بشكل سليم، ويكونون منشرحي الصدر وأنيسي المعشر. ينتظر الأطفال هنا بفارغ الصبر العطلة الأسبوعية لأمهم، أو عطلة أبيهم، ويناقشون برامج النزهات المشتركة والجولات والمسيرات السياحية، ويساعدون بعضهم البعض في التحضير لها. من المفيد جداً في مثل هذه الرحلات، أن يُشغل الأهل أطفالهم بجمع بعض الأشياء التي تعني لهم شيئاً، كجمع بعض النباتات المجففة، أو مجموعة من الصور، وكتابة مذكرات يومية عن مشاهداتهم، وأخيراً تأسيس متحف محليّ.

إن أفق الفرح أو السعادة المنتظرة، تجعل من الشباب أكثر نشاطاً، وقدرة على العمل، وتعودهم على الاهتمام بالآخرين، وأن يضعوا نصب أعينهم بعض المهام الإجتماعية، ويسعوا لتحقيقها.

كتب / أ. س. مكارينكو/ الكثير عن أهمية تربية «فرح الغد».

«. . . في الآلية التربوية، يعتبر فرح الغد، احدى أهم مواضيع العمل. علينا في البداية أن ننظم هذا الفرح بالذات، ونجعله ينبثق إلى الحياة ونضعه كحقيقة واقعة.

وعلينا ثانياً، أن نجسّد بكل تصميم وإصرار أكثر أنواع الفرح بساطة في أكثرها تعقيداً وأهمية اجتماعية. إننا نشهد هنا خطاً بيانيا رائعاً: من الرضى الفطري البسيط إلى الشعور العميق بالواجب.

يجب أن يتخذ تنظيم الحياة في العائلة مساراً تصاعدياً، بحيث يصبح كل ما يؤمّن للطفل البهجة والفرح أكثر اتساعاً وعمقاً وأهمية من إهتمامات

الطفل الشخصية الخاصة. يتطلب الوضع المعيشي، والميزانية من الأهل، بعض السمات التنظيمية المحددة. . . . . لا ترتبط الرفاهية المادية للأسرة بالدخل الذي يؤمنه أعضاء الأسرة الكبار فقط، بل بالطريقة التي يتفق فيها أيضاً. ولكن عندما يرتقي المستوى الحياتي والمعاشي للشعب، فإن قضية تنظيم الميزانية لا تحتل الأولوية. فكلما ازداد الدخل ازدادت الحاجات، وكلما كانت الأشياء كثيرة وجميلة في المخازن وعند الجيران والمعارف إزدادت الرغبة في اقتنائها أيضاً.

ولكن هذه الرغبات بحاجة إلى توجيه. فمن غير المعقول أن تنفق الراتب منذ الأيام الأولى بشراء بعض الأشياء الباهظة، وتضع العائلة لوقت طويل في وضع لا يحسد عليه من الضيق المادي والظروف الحياتية الصعبة، مما يؤدي إلى نشوء ظروف تربوية سيئة. . . علينا أن لا نشتري أي شيء كان بمجرد أن اشتراه جارنا. لقد بدت لنا هذه الحقيقة وكأنها معروفة للجميع. وعلى كل الأحوال، منذ عدة أيام خلت «صعقني» إبني الصغير بالتصريح التالي:

- بابا، كل الجيران مندهشون من أنك لم تشتر لي حتى الآن دراجة عادية. كل رفاقي يمتلكون دراجات منذ زمن بعيد. البارحة بالضبط اشترى ميشا دراجة عادية، بالرغم من أن أمه تعمل منظفة ومرتبها أقلّ من مرتبك عدة مرات. لقد تصورت بوضوح الصعوبات المادية التي سوف تتعرض لها والدة ميشا لفترة طويلة. نعم، هناك عائلة أخرى هي عائلة كوستيا، اشترت له الدراجة منذ فترة طويلة، ولكن ليس لديه حتى الآن معطف شتوي، أما أخوه الصغير / ديما/ ذلك الشاحب الضعيف، فهو بحاجة إلى التغذية المضاعفة، أكثر بكثير من الحاجة إلى شراء دراجة.

وحتى إذا لم يشاركني أهالي هؤلاء الأطفال وجهة نظري، بأن الدراجة ليست ضرورية للطفل قبل سن / ١٤ - ١٥/ لأنها تسبب له الضرر

أكثر من الفائدة، فيجب عليهم أن يمتنعوا عن شراء الدراجة لطفلهم لأسباب مادية على الأقل.

المشتريات العائلية التي هي خارج قدرتهم على الدفع، تغرس في الأطفال وتربّي لديهم العلاقة الأنانية وغير المسؤولة تجاه دَخْل الأهل، وتجاه أنفسهم بعد ذلك، وتجاه الدولة أيضاً. ولذلك فإن الأهل مجبرون على أن يضعوا خطة لميزانية الأسرة، وأن يعلّموا ذلك لأولادهم أيضاً.

في محاضراته عن تربية الأطفال» يُفْرِد / أ. س. مكارينكو/ لـ «الاقتصاد المنزلي» أهمية خاصة، حيث يكتب: «... يجب أن تُطلع الطفل على ميزانية الاسرة، وتسعى لأن يكون ذلك في وقت مبكر. يجب عليه أن يعرف دخل أمه وأبيه. ويجب أن لا نُخفي عنه الخطة المالية للأسرة، وإنما على العكس، علينا أن نشركه في النقاش حول الخطة التمهيدية أو العامة لميزانية الاسرة.

.... عندما يتشكل عندنا بعض الفائض المالي، علينا أن لا نسارع إلى تلبية بعض الحاجات الإضافية للطفل، وإنما من الأفضل أن نصرف هذه النقود على تلبية الحاجات العائلية العامة، من الأفضل شراء بعض الكتب على أن نشتري بدلة لا حاجة له بها. يفترض التنظيم الجيد للاقتصاد المنزلي، علاقة حريصة بالأشياء. ويجب أن نسعى قدر إمكاننا، بحيث تصبح متطلباتنا، للكبار والصغار من الأطفال، في أن يكون كل شيء في مكانه وبالعناية اللازمة بالأشياء، والإِصلاح الفوري للأعطال الناشئة على قدم المساواة....»[1].

تطفو على السطح قضية أخرى هي التنظيم الصحيح لمصروف الأطفال اليومي. تتشكل العلاقات اللامبالية وغير المسؤولة تجاه النقود، عند أولئك الأطفال الذين يحصلون من والديهم على تلك النقود من أجل

(١) آ. س. ميكارينكو الجزء الرابع ص/ ٣٨٧.

المصاريف الخاصة، حيث لا أحد يراقبهم، ولا أحد يسألهم عن كيفية إنفاقهم تلك النقود.

تظهر عند الأطفال العلاقة العقلانية تجاه النقود، عندما يراقب الأهل مصروف أطفالهم، وعندما يعطونهم على قدر حاجتهم فقط، كأن يذهبوا إلى السينما مثلاً أو إلى المسرح، أو أن يشتروا شيئاً ما محدداً أو معروفاً.

إلاّ أن هذا التعامل في توجيه المصروف، يصلح فقط للأطفال الصغار وتلاميذ الصفوف الأولى، أما لاحقاً عندما يكبر الأطفال ويبلغون سن المراهقة، فإن بعض الاستقلالية في إنْفاق الأموال الشخصية ضرورية، لكي يتعلم المراهقون تقييم أو تقدير قيمة الليرة. ولكي يستطيعوا التدرب على إقامة علاقة عقلانية وارادية بالليرة.

قدّم مكارينكو للأهل النصيحة التالية للتعامل مع الأطفال الأكبر سناً: نعطيهم مرة أو مرتين كمية محددة من النقود، ونبين لهم بدقة كيفية إنفاقها. يجب أن تتعلق قائمة هذه المصاريف بعمر الطفل وبالحالة المادية للأسرة. فالمصروف يزداد طردياً مع ازدياد عمر الطفل. ومن ميزات هذه الطريقة أنها تغرس نزعة حسن التدبير عند الأطفال، وخاصة عندما يكون الأهل حريصين أو يقظين بحيث لا يطالب الأطفال بغضب بحقهم في التصرف بجزء من ميزانية الأسرة، حتى ولو كان يسيراً. وهكذا، فإن قدرة الأب والأم على إدارة الاقتصاد المنزلي، لا يُدخل النظام الدقيق إلى حياة الأسرة، ويخلق الظروف المؤاتية من أجل العمل والإستراحة فحسب، ولكنه يربيّ في طبع الأطفال بعض السمات الهامة، كحب النظام، والشرف، والحرص.

هناك حكمة شعبية قديمة تقول: «فإذا أردت أن يحترمك أطفالك في شيخوختك، فاحترم أنت بنفسك الشيخوخة». وهناك مثل آخر أيضاً: «إذا أردت أن تجعل من أولادك أغنياء فعلّمهم العمل، وإذا أردت أن تجعل منهم سعداء، علّمهم أن يحترموا الشيخوخة».

كم كانت حياتنا غنيّة، وكم كان بمقدورنا أن نعالج بنجاح المسائل التربوية الصعبة، لو نظرنا بإمعان في مطاوي التربية الشعبية. هناك مخزون لا ينفذ من الحكمة المتراكمة على امتداد أجيال عديدة. والآن عندما نبحث في القضية الشائكة التالية وهي: أيُّ أب يجب أن أكون - وأيّ أم يجب أن أكون، فإنه يأتي لنجدتنا الكثير من الوصايا التي تركها لنا القدماء من أجدادنا.

وهل يمكننا أن نتصور العائلة المعاصرة فقط في أطر المعادلة التالية: الأهل + الأطفال، لا، على الأرجح، فالكثير من العائلات المعاصرة تحوز على قوة مادية، تربوية، أخلاقية وروحية هائلة، كالجدّات والأجداد.

إنهم، على الأرجح، ليسوا أولئك الشيوخ أو العجائز الذين بقوا في ذاكرة الجيل السابق، إذ كانوا نموذجاً للناس المملوئين طيبة وحكمة واهتماماً بالآخرين، وأحياناً مشاكسين ولا حول لهم ولا قوة، وينحصر محيط إهتماماتهم برعاية الأطفال والأحفاد، ومهنتهم الرئيسية هي حياكة القفازات لأحفادهم، ورواية القصص المرعبة.

تلك الأزمنة ذهبت دون رجعة. الجدات والأجداد المعاصرون أُناس ذووا عمر متوسط، مليئون بالقوة والنشاط، بلغوا ذروة وضعهم الإجتماعي ورفاهيتهم المادية. إنهم لا يحتاجون إلى المساعدة، ولكنهم غالباً ما يساعدون أولادهم «الآباء الجدد» ويتعهدون بتربية أولادهم، ويساعدونهم قولاً وفعلاً.

ومن الممكن أن نقولها بجرأة بأن جدات وأجداد اليوم هم من يمسكون بأيديهم مفاتيح سعادة الكثير من الأسر الفتيّة. ولكن إذا كان الكثير منهم لا يحتاج إلى مساعدة أولادهم المادية، فإن الإنتباه إليهم واحترامهم واجب لا يمكن الحياد عنه. ذلك هو خبزهم، تلك هي القوة التي تسندهم وتطيل من نشاطهم الابداعي، أو تمدّ في عمرهم. إنه لمن الخطأ الذي لا يغتفر أن نفهم هذه الكلمات كفرض للشباب تجاه أهلهم، أو «معروف» و «ردّ دين». إنها

مغالطة خطيرة وبعيدة عن المبادىء التربوية. فالإهتمام بالجدات والأجداد ليس مؤشراً لثقافة الأم والأب الأخلاقية فحسب، وإنما وسيلة قوية لتشكيل طبع الأطفال. هذه الرعاية، وهذا الإهتمام ليس مهماً وضرورياً للجدات والأجداد، بقدر ما هو ضروري لهم أنفسهم أي للأهل، لكي لا يحصدوا في شيخوختهم الثمار المرة، وقساوة أطفالهم ولا مبالاتهم، ذلك مهم جداً وخصوصاً عندما يبلغ الأجداد والجدات من العمر عتيا، ولا يستطيعون مساعدة أولادهم كالسابق، وإنما يفتقرون في هذا العمر إلى من يساعدهم في حياتهم اليومية. عندها تظهر بشكل واضح الصلابة الأخلاقية لأولادهم وأحفادهم. تعتبر فترة الشيخوخة إمتحاناً من نوع خاص، ومدرسة في الثقافة الأخلاقية، واختباراً للمبدأ التربوي عند الأب والأم، ومثالاً عيانياً مقنع من أجل الجيل الناشيء. يجب أن لا ننسى ذلك أبداً وأن لا يغيب عن ذهننا ولو لدقيقة واحدة.

ليس من السهل أحياناً المواءمة بين ممثلي عدة أجيال، ضمن الأسرة الواحدة، لكل منهم وجهة نظر تجاه العالم والحياة وتجاه العلاقات، ولكل منهم ذوقه وأهواؤه أحياناً ونزواته وشغفه. هكذا هي الحياة! لا تستطيع أن تهرب منها. ولكن هذا يُملي عليك ضرورة إيجاد الطرق المناسبة للفهم المتبادل. المقالة التالية تبحث في هذا الشيء وقد كتبها كل من / يو. يو. شيربان و ف. ي. نيغيدوف/.

* * *

ف.ي. نيغودوف، يويو. شيربان
الأجداد، الجدات، الأهل، والأطفال

(فصل من كتاب «فن التربية في الأسرة»)

ترتبط هيبة أو نفوذ كبار السن في الأسرة بعوامل وشروط كثيرة. من هذه الشروط العلاقة العقلانية للوالدين بأهلهم. الرعاية والإهتمام، الإحترام والإعتراف بجميلهم في الحياة وفي المجتمع والعائلة، كل ذلك يخلق جواً مفيداً وإيجابياً من أجل تربية الجيل الناشىء بروح المواطنية العالية.

إننا نعرف عائلة، تعيش في مدينة / مينسك/ في روسيا البيضاء. تحوز الجدة / مترونانوفنا/ ، على مركز الاهتمام في هذه الأسرة. ولا نتمالك أنفسنا من الدهشة عندما نرى رب الاسرة / فيودورايفانوفتش/ يساند ويدعم نفوذ الجدة. تطرقنا في إحدى المرات خلال حديث وديّ إلى موضوع الشيوخ. واليكم ما أخبرنا به فيودور صهر / مترو فانوفنا/ : كنا ثلاثة أُخوة عند والدنا. وكان الأهل مشغولين دائماً بالعمل، ولم يهتموا بنا كثيراً. وكانت تعيش معنا عمة والدنا. لقد كانت بالنسبة لنا الصديق الوفي والمربي. فهي امرأة مدهشة، عندها من الحكمة ما يكفي، بالإضافة إلى البساطة وطيبة القلب. إني أعتبرها حتى الآن معلماً تليداً. جدتنا تلك لم تصرخ في وجهنا إطلاقاً ولم تلمنا بشكل ساخر. كانت تنصحنا بالأحرى بتعبيرها هي بأن «نترعرع أذكياء». وبالرغم من أننا كنا أولاداً أشقياء عاقين، فقد أطعناها كما نطيع أكثر المعلمين صرامة. وحتى عندما كبرنا وابتعدنا عنها لم ننس

نصائحها لنا، وكان ذلك يظهر في أعمالنا وأفعالنا التي نقوم بها. أحياناً يتنابني الإحساس وكأنها تقف في مكان ما قريب، تنظر إليّ وتهز برأسها معاتبة: مشغول، إنك لم تكن بهذا الشكل سابقاً. . . وانقضت سنوات كثيرة منذ أن عذبها الألمان عقاباً لها على علاقتها بالأنصار. . . نعم ولم يبلغ بي العمر خمس وعشرون سنة بعد. لقد مرّ عليّ الكثير، وكبر أطفالي ولم يحوزوا على السمات التي أردتها لهم. باختصار إنه جيل الشباب المعاصر. وبدا بأنه من المسموح به لحماتي أن تكون إنساناً سريع الغضب ولا تتمالك نفسها، لأنها تمتلك الأساس الكافي لذلك أكثر من الأحفاد. ولكن نظرة سريعة إلى أيديها الخشنة القاسية من جراء العمل، وإلى سيرة حياتها ليصبح كل شيء واضحاً. . . .

عندما أتذكر طفولتي، فإني غالباً ما أفكر مليا بالسر الكامن وراء نفوذ وهيبة الجدة، وأرغب في أن أفهم أين تكمن قوة تأثيرها علينا جميعاً.

الأطفال هم الأطفال، فهم بطبيعتهم يُظهرون الإحترام للإنسان الكبير. تجتمع لديهم أحياناً كل المشاعر دفعة واحدة. العبث والرأفة، الإهتمام والفوضى، الحب والإمتعاص. . . . الخ. لقد مررنا نحن في طفولتنا بهذه المرحلة، كأطفال اليوم تماماً. يكون إنتباه الأطفال شديد التركيز وخاصة تجاه الأكبر سناً. كيف يتكلمون ويتعاملون مع بعضهم، وأي معنى يضعونه في كلماتهم وحركاتهم، وأية مشاعر يبدونها تجاه أعضاء أسرتهم، وأصدقائهم ومعارفهم. لقد كان والدنا شديد الإهتمام بجدتنا. إنه لا يتذكر أنه نسي في وقت من الأوقات أن يستخبر عن صحتها وعن أحوالها. وحتى عندما تكون الجدة في تمام الصحة والعافية، فإنه يسألنا عنها وعن أحوالها الصحية والعامة. وأمنا أيضاً كانت لطيفة جداً معها. أراد والدنا منا نحن أحفاد الجدة أن نترعرع وننشأ أُناساً لطيفين وحساسين. وكان والدنا بالذات، بالنسبة لنا، مثالاً يحتذى به في هذا المجال. لقد كان في كل مرة ينال فيها مرتبه الشهري، يشتري بعض الهدايا، وتكون هدية الجدّة في المقدمة. وكان

يقوم بكل ذلك بمزاج إحتفالي. وفي هذه اللحظات المليئة بمشاعر الحب والحنان تدمع عينا الجدة وتقول دائماً: «كان من غير اللازم إنفاق النقود، إنني أستطيع الإستغناء عن ذلك، كان من الأفضل أن تشتري للأطفال..».

أرأيتم الإنتباه الذي أولاه والدنا لجدتنا. لقد كانوا يجلسونها دائماً في أفضل مكان. والنخب الأول كان نخب صحة الجدة.

توجهنا في إحدى المرات مع والدنا في رحلة استجمام، وذهبنا إلى القرية التي ولدت فيها الجدة وقضت فيها الكثير من سنوات حياتها. تجولنا في تلك الأماكن التي ذهبت إليها جدتنا في يوم ما، وكَدَحَتْ وحاربت الأعداء. لقد عرّفنا الأب بكبار السن هناك قائلاً لهم بأننا أحفاد / ميتروفانوفنا/، وأننا بطلب من إبنتها أتينا إلى هنا لنراهم ونرى كيف يعيشون وما هي أحوالهم.

رفاق جدتي، أولئك الناس المخلصون البسطاء، قالوا عنها الكثير مما يفرح القلب. إن مثل هذه الرحلات واللقاءات مع الناس، والأحاديث والرعاية التي تخص بها إنساناً قريباً منك تبقى في الذاكرة. يؤثر هذا النمط العائلي من الحياة على تشكلّ الطبع، وصيرورة الإنسان الحقيقي البنّاء. لنتكلم الآن عن الجدّة / ميتروفانوفنا/. ولنترك الكلام عن ذلك لحفيدها فاليريا، وهو إبني الكبير. إنه فتى بعد ولكنه أصبح أباً ـ ممثلاً للجيل الجديد.

أقول بصراحة ـ فاليريا يتكلم ـ بأن أموري الحياتية سارت كما عند أترابي ـ من دون أية مشاكل ـ لم تُتح لي الفرصة بعد في التفكير بعمق عن تعاقب الأجيال. الشباب المعاصر، مشغول في الوقت الحاضر وأكثر من أي شيء بالمسائل الفضائية. أما الجدّات والأطفال فإنهم على الهامش. البعض يولد، والبعض الآخر يشيخ. لقد بلغت من العمر الآن / ٢٢سنة/ وأشعر بطاقة هائلة وبروح الشباب وبعدم الإكتراث، أشعر بأنني أعيش فوق، بين الغيوم...

ذهبت أنا ورفاقي إلى إحدى البحيرات بمناسبة التخرج من الجامعة.

وفي إحدى الأمسيات وبعد أن انتهينا من تحضير الحساء من السمك الطازج، تذكرنا جداتنا. فقال أحدهم منهكماً: هنا تكمن فائدة الجدات. وبشكل مفاجيء احتدم بيني وبين صديقي نيكولاي نقاش حادّ. أخذ نيكولاي يبرهن لي بأن جدته لا تستحق أي احترام: إنها عنيدة ومشاكسة، وغير أنيقة وغير طبيعية أيضاً. فهي حسب زعمه تشكو من خلل في رأسها.

خذ جدتك على سبيل المثال، فإنها شيء آخر تماماً. إنها نظيفة دائماً وأنيقة الملبس، ولطيفة معك ومع الآخرين. وباختصار، جدتك معاصرة، أما جدتي فهي من بقايا القرن الماضي. من الواضح أن صديقي نيكولاي يريد من جدته، ان تحمله كالسابق على يديها. فهو لا يرغب في معرفة أنها دخلت في الثمانينات من عمرها، وانها عانت الأمرّين في زمن الحرب. لقد اعتاد على إستغلال جدته، كما يحدث الآن تماماً، على شاطيء البحيرة، حيث يسعى لإستغلالنا أيضاً. إنه لم يساهم في إشعال الموقد ولا في تقشير البطاطا أو نصب الخيمة. إنه لم يستطع أو لم يرد مساعدتنا. لقد قمنا بالعمل نيابة عنه، إذ اكتفى هو بالتعليقات. لقد قلت لـ نيكولاي بأن جدتي ميتروفانوفنا تستحق الإحترام والرعاية. ولا أحد يرفع صوته عليها، وإذا ما تجرأ أحد وفعل ذلك، فإن الوالد يلومه على ذلك، ويؤكد على العلاقة الطيبة مع كبار السن. يوجد عندنا تقليد عائلي متبع: كلّ منا مجبر، حسب إمكاناته على خدمة نفسه. كل منا يستطيع أن يغسل ويكوي ويرفو الجوارب ويمسح الأرض ويحضرّ الغداء. أما الجدة فإذا ما أرادت أن تعمل شيئاً في البيت، فيكون ذلك برغبتها وحسب عادتها في العمل. تعمل أمنا في البداية من أجل الجدّة، وبعد ذلك تولينا إنتباهها. لهذا السبب فإن جدتنا أنيقة وهادئة. إنها تشعر في كل وقت وفي كل ساعة بانتباهنا إليها، ورعايتنا لها. نواجه أحياناً بعض الأحفاد ممن يضعون أنفسهم في مركز الاهتمام، ويزيحون الجدّة إلى الخلف، ويشعرون بالإنزعاج والإمتعاض منها، حتى وهي في هذا المكان.

تجمّع في محطة الباص عدد كبير من الشباب. وكانت إحدى العجائز تقف بعيدة نوعا ما. وأثناء صعودها إلى الباص، تقدم أحد الشبان، أشعث الشعر، يحمل الغيتار، وصعد إلى الباص مبعداً إياها جانباً. وبالطبع كان علينا أن نمسك بهذا البطل، ونلقنه درساً بإحترام الآخرين. إننا غالباً ما نسمع الكلام التالي: «عند جدتي طبع صعب. من الصعب التفاهم معها». ولماذا تعتبر أن التفاهم معها صعب، وليس التفاهم معك هو الصعب؟ ومن أي منطلق يجب عليها أن تتلاءم مع طبعك أنت؟ ما الخدمات التي قدمتها لها، حتى وجب على جدتك التي لها من العمر أكثر من /٧٨/ عاماً أن ترعاك، كما كان ذلك قبل /٢٥/ عاماً خلت، حيث كنت طفلاً لا حول لك ولا قوة؟ لا يا صديقي، نحن لم نتعلّم، أن نحترم شيوخنا، أولئك الناس الذين ضحّوا بحياتهم لضمان مستقبلنا وعملوا كل ما بوسعهم من أجل رفاهيتنا. أنت تقول، بأنك لا تتحدث مع جدتك، لقد شاخت وتخلّفت، وأنها الآن لا تهتم بأي شيء... وأشياء أخرى. ما هو السبب؟ هل جننت؟ لا يا صديقي، لست موافقاً. العجائز والشيوخ عندهم من الإهتمام والإنتباه كما عندنا نحن أيضاً. الجد والجدة يهتمون أيضاً بغزو الفضاء وبقضايا الحرب والسلم. ويهتمون أيضاً، بالجديد في الأدب، وبالأدوار المسرحية والأوبرا، وبالقضاياالرياضية بالإضافة إلى مسائل الصِّحة العامة وإطالة العمر وتربية الأطفال. بل إنهم أحياناً يدخلون في نقاش حول مسائل (الموضة) المعاصرة. فمجال إهتماماتهم واسع وحيوي. إلاّ أننا وهذا شيء طبيعي، نحن وأجدادنا وجداتنا لدينا وجهات نظر مختلفة بمسائل عديدة، وكل منا ينظر إلى الأشياء بمنظاره وليس بالضرورة أن تتطابق تقييماتنا للأحداث والظواهر والإنفعالات. وهذا ما يثبت أيضاً أن أجدادنا وجداتنا، وغالبية الطاعنين في السن، هم في صحة جيدة وأناس عاديون جداً.

يدور جدال حامي الوطيس حول المثل القائل: «الكبير كا لصغير». ان

من يحاول استخدام هذا المثل لصالحه، هم أولئك الذين لا يحترمون كبار السن. هناك مغزى عميق، بالطبع، في هذه الحكمة القديمة.

ولكننا عندما نكرر هذه الحكمة، فإننا نلامس القشور فقط من غير أن نفهم ما تعنيه بالجوهر، فالحديث هنا يدور حول التغيرات التي تصيب الإنسان على مر السنين، إذ تتجلى عند بعض الناس أكثر من تجليها عند البعض الآخر. أحياناً، يتألم العجوز من هذه التغيرات التي طرأت عليه، ويتحسّر على تلك الأيام الماضية، وقد يبكي بعض الأحيان. ويعتبر نفسه عالة على أولاده. ويفسر ذلك بتقدم السن، وبالتعب الجسدي والضعف بالإضافة إلى الحساسية المرهفة. وبالتالي، يجب على الشباب الأصحاء أن يقوموا برعاية كبار السن والإهتمام بهم كما يهتمون بأطفالهم، على أن يتم ذلك بشكل لطيف ومهذّب وعن تبصّر عميق.

تذكروا طفولتكم. ألم يجري أبداً أنكم كنتم تلعبون مع أترابكم، وتركتموهم فجأة وركضتم إلى جدتكم وحضنتموها وقلتم لها: «آه، كم أحبك يا جدتي!».

وماذا يترتب على هذا المثل المأخوذ من طفولتنا؟ إننا نفهم من ذلك بأن الطفل بطبيعته يحتاج إلى الرعاية والحنان. وأنهم أي الكبار، ينعمون عليه بالرعاية والحنان. ولكنه عندما يصبح كبيراً، يتوجب عليه أن يرد هذا الجميل لأصحابه، الذين أنعموا به عليه في صغره. إنها عملية طبيعية. ويحتاج الناس أيضاً في أواخر حياتهم إلى الرعاية والعطف، كما تحتاج الأزهار إلى أشعة الشمس. بيد أن الشيوخ يحتاجون إلى إنتباه من نوع خاص.

هل لاحظت أنك عندما تعود متأخراً من العمل أو من المسرح، ترى أن جميع من في البيت نيام، عدا الجدة، فهي قلقة نوعا ما. وبمجرد دخولك المطبخ تقف على قدميها وتسرع لتسخن لك الشاي. أو أنّك تجدها متوعكة، تجلس في الفراش، وعيونها ذابلة، متألّمه. في هذا الوقت الأليم والشاق

بالنسبة إلى العجوز، إقترب منها وخذ يدها، وضعها بين يديك، تمنّ لها الشفاء السريع والصحة الجيدة ـ وسترى أن عيونها ستبرق فوراً، وسترتاح قليلاً. ومن هنا يجب أن نعي بأن علاج الإنسان الكبير في السن يجب أن لا يكون بتناول الدواء، بقدر ما يكون بالكلام اللطيف والقريب من القلب.

كل ما نحوز عليه الآن، ونعتبر أنفسنا أغنياء به، هو من صنع الجيل السابق. جدتنا هي التي لاطفتنا ودللتنا، والمعلمة العجوز علمتنا القواعد، البرفسور العجوز سلّحنا بالمعارف، الطبيب العجوز عالجنا من مختلف الأمراض... إنهم جميعاً غرسوا فينا روح الرجولة والشجاعة، وهم مثال يحتذى به بالنسبة لنا، في حب بيت الأب والوطن. وهكذا فإن سرّ هيبة الجدة متروفانوفا، كما المئات من الجدات الأخريات يكمن في النظام التربوي للجد والإبن والحفيد وفي تعاقب الأجيال.

من أجل صياغة أو تشكيل طباع الأطفال، لا بد أن تكون الروح العائلية صحيحة وأن يكون المناخ العائلي نظيفاً وخالياً من أية عوائق. هل يتحقق ذلك دائماً؟ ليس دائماً للأسف.

استرعت إنتباهي في إحدى المحاكم في مدينة مينسك في روسيا البيضاء، قضية الطبيبة التي طلبت الطلاق من زوجها المهندس. لقد عاشا إثنتين وعشرين سنة، إبنهم في الجامعة والإبنة في الصف العاشر، ما الشيء الذي دفع بالزوجة إلى طلب الطلاق من زوجها؟ لقد لاحَظَتْ في السنوات الأخيرة بأن سلوك زوجها ليس طبيعياً تماماً. كانت الزوجة تحوّل مدخراتها المالية، عن تبصر، بإسم أمها وأطفالها، إلى أن حصلت على شقة من غرفة واحدة لإبنها. أرسلته ليعيش فيها بعد الطلاق، أما هو الزوج المشؤوم والمفضوح، فقد كان قبل الطلاق يعمل كمهندس ويعطي معظم راتبه إلى زوجته لتصرفه على البيت والأولاد مبقياً لنفسه مصروفاً خاصاً.

كل هذه القصة الكريهة جرت على مرأى من عيون الأولاد وبمشاركتهم أيضاً: كانوا يطالبون أباهم بالمزيد من الأموال. ولكن مشاعرهم

لم تهتز من أن والدهم يتألم كثيراً من هذا الوضع، فوضعه لا يهمهم إطلاقاً. وما يهمهم هي أمواله فحسب. وكانوا يتعاملون معه بوقاحة كما تتعامل معه الأم تماماً. كيف يمكننا في هذا الوضع المأساوي أن نوجه التربية العائلية لكي تساعدنا على صياغة طبع الأطفال. كلنا ثقة هنا بأنّ الأم في عملها هذا تصنع الشر لها ولأولادها وللمجتمع.

تعليم الجيل الناشىء على إحترام الأكبر منه سناً (الوالدن، الجدات، الأجداد) عملية صعبة ومتعددة الجوانب، دار الحديث في إحدى المرات بيننا وبين العمّال عن تربية الشفقة واللطافة، وإظهار الرعاية والإهتمام بكبار السن. وروى لنا أحد العمال المشاركين في الجلسة، أنه على إمتداد ربع قرن من عمره، لاحظ الكثير من العلاقات المعقدة جداً في أسرة واحدة معروفة له جيداً، وارتبطت هذه العلاقات بأحداث مأساوية.

ترملّت / نتاليا مكسيموفنا/ وهي في عز شبابها، وعندها ولدان وبنت. لقد استشهد زوجها الكسي، وهو يحارب الأعداء على الجبهة عام / ١٩٤١/ . وسرعان ما تزوجت زوجته من / ايفان بيتروفيتش/ . ومن الزواج الثاني رزقت الزوجة بإبنة أخرى. بيد أن / ايفان ايفانوفيتش/ أيضاً تعرّض لحادث أليم ولم يستطع الأطباء إنقاذ حياته، كانت مصيبة الأم نتاليا كبيرة ومؤلمة، وقررت أنها ستكرّس كل حياتها وقواها لتربية أولادها. لم يقدم لها أقرباء زوجيها أية مساعدة، ولكنها كانت إنساناً قوياً صعب المراس قوي الإرادة، فالبرغم من كل الصعوبات التي اعترضتها نشأت أولادها تنشئة صحيحة، وربتهم شرفاء ومحبين للعمل. وحصل الجميع على تعليم عال. الإبن الأكبر فلاديمير تزوج فتاة حلوة. وخلال ثلاث سنوات كان لدى نتاليا حفيدان. أثرت حياة نتاليا الصعبة والمعقدة، على صحتها وطبعها وأصبحت شديدة الحساسية والتعنت، وحتى متقلبة الأطوار والأهواء. وحيث لا مكان للإغلاظ في الكلام، كانت تماحك الأحفاد والكنّة بلا سبب. ولكن الزوجة الشابة كانت إنساناً ذكياً جداً ومربياً من الدرجة الأولى.

وبفضلها جرت الأمور في الأسرة مجرى حسناً وصحيحاً. من النظرة الأولى تبين بأن أهواء العجوز كان يجري إستيعابها للحفاظ على الأسرة، وعلى الحب الذي تبديه العروس الجديدة تجاه زوجها. كانت الأمور تجري هكذا إلى حد ما، وفقط إلى حد ما. هذا النوع من العلاقة مع الكبار، كان مغروساً في أعماق هذه الإمرأة الشابة، وهذا هو بيت القصيد، حيث أنها حاولت جهدها أن تغرس في أطفالها هذه المشاعر الطيبة تجاه الناس كبار السن.

وأخيراً أجبر المرض العضال، نتاليا، على أن تلازم الفراش وفهمت بأن أيامها أصبحت معدودة، وساعدتها السمات السلبية لطبعها على معرفة نفسها، وفهمت بأنها أضجرت وأتعبت كنتّها وأحفادها. ولكن في هذه المرحلة بالتحديد من مرض الحماة، أحاطتها الكنّة بعطف من نوع خاص، وأحاطتها بالرعاية المخلصة والصادقة. هذه الأيام بدت وكأنها امتحان للكمال الروحي عند الكنّة والأحفاد. لقد اهتموا بها جميعاً، الأولاد، الأب، الأم، وسهروا على راحتها الليالي.

كانت صلتهم دائماً بالطبيب المعالج، وكانوا يحصلون منه على التعليمات والوصايا وينفذونها بحذافيرها. في أيام الأعياد كانوا يحتفلون في غرفة الجدة. ويتناولون طعام الغداء معها، ويناقشون بعض أمور الأسرة، وكانوا يزيدون من ثقتها بالحياة. ولكن الزمن مهما طال، فلا بد من ذلك اليوم من أن يأتي وقد أتى فعلاً وتوفيت الجدة. وعلقت صورتها التي رسمها الحفيد الأكبر فوق ذلك المكان الذي اعتادت الجدة أن ترتاح فيه. كم يلزم من اللطافة ومن الحكمة البشرية، لكي نخلق حول الانسان العجوز، ذلك الجو الذي يجعل من الأحفاد أناساً ودودين عطوفين! تؤكد الحياة بأن الأولاد يجب أن يتعلّموا من أهليهم دروساً في الرفق البشري، وفي احترام الناس الأكبر سناً، وعلى الأخص، جداتهم وأجدادهم. يرتبط خلق هذا الجو في الكثير منه بالكبار أنفسهم.

لاحظنا أكثر من مرة بأن الجدات أنفسهن يخلقن الشروط التي تساعد على العلاقة اللامبالية والسلبية تجاههن. إنهن يلقين على كاهلهن كل مشاغل الأسرة، إذ لا يسمحن لباقي أعضاء الأسرة من القيام بواجباتهم تجاه أنفسهم. حتى أن بعض الجدات لا يتركن مجالاً للأحفاد الواعين لخدمة أنفسهم، إذ يقمن بإلباسهم ثيابهم وأحذيتهم، وترتيب أسرّتهم، وإرسالهم إلى المدرسة. وتصل الأمور أحياناً ببعض الجدات إلى درجة كتابة الوظيفة المدرسية بدلاً من أحفادهن. إنهن غالباً ما يقمن بزيارة للمدرسين، ويجرين معهم محادثات «دبلوماسية» عن مستوى أحفادهن في المدرسة، ويعالجن مسائل أحفادهن في مسرح الهواة، إلى درجة أنهن يحددن أدوارهم.

ومن الأمور المزعجة التي تحدث في العائلة الصراع بين الكنّة والحماة، وخاصة فيما يتعلق بعمل الصغار في البيت لمساعدة أمهم، حيث تبدأ الحماة بالصراخ على كنتها: «ياللهول، تخاف من إرهاق نفسها في العمل! أنت لست مريضة، تستطيعين القيام بالعمل بنفسك، لماذا تستغلين الطفلة، الأفضل لها أن تذهب إلى السينما...». لا يوجد في التربية شيء فظيع ومرعب أكثر من إختلاف آراء الكبار. الجدات الـ «طيبات القلب» غالباً ما يفسدن الأطفال، ويجعلن منهم أطفالاً رقيقين، أنانيين، ويدفعن غالياً بعد ذلك ثمن تربيتهن الخاطئة. هؤلاء الجدات لا يحترمهن لا أولادهن ولا أحفادهن الذين «أعطوهن كل حياتهن». غالباً ما تكون أمور الحياة اليومية مثل: الغسيل، ترتيب الأسرّة، وتحضير الطعام وتنظيف الغرفة على عاتق الجدات. أمّا مكان إستراحة الجدة فهو على الأغلب في المطبخ إلى جانب المغسلة. في الوقت الذي يحصل فيه كلٌّ من الحفيد أو الحفيدة، على غرفة مستقلّة مع بلكون مطلّ على الشارع، كل ذلك لأنهم في أول عمرهم، ويحتاجون إلى شمس أكثر، وإلى هواء نقي أكثر وإلى راحة أكثر.

وباختصار، كل شيء للأحفاد، ولا شيء لهن. إني أعرف عجوزاً،

كان يقوم كل يوم صباحاً ولعدة سنوات بشراء حاجات إبنته وأحفاده من المخزن ويحملها إليهم في البيت، في الوقت الذي ينامون فيه بهدوء وينعمون بدفء الفراش. وعلى سؤالنا له لماذا يدللهم بهذا الشكل أجابنا العجوز: «سيأتيهم الوقت الذي يعملون فيه أما نحن فقد اعتدنا على العمل».

إنّ استخفاف الأجداد والجدات بأنفسهم وعدم إعتبارهم لذواتهم ولعمرهم، يلحق الضرر والأذى بالقضية التي من أجلها يضحّون بأنفسهم. ومن الملائم هنا أن نتكلم عن أولئك الجدات اللواتي يُعتبرن مثالاً يحتذى للكثيرين ولكن ليس للأطفال والأحفاد. تعيش الجدة التي سيدور عنها الكلام أيضاً في مدينة مينسك ولها من العمر / ٧٧/ عاماً، وهي محالة على المعاش. لقد شاركت في سنوات شبابها بنشاط في بناء الكثير من المصانع والمعامل في روسيا البيضاء، وشغلت مناصب عدة وتشارك الآن حسب إستطاعتها في الحياة الإجتماعية بإدارة عمارة سكنية.

يمكن أن تقول بأنها شيخوخة سعيدة. ولكن هذا ما يبدو لكم. إن هذه المرأة الطاعنة في السن تضطر إلى العمل عملاً صعباً فوق طاقتها فهي تقوم بواجبات الحاضنة في إحدى مؤسسات الأطفال. ألا يكفيها راتبها التقاعدي؟ ماذا يوجد عندها: أُسرة؟ أطفال؟ ليس لديها أُسرة. هناك حفيدة متزوجة. إنها تعمل من أجلها من غير أن ترحم عمرها ولا صحتها. تقول الجدة أن الحفيدة لم تطلب منها ذلك، ولكنها لم ترض بذلك. القضية هي أن الحفيدة تزوجت وولدت بنتاً ولكنها وقعت في حيرة من أمرها، فهي لا توازن بين تدبير شؤونها المنزلية وبين القيام بواجبات الأم ولذلك قررت أن أقوم أنا بواجب الحاضنة. ستفهم الحفيدة مع الزمن بأن السعادة كالحرية لا تباع ولا تشترى، إنها تُخْلَق بالعمل المفيد الشخصي، وهذا ما تستعد له الحفيدة للأسف.

سألنا الجدة:

كيف حدث أن ترعرعت هذه الفتاة الكسولة في عائلة إنسان كادح نشيط؟ فكّرت بالأمر مليا، وتنهدت بعمق ثم بدأت الكلام: في السنوات الأخيرة، راجعت في ذاكرتي أكثر من مرة حياتها كلها وحياتي أيضاً . . . وبعد قليل من الصمت تابعت الكلام، عن شيء آخر كما يبدو: لمحتُ أو بالأحرى لاحظت ولداً له من العمر أربع سنوات إسمه إيغور. إنه في روضتنا وفي مجموعتي. كنت أراقبه وأكتب في دفتري كل شيء عن حياته اليومية. ما الذي شدني بشكل خاص إلى هذا الولد؟ إنه سلوكه الغريب قبل كل شيء. فهو يتحين الفرصة لكي يسبب الأذى لي أنا مربية الأطفال. لقد وضع قطناً في أنف إحدى الفتيات وهي نائمة، ولم يعترف بفعلته. وأتلف الأزهار التي كانت في النافذة، وحطم الشجرة الصغيرة التي كانت في الفناء، ولكنه لم يعترف بأي ذنب أيضاً، وبمجرد ظهور أهله في الروضة يبدأ بالتقاط أقرب شيء يقع تحت ناظريه ويضرب الأطفال به. إنه لا يلعب مع الأولاد بل على العكس فهو يتجنبهم، يمشي وحيداً ويدندن بصوته، وسلوكه سيء أثناء الطعام، ولا يأكل، ويصرخ أحياناً، طالباً إعطاءه طعاماً خاصاً. لا يعترف بالخدمة الذاتية إطلاقاً، فهو لا يرتب فراشه، ولا يغتسل، ولا يغسل أرجله قبل النوم. إنه يجيب بفظاظة على ملاحظات المربين ويصرّح قائلاً: «أنتم ملزمون بخدمتي فلماذا يدفعون لكم النقود إذن؟ سوف أشكوكم لجدي. . . ». في أحد الأيام، وأثناء الغداء، أخذ منديلاً ومسح يديه وبعد ذلك رماه تحت الطاولة قائلاً: «أفّ، ليأخذه الشيطان، أية أشياء رديئة يقدمون. . . . ».

رتبت كل ملاحظاتي حول إيغور، وكونت في ذهني صورة عن نموذج عائلة الصغير. وتوصلت من خلال تصرفاته إلى أنه الوحيد في العائلة المكونة من الجد والجدة والأم، الإبنة الوحيدة للجدة. حالتهم المادية لا بأس بها. ويشغل جده مكاناً مرموقاً. أنهت إبنتهم المدرسة بصعوبة شديدة. بيد

أنها وبجهود الأهل دخلت إحدى المعاهد وتابعت دراستها. وكانت إدارة البيت تقع على عاتق الجدة. وعلى ما يبدو أن والد إيغور قد هجر العائلة، وتركهم، وأصبح الصغير محور حياة العائلة. فالجميع يخدمونه ولا يتركون له شيئاً ليفعله بنفسه. إنهم على إستعداد لأن يزحفوا على ركبهم أمامه من الصباح وحتى المساء، ملبّين كل رغباته، جاعلين منه في الوقت نفسه سيداً طاغياً.

أما دور الأم والدة إيغور، فينحصر في تحديد معايير السلوك تجاه ولدها والعلاقة به. إنها تبدو أحياناً غير واضحة بتعابيرها تجاه والديها. تعتبر حياتها غير ناجحة، وتحّمل أهلها مسؤولية ذلك.

وعلى ما يبدو أن الأسرة منغلقة على ذاتها، فالجيران غير مرتاحين لهذا الأسلوب في الحياة إذ أن آراءهم لا تسر الخاطر في هذا المجال.

وباختصار، توصلت إلى استنتاج بأن الجو في أسرة إيغور غير مناسب أبداً. وأخيراً ذهبت إلى مديرة الروضة ورويت لها كل شيء عن إيغور، وطلبت منها أن تراقب بنفسها وتتحقق من إفتراضاتي. وسرعان ما تأكدت كل إستنتاجاتي عن تلك الأسرة، عبر الحديث الذي جرى وجهاً لوجه بين مديرة الروضة وجدة إيغور حيث قالت الجدة متسائلة: ـ من الواضح، ان الجيران أخبروكم عن حياتنا العائلية. نعم، إن حياتنا صعبة، إبتني ذات طبع صعب. لم يستطع زوجها الإستمرار في العيش معها، فقد اضطر لتركها هي وابنتها. نحن دللناها كثيراً، وكنا ننفّذ كل رغباتها. فهي حتى الآن لا تغسل ولا تكوي، فأنا أقوم بكل شيء بنفسي. إنها ترى إبنها إيغور في الأماسي فقط وفي أيام العطل وتدلله كيثراً. وتسأله كالعادة إن كان أحد قد أساء إليه أو أجبره على القيام بعمل ما. إنها تقول لإبنها مشيرة الينا (أنا ووالدها): عليك يا صغيري إيغور، بتلقين هؤلاء الدرس اللازم ـ واغرورقت عينا الجدة بالدموع.

كل ما رويته على مسامعكم، هو ثمرة الحب المتهور اللامعقول، ونتيجة التضحية بالذات من أجل الأولاد والأحفاد. لقد حولت بحبّي الأعمى، طفلي المحبوب الى إنسان عقيم. إنه بالطبع إعتراف متأخر. وعلى الآخرين الذين سيبدأون حياة عائلية جديدة، أن يفكروا ملياً ويتعلّموا من تجربتي المريرة. إني أرى الآن وأفهم، بأن محبة الأطفال سهلة جداً، ولكن تربيتهم أصعب بكثير.

أوردت إحدى الطالبات في المعهد التربوي في مدينة مينسك مثالاً رائعاً أثناء إلقائها محاضرة بعنوان (الإنسان الذي ترك أثراً في حياتي). :

«. . . عندما يدور الحديث عن أقرب إنسان لي، يتبادر جدي إلى ذهني فوراً. أنا سعيدة جداً، لأن جدي يبقى بالنسبة لي حتى الآن الصديق العزيز والحكيم.

إنِي كمربية، أحاول أن أفهم تلك السمات والخصائص التي كان يتمتع بها جدي، ويحاول من خلالها التأثير فيّ. يتميز جدي باللطافة والكرم مع كل الناس. لقد كان مبدئياً وشريفاً بالكبيرة والصغيرة. ولا أذكر حادثة لم يف جدي فيها بوعده أو أنه لم يقل الصدق. كان متواضعاً جداً. ولم يتباه بسيرة حياته المليئة بالأحداث، وغالباً ما كان يقول: «التواضع ـ أفضل زينة للإنسان».

مجال إهتمام الجد واسعٌ جداً، فقد كان يحب سماع قصص الأطفال والإجابة عن أسئلتهم اللانهائية. يحدث أحياناً أن تسمعه يتكلم مع الأطفال، وتشعر أنه يتكلم معهم بجدية تامة، تماماً كما لو كان يتحدث إلى أصدقائه. وعندما يتوجه بالكلام إلى المراهقين من / ١٢ ـ ١٥/ سنة كان يقول لهم (أنتم) أي أنه كان يُظهر إحترامه وتقديره لهم. وكان يأتمن الأطفال على كل شيء، وكانوا بالمقابل يثقون به أيضاً. إنك تجد عندهم مواضيع مشتركة دائماً.

تميّز الجد بحبه للعمل طيلة حياته. إذ أنه غرس هذه السمة الجيدة عند أحفاده وعند الكثيرين من جيرانه الشباب. لقد علمني القيام ببعض أعمال الرجال، كأن أعتني بخلايا النحل، وأهتم بالبستان، وأصيد الأرانب بالإضافة إلى استعمال السلاح. وعلّمني بالإضافة إلى ذلك أعمالاً ذات طابع نسائي بحت: الرفء، نسج، الجوارب، الغسيل والكثير غيره.

وعندما كنت أنجح في القيام بعمل ما، كان يفرح معي، ولا يخفي إبتسامته إطلاقاً، أما إذا أخفقت فكان يقول لي: «العمل غير معقد، فهو يحتاج إلى قليل من التعلّم».

هل تعرفون ما هي مهنة جدي؟ لقد كان حداداً، إنه عمل صعب، ولكن عندما كان يتكلم عنها، كان كلامه ممزوجاً بمشاعر سامية، بالضبط كما كانت تتحدث راقصة البالية / مايا بلييتسكايا/ عن الباليه. وكنا غالباً ما نذهب إليه في ورشة الحدادة ونراقبه عن كثب، كان يقف قرب السندان، ويمسك بالملاقط قطعة من الحديد، ويضربها بقوة بالمطرقة، ويتطاير الشرر في كل الإتجاهات، ويتساقط على يديه المفتولة العضلات وعلى بدلته المتسخة بالزيت، كانت نظرة الجد مركزة وجدية، وجهه وعيناه ينطقان بوحي ما. المطرقتان الصغيرة والكبيرة كانتا تنهالان على قطعة الحديد بتواتر إيقاعي يذكرنا بصوت الطبل، وتمنينا أن نكون محل الحدّاد للحظة معينة لكي نعيش مشاعر التمتع بالعمل التي يعيشها هذا الحداد. لقد توقف صوت المطارق، وشعّ الوجه الصارم للجد بابتسامة رائعة. وكانت تظهر بين يديه قطعة ضرورية للإستعمال بدل تلك القطعة من المعدن. بعد ذلك كنا نذهب جميعاً لتناول طعام الفطور. وكان جدي دائماً يُثْني على جدتي وعلى أمي وأختي الكبرى، على فطورهم اللذيذ. إنه يطنب في الإطراء، خاصة عندما يلاحظ أن شيئاً ما لا يناسب ذوقنا. نحن ننكمش، أما هو فيقول: «كم هو لذيذ هذا الحساء، وكم هو لذيذ أكل الزلاّبيات»، عندها نقبل على الطعام بكل قوانا.

وبعد تناول الفطور كان جدي يقول لنا بين المزح والجد: «والآن يا أصدقائي، كُلٌّ إلى مكانه حتى يحين موعد الغداء».

هذا يعني، أنه على كل منا أن يقوم بعمله: من يبقى في البيت عليه أن يساعد أمه في تحضير الغداء، ومن يذهب ليرعى البقرة، عليه أن يسقي الأزهار قرب البيت، أمّا أنا وأخي فقد كتبنا وظائفنا أولاً، ومن ثم ذهبنا للعمل في الحديقة.

كان الجد يحب مشاركتنا في العمل، وخاصة في الفناء وفي الحديقة وفي المناحل، والذهاب إلى الصيد أيضاً. كنا نعتبر الصيد حدثاً ذا أهمية خاصة. وكشف لنا الجد في الغابة عالماً سحرياً كنا نجهله. ويتميز الجد عن الآخرين بقدرته على رؤية جمال الغابة، وسماع تغريد طيورها، والتمتع بألعاب وحوشها.

يحدث أحياناً أن يقترب من شجرة البتولا ويبدأ بالحوار معها، يمدحها على عصيرها الطيب، وعلى رائحتها اللذيذة وعلى البرودة اللطيفة التي يتمتع بها في ظلها. لم نلاحظ أي شيء غير طبيعي عند جدنا، ولم نسمع منه أية مواعظ. عاش حياة ممتعة وغنية، حياة إنسان كادح، ومن الواضح ان حياته الحالية كانت بالنسبة لنا مدرسة في الأخلاق.

توفي جدي، ولكنه ظلّ حياً في قلبي وسيظل حياً كذلك في قلوب أولاد أحفاده. سنمضي السنوات، وسنشكر للجد، أنا وأولادي، تعليمه لنا العيش بإخلاص وشرف، والعمل بجد، وامتلاك القدرة على أن نهدي الآخرين السعادة والفرح . . .».

يتضح من الأمثلة التي ورد ذكرها أن الجدات والأجداد يحبون أحفادهم بشكل مختلف: البعض منهم: يحبّهم بلا حدود، ويجعل من أولاده وأحفاده في النهاية أناساً تعساء، أنانيين طفيليين، ودمىً لا روح فيها، أما البعض الآخر فيستعمل العقل والبصيرة في تربية الجيل الناشىء،

ويقتسم مع أولاده كل غنى الحكمة البشرية، والقدرة على الحياة بشكل يعود بالمنفعة عليهم وعلى المجتمع، وبشكل عقلاني بحيث لا يضحّون بأنفسهم حتى النهاية أمام أولادهم وأحفادهم، ويخلقون عند أولادهم القدرة على فهم جمال الحياة والكدح، ويسلحونهم بالمعارف وبمهارات العمل. ولكن للأسف، ليس كل جد أو جدة، كما أنه ليس كل والد، يستطيع أن يقدم التربية اللازمة. ولذلك من الضروري على كل أسرة، وعلى المجتمع ككل الإستفادة العقلانية المتبصرة من حكمة الجيل المتقدم في قضية تربية الجيل الناشيء.

* * *

المحاورة الثالثة

في تكتيك التربية العائلية وهيبة الأهل

يكمن مغزى الهيبة، بكل بساطة، بأنها لا تحتاج إلى أية براهين، تراها عيون الأطفال وتدرك من قبلهم كفضل غير مشكوك فيه للكبير، وكقوة له وقيمة

آ.س. مكارينكو

الرغبة في أن تكون أباً جيداً أو أماً جيدة، شيء طبيعي جداً بالنسبة للأغلبية الساحقة من الأهل، فهي كالحاجة لأن تكون سعيداً، بصحة جيدة، وواثقاً من نفسك، وكالسعي لبلوغ النجاح والإحترام. بيد أن أمانينا للأسف، لا تتطابق دائماً مع الواقع، كما أن إمكانات الإنسان الداخلية لا تتطابق مع إنجازاته الفعلية.

يقص علينا مكارينكو في إحدى مؤلفاته عن أحد علماء التربية، الذي وضع إبنه في الإصلاحية، لأنه مذنب. إنه تناقض ظاهري، أليس كذلك؟

كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ ألا تناقض هذه الظاهرة تأكيداتنا عن دور المعارف التربوية، وعن دور شخصية الأب والأم، وعن دور المناخ السيكولوجي للعائلة؟ يمكن أن أؤكد لكم بدقة تامة، بأن هذه الظاهرة لا تناقض أبداً، وإنما على العكس ترتبط قانونياً بجوهر العملية التربوية. خلال عملي كنت ألتقي دائماً أمثال هؤلاء الناس، الذين يدلّ مظهرهم الخارجي بأن كل شيء عندهم ناجح وعلى ما يرام. إنهم مثقفون، نشيطون، يتابعون أولادهم بانتباه، ويحترمون بعضهم البعض، ولكن نتائج تربيتهم العائلية لا

تسرّ الخاطر. لِمَ يحدث ذلك؟ تبين أن نتائج التربية لا تتحددّ بعدد الحوارات الدافئة، والنصائح وبالتجليات الخارجية للإنتباه والإهتمام. إن كنت تملك القلة القليلة من السمات الإنسانية الجيدة، فعليك أن تعرف كيف تنقلها إلى أولادك. يجب علينا أن نسعى لكي يتوحد تحت «سقف بيت الأب» كل الأقرباء، وليس أقرباء الدم فقط، ولكن الأقرباء بالروح وبالحياة أيضاً.

يحاكي الأطفال أهلهم ويدركون كل ما يقع تحت عيونهم أثناء التواصل اليومي الحياتي: يرفضون شيئاً ما، يحتجون على شيء ما ويتصارعون مع شيء ما. ولكنهم غالباً ما يقومون بهذه الأفعال وهذه التصرفات طبقاً لمعايير محددة من السلوك. وليس هناك أخطر من التعارض والتناقض بين ما يقوله الأهل من كلام ذكي وصحيح، وبين ما يقومون به من أعمال.

«لا تعتقدوا أبداً، بأن تربيتكم لطفلكم تكون فقط عندما تتحدثون معه أو تعلمونه أو تأمرونه بشيء معين. أنتم تقومون بتربيته في كل لحظة من حياتكم، في حضوركم وفي غيابكم، كيف تلبسون، كيف تتكلمون مع الآخرين وعن الناس الآخرين، كيف تفرحون، وتحزنون، كيف تتعاملون مع أصدقائكم أو أعدائكم، كيف تضحكون، وكيف تقرؤون الجريدة - كل هذا له أهمية كبيرة بالنسبة للطفل»[1].

إنه كلام عادل وحكيم. يجب أن لا ننسى دور (صغائر الأمور)، وتأثير التواصل اليومي على أفكار الصغار ومشاعرهم وسلوكهم.

وهناك سبب آخر أيضاً، فالنوايا الحسنة عند الأهل يمكن أن لا تعطي النتائج المرجوة. إنها مسألة تخصّ تكتيك التربية العائلية. لتحديد - التكتيك - يعني أن تختار قبل كل شيء، موقعاً معيناً في علاقتك بالأطفال، إذ يرتبط بهذا الموقع نموذج أو شكل علاقتك بأطفالك ولهجتك تجاههم، والنتيجة

(١) أ. س. مكارينكو. المؤلفات التربوية المختارة / ١٩٧٧ - الجزء الثاني ص١٢.

النهائية للتربية بشكل أساسي. ويعني تحديد التكتيك أيضاً المقارنة الصحيحة بين قواك وإمكاناتك وبين الأهداف والمهام التي وضعتها نصب عينيك.

أن تحدد التكتيك - هذا يعني أن تختار تلك (الأداة) التي بمساعدتها ستؤثر على عقل طفلك وسلوكه ومشاعره.

لكي نفهم محتوى أو مضمون هذه المتطلبات، نقترح عليكم قراءة مقالة الاكاديمي آ. ف. بيتروفسكي، وبعد ذلك نتابع الكلام عن التكتيك.

آ. ف. بيتروفسكي

تكتيكات خمس للتربية العائلية

[فصل من كتاب «الأطفال وتكتيك التربية العائلية»]

سياسة إملاء الشروط (التحكّم)

يرد هذا النوع من العلاقات الأسرية بكثرة وبوضوح في المؤلفات الأدبية المتنوعة. المستر دومب عند تشارلز ديكنز، والشيخ كرامازوف عند دوستويفسكي، ايفتراف شيريايف عند تشيخوف في قصته «الناس القساة». أرتال من هؤلاء الآباء الطغاة الذين مارسوا الإستبداد لسنوات عديدة على عائلاتهم، استطاعوا أن يصبحوا أمثلة واضحة متفوقة. إن التحكم بالعائلة يسحق الإستقلالية عند بقية أفراد الأسرة والمبادأة والشعور بالكرامة الشخصية، ويتجلّى هذا التحكم حالياً بأشكال ليست بهذه الخشونة، ولكنها واضحة بشكل كاف.

لا أحد يجادل في حق الأهل على أطفالهم، إنطلاقاً من أهداف التربية، ومعايير أخلاقنا، ومن بعض الحالات الملموسة، التي يجب فيها إتخاذ قرارات صحيحة على الصعيدين التربوي والأخلاقي.

يجب أن يقترن الإصرار الكبير للأهل على أطفالهم بالإحترام والثقة،

وإلا كانت نتائجه سلبية، إذ يتحول هذا الإصرار إلى نوع من الضغط والإكراه الفظ.

والشيء الملفت للإنتباه أن كل القصص التي كتبها الأدباء عن الطغيان العائلي انتهت بتحطم كل آمال وخطط المستبدّين من أقربائهم.

لقد انهارت كل خطط العجوز برودي: «فقد كانت عنده بعض الخطط بشأن مستقبل إبنته نيسّا، وكان يأمل بأن تحصل على منحة دراسية! وهكذا ستتوّج كل نجاحاتها اللامعة في المدرسة. يوجد عند الإبنة نيسّا، مواهب جيدة، ولكن يجب تربيتها بالشكل الصحيح فقط.... نعم.... انه سيهزأ من جميع من في المدينة».

ولكن المفأجاة كانت كبيرة. فقد فشلت البنت الصغيرة نيسّاً في الحصول على المنحة الدراسية، وانتحرت شنقاً لشدة خوفها من أبيها. وكانت نهاية الطاغية المستر دومب شبيهة جداً بهذه النهاية. فالقضية ليست في موت بوليا، وخروج فلورنس. القضية في أنهم نشأوا وكبروا، على غير ما أراد لهم أبوهم القاسي الطاغية.

ينبغي القول بأن فشل مبادىء سياسة إملاء الشروط التربوية، قانونيٌ بسيكولوجيا. فالأهل الذين يفضلون كل أنواع التأثير كالأوامر والإجبار، سيصطدمون لا محالة بمقاومة موضوع التربية - أي الطفل - الذي سيردّ على الضغط والإكراه وعلى التهديدات وإجراءات التأثير القاسية الأخرى بإجراءات مضادة كالخداع والمراءاة، وبثورات من الغضب والفظاظة، وتصل به أحياناً إلى الكره العلني. ولكن حتى لو استطاع الأهل تحطيم مقاومة الولد، فإن هذا الإنتصار يشبه إنتصار القصير (بير)[1]، أي أنه إنتصار

(١) عاش القيصر بير (٣١٩-٢٧٨ ق.م). كان قيصراً على إيبر من (٣٠٧-٣٠٢) ق.م ومن /٢٩٦-٢٧٣ ق.م). حارب روما مع مدينة تارنت. أحرزوا النصر على روما في عهد هرقل ٢٨٠ ق.م، وفي عهد (اوسكولوم) ٢٧٩ ق.م. ولكن النصر الأخير كان بخسائر جسيمة، ولذلك سمّي هذا النصر باسمه (م).

بخسائر فادحة. ومع تحطيم هذا الاصرار والعناد تتحطم أيضاً وتُداس الكثير من السمات القيمّة عند الإنسان: الإستقلالية، الشعور بالكرامة الشخصية، المبادأة، الثقة بالنفس وبإمكانات الشخص.

النفوذ الأعمى للأهل، وتجاهل إهتمامات وأسرار الطفل، وحرمانه من حقه في الكلام عند معالجة بعض المسائل المتعلقة به - كل هذا كفيل بالاخفاق الكارثي لتشكّل الشخصية عنده. من الصعب التنبؤ بمصير الإنسان الفتي، الواقع ضحية مثل هذا النظام في التربية. من الممكن أن ينشأ مداهناً، متزلفاً، متكيفاً مع التغيرات، أو جباناً، ويمكن أن ينشأ أيضاً جلفاً، فظاً، ماجناً وطاغية. ومن الممكن أن يعود إلى الصواب، تحت تأثير بعض الظروف العائلية، وبذلك يمكن أن نتحاشى العواقب الوخيمة. مهما كانت أهداف التربية التي يتوخاها الأهل، المحصورة ضمن نطاق سياسة إملاء الشروط، فإنه لا يمكنهم أن يجعلوا من إبنهم جلفاً وسافلاً عن سابق إصرار وتصميم، ولا يمكنهم بلوغ أهدافهم أيضاً وخاصة فيما يتعلق بسلوك أولادهم الذي يأتي عكس توقعاتهم.

الأثر الإيجابي لهذا النوع من التربية، مهما كانت فيها دوافع الأب والأم سامية يساوي الصفر. كان بإمكاننا أن ننهي الكلام هنا، ولكن كما يقال، فإن سياسة إملاء الشروط في الأسرة لا تشبه أبداً شارعاً وحيد الإتجاه. فالطفل لا يمكن أن يكون موضوعاً للطغيان فحسب، وإنما ذاتاً طاغية أيضاً.

عرفت منذ زمن بعيد أُسرة روسية فيها طفل يمثل طاغية حقيقة. وغالباً ما يحدث ذلك في الأسر التي يمرض فيها الطفل لمدة طويلة. حيث يشفق الأهل على الوالد، ويتألمون من أجله، وهم على إستعداد لأن ينفذوا له أية رغبة، كل ذلك لكي «يعوّضوا» له ما حرمه منه المرض.

كان السبب مختلفاً تماماً في الأسرة الروسية، فالطفل ولد لأبوين

كبيرين في السن، عاشا على أمل أن يرزقا بطفل، وكان لهما ما أرادا. ولم يرفضا له طلباً على الإطلاق. وبغض النظر عن أن ذلك كان معقولاً أم غير معقول، فإنهما كانا ينفذان له كل متطلباته من دون نقاش.

تحضرني الآن لوحة رائعة. كان ڤوڤكا يلعب مع أترابه في الفناء، وعندما حان موعد الغداء نادته أمه من الطابق الثاني:

- ڤوڤكا، إصعد لتناول الغداء!

ڤوڤكا لم يستجيب للنداء الأول فنادته الأم ثانية:

- ڤوڤكا! نحن بانتظارك!

وللمرة الثانية لم يستجب ڤوڤكا. فقالت له مرة أخرى بصوت ملؤه اليأس والقنوط:

- ڤوڤكا، سيبرد الحساء، تعال إلى البيت!

نظر ڤوڤكا بتكاسل الى فوق وقال:

- لن أصعد! لا أريد! فليبرد!

- ولكن فطورك اليوم كان سيئاً يا ڤوڤكا! أنا أنتظرك. تعال إلى البيت من فضلك يا ڤوڤكا!

خيمّ الهدوء مرة أخرى. كان ڤوڤكا جالساً يحفر بإظفره على الحائط، ولكنه قال أخيراً:

- ناوليني الحساء إلى هنا! سآكل هنا!

- ولكن هل هذا ممكن يا ڤـــــوڤكا؟ هل هذا مُريح - لماذا هذا التصرف؟... حسن، سأناولك الصحن في الحال.

لقد استسلمت المرأة. ولكن المسألة لم تتوقف عند هذا الحد، فقد تلقت منه أمراً آخر، بحيث توجب عليها أن تناوله صحن الحساء من النافذة، إذ اقترب الولد من الحائط، وقال:

ـ إنزلي صحن الحساء بواسطة الحبل!

تسمرّ الأولاد في أماكنهم! ماذا سيحدث؟

وسأله أحد الأولاد اذ كانوا يطلقون عليه لقب الياباني!

ـ أيها الياباني! هل فقدت عقلك، هل هذا وقته الآن؟

تبع ذلك جواب ملي بالثقة:

ـ أنظر ماذا سيحدث، وبعد ذلك تكلّم.

لقد كان الإبن يعرف أمه جيداً. وسرعان ما أنزلت الأم وبسهولة لا نظير لها، صحناً من الحساء (وأي صحن كان! ما زلت أذكره حتى الآن)، واستقرّ على ركبتي الطفل الذي جلس القرفصاء. وبنفس الطريقة أيضاً أنزلت له الملعقة والخبز. بدأ باحتساء الشوربة بتكاسل، ورداً على صيحات الدهشة التي انطلقت من رفاقه ثرثر بضجر:

ـ إنها عندي أمّ مُرَوَّضَةٌ... ليست كأمهاتكم!

عندها قال له أحد الفتيان «يا لك من سافل» وبضربة من رجله قلب له الصحن. ركض ڤوڤكا إلى البيت وهو يعول... تفرق الأولاد، وأخذوا ينظرون بحذر إلى نافذة الطابق الثاني. بعد عام أو عامين من هذه الحادثة، ذهب الشبان إلى الجبهة واستشهد معظمهم في ساحات القتال. ليست القضية في استشهاد هؤلاء الشبان، بقدر ما تتعلق بمصير ڤوڤكا، الذي مات رمياً بالرصاص بعد محاكمة ميدانية، عقاباً له على تخاذله ومحاولته الفرار من الجيش، أنا لم أقصد الربط مباشرة بين السلوك الإستبدادي للولد مع أقاربه، وبين جريمته الشنيعة. ولكنكم جميعاً تعرفون بأن سمات شخصية الإنسان السافل، تنسحب على عائلته، ولمدة طويلة من الزمن.

يشيرون حتى الآن في كل منطقتنا إلى أن ڤوڤكا لم يمت ميتة شريفة، وإنما مات ميتة مخزية وشنيعة. هذه الميتة لم تفاجيء أحداً على الإطلاق.

الطاغي الصغير، الذي تعوّد على عدم مواجهة أية مقاومة له ضمن الأسرة، لا يملك أية إمتيازات خارج حدود هذه الأسرة، إذ يجب عليه أن يتكيف مع هذا الوضع. وهذا الوضع سيؤدي إلى إزدواج الشخصية. ستتعايش وتتلاءم في داخله القساوة والمداهنة، الفظاظة والجبن، الغرور والذلّ. ومن السهل جداً على هذا الإنسان أن يصبح منافقاً وخائناً ـ إنه يشفق على نفسه فقط، ويحب نفسه فقط. ومن الصعب الحكم أيهما أسوأ: الطغيان من فوق أم الطغيان من تحت ـ كلاهما سيء.

ـ «الوصاية» ـ

إن سياسة إملاء الشروط والوصاية، ظاهرة واحدة من حيث الجوهر، الإختلاف في الشكل وليس في الجوهر. تفترض سياسة إملاء الشروط، على الأرجح، الإكراه، الأمر، والنفوذ القاسي، أما الوصاية فتفترض: العناية، ابعاد المصاعب والمشاركة اللطيفة. ولكن النتيجة نفسها، إذ تغيب عند الأطفال الإستقلالية والمبادأة، ويُبْعَدون بهذا الشكل أو ذاك عن معالجة المسائل التي تخصهم شخصياً، فكيف بالأحرى المسائل المتعلقة بالأسرة. فالحافز الذي ينمو في الطفولة الباكرة، بشكل يشبه الغريزة (أنا بنفسي)، يُخلي مكانه للامبالاة (لتقوم الأم بذلك، ليقوم الأب بذلك، إنهم يقررون، إنهم يستطيعون). «سياسة إملاء الشروط من تحت» ـ طغيان الطفل، الذي تكلمنا عنه للتو (إنها الوجه الآخر للوصاية الاستثنائية التي تضع الطفل في موضع عاجز صغير، إلا أن الوصاية لا تولّد دائماً السلوك الطغياني. فهذا التطرف يمكن أن لا يحدث إذا لم يفقد الأهل مشاعر الكرامة الشخصية، وعرفوا كيف يجبرون الآخرين على إحترامهم. وسوف تظهر بالتأكيد في هذه الحالة العواقب السلبية للوصاية كتكتيك للتربية العائلية.

تتراجع مسألة الصياغة الفعّالة لشخصية الطفل، إلى الخط الثاني.

وتظهر على مسرح الفعل التربوي مسألة أخرى هي إرضاء حاجات الطفل، وإبعاده عن الصعوبات. الوصاية كتكتيك تربوي عدو مكشوف للتربية على حب العمل، فالطفل الخاضع للوصاية يُبْعَد عن الأعمال الصعبة، وعن المسؤوليات. إن قتل الانسان، على ما يبدو، بمساعدة الوصاية المفرطة، أسهل نوعاً ما من إسعاده.

تحضرني هنا قصة ظريفة لأحد الكتاب المعاصرين، فهو يذكر هنا شخصيات تقليدية: الأب، الزوجة، الإبنة، وإبنة زوجة الأب. تحاول زوجة الأب الحالية إهلاك إبنة زوجة الأب، وتحقيق السعادة لابنتها المحبوبة كل ذلك كان يجري على مرأى وسمع من الأب وبموافقته التامّة. بيد أن الحكاية لا تنحو المنحى المألوف لنا.

فقد أظهرت زوجة الأب مواهب فائقة، إذ استرشدت بشكل ممتاز بعلم النفس الإجتماعي، الذي يبحث في العلاقات الأسرية. وتصرفت بشكل لم تعد فيه تدلّل إبنتها هي، وإنما كانت تدلّل إبنه زوجها الكريهة. وأصبحت إبنة زوجة الأب تأكل بتلذذ، وتشرب بتلذذ، حتى أنها أصبحت تنهر أختها المخلصة من وقت الى آخر، أما الإبنة الأخرى، فكانت تعمل طوال النهار، تارة في الغابة، تارة في الحقل وتارة في البيت. واستمرت الأمور على هذا المنوال إلى أن حققت الأم هدفها، حيث ظهر أمير رائع وقع في حب ابنتها المتواضعة النشيطة والذكية، واستدار ضاحكاً عن إبنة زوجة الأب الغبية والعاطلة عن العمل.

تحمل هذه الحكاية في ثناياها مغزى عميقاً، وتوضّح بشكل جيد النتائج المحتملة للوصاية كنظام في التربية. الأهل الذين يقلقهم مصير أولادهم لكي لا يقع عل عاتقهم أية صعوبات حياتية، إنما يأخذون على عاتقهم عملاً صعباً وثقيلاً مضاعفاً. إنهم بالحقيقة، يرفضون الإعداد الجدّي للمراهق لمواجهة الواقع خارج حدود المنزل.

إنهم بذلك يقدمون خدمة سيئة لإبنهم. هؤلاء الأولاد «أولاد أمهاتهم» أناس تعساء جداً، وغالباً ما يثيرون الشفقة في معسكرات الطلائع ومعسكرات العمل، وفي المسيرات السياحية، ولاحقاً في الجيش أيضاً.

إليكم هذه الواقعة الظريفة. حسب المعطيات السكيولوجية، فإن هذه الفئة بالتحديد من المراهقين، تقدّم العدد الأكبر من حالات الإحباط في المرحلة الإنتقالية من العمر. هؤلاء الشبان الذين يتبرّمون من أي شيء، ويعيشون عيشة هنيئة في وسطهم العائلي، يبدؤون بالعصيان على الوصايا الأبوية، وصاية الأهل. ما الأمر؟ نكرانٌ للجميل؟ ولكن لا بدّ لهذا التصرف من تفسير. ماذا بعد؟ إلا أن تفسير ذلك ليس إلى هذه الدرجة من الصعوبة، كما تشهد على ذلك معطيات علم نفس الأجيال. وكما قلنا فإن «الشعور بأنك أصبحت كبيراً» أو حتى اعتبار نفسك كبيراً يعتبر التشكّل المركزي الجديد في عمر المراهق. هذا الوضع الحياتي الجديد الناشىء عند المراهق، والذي يسعى بكل الوسائل ليثبته عن طريق تأكيد إستقلاليته يدخل في تناقض مع الوصاية اليومية للأهل، ويصبح تربة خصبة لخلق النزاعات والمشاكل.

البارحة فقط اعتمدت الأم على اختيار أصدقائها، واختارت اللباس والأحذية على ذوقها، ووضعت بإهتمام المنديل على رقبة إبنها، وزررت له الزّر العلوي للمعطف ـ أنت ستصاب بالزكام! ـ وكررت عليه الوظيفة البيتية، وأخذت منه المحفظة المدرسية ـ أعطها لوالدك، هل تريد أن تصاب بفتق! كل ذلك كان واجباً. أمّا الآن؟ ـ جينا من أحسن أصدقائي! هل له سجّل في غرفة الأطفال عند الشرطة؟ أنا لم أتورط هناك، لماذا أنت قلقة هكذا؟ أنا وإياه نذهب أثناء العطلة الى القرية إلى جدته، نصطاد السمك والطيور. الخ. . . . لا تعطوني النقود؟ لا بأس ستَحْصل عليه.

ـ كل الشباب عندنا لا يضعون قبعّات على رؤوسهم. ما الضرر من

ذلك، فدرجة الحرارة مرتفعة نسبياً. أُنظري الى هذا الشعر الكثيف الذي يغطي رأسي، لا يؤثر فيه أي صقيع.

ـ هيا لنتفق مرة إلى الأبد. دفتر يومياتي ليس تقويماً شهرياً، ما الداعي إلى النظر فيه كل يوم. لقد سمعت كيف تعلّم أبي. مقياسكم ليس مقياساً عالمياً. التناحر والخصام على طول الخط. من الصعب على الأهل أن يفهموا هذا الشيء، وأن يقفوا مكتوفي الأيدي، ويؤدي ذلك إلى الخصام، إذ أن الأمور لن تعود إلى مجراها الطبيعي بعد ذلك. ويحصد الأهل ثمار وصايتهم المفرطة. فالنابض المضغوط حتى النهاية سيفلت أخيراً محطماً النظام المتكوّن للعلاقات العائلية.

إنّ التمرد على الوصايا اللطيفة للأم والأب، لا يختلف كثيراً بعواقبه عن الصراع ضد التحكّم القاسي للأهل.

شكل الإجتماع يمكن أن يكون متنوعاً جداً ـ من الإبتعاد والإنعزال المهذب الهادىء حتى المواجهة العنيفة التي لا ترحم. ويتعلق ذلك بالخصائص الفردية لشخصية المراهق، وبطابع رد فعل الأهل على الحالة الناشئة.

من الصعب أن تقدم للأهل وصفة جاهزة عن كيفية تصرفهم في هذا الوضع الحرج. وفي كل الأحوال لا توجد تلك الوصفة التي تلائم كل أسرة. فالبعض منهم يفضل إعادة النظر بشكل حاسم في مجمل العلاقات، التي تربطهم مع إبنهم أو إبنتهم. وإيجاد طرق للانتقال المرن من هذا النوع من العلاقات، الذي يتميز بـ «أخلاق الطاعة»، إلى نوع من العلاقات التي تخص تواصل الناس الكبار.

ومن الصعب جداً، بالطبع على الإنسان البالغ، تخطّي قوة عطالة العلاقات القائمة مع الأطفال. وكثيراً ما تتم محاكمة الأمر كالتالي: «لقد أصبح بالغاً، وحتى الآن لا يستطيع أن يغسل رقبته وأذنيه كما ينبغي»،

«كبيراً ولم يذهب إلى السينما مرة واحدة، ولم يحصل في حياته على قرش واحد حتى بشكل مستقل». كيف حصل ذلك.

إن الأمر بسيط جداً فدرجة البلوغ يمكن أن تقاس من وجهتي نظر، تختلف كل منهما بمقياسها عن الأخرى. يسيطر على أذهان الأهل دائماً، الإستقرار النسبي لوضع المراهقين الحياتي (لقد كان تلميذاً أو ما زال، إنه مرتبط بهم مادياً بشكل كامل)، ووجود بعض سمات الأطفال الواضحة عنده ـ «من سيعتني به، إنه يضع حتى الآن خمس ملاعق من السكر في فنجان الشاي!»، ويصلون إلى الاستنتاج التالي: «أي بالغ هذا. لقد كان قليل الفطنة وما زال حتى نبت شارباه». إن هذا الإستنتاج بصراحة ذاتي جداً ومشكوك فيه. ولكن إذا أخذنا بعين الإعتبار وضع المراهق ومقياسه فإن الأمر سيتغير كثيراً.

«عمري ستة عشر عاماً، قرأت الكثير من الكتب. أين العيب إذا كنت لا أعمل، لم يسمح لي أهلي بالتسجيل في أحد المعاهد المتوسطة، وإلاّ لما كنت عالة عليهم طيلة هذه الفترة، والله أعلم إلى متى ستمتد. إن علاقتي مع شباب الحارة جيدة. ولا يرون فيّ ذلك الإنسان العاجز، أما في البيت فعلى العكس، يعاملونني وكأني ما زالت في الصف الأول الإبتدائي. لا يسمحون لي بالذهاب إلى الصالة الرياضية خوفاً من أن تنكسر رجلي أو يداي، على الرغم من أني أحوز على إحدى الدرجات في رياضة السامبو. هل رياضة السامبو أمر تافه؟ أقمت علاقة جدية مع فتاة اسمها ريتا، وفي المساء سألني أبي ضاحكاً: على ما يبدو أنك تتنزه مع الفتيات أيضاً؟» هذا الحوار الداخلي أو ما يشابهه، تسمعه من الكثير من المراهقين الذين ما زالوا صغاراً بنظر أهلهم، ويحتاجون إلى الوصاية. ليس لديه في الحقيقة ـ وهذا بعيد عن الموضوعية ـ الأسس الكافية ليدّعي حقوق الكبار. وعلى كل حال، فإن التوازن في الأسرة لا يتجدد، إلاّ عندما يجد الأطراف أشكالاً من الحلول الوسط المعقولة، وعندما يحترم الأهل، كما يجب، حقوق إبنهم المترعرع.

من المهم أن نشير إلى أن النزاع لا ينشأ في تلك العائلات، بالرغم من أنها لا تهمل مراقبة أطفالها، إذ أن التربية ليس لها معنى من دونها حيث تكون فيها الوصاية المفروضة على أطفالها وهم في سن المدرسة الإبتدائية، في الحد الأدنى. وإذا ما أتيح لنا القيام بالمقارنة، فإنهم، بحفاظهم على المستوى الإستراتيجي للتربية العائلية، وبالتحديد ـ مراقبة مدى مراعاة الأطفال أو إتباعهم لمعايير أخلاقنا، والسعي على أن ينشأ طفلهم عالة على الآخرين وطفيلياً، لكي يقوم بواجبه الإجتماعي على أكمل وجه، وأن تكون دراسته المدرسية جيدة ـ فإنهم يؤمّنون له مجالاً واسعاً من الإستقلالية في معالجة المسائل التكتيكية الناشئة باستمرار، ولا يتدخلون إلاّ في الحالات التي تتطلب منهم التدخل. إذا كانت الوصاية التي تمثل شكلاً لفعالية الأهل المحددة في منظومة العلاقات العائلية، تكتسب طابع إجبار الأطفال على تحمّل المسؤولية، وعلى الشعور بالإستقلالية فياحبذا لها من وصاية! فهي لا تلحق أي ضرر، ولا تسبب أي نزاع. يقولون بأن الحرب هي إستمرار للدبلوماسية بوسائل أخرى. إذا ما وصلت العلاقات العائلية السلمية إلى طريق مسدود، وإذا ما واجه تكتيك إملاء الشروط أو التحكم مقاومةً، وإذا ما أصبحت الوصاية مرهقة، ولا يرغب أحد في التصالح معها، إذ ليس لدى الأوصياء أية نيّة في التراجع عنها، عندها يصبح من الممكن إستعمال «الوسائل الأخرى».

ـ «المواجهة» ـ

كان من الممكن أن نعتقد بأنه في هذه الشقة السكنية الكبيرة، تدور حرب منذ سنوات طويلة... لا جدال في أن حياة الشخص تتكون من إنتصارات وهزائم، ولكن إذا كان كل الأشخاص من الأقرباء، فإن إنتصار أحدهم يعني إنتصارهم جميعاً، وهزيمته هي هزيمة للجميع أيضاً.

أمّا هنا فالأمور مختلفة تماماً. لقد كانت الحرب تدور بين الأقارب.

ـ حصلت على درجة ضعيفة؟ وماذا قالت لك الأم! كل ذلك بسبب (كوبونوف)، لقد أضعت كل وقتك معه البارحة مساء على صنع النموذج، وهاكم النتيجة اليوم ـ درجة ضعيفة.

ـ يا أبي: لقد حصلت على درجة ضعيفة في مذاكرة الرياضيات. وكان ذلك في الأسبوع الفائت. ألا تذكر، لقد ذهبت إلى المدرسة بعد شفائي من الزكام. أما النموذج فلم نبدأ بصنعه إلاّ البارحة فقط. . .

ـ إصغِ اليَّ جداً: إنك لن تعود للعمل في هذا النموذج إطلاقاً. إهتم بنفسك! ولا أريد لصديقك (كوبونوف) أن يدوس عتبة هذا البيت أبداً!

ـ ولماذا هذا الإصرار تجاه كوبونوف؟ إنه يدرس جيداً، وليس عنده أية مشاكل. . . ـ ينظر الولد إلى أمه نظرة جانبية ويتابع بهدوء: على الأقل لا يأتي إلى عندي وهو مخمور، ولا يشرب الخمر مع أي كان. إنه لا يشرب أبداً. . . .

ـ هذا ما ينقصنا بعد. . . ـ بدأ الأب بالإجابة، وفجأة فهم مغزى ما قاله الإبن ـ ماذا تقصد أيها السفيه؟! تسمح لنفسك أيضاً؟! سأريك الآن. . . لنسدل الستار على هذا المشهد. من الواضح بأن العداء والحرب، زوّار دائمون في هذه العائلة. ومن الصعب أن نأمل بحول السلام بين هذه الأجيال. تتراكم الحساسيات والمثيرات، تزداد الإساءات المتبادلة، وتجبر المجابهة المستمرة الأطراف على ملاحظة الجوانب الضعيفة للآخرين والمبالغة فيها. وتبدأ الشماتة بحجة الإخفاق أو الأذيّة التي يلقيها كل منهم على عاتق الآخر.

ـ لم يقبلوكِ؟ هذا جزاؤكِ. تريدين أن تصبحي راقصة بالية! وعلى هذه الهيئة وهذا القوام! من الأفضل لك تعلّم الخياطة ـ برضى واضح تتكلم الأم مع إبنتها، التي فشلت في التسجيل في مدرسة الباليه.

تأكدوا تماماً، ولا يساوركم الشك في هذا أبداً، بأن الأم عندما تواجه

بعض المتاعب أثناء العمل، فإنها لن تلقى عند إبنتها أي مواساة لها أو عطف عليها - بالكيل الذي به تكيلون يكال لكم. كل ذلك كما في الحرب تماماً حيث القوي هو الذي يربح الحرب. أما هنا، فالأطراف في خسارة دائمة - الإنتصارات غير ممكنة. تستمر «الحرب الباردة» حتى يكبر الأطفال ويبدؤون بالوقوف ضد أخلاق الخنوع والذلّ، وينتقلون بعدها إلى «الحرب الساخنة». قوى الأطراف متوازنة: العين بالعين والسن بالسن. ويتحول الإخفاق التربوي إلى إخفاق للأسرة. إننا لا نريد أن نصل إلى تنبؤات متشائمة جداً - على كل حال، يمكن للمشكلة أن تُحَلّ بنفسها، ولكن العاقبة النهائية لا يمكن أن نشعر بها إلاّ بعد مرور سنوات عدة، عندما سيُجْبَر الأهل الهرمون والذين لا حول لهم ولا قوة، على الخضوع بدورهم لـ «أخلاق الخضوع»، التي استطاعت أن تقدمها لهم السمات القتالية للأطفال التي سرى مفعولها فيهم.

- التعايش السلمي -

النوع الرابع من تكتيك الأسرة - هو التعايش السلمي من منطلق عدم التدخلّ. الجميع هنا يبدون لائقين ومتأدبين. لكل منهم أعماله، مشاكله، صعوباته ونجاحاته. الأهل يعملون، الأولاد يدرسون، لكل منهم جوّه الخاص، ومجاله من النشاط. لا أحد يتخطّى الحد الفاصل، بالرغم من وجود بعض الأخطاء أو سوء في التفاهم. لم يبق لنا إلاّ أن نرحب بهذا النوع من العلاقات داخل الأسرة. ويبدو أن الأهل يفرحون أحياناً لأنهم يأخذون جانب الحياد. تقول الأم: «سينيا يعيش حياته، وأنا أعيش حياتي (هي وزوجها في حالة طلاق). موجهّة المدرسة تسأل: «متى عاد سينيا البارحة إلى البيت؟». وتجيب الأم: «في السابعة على ما يظهر».

«أرأيتم ماذا تقول الموجهة، لقد خرج من المدرسة الساعة الثانية ظهراً. أين كان، وماذا فعل خلال هذه الفترة الطويلة؟» - «أما أنا (أي الأم) فلا

أعرف، ماذا فعل. أنا لا أسأله أبداً. كان يجب عليه أن يعترف بنفسه. دراسته جيدة، معلموه لا يتذمرون منه. هل يسألني هو عن أحوالي وعن حياتي؟ على الأرجح لا. وما الداعي لذلك؟ لنا حياتنا وله حياته».

إن الفصل بين عالم الطفل وعالم الكبار غالباً ما يُعلن بصراحة، إعتماداً على «قاعدة تربوية» تقول: ليترعرع حراً، مستقلاً، خالياً من القيود والأغلال. كيف سنتعامل مع ذلك؟ يوجد، على الأغلب، ظروف عائلية متنوعة، إني أعترف وأقول أنه يوجد عند بعض الذين حاورتهم أسباب وجيهة، ومنها على سبيل المثال - صعوبة تربية الطفل اليتيم. تكمن في أساس هذا النوع من العلاقات المتبادلة سلبية المربي وهو الأب هنا، الذي يمتنع عن التدخل الفعلي، مفضلاً التعايش السلمي، الذي لا يتطلب أي جهد روحي أو معنوي، مع المراهق. وما هي النتيجة؟ يحصد الأهل الثمار المريرة من وراء وضعه على الطريق الذي يؤدي به الى تشكيل فرديته. فالعائلة هنا لا تعتبر بالنسبة للطفل مركزاً للجاذبية أو مغناطيساً إنفعالياً أو مركزاً عائلياً، ولا تعنيه حياة أهله على الإطلاق، لا أفراحهم ولا أتراحهم. واللحظة الحرجة آتية لا محالة: مصيبة، مرض، صعوبات - عندها ستفرض على الأب المشاركة والخوض في المسائل الإجتماعية، وسيقتنع بعجزه، وسوف يأسف بمرارة، ويتذمّر بحجة عدم صلاحية وتهافت الشباب كإبنه، والبنات كإبنته، من غير أن يدرك بأن السبب هو تهافت المنظومة المتشكلة من العلاقات العائلية.

- التعاون -

التعاون هو النوع الخامس، والأمثل من تكتيك التربية العائلية. في حالة التعاون هذه يتم تخطّي الروح الفردية عند الطفل، وتتشكل لديه سمات الإنسان الإجتماعية. فالعائلة تكتسب سمة خاصة وتصبح مجموعة من نوع خاص، إذ يجب على التعاون أن يصبح مادة للتحليل الخاص في

سياق مشاكل المجموعة. لقد أظهرت التجارب الميدانية وجود ميزات سيكولوجية خاصة للعلاقات المتبادلة ضمن هذه الأسر ـ المجموعات ذات المستوى العالي من التطور، التي لا نجدها في الأسر ـ المجموعات الأخرى. ونجد وضعاً للتكاتف داخل هذه الأسرة ـ المجموعة، حيث يتصف أعضاؤها بتطابق الآراء عند تقييمهم للحظّات الأكثر جوهرية وحيوية في نشاط الأسرة ـ المجموعة. إذ لا يمكن التحدث عن التكاتف ضمن الأسرة في حال وجود خلاف في الآراء. هذه الطريقة في تنظيم العلاقة بين الجيل الأكبر والجيل الأصغر تعتبر مثالية، فهي ليست كالوصاية وعدم التدخل والتعايش السلمي.

هل يمكننا الكلام عن التعاون بين الأهل في عمر / ٣٣ـ٣٦ سنة/ وبين إبنتهم الصغيرة التي لها من العمر / ١٢ عاماً/ . من الواضح أن التعاون هنا غير متكافىء. لا أعتقد بوجود أي تناقض هنا، ولم أرغب في أن يقتصر حديثي على الأمثلة المعروفة لنا جيداً في الأدب التربوي، عن المشاركة الموفقة والناجحة للأولاد في العمل المنزلي (ترتيب المنزل، شراء المواد، غسيل الأواني، رعاية الأخوة الصغار والأخوات الخ). هذا بالطبع جانب حيوي للنشاط المشترك، يجب عدم التغاضي عنه. وتزداد أهمية هذه المشاركة في الأرياف، إذ غالباً ما يكون الأطفال هنا مساعدين أشدّاء للأهل في الحقل، وفي الغابة وفي البستان وفي البيت.

بقي علينا جانب واحد من جوانب البحث في مسألة تعاون الأجيال له طابع سيكولوجي. علينا أن لا ننسى بأن المجتمع الذي نعيش فيه يتطلب من كل واحد منا مطالب سامية، من الصغير ومن الكبير.

هذه المتطلبات تراها مسجلة في القوانين الإنتاجية وفي قواعد السلوك وفي المعايير الأخلاقية الخ . . . يرتبط التقييم الإجتماعي للإنسان ـ بغض النظر عن عمره ـ بمقدار ما يتوافق مع هذه المعايير والقواعد والقوانين، وبمقدار ما ينفذ هذه الواجبات. وهنا ينكشف لنا جانب آخر من جوانب

التعاون بين الأهل والأطفال، وهو جانب المشاركة. أشار المفكر الروسي العظيم والثوري / الكسندر نيكولايفيتش راديشيف/ ، إلى الفضائل البشرية قائلاً: «. . . الإنسان، هو قبل كل شيء، كائن مساهم». المشاركة ـ دخول إنفعالي فعّال إلى عمل الإنسان الآخر، مساعدة نشطة، إبداء للعواطف وللإنفعالات ـ توطّد العلاقة المتبادلة ضمن الأسرة، ولا تترك مكاناً لعدم المبالاة والجفاء والأنانية. الإستجابة عند وقوع المصائب وظهور المصاعب، والميل نحو الردّ السريع ـ هو شكل لتبدّى المشاركة، وشاهد على الجاهزية للتعاون والمساندة. يفترض إنسجام العلاقات العائلية التبادل في إظهار المشاركة. ويكتشف الأهل المشاركة عندما يظهرون التعاون والمساعدة للطفل في أعماله (مساعدته على الدراسة، تعليمه المهارات الرياضية، مناقشته في المسائل التي تحمل طابعاً إشكالياً الخ). وهل يجب على هذه المشاركة أن تخصّ دائماً عواطف الأهل؟ للأسف، فالمشاركة لا تستجيب دائماً للتبادل.

تزدحم حياة البالغ بالمواقف المعقدة، الصعبة أحياناً والدراماتيكية أحياناً أخرى. إذا أردنا أن يصبح إبننا أو إبنتنا أقرب إلينا وأعز (لاحظوا بأن الحديث يدور، عن إقتراب الأولاد تحديداً، إلينا، وليس الأهل، فإن أول ما يجب أن نفعله أن لا نبعد أولادنا عن أفراحنا وأتراحنا، وأن لا نجعلهم فقط شهوداً على ذلك، بل عليهم أن يشاركوا أيضاً في ذلك بصورة مباشرة. علينا أن نلجأ إلى هذا السلوك، بوقت مبكر جداً قدر الإمكان من عمر الأطفال، وبوضوح وجرأة، وأن نوضح لهم ذلك بإسلوب قابل للفهم (حسب عمر كل طفل).

ـ أنت تعرفين أن زوجي دخل إلى المستشفى لإجراء عملية صعبة جداً. باضطراب، تنظر المرأة متسائلة الى موجهة الصف، طالبة النصح منها.

ـ هل أقول لإبني أم لا؟ يقول الزوج أن لا حاجة إلى ذلك. أخبريه بأني أذهب في مهمة، إذ لا يجب إقلاق راحته. فهو ما زال صغيراً. ما العمل؟ وتقول لها الموجهة: ولكن يجب أن لا تتركيه، بأي حال من

الأحوال غير عارف بذلك. سيضطرب، ويمكن أن يبكي؟ كل شيء يجب أن يكون في مكانه: الفرح، المصيبة، الدموع والضحك، الإنفعالات المشتركة، الآمال والأحلام - كل ذلك - يزيد من تكاتف الأسرة ويدعم أسسها.

- تقول المعلمة للزوجة: الزوج يتماثل للشفاء. ونأمل أن يكون ذلك سريعاً. ليكن ذلك عيداً كبيراً بالنسبة لإبنكم الكسي، وليحلم بذلك اليوم الذي سيخرج فيه والده من المستشفى مستنداً على كتفه. وكم سيكون سعيداً بالمساعدة التي يبديها تجاه والده الخارج من المستشفى. وسيشعر بأهميته وضرورته لأمه وأبيه إذ لا غنى لهم عنه. نعم يجب أن يعرف، لا تخفيه عن الحياة. هكذا تتكون المشاركة، التي لا معنى لتعاون الأجيال من دونها. الأسرة المؤلفة من ثلاثة أو أربعة أشخاص، المرتبطة بأواصر القرابة، يمكن أن تصبح، أو لا تصبح أسرة متفاهمة تنطبق عليها قوانين الجماعة، وذلك تبعاً للطابع الذي تكتسبه العلاقات بين أعضاء الأسرة، هل هو المواجهة، التعايش أو المشاركة والتعاون.

يفترض التعاون، كعلاقة ضمن الأسرة وجود أطراف للتعاون. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما عدد هؤلاء الأطراف لكي يتحقق نجاح التعاون؟ بالتأكيد، سيسرع أحدهم بالإجابة قائلاً: ثلاثة (الأم، الأب والطفل). وهناك من سيقول خمسة - هذا يعني أنه لم ينس الجد والجدة. إذ أنهم يحتلون مركز الصدارة ضمن الأسرة في المشاركة والتعاون. ومن النادر جداً أن يزيد أحد ما من أعضاء الأسرة، من خلال زيادة عدد الأطفال فيها. على كل حال من الصعب أن نفترض، بأنه يمكننا تجاوز العدد السحري سبعة - ٧ -. حتى أني حاولت في إحدى المرات البرهنة على عدم ميل الأسرة الى الخروج خارج إطار هذا العدد السحري، بالإعتماد على أحدث معطيات علم النفس الاجتماعي (بالحقيقة، كنت أتحدث إلى باحث علمي).

لقد قال لي على وجه التقريب: «عن أي تعاون يمكن أن يجري الحديث، إذا زاد عدد أفراد الأسرة إلى الضعف؟»

يعني التعاون الإظهار المتبادل للشعور بالحنان والرأفة، والأهم من ذلك كله إبداء المساعدة الفعّالة. إذ لا معنى للتعاون، من دون ذلك كله.

هل تتذكرون تجارب لاتين (عالم نفس مشهور من الغرب)؟ لقد برهن تجريبياً بأنه كلما كان عدد الشهود، عند وقوع كارثة، أكبر، كان حظ الضحية أقل في الحصول على المساعدات. هذا الأمر، محتمل جداً في العائلة الكبيرة، بل حتمي. الأطفال كثر، وبالتالي فإن «قيمة» كل منهم تنقص حتماً، والرصيد الإجتماعي للتعاطف (هذا المصطلح يعني في علم النفس: الشفقة، الحنو، المشاركة الإنفعالية) ينقسم بالتساوي على الجميع، وبما أن المقسوم عليه كبير جداً، فإن حصة كل واحد منهم تبدو صغيرة جداً. وعلى العكس من ذلك فالحب والتفاهم المتبادل والتعاون هو ما يميز معاملة المجموعة غير الكبيرة من الناس المرتبطة فيما بينها بعلاقات وثيقة. كلما كانت الأسرة أصغر، كلما ازدادت عندها خطوط التكاتف والتلاحم على أسس عاطفية، وازداد التعاون في حلّ المشاكل العائلية المشتركة».

لقد اضطررت إلى مناقشة الأمر، فتجارب العالم لاتين معروفة جيداً، ولا يمكن الشك فيها. وما يمكن أن يخضع للشك هو إمكانية إستخلاص نتائج بعيدة المدى من هذه التجارب. نحن علماء النفس الروس، حصلنا أكثر من مرة على البرهان في التأكيد، بأن نتائج التجارب التي أجريت على مجموعات عرضيّة، تمّ انتقاؤها مصادفة، يجب ان لا تعمم على الجماعات. إن أولئك الذين خضعوا للتجارب السيكولوجية الإجتماعية التي أجراها عالم النفس / ب. لاتين/ ، ينطبعون بطابع النظام الإجتماعي الذي ينتمون اليه في حياتهم اليومية.

إذا أهملنا هـذه الظروف، فـإننا بذلك نرتكب خطأ سيكولوجـيـا فادحاً، وهذا ما حصل مع محاوري لاتين. فالنتائج التي حصل عليها عالم النفس لاتين لا يمكن تعـمـيـمـهـا على الناس الروس، وعلى الجـمـاعـات المتكافئة، وإثبات ذلك لا ينحصر فقط بالشروط المخبرية الصارمة. إليكم هذه الحادثة.

صوّرنا مع مجموعة من عمال السينما (من كييف) فلماً علمياً مبسطاً. كان التصوير موثقاً بشكل صارم. وجرت الأحداث على سطح سفينة مبحرة من إحدى المدن إلى مدينة أوديسا، وعلى متنها سياح أجانب. قررنا تصوير تجربة سيكولوجية من دون علم الركاب، باستثناء الكابتن (استخدمنا الكاميرا الخفية). أين يكمن جوهر التجربة؟ أعلنّا بالراديو الداخلي (المخصص للطاقم) بأن أحد الركاب وهو سائق جرار من ألمانيا، وعمره لا يزيد عن أربعة عشر عاماً، قد أصيب بحروق بالغة، ويحتاج الى (جلد) لإجراء عملية فورية له. هرول الطاقم من مختلف أقسام السفينة لإنقاذ ذلك الشخص.

دخل الكابتن وقال: «ليبق اثنان فقط، وليذهب الآخرون» لم يخرج أحد. قال الكابتن: «العملية موجعة، سيكون ذلك مؤلماً جداً!» ولم يخرج أحد. فأضاف «الندب سوف لا تزول عند المتبرعين». وبالرغم من أن النساء والفتيات كن من بين الموجودين، فإنه لم يخرج أحد. وبعد بضع دقائق تمّ بثٌّ خبر جديد مفاده: إنّ «زرع الجلد سيجري على متن السفينة فقط وفي ظروف إكلينيكية». بعد ذلك فقط تفرّق البحارة. تشهد هذه التجربة على أن «أثر لاتين» لا يعمل في الظروف الإجتماعية التي يحاكم فيها الناس هكذا: «إذا لم آت أنا لتقديم المساعدة، فمن سيأتي بدلاً عني ليقوم بذلك؟».

تشهد التجربة أيضاً، على أنه في العائلات الكبيرة، التي يتراوح عدد الأطفال فيها ما بين الثمانية والعشرة، تتشكل على أساس التعاون جماعة أسرية، علمية تربوية حقيقية، حيث توزع فيها الواجبات بعدل وبشكل

صارم، والكبار فيها مسؤولون عن الصغار، ولا يؤدي تضخم المجموعة الى إضعاف الروابط العاطفية، ولا ينضب فيها الإحتياطي العائلي من التعاطف، وإنما على العكس، يزداد بسبب المساهمات المتبادلة.

ومن الخطأ، على كل حال، أن نأخذ حجم الأسرة، كميزة وحيدة ومحدّدة. كل شيء يتحدد بالسياق النهائي، بمناخ الأسرة الأخلاقي، وبالأهداف التي تضعها نصب عينيها، وبالخط الإستراتيجي العام لتطورها. وبكلّ بساطة، فإن العمليات ذات الطابع الجماعي تجري بسهولة في العائلات الكبيرة، ويتم تخطّي الفردية، وتتكون الشروط من أجل تطور العلاقات الإنسانية المتبادلة.

لا يشبه تكتيك التربية العائلية أبداً أي تكتيك آخر. إن كلمة «تكتيك» بحد ذاتها ذات منشأ عسكري، وتأخذ بعين الإعتبار التتابع الصارم للعمليات العسكرية والمضبوط بدقة، والحساب المتبصر لكل حركة من حركات العدو الممكنة ولعملياته المعاكسة. هكذا يجب أن نفهم هذه الكلمة في ساحة المعركة وعلى رقعة الشطرنج، وأثناء المسابقات الرياضية. ولكنها لا تأخذ هذا التفسير في خضمّ العلاقات المتشابكة بين الأهل والأولاد، وفي هذا الجو العام للمناخ العائلي.

ولكن من النادر جداً أن تختار مُسبقاً الأغلبية الساحقة من الآباء والأمهات، هذه الأنواع من العلاقات الأسرية التي وصفها /أ. ف. بتروفسكي/. وهل يوجد خمسة أنواع من التكتيك فقط؟ يمكن أنْ يصل عددها إلى ما لا نهاية. نحن لا نخاف اللّوم والعتاب على تأكيدنا بأن كل عائلة لها جوها السيكولوجي الذي لا يتكرر، وطبعها الذي لا يتكرر من العلاقات، فكلّ عائلة لها نموذجها وتكتيكها و«أريج» خاص من النمط المنزلي.

يوجد على رقعة الشطرنج أربعة وستون مربعاً وكل لاعب شطرنج

عنده ست عشرة قطعة. هل باستطاعتنا أن نحسب عدد الإحتمالات لكل لاعب، هل يمكننا التعبير عن فردية كل نموذج بمعادلة ما. طبعاً غير ممكن. ويمكن أن يتم الإعتراض علينا على الشكل التالي: ألا يوجد نظرية في الشطرنج تبحث في أدق تفاصيل مختلف الإفتتاحيات والنهائيات؟ ألا يوجد وصف كامل ومشخص لكل الوضعيات الإعتيادية، وأخيراً ألا يمكن، تقديم وصف دقيق جداً لبعض نماذج أدوار لاعبي الشطرنج العظام، حيث من الممكن تدريس خبرتهم في اللعب وجعلها في حوزة الجميع، وتُصبح أساساً لمدارس الشطرنج؟

كل شيء يجري على ذلك المنوال. من الممكن إيجاد تلك الخصائص العامة للعلاقات المتبادلة بين الأهل وأولادهم حيث يمكن تصنيفها حسب مؤشرات محددة في نموذج عمومي.

في مقالة /أ. ف بتروفسكي/، وحسب نظرنا، هناك محاولة ناجحة لإيجاد النموذج، وصياغة تكتيك التربية العائلية.

ولكن هل يوجد «تكتيك الخطأ» و «وتكتيك الهزيمة» ـ إنه مستثنى من أي قضية. فكيف لنا أن نسمّي تكتيك إملاء الشروط، الوصاية، المواجهة، الموجودين في التربية العائلية ـ وهل يتم إدراكهم، وفهمهم من قبلنا كمنظومة مُحَدَّدَة من الأفعال، التي تؤدي بنا وتوصلنا الى النجاح؟

لا شيء من ذلك. فالحديث يدور عن (أنواع التكتيك) المتشكلة عفوياً، وغير المتعلقة برغبات الأهل، الذين يعتبرون بأن علاقاتهم مع أطفالهم جيدة وعلى ما يرام.

مقالة /أ. ف بتروفسكي/، تساعد في فهم واستيعاب إتجاه سلوك الأهل، وكيف يمكنهم تغيير نموذج التكتيك العائلي السلبي غير المرغوب الى نموذج إيجابي تفاؤلي حيوي. لا ينبغي علينا أن نفهم هذه الكلمات حرفياً. .

ماذا يعني تغيير التكتيك أو وضع تكتيك جديد!» هل يعني التغيير المفاجىء والحاد في التعامل مع الأولاد. إن التعامل مع الموضوع بهذا الشكل هو تعامل ساذج إذ مهما قدّم الأهل من هذه الوعود، فمن المشكوك فيه أن يؤدي ذلك إلى نتيجة جدّية. يجب أن ينطلق الأهل من الإستعداد الداخلي لإعادة بناء سيكولوجية جدّية، وعمل ذهني عميق وفعّال جداً. تذكّروا بأنه عليكم أن تستوعبوا خبرتكم السابقة والحالية في التربية، وأن تبتكروا خطة سلوككم المستقبلي.

ثقوا تماماً، بأن هذه المهمة هي من أصعب المهمات، لأنها لا تتطلب العمل المتوتر للأفكار فحسب، بل حتى العمل الأكثر مسؤولية للروح. إذ لا يمكنكم أن تحصلوا على شيء من دون القلب، ومن دون أرق المشاعر.

إعداد تكتيك العلاقات العائلية لا يماثل في شيء، ترتيب أحجار الشطرنج، وموازنة القوى. وبلغة الرياضيات - هذا العمل ضروري ولكنه ليس برهاناً كافياً. من المهم أن نجد في التربية الإنطلاقة الصحيحة. إذا كانت اهتمامات الطفل هي فوق كل شيء بالنسبة للأهل، وإذا ما حققوا لطفلهم ما يرجو ويرغب ويحتاج، عندها سيتحولون إلى عبيد لإبنهم أو لإبنتهم - هذا الموقع الذي يضع فيه الأهل أنفسهم يتصف بعدم التبصر وقصر النظر. يترعرع في هذه الأسر أولاد أنانيون عاجزون عن عمل شيء، ضعاف الارادة ولينّو العريكة. أما أنانية الأهل فتبرز عندما يضعون اهتماماتهم فوق كل شيء ولا يأخذوا اعتباراً لرغبات وحاجات طفلهم، ويعيشون «لأنفسهم» فقط. وغالباً ما يترعرع في مثل هذه العائلات أطفال سلبيون، ضعاف الإرادة، لا رأي لهم، أو على العكس من ذلك، عدوانيون، لا تعنيهم سوى إهتماماتهم فقط. من المهم أن ننوه هنا إلى أن الأنانية عند الكبار غالباً ما تعزز الأنانية عند الصغار.

تطرقنا هنا إلى وجهتي نظر متطرفتين، غالباً ما تلتقيان في «شكلهما

الخالص» وغالباً ما نضطر في الحياة الى الإصطدام بتمظهرات أخرى من أنانية الأهل، أكثر رقة وأكثر تستراً، وبالتالي أكثر خطورة.

الأمر كالتالي: أمامنا أسرة رائعة. أفرداها أذكياء، نشيطون، ومتحابون جداً. كل أفكارهم وإهتماماتهم مرتبطة بالطفل ومستقبله. فقد استغرقهم حبه الى الحد الذي لم يلاحظوا فيه كيف جعلوا منه لعبة مُطيعة، ووسيلة لتحقيق رغباتهم. حب كهذا يمكن أن ينقلب كارثة على الطفل، ويحرقه محولاً إياه الى رماد.

عن هذا الحب الحارق، تتحدث قصة البرت ليخانوف. اقرأوها وستقتنعون بخطر هذا النوع من الحب.

* * *

البـــرت ليخـــانوف

إحتشاء عضلة القلب، أو قصة عن حب الأهل الحارق

(من كتاب «التربية الدراماتيكية»)

إنكم تعرفون أن حاصل الجمع في الرياضيات لا يتغيّر بتغيّر ترتيب الأعداد المضافة، ولكن ألم تلاحظوا أن الفكرة تتغير بشكل عجيب، فيما يتعلق باعادة ترتيب أكثر الكلمات بساطة.

حبٌ حارق - إنه على الأرجح ليس مدهشاً، ولكن يكفي أن نضع بين الكلمتين كلمة «أبوي» حتى تحتج كل الكائنات وكل الروح البشرية: وهل يعقل، بأن الحب الأبوي - بإشارة (ناقص)، حارق ومدمّر - هذا غير صحيح، ومستحيل في الوقت نفسه؛ فحب الأهل يعني الخير دائماً، والدفء والرقّة، إنّه السعادة. فالحب الأبوي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يسبب الضرر، أليس كذلك؟!.

إليكم قصة حب تشبه تماماً ذلك الحب الأبوي، ولكنها ليست قاسية بجوهرها فحسب، بل حارقة. شخصيات القصة ثلاثة، فالأسرة صغيرة كما ترون:

الأب - سوف نطلق عليه إسم : أركادي اندريفيتش

الأم - واسمهـــا : سفيتلانـــا

الإبـن واسمـــه : اليـــغ

كان الإبن في ذلك الحين الذي يدور فيه الحديث، تلميذاً قد أنهى لتوّه

الصف العاشر. فهو الولد الوحيد في الأسرة والكنز المحبوب الذي لا يقدّر بثمن.

ومن السهولة فهم سر هذا الحب. فالأهل قد أنجبوا هذا الطفل في وقت متأخر. فإذا قمنا بعملية حسابية بسيطة، بحيث نطرح العدد /١٧/ وهو عمر أليغ من /٤٩/ وهو عمر الأب، نجد أن أركادي اندريفتيش قد أصبح أباً وهو في الثانية والثلاثين. إنه فارق لا بأس به. هل يملك هذا الشيء أهمية جوهرية؟ نعم وإلى حد كبير. حتى أن أركادي اندريفتيش نفسه قد نشأ وترعرع في أسرة صعبة. وقد حصل الطلاق بين أباه وأمه وهو ما زال صغيراً، وفهم عند ذلك، بأن عليه أن يحصل بنفسه على ما يريد في هذه الحياة، لأنّ أحداً لن يهتمّ به بعد الآن. وهذا ما حصل. فبعد أن أنهى المدرسة دخل الجامعة، ودرس في كلية الفيزياء-الرياضية. وكان هذا الإختيار من الإختيارات الصعبة، وسيشكل المحور الأساسي في قتنا.

من غير المعلوم سبب إختيار أركادي اندريفيتش الفيزياء-الرياضية. فقد كان متفوقاً في الرياضيات، وأستاذ الرياضيات كان أستاذاً متمكناً وموهوباً. فالإنسان الموهوب الذي امتهن التعليم يمكن أن يشدّ بعمله أيّاً كان. وهذا ما حصل مع أركادي.

فلو تحمّس قليلاً، لكان قد ذهب إلى كلية اللغات. ولو وُجِدَ في المدرسة، مدرسٌ موهوبٌ في الكيمياء، لأصبح أركادي عالم كيمياء. ولكن ما العمل إذا كانت الرياضيات من نصيبه أخيراً. إنه إنسان غير عادي، هذا المعلم، وكأنه من عالم آخر غير هذا العالم، فهو لم يدرّس الرياضيات كما يدرّسها المعلمون الآخرون، لقد كان يعيشها، وبذلك سحر الكثيرين. وكان هذا سبباً لسعادة البعض وتعاسة البعض الآخر.

لم يكن أركادي اندريفتيش ميالاً إلى الرياضيات، وإذا توخينا الدقة، فقد كان ميله إلى الرياضيات لا يختلف عن ميله نحو العلوم الأخرى

كالبيولوجيا والجيولوجيا. ولكن أستاذ الرياضيات، بخلافه عن الآخرين، كان شخصيةً أقدر من الآخرين، أقدر من أستاذ البيولوجيا، ومن أستاذ الجيولوجيا. واستطاع أن يخلق في الصف موقفاً من الإحترام والتبجيل تجاه الرياضيات. كان حديثه عن الرياضيات خلاّباً، وبرهن لهم أن الرياضيات هي أساس كل المبادىء. نعم، هذا هو واقع الحال. الرياضيات - في أساس كل بناء، والبناء هو المهنة البشرية الأولى. والرياضيات - هي الفيزياء مع كل تفاعلاتها النووية. هي الرسم الكلّي العجيب[1]، وهي ألف ليلة وليلة من العجائب السحرية.

حتى البيولوجيا تخضع للقانون الرياضي، فهناك إيقاع القلب البشري، وضغط الدم، وتنفس أبسط أنواع الأعشاب.

الساحر الأشعت، الذي بدا طبيباً آنئذٍ، أخضع كل تلاميذ الصف له. بيد أن التلاميذ كانوا مختلفين بقدراتهم. لذا توجب، حسب قوانين الرياضيات، تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى - هي المجموعة الموهوبة من دون أدنى شك، حيث تشكل الرياضيات بالنسبة لها كل شيء، فهي كالشعر: مُعطى أو غير مُعطى (مجهول أو معلوم).

المجموعة الثانية: ويشكلها أولئك التلاميذ الذين فهموا عاجلاً أم آجلاً بأن القطار قد فاتهم، ولم يعد بمقدورهم اللحاق به، إذ تعوزهم القوى - والموهبة لكي ينالوا إعتراف أستاذهم الساحر.

هذه المجموعة، ركضت قليلاً وراء القطار، لوّحت بيدها، توقفت، وعلى محياها الإرتباك والخجل، وابتعدت جانباً، وأخيراً شعرت بنوع من الراحة السعيدة. الصدق والإخلاص - هما الخير دائماً. بقيت عندنا المجموعة الأخيرة، وهي التي ينتمي إليها صديقنا أركادي اندريفتش، وتتكون من التلاميذ متوسطي القدرات.

---

(١) وهي طريقة في الحصول على رسم الموضوع، عن طريق، تداخل الموجات (م).

من غير المعقول البرهنة على أن هؤلاء الناس ليس لديهم موهبة. بيد أنها لم تشكل العامل الأساسي في اختيار الفرع. ولذلك اختار أركادي الرياضيات.

منذ أن كان في المدرسة كان يسعى كي لا يتخلّف عن القطار، الذي يجلس فيه التلاميذ الأكثر موهبة، حيث شحذ قواه وأرهق جسدة المتين لكي يستطيع حل المسائل من كتاب الرياضيات المخصص للسنة الأولى. وعندما اشتدت الوطأة عليه، سجل في كلية الفيزياء ـ الرياضية. وتحولت حياته الى تعذيب للنفس.

حتى الطلاب الموهوبين عانوا من الصعوبات. فكم بالأحرى اركادي، الذي عمل أكثر بثلاث مرات وحتى أربع وخمس مرات من الآخرين الموهوبين.

هذا كله كان في سن الشباب والفتوة، حيث اكتسب وهو طالب سمات محددة للطبع: منها السيئة ومنها الجيدة. أصبح اركادي يعمل بشكل جهنمّي، وأحب العمل بشكل لا مثيل له، وكان دؤوباً لا يشق له غبار. ولم يوفر الوقت من أجل الإحاطة والإلمام بكمية أكبر من المعلومات والمعارف. وبالرغم من كل ذلك كانت نتائج دراسته عادية، مما أثار سخرية الموهوبين. وكانوا يطلقون عليه مختلف الألقاب المزعجة. بيد أن هذه الألقاب لا تستحق الذكر. وتلاشت مع الزمن، ونُسيت، كما تلاشت ونُسيت المرحلة الدراسية.

بيد أنه لم ينس جميع الألقاب، فالمزعجة منها ظلت في ذاكراته.

إنه الآن أركادي أندريفيتش.

بالرغم من مرور الزمن الطويل، فإن حياته لم تزل صعبة ومعقدة. باشر أركادي اندريفتيش العمل في المدرسة أستاذاً للرياضيات. وتمّ قبوله معيداً في الجامعة بعد جهد جهيد. وكلفته هذه السنوات عملاً صعباً

ومضنياً. والأنكى من ذلك، أن الوقت لم يكفه للدفاع عن أطروحته، مما أدى إلى تأخره سنة كاملة حتى تسنّى له الدفاع عنها.

هذه الأطروحة الملعونة قلبت حياته، لقد أهدته القرحة المعدية، والتهاب المعي الغليظ، بالإضافة الى أمراض أخرى، ناهيك عن الطعام الزهيد أثناء الدراسة والأعصاب المحطمة.

بيد أنه خرج أخيراً من تحت هذه الأطروحة، كما لو أنه خارج من تحت دبابة ثقيلة، خرج مسحوقاً، مضعضعاً، ولكن بثقة ضارية: أنا لست أسوأ من الآخرين الآن. نعم، لقد كان ذلك صحيحاً. لقد أعطته الأطروحة دفعاً إلى الأمام مدى الحياة. هذه الأطروحة المحبوبة والكريهة، الضرورية والتي لا معنى لها، القيّمة، والقبيحة، هي التي سقته وأطعمته. كل شيء كان يمكن أن يظل على ما يرام فيما لو ظلّ أركادي اندريفتيش وحيداً يرعى نفسه. ولكن أستاذ الرياضيات، تعيس الحظ، تزوج، ككل الناس العاديين. تزوج من فتاة أسمها سفيتلانا. لقد تعارفا وأحبّا بعضهما البعض، عندما كان هو معيداً وهي طالبة. كانت حياة أركادي اندريفتيش الشخصية، شبيهة جداً بالرياضيات. وبدت حياته الشخصية مدروسة ومحسوبة كمسألة الرياضيات تماماً.

ولكن سفيتلانا هي التي لعبت الدور الأساسي هنا. كانت سفيتلانا إنساناً آخر، إذ أنّها استطاعت أن تقلب حياة أركادي اندريفتيش رأساً على عقب، حيث تحطمت وانهارت كل دقته وحذره تحت وقع خطى الحب الحقيقي، الذي أحاطته به سفيتلانا. ولكن طبع سفتيلانا كان مسالماً. لاحظوا أنّ معظم صديقاتها من الصف تزوجن طلاباً من أصدقائهن، أما هي فقد استطاعت أن تصطاد معيداً. لقد تطلب ذلك بعض التعهدات المتبادلة المحددة.

أولاً: أركادي أندريفتيش له قدرة جنونية على العمل. وكان هذا

الشيء كفيلاً بأن يُشَكّل هالة محددة ـ هالة من الإحترام. أو حتى هالة من البروز والتفوّق (الشذوذ).

ولكن سفيتلانا لم تكن على دراية بالألقاب التي نعته إياها أصدقاؤه في الصف.

أربع سنوات من الفارق في العمر أثناء المرحلة الدراسية أو مرحلة الطلبة، تعتبر مسافة زمنية هائلة.

اختارت اختصاصها وكان الجغرافية.

لنتكلم بصراحة؛ في عصرنا نحن وعندما تصبح المكتشفات الجغرافية وراءنا، وعندما يحضّر أساتذة الجغرافية في الجامعة محاضراتهم من أجل هدف وحيد هو الوقوف أمام الخارطة، أو مجسم الكرة الأرضية، وبيدهم العصا، فإن مهنة أستاذ الجغرافية، تفقد معناها. إلى أي شيء تحوّل إذن؟ لقد تحوّل إلى موسوعة علمية متحركة، إلى شخص يعرف كل شيء ـ هذا أعظم ما يطمح اليه. فهو يعرف موقع كل بلد، وعدد سكانه وما هي القوميات التي تعيش فيه، ويتحدث من دون أن يتعثر عن الثروات الطبيعية المفيدة، وعن الاقتصاد والبنية السياسية. فهل يستحق ذلك منّا أن ندرس خمس سنوات؟ ومن دون لف أو دوران، فالجغرافية ليست هي المهنة التي تستحق أن نكرّس لها حياتنا.

يكفي أن تمدّ يدك إلى الكتاب، وتفتح على الصفحة الضرورية لك، لتجد نفسك بنفس مستوى أستاذ الجغرافية الماهر، حيث أنك تعرف أين هذا البلد أو ذاك وأي شعب يعيش فيه، أين تتوضعّ الجبال، وما هي البحار، والمحيطات وكم تحتوي من الجُزُر. على أية حال، أقل ما يمكن أن نجادل فيه هو المجادلة بصدد المهنة. أريد أن أنوه هنا، إلى أن هذه المهنة، وكأي مهنة أخرى، وضعت بصماتها على سفيتلانا. فهي باختيارها أركادي اندريفيتش زوجاً، قد اختارت معطى حياتيا وحيداً: أركادي سيحصل على شهادة

الدكتوراة قريباً جداً، أمّا هي فمعلمة جغرافية بسيطة. لقد أثرت المهنة في علاقتهما: واستعدت سفيتلانا للخضوع.

يبدو أنها وهي الجريئة، النشيطة والمتيّمة قد اختارت عن عمد، ذلك السياج في حياتها، الذي يردّ عنها المصائب الصعبة. ذلك السياج كان أركادي اندريفيتش. علينا أن نقول أنّ سفتيلانا وبالرغم من أنها معلمة جغرافية، فإن أفكارها كانت محكومة بمعادلة رياضية وحيدة. الزوج- الكمان الأول، الزوجة- وراءه، أنظر اليهما، ترى أمامك ثنائياً رائعاً.

كان الحب القائم بين سفيتلانا وأركادي يشبه في البداية العلاقات المنهكة والمتعبة، ولا يشبه أبداً علاقة الحب.

لقد تعارفا، بعد أن تمّ قبول أركادي اندريفيتش في الجامعة معيداً، وبعد أن عمل في المدرسة ثلاث سنوات.

كانت سفيتلانا عند ذاك في السنة الأولى. وتقرر عندهما كل شيء على الفور: تحدثا بصراحة، وصلا الى قناعة حاسمة- إذ أن كل منهما رصد حبه للآخر.

الجموح الطلابي أحاط نفسه بالفرح العنيف، لقد تحابّا، تزوجا، ومن ثم انفصلا بالرغم من أن سفيتلانا وأركادي، إنتظرا بعضهما البعض بفارغ الصبر.

انتظرته سفيتلانا أولاً- حتى أنهى دراسته في الدكتوراة، ثم عادت وانتظرته من جديد حتى كتب أطروحته المنتظرة. بيد أنه بعد أن أنهى أطروحته ودافع عنها، متوجاً ذلك بالاحتفال بنجاحه وبوصوله الى تلك الذروة، لم يذهب ليسجل زواجه رسمياً من سفيتلانا، ولم يصبحا زوجاً وزوجة. لقد جاء الآن دور أركادي في إنتظار سفيتلانا.

قال لها: ليس لدينا الحق، أتفهمين؟ يجب عليك أن تنهي الجامعة. القران- وكان يكرر ذلك بشكل مضجر وممل- ليس الفرح والسعادة فحسب،

بل الواجب أيضاً. فاعترضت سفيتلانا قائلة: واجباتي كلها أمامك، يمكنك استخدامها.

أجابها قائلاً: لا أستطيع، وبشكل أدق، لا أريد. أنا أريد أن أبني أسرتي عن وعي. ولم يكن على سفيتلانا إلاّ أن تذعن. وتكلم أركادي بصوت هادىء، وبشكل مقنع. ألم يكن مرشحا في العلوم الفيزيائية - الرياضية. أما هي فما تزال طالبة.

فكّرت سفيتلانا بمستقبلها وانتهرت نفسها، لأن العلاقة المتبادلة التي ستحكم علاقاتهما قد توضّحت أو تكشّفت لها منذ الآن: إنه مرشح في العلوم الفيزيائية - الرياضة إلى الأبد. وهي - إلى الأبد أيضاً - شخص تابع له، له الكلمة الأولى والأخيرة. والشيء الرئيسي هنا، هو أن سفيتلانا هي التي أرادت أن تكون له الكلمة الحاسمة، ولم تُردها لنفسها. إنه بالنسبة لها كالجدار الذي يحميها من كل شيء، لقد كانت تطمح إلى العيش في ظلّه بهدوء وطمأنينة.

بيد أن هناك شيئاً واحداً، أحزنها قليلاً: إنها حرفيته. ولكن مهما قلنا، فإن أركادي لم يكن حرفياً بالفطرة، بالوراثة، بل نتيجة الطريق الذي اختاره. لقد أصبح هكذا لأنه محب جداً للعمل، ولأنه كان أقل موهبة من أصدقائه الآخرين.

التدقيق في الشكليات، هذه الصفة المزعجة وُلِدَتْ عنده من سمة طيبة، وهي المثابرة أو المواظبة. وكما يقول المثل «الوردة تلد شوكة والشوكة تلد وردة». وهكذا انتظرا، إلى أن أنهى أركادي اندريفيتش دراسته كمعيد. وبعدها انتظرا حتى دافع أركادي عن الأطروحة. وانتظرا مرة أخرى، حتى أنهت سفيتلانا دراستها الجامعية.

وأخيراً حصلا على ما يبغيان، كل شيء أصبح وراءهما، إنهما الآن وحدهما. لدى كل منهما دبلوم. إنهما أحرار كالطيور، وبإمكانهما الآن تسجيل زواجهما.

بيد أن الناس المتزوجين لا يشكلون أسرة بعد. فالأسرة تبدأ مع ولادة الأطفال. وبادر أركادي إلى توضيح المسألة لزوجته وقال بأن الطفل هو مسؤولية عظيمة، ونحتاج إلى قليل من العقل والتبصر لكي نلده في الوقت المناسب، وحسب كل قواعد المسؤولية الإنسانية الحقيقية.

على الطفل أن يكون مؤَمّنا - تابع أركادي اندريفيتش - وعلينا أن لا نحتاج إلى أحد، لكي نخلق الظروف المناسبة التي تؤمن الإستمرار الناجح للنوع.

ولكن الظروف المؤاتية لا تتشكل في الحال ومباشرة بعد حصول أركادي أندريفيتش على الدبلوم. لقد عمل أولاً في المدرسة. ومرت أيضاً سنتان طويلتان جداً، حتى حصل على منصبه الذي انتظره طويلاً: كأستاذ في الجامعة نفسها التي تخرّج منها.

وانتظر بفارغ الصبر نهاية هذه المرحلة التي توجت بالتشكيل النهائي للأسرة الكاملة. وبالحصول على الأجر العالي.

سفيتلانا - صاح أركادي اندريفيتش - إننا لا نعرف كيف تتجه الأمور لاحقاً في هذه الحياة. هلّم نسافر سوية، إلى جهة ما، لكي ننعم بالراحة قليلاً. لنعش معاً ولو للحظة واحدة. ألا نملك الحق في هذا؟ يا إلهي، أي امرأة تعارض مشروعاً كهذا! هناك أشجار النخيل، المياه الرقراقة، الشمس الدافئة، وأنا وإياك فقط. لقد استيقظا تماماً، سفيتلانا وأركادي، وكأن أحدهما يرى الآخر للمرة الأولى. لقد انتهى، وذهب من دون عودة، ذلك العبء الثقيل والمضجر من الإنتظار، وبقيا وحدهما وجها لوجه. إنه تغيّر سعيد، إنهما من جديد يريان بعضهما بعضاً، ومن جديد يحبان بعضهما بعضاً.

التحفظ الصارم، إنكار الذات المتعب، والتدقيق في كل شيء تحت ستار مذهب النفعية - كل ذلك سقط وتحطم، وبدا وكأن ذلك لم يحصل لهما، بدا وكأنهما لم يستنفذا نفسيهما أبداً في الترقب المؤلم لسعادتهما

الخاصة. وعلى شاطىء البحر بقي إثنان فقط، إثنان مملؤان حيوية وشبابا، لوّحتهما أشعة الشمس، لم يكن بينهما أي شيء، لم يكن يجمعهما سوى علاقة الحب، تلك هي السعادة، بل كانت تلك بداية سعادتهما.

يبدو أن كل ما جرى لهما حتى الآن كأنه لا يخصهما، أو لا يعنيهما. ولم يعرفا نفسيهما، عندما نظر كل منهما إلى الآخر. سفيتلانا ـ تلك العنيدة، العاقة التي لا تكف عن الضحك، وأركادي ـ ذلك المقدام المتهور، الذي لا يهمه شيء. البحر هائج وعميق. المطعم صاخب، ويبدو أنه من الممكن أن نُقبل على الشراب بشغفٍ وشوق لا يخلوان من الخطر. الشيء الرئيسي هو الهيام، الهيام الفتيّ الحيوي الذي استسلما له من دون أدنى تحفظ.

من المرعب أن نفكر أنهما اكتشفا نفسيهما من جديد، حيث رأى كل منهما شخصاً آخر أمامه، بعد تلك السنوات العجاف القاسية، وحصلا على السعادة. لقد أحبّا بعضهما البعض.

أردت أن أكتب: بأنهما أحبّا بعضهما البعض كالسابق، ولكني استدركت فجأة في الوقت المحدد. لقد كان ذلك غير صحيح. إنهما لم يتحابّا كالسابق، لقد أحب أحدهما الآخر فحسب.

أمّا أركادي، الذي تعرفه سفيتلانا منذ زمن بعيد، فقد بدا شخصاً آخر. ولم تنجُ سفيتلانا من التغيير أيضاً. وولدت لديهما دوافع غريبة، وداهمتهما بصيرة عجيبة: الكلمات التي قالها أحدهما للآخر سابقاً، والنوايا المحسوبة بدقة لم تندثر والحمد لله، لقد كانت محفوظة، تنتظر مثل هذه اللحظات، حتى تظهر للوجود ثانية. كان أركادي يقاطع سفيتلانا، قائلاً لها بلا نهاية: إنتظري بعد، لدينا متسع من الوقت. بيد أنه، بهذه الثقة، التي لا أساس لها على الأغلب، يمكن أن تصبح جافاً مع الزمن. فالإنتظار لا ينتهي دائماً بالشيء المنتظر. كم عانيا من خيبة الأمل؟ وكم من النوايا الطيبة تُدفن حية.

أفلت كل من سفيتلانا وأركادي من أيديهما سعادة نادرة. فقد أتيح لهما، عبر هذا الإنتظار الجاف، أن يحفظا نفسيهما في هذا الوضع المجمّد. إنه ـ لنعترف بذلك ـ نتيجة تقاطع نادر للظروف. فالناس، على الأغلب، لا يتحملون مثل هذه التجارب.

ما الذي حافظ على العلاقة بينهما؟ إنها المنفعة المتبادلة. من الممكن تماماً أن توجد حالة كهذه. الأول اتخَذَ قراراً أن يكون زعيماً بشكل دائم، والثاني اتخذ القرار نفسه ولكن على أن يكون خاضعاً أو مرؤوساً. ومهما كان الشيء الذي يقترحه القائد هراء، فإن المرؤوس سيخضع له باستسلام ومن دون أي اعتراض. لقد اخترعا الميزان بملء إرادتهما، حافظا على التوازن، واستمر هذا التوازن حتى في أصعب الأوقات. هل هذا خير أم شر؟

ومن يعرف في هذه الأيام أين الخير وأين الشر؟ ولكن الأمور كانت تجري عندهما على تلك الشاكلة. وأخيراً أيقظ الأمير، حلوته النائمة.

خلال تسعة أشهر وبعد العطلة التي قضياها على ساحل البحر الأسود، وضعت سفيتلانا مولوداً. وأطلقا عليه إسم أوليغ.

كان أوليغ الإبن المنتظر، ولذلك كان محبوباً جداً وخاصة من الأم. أما أركادي فكان له رأي آخر أدهش الزوجة. لقد كان يعتني بالطفل ويتولّى إستحمامه يومياً، من دون أن تفلت منه ولو أمسية واحدة. كان يمسح جسم الطفل بلطف، ويجلب له العربة، ويلاعبه ويلاطفه من دون توقف، مفتخراً بهذا الوريث الناشيء.

لم يسع سفيتلانا إلاّ أن تشارك زوجها الفرح والبهجة. إنه أب نشيط، منتبه، يساعد زوجته في الأمور المنزلية، يذهب إلى المخزن حاملاً السلّة بيده، يقف بالدور، ويسرع إلى مخازن الأطفال لشراء زجاجات الحليب والطعام للطفل. إنه لم يكن أباً فحسب بل مثالاً للآباء.

ومن شدة حرصها على هذه الحياة المسالمة الرغيدة النموذجية، كانت سفيتلانا تمتدح زوجها بشتى كلمات الثناء، ولكنها لا تتمالك نفسها في بعض الأحيان .

وكيف إذن؟! يجيبها أركادي اندريفتيش. هل تذكرين؟ لقد أكدت لك أكثر من مرة بأنه يجب علينا أن نكون مستعدين لولادة الطفل، معنوياً ومادياً. وهل تعتقدين أنّ أحدهما لا يرتبط بالآخر؟ أنت مخطئة يا زوجتي الحبيبة. انظري فقط إلى هؤلاء الأزواج الأغرار الذين أصبحوا آباءً معيلين، ومسؤولين عن أسر ولم تنبت لحاهم بعد. دَخْلَهم كله لا يتعدّى - المنحة الدراسية التافهة. يعيشون في مساكن الطلبة، ويجففون حفاضات أطفالهم داخل الغرف مباشرة. عائلاتهم مفصولة بعضها عن بعض، بشراشف شفافة. واعذريني إذا قلت لك أن كل هذا الوضع التافه والباطل يبرّر بالجمل الطنّانة، وبالكلام الديماغوجي الفارغ عن الحب، وبنداء الطبيعة. زوجتي الحبيبة، من الممكن بالطبع كبح نداء الطبيعة، وتوجيهه الى الطريق الصحيح، كما النهر الجبلي الجامع، وهذا ما أثبتناه نحن سوية. أنصتت سفيتلانا إلى زوجها بسرور، وأومأت برأسها موافقة. وهل تستطيع أن لا توافق على هذه البراهين الحكيمة العقلانية؟ لقد كان يعجبه جداً الخوض في هذه المواضيع، ولم يحرم نفسه من هذه اللذة .

وهل تنقصنا الأمثلة على ذلك، حيث الزوج الشاب - الذي لم يجفّ بعد الحليب الذي رضعه عن شفاهه - يخجل من أن يَدْفع عربة الأطفال أمامه. ، إنه غير مؤهل لترك أنانيته الخاصة، كي يقف في الدور، ويغسل الأواني، ويساعد زوجته الشابة. أصغي إليّ يا زوجتي العزيزة، هل يمكننا تفسير معنى تقاسم المعيشة. أنت تعرفين أكثر مني، كم من العائلات قد تفككت وانحلّت، فقط لأن الزوج والزوجة ما زالا شابين بعد، وغير جاهزين للحياة العائلية .

إنه يتمشى في الغرفة جيئة وذهاباً، واضعاً يديه وراء ظهره، وكأنه لا يتكلم مع زوجته في البيت، بل يلقي محاضرة في الجامعة:

ـ أنا مقتنع جداً، بأنه على الإنسان أن يستعد للحياة العائلية. وكلمة (يستعد) تعني يحضر نفسه. لقد بدا لزوجته سفيتلانا أحياناً، بأن الرياضيات قد لامست حتى الآراء الحياتية لزوجها أركادي. كان ذلك أحياناً فقط. إنها لم تذكرها هنا ـ أو بالأحرى تهربت من المماحكات الحرجة. لقد أعجبها أركادي في كل شيء. إننا نُعجب بالشخص إعجاباً حقيقياً، عندما نحبّه بصدق، ولا ننظر إلى صحة أو عدم صحة استدلالاته العقلية، وإنما ندركها كحقيقة في المرجع الأخير. هل قال أركادي اندريفيتش كلمة في غير مكانها، وبغير الحق، وهل كان غير محق ولو بأي شيء. وهل قام بأي شيء ضد ضميره وقناعاته؟ لا.

لقد شاهدت سفيتلانا، كيف أن تقلب المزاج الطلابي الهائج ينقضّ، على الفرح، ويخرج من الأحلام الوردية، مصطدما بالواقع، الشائك والصعب، وكيف تبتلّ وتغرق السفن الورقية من السعادة السطحية تاركة وراءها الأطفال اليتامى، الذين يمكن أن نسميهم وبكل جرأة اليتامى الطلابيين.

اليتامى الطلابيون، إنهم أولئك الأولاد والبنات، الذين كان والدوهم طلاباً، وانفصلوا بعد ذلك. تلاشت الحماسة الأولى، وذاب الحب الأول، ذلك الحب الذي لم يصمد للإمتحان. أما الأطفال، فقد بقوا. يبدو أن أمهاتهم وآباءهم كانوا يقضون أوقاتاً ممتعة ومن دون أية مسؤولية، أحبّوا بعضهم أولاً، وبعد ذلك أمعنوا في المسألة قليلاً، وتوصلوا إلى نتيجة أن ما حصل ليس عن عمد، وأنه لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة.

كان كل شيء عند سفيتلانا حقيقياً. فقد حصلت على كل شيء بالمعاناة والألم. إذا أن الحياة كانت قد اختبرت كل شيء، بالإضافة الى أركادي الصارم أيضاً.

لقد شبّ أوليغ. وعندما كان الحديث يدور عن أوليغ، كان أركادي غالباً ما يُصَرّحْ قائلاً:

- نحن نعيش بهناء ووئام على مختلف الصعد. بيد أنه، ينبغي على أوليغ، عندما يكبر، أن يحصل بنفسه على ذلك.

قالت الأم - ينبغي مساعدته.

فتابع أركادي بحزم - هنا تكمن القضية، يجب عليه أن يرث منا الشيء الأفضل، وأن تصبح تجربتنا بالنسبة له مثالاً يحتذيه.

إنه غالباً ما يستغرق في التفكير، متأملاً في ذلك الوضع. يبدو أنه تذكر نفسه، طفولته وشبابه، كيف ترعرع وحيداً مع أمه. أما أبوه غير المعروف بالنسبة له، الموجود في مكان ما بعيداً عنه، فلم يظهر في حياته أبداً. ولم يساعده أبداً لا بالكلمة ولا بالفعل.

لا ينبغي علينا أن نسخر من ذلك - لأنه يعتبر النقطة الحاسمة في عقيدة أركادي أندريفيتش. وماذا يعني لكم طفل من دون أب؟ لا الكلمات الصارمة، ولا السوط اللاذع، ولا الأيدي القاسية، هذا إذا فهمنا العبارة كما يجب. ولكن إذا تتبعنا الحالة النفسية عند أركادي أندريفتيش يجب أن نعترف، بأن ذلك كان نقطة انطلاقه. لقد تذكر ماضيه، تذكّر مرحلة الشباب التي مرّ بها. وعندئذ، أقسم أركادي أندريفيتش قائلاً: سوف لا أبخل على إبني لا بمدّ يد المعونة، ولا بالنصيحة، ولا بالعقاب. كان أوليغ طفلاً عادياً لا يتميز بأي شيء، ويبدو أنه ورث بشكل رائع بساطه والديه. وكما يحدث غالباً، خرج أوليغ عن الطاعة، عندما كان في الصف الثامن. وفي إحدى المرات، وجّه لأبيه كلاماً غير لائق، فكان من نتيجته أن حصل الإبن على نصيبه من العقاب، وكان ذلك بالنسبة للأب بمثابة إشارة الخطر أو جرس الإنذار.

حاولت سفيتلانا أن تسوّى النزاع، وأن تثير في نفسه الرقة والتسامح،

ولكن من دون جدوى، فأركادي اندريفيتش قد تغيّر وكفّ عن التعامل مع الآخرين، وبدأ يعمل عنده جهاز غير مرئي. خرجت سفيتلانا إلى النزهة هي وأركادي بعد الشجار العائلي. وكان الزوج يكرر بلا انقطاع عبارة وحيدة لا غير: يجب علينا أن نفعل معه شيئاً ما. حتى ذلك الوقت، كانت العلاقات بين أركادي اندريفيتش وسفيتلانا بتروفنا قد عادت إلى مجراها القديم. ولكن مكانه هذه المرة في الجبال، أعلى بكثير، من ذلك المجرى الذي كان سابقاً.

كانت سفيتلانا تُعطي مادة الجغرافية في المدرسة.

وكما تعلمون - فإن سفيتلانا تعتبر زوجها أركادي سنداً لها في كل شيء، ولذلك كانت توافق معه على كل شيء، وحدا بها الى أن تؤمنه على الشيء المقدس الذي كان يجمعهما - هذا الشيء هو واحة الحب. لقد تمّ الحفاظ على الواحة. لنكتف هنا بتثبيت هذه الواقعة.

أركادي وسفيتلانا، أحبا بعضهما بعضاً، وكان هذا الحب يجمعهما، إضافة إلى حبهما لإبنهما أوليغ. كان أركادي أندريفيتش، وبعد أن يبرهن على إحدى النظريات التي تخص حياتهما العائلية، أو بعد أن يبرهن على صواب رأيه الذي لا عيب فيه، غالباً ما يهتف في نهاية خطابه: «باسم حبنا! باسم حبنا!». لقد جمّدت سفيتلانا ونومتها هذه الكلمات تنويماً مغناطيسياً. وبعد فترة قصيرة تحولت هذه الجمل إلى جمل عادية جداً وأصبحت أشبه ما تكون بجمل التعارف - (بإسم حبنا) - عندما يدور الحديث عن العلاقات بين الزوجين، أو عندما يدور الحديث عن علاقتهما بابنهما أوليغ.

تمشيّا طويلاً، هذا المساء. حول حوض الزهور في الحديقة العامة. وكرر أركادي اندريفيتش هذه الجملة البديعة (بإسم حبنا) أكثر من مرة.

- يجب أن أفعل شيئاً ما معه: صاح أركادي أندريفيتش - باسم حبنا لإبننا.

قبل إعلانه هذا كان أركادي قد ألقى خطاباً حماسياً، يمكن أن نحصر محتواه بما يلي:

- نحن لا نملك الحق في أن نسمح لـ أوليغ أن يكرر أخطاءنا، حتى العفوية منها. أنا إنسان ذو إمكانات متوسطة، إني لا أخفي ذلك، وقد سبب لي ذلك الكثير من الألم والعذاب في حياتي. ولا أعتقد أن إبننا أوليغ سيكون متميزاً أكثر منا. ولذلك ينبغي عليه أن يكدح كثيراً. إهتمامه بدروسه، علاقته بالمدرسة، عدم طاعته، ونزوته! إمّا أن نُخضعه، وإما...

- لقد تكلم كثيراً. سفيتلانا هي المذنبة في ذلك، لقد تركته على هواه، الشيء المخيف يقف لنا بالمرصاد: إمّا التعاسة أو المرض أو السجن. لقد تبادلا الرأي حول ذلك. فالمراهقون كثُر من حولنا، وقد تحولوا إلى قطعان مثيرة للشك، يشربون النبيذ في مداخل البيوت، يتعاطون اللعب، ويحدث أحياناً أن يعتدوا على المارّة. كان المستقبل يبدو لهم سوداويا جداً: أوليغ سكران، عابر طريق تافه، وأخيراً الوقوع في قفص الاتهام. فالجرائد تعجّ بمثل هذه القصص.

خرجا من الحديقة العامة، وقد اتخذا قرارا واضحاً وجلياً: النضال من أجل الإبن. أن نرشده إلى الطريق الصحيح، هذا هو المخرج الوحيد الذي ارتآه أركادي اندريفيتش. والطريق الصحيح - هو الدراسة الجيدة.

يُلحق بعض المربين أذىً كبيراً بالأطفال عندما يوحون لهم بأن مستقبلهم رائع وفريد. لا - فالحياة لا تخلو من الصعوبات وليست رائعة، هذا ما أرشده اليه عقله السليم، ذلك هو رأي أركادي اندريفيتش. فالحياة الرائعة الخالية من الصعاب يجب أن نكسبها بالعمل - بالعمل الجهنمي الفظيع. هذا العمل الجهنمي هو ما يشكل جوهر حياة أركادي اندريفيتش. هذا يعني أن أوليغ يجب أن يشبه أباه - ويعني أيضاً أن يعمل بشكل مضاعف، إذ أن الدخول الى المعهد أو الى الجامعة، هو الآن أصعب بكثير من السابق. إن طريق الحياة محدد بشكل واضح فهو يمر عبر المدرسة وصولاً

إلى الجامعة. فالطريق القويم يجب أن يخصّ الوعي والفهم والخضوع والإستكانة. ما الشيء السيء هنا؟ فالحديث لا يدور هنا عن خضوعه لأحد ما، أو لإرادة شريرة، أو لقوّة سيئة، وإنما لأبيه الحقيقي وأمه الحقيقية.

ذلك التمرد، الذي مضى عليه وقت طويل - أصبح في طيّ النسيان - استحال بالنسبة الى أوليغ عتبة حياة جديدة.

أصبح أوليغ لا مبالياً، إذ أنه كان يهز رأسه موافقاً، كلما كلمّه والده بالأمور التي تهمه، وكان ذلك يحدث كل يوم تقريباً بعد عودة والده من الجامعة، إذ كان يقول له:

- عليك أن تختار الكلية التي تريدها فقط وأنا سأساعدك. لا تنس أني أبوك الحقيقي، وفي الوقت نفسه أستاذ في الجامعة. فالحظ لا يحالف أيا كان.

وكانت سفيتلانا بيتروفنا تقوم بدورها أيضاً، فهي لم تتأخر عن زوجها:

- إبني الحبيب!، إبني الغالي! ألا ترى بأننا نسعى من أجلك، ومن أجلك فقط، حياتنا أصبحت محددة وواضحة، ولا ننتظر منها شيئاً جديداً. أما بالنسبة لك فالمستقبل ما زال أمامك. وتحولّت حياة أوليغ إلى مسرحية. إذ أفردوا له دوراً صغيراً متواضعاً لممثل صامت، أو اعتبر كممثل من الدرجة الثانية، يقدّم بعض الأجوبة. أما الشخصيات الرئيسة فكانت الأم والأب. وكان كلامهم يتطابق تماماً مع قوانين الفن المسرحي، تارة يتخذ شكل الحوار، مستعرضاً مختلف الأفكار، وتارة أخرى يأخذ شكل المونولوج الحماسي والواعظ.

كان يبدو لـ أوليغ المراهق أحياناً - في ذلك الوقت كان يعي نفسه بشكل رائع - أنه يوجد في مسرح عجيب، تجري فيه تدريبات لا نهائية للتمثيلية، التي لا مثيل لها.

لقد أدرك سريعاً أن عليه أن يصغي، ويسمع ويوافق - فهو الإحتمال الأفضل - أو يعطي أجوبة غير واضحة - وبعد ذلك يمكنه الخروج من المنزل، ليتنفس الصعداء وليتحرر من تلك الأحاديث السقيمة.

أن تعترض؟ أن تجادل؟ لا فائدة ترجى من ذلك. فالحاجز الأبوي كان صارماً ومنطقياً. وفهم أوليغ بذهنه غير الناضج كلياً بعد، ولكن الحساس إلى درجة جيدة، بأن المقاومة لا تجدي نفعاً. من الأفضل أن تسبح مع التيار، ولا تعارض الأهل فهم دائماً على حق.

- الأب: كيف ستعيش لاحقاً هذا شأنك أنت. واجبنا كأهل يفرض علينا أن نساعدك في بداية الطريق. أيها الصغير أوليغ، إنك لست دائماً قادراً على فهم ماذا يحدث معك، ولا تعرف دائماً كيف يجب عليك أن تتصرّف، ومن الطبيعي أن يمد لك الأهل يد المساعدة.

- الأم: يا حبيبي، ألا تدرك أن هذا هو حبنا لك. نحن نريد لك الخير، وفقط الخير. إنك ستنهي الجامعة، وتجد الفتاة المناسبة وتعيش سعيداً. وحتى يشيب شعر رأسك، هناك قرن من الزمان، وستشكرنا بعد مماتنا للمساعدة التي قدمناها لك في تلك السنوات الغابرة، بثباتنا وصبرنا.

- الأب: الكثيرون يتحدثون في هذه الأيام، بأن دخل العامل أكثر بكثير من دخل الإختصاصي، والمهندس، ومن الطبيب والمعلم أيضاً. أنت موافق يا عزيزي. وأخيراً سوف تنهي المعهد، وسوف تصبح عاملاً. لا أحد يستطيع منعك من ذلك. ولكن عليك أولاً، يا حبيبي أن تنهي المعهد.

- الأم: الدراسة الجيدة فقط، يمكن أن تؤدي بك الى ذلك. ويجب أن لا تخفي عنا شيئاً. وإذا واجهتك أية صعوبات فنحن لن نتأخر عن مد يد المساعدة لك أيضاً. وإذا استدعى الأمر يا صغيري أوليغ، سنجد لك معلمين.

ولم يدع الأب أية فرصة تفوته ليقدم فيها النصائح لإبنه، فعندما كان

ماراً بمحاذاة محلّ لشرب البيرة، هزّ رأسه باستهزاء وقال لإبنه الذي كان هناك:

ـ هل تعجبك هذه المجموعة، هذه الرفقة؟

فأجابه الإبن مذعوراً:

ما هذا الكلام يا أبي ـ وكأنه للمرة الأولى يعرف بأني أتجول هنا، وأتصادق مع هؤلاء المتطفلين.

ـ الأب: أولئك الناس ليس لديهم أية عقيدة! غياب تام للإدراك ومغزى الحياة!

لا يا بني، مهما قلت، فإن مغزى الحياة لا تعطيه سوى المعارف، والرغبة الملحة لتحقيق هذه المعارف.

ـ الأم: يا بنيّ، أنا امرأة، وكنت محظوظة جداً، أنْ التقيت أباك. أنا أحتمي به كما أحتمي بالجبل. ولكني امرأة. فحياة الرجال أصعب بكثير. أنظر الى أبيك كيف يعمل. فالمصير ذاته ينتظرك في المستقبل. لا تنس أنك رجل، وستصبح في المستقبل رب أسرة، حامياً لها. ركيزتها، ومعيلها أيضاً.

ـ الأب: الشيء الرئيسي في الحياة هو أن تكون حياتك الروحية عامرة. يا إبني العزيز: إننا نواجه أحياناً، في مجال الإنتاج المادي ـ أنا أقصد العمال ـ تجليات للحياة الروحية. إن ذهن أو (قوة ادراك) العامل قد ازدادت كثيراً، ولكن مهما قلت، فإن الحياة الروحية الأصيلة العميقة تزدهر وسط المثقفين، وهذا ما برهنه الماضي والحاضر أيضاً.

ـ الأم: وأخيراً، يا ولدي الغالي، لم نشق أنا وأبوك طريقنا عبثاً وسط الأسر البسيطة، ولا نستطيع الآن أن نعود القهقري! ما العمل يا ولدي الحبيب.

بوصوله إلى الصف العاشر، كانا قد وضعا له أستاذين، أحدهما في

اللغة الروسية والثاني في الأدب. أما أبوه فقد ساعده في مادتي الرياضيات والفيزياء. وبقيت مادة التاريخ التي كانت من نصيب والدته. وكلما اقترب موعد الإمتحانات النهائية كانت نصائح الأهل تصبح أقصر، وذات مدلول أعمق.

- الأب: إما أن تنجح وتدخل المعهد، وإلا فلن أعطيك قرشاً واحداً في المستقبل.

- الأم: صغيري أوليغ لقد خلقت لك كل الشروط المناسبة (الجو المناسب للدراسة)، وكل ما تريد من أنواع الطعام. لا نريد منك سوى الدراسة والنشاط. يجب عليك!، يجب!، ويجب أن تفهم أخيراً بأن أباك هو مدرس في هذه الجامعة.

ولم يكن على الإبن أخيراً إلاّ أن يثور على أهله وينتفض بمقدار ما يستطيع، ويقف على رجليه، إذ قال لوالديه:

- أنا لا أعتزم الدخول الى الجامعة، حيث يعمل أبي. أنا أرغب بالتسجيل في معهد العلاقات الدولية.

كان ذلك صدمة للأهل. ولكنهم لم يعترضوا، فالإعتراض كان صعباً عليهم. واختار أوليغ أخيراً معهداً مشهوراً جداً، كانت تُدَرَّس فيه مادة اللغة الإنكليزية، وهي المادة التي يحبها أوليغ جداً. ولكن الأهل، ومن أجل زيادة الضمان، وضعوا له معلّماً باللغة الإنكليزية.

تقلصت الدائرة وأصبح ذلك اليوم، الذي يصبح فيه أوليغ في الجامعة مركزاً للدائرة. وها هي الدائرة تتقلّص أكثر فأكثر - لم يبق إلاّ القليل لامتحانات القبول. كانت نتائج إمتحاناته في الثانوية لائقة تماماً، وحصل على شهادة الدراسة الثانوية بدرجة ممتازة، وتبين أنه درس في المدرسة عشر سنوات من دون أية تجاوزات، واعتبرت عائلته نموذجية، حيث كان المعلمون يعرفون أهله. فالإهتمام الذي أبداه الأهل تجاه إبنهم كان في حده الأقصى.

وكانوا يتابعون دراسته باستمرار عبر المدرسة، وأي انحراف نحو المعدل كان يستدعي منهم تقويمه على الفور. فهو كالحفرة في منتصف الطريق، لا بد من إزالتها.

كان أركادي اندريفيتش، وسفيتلانا بيتروفنا يحبان أن يكررا دائماً، بأن بقاء الحفرة يمكن أن يَشُدَّ إليها الفشل والرسوب.

قدم أوليغ إمتحاناته في المدرسة الثانوية بشكل ممتاز. على أن علامته في مادة الجبر، وهي قليلة نسبياً، لم تؤثّر على مستواه. وأخيراً تنفست أمه الصعداء. بيد أن أركادي اندريفيتش شدّد عليها قائلاً:

ـ ماذا جرى لك، إنه نصف الطريق فحسب، وهو الأسهل أيضاً، لا تقللّي من معنويات أوليغ: عليه أن يجتاز الحاجز الأصعب.

وضاقت الدائرة أكثر ـ والحق يقال ـ لقد أحسّ الأهل بوضوح، بأن الدائرة تضيق بهم أيضاً. وتحوّل حبهم لإبنهم، بشكل طبيعي تماماً إلى مسؤولية عالية تجاه أنفسهم، آخذين على عاتقهم القلق، والإضطراب الشديد، إلى درجة أنه لم يكن هناك شيء واضح؛ فقد اقترب إمتحان القبول في الجامعة، واعتقد الأهل أن أوليغ في أسوأ الحالات، إما أن يفشل في دخول الجامعة وإمّا أن يقع في قفص الإتهام، عندها، إمّا أن يبرؤوه، وإمّا أن يحكموه لمدة طويلة.

تحوّل، التمنّي بالسعادة لإبنهم أوليغ الى اضطراب وهيجان له ولهم. واشتد هذا الهيجان، وهذا الإضطراب العنيف، إلى درجة أنهم لم يجدوا الطريق إلى معهد العلاقات الدولية. ولكن هل يمكن أن نشفع له لدى شخص ما، أن نطلب، أن نركع على ركبنا، إذا تطلّب الأمر ذلك: إعملوا لنا معروفاً، لا تحطموا مستقبل إبننا الوحيد. إن الإنضباط شديد في معهد العلاقات الدولية، وهل يمكن لمعارف أركادي اندريفيتش المساس بهذا الإنضباط. لماذا لا يذهب إلى كلية الاقتصاد؟، بيد أن أوليغ لوّح مهدداً، بأنه

سيدخل عالم السياسة فقط، وتتطلب ذلك جهود أساتذة التاريخ واللغات، بالإضافة إلى اللغة الانكليزية.

يجب أن نُقَدّم المساعدة اللازمة. واستطاع أركادي، عن طريق بعض معارفه أن يجتمع مع من يريد، ويشرح لهم مأساته ومشكلته - وهي أن إبنه يريد أن يصبح دبلوماسياً، ولكن هناك صعوبة جدية في الدخول الى ذلك المعهد المشهور، حتى بالنسبة الى أولئك الذين أنهوا دراستهم الثانوية بامتياز.

لقد وعدوه بتبنّي الموضوع، وبالنظر فيه والسعي. كان ذلك بشكل مراوغ وسلس - وهل هناك طريقة أخرى - ولكن ما هو واضح، هو أنه لا توجد أية ضمانات، كل شيء يتعلق بـ أوليغ، بالطالب الذي يريد الدخول إلى المعهد، وبمعلوماته ومعارفه. فالنجاح هو الضمان الأساسي، أما إذا رسب فلا حول لنا ولا قوة، عندئذ لا نستطيع مساعدته.

هزّ أركادي اندريفيتش رأسه، وقال بحسرة:

ولكنه يريد أن يصبح دبلوماسياً، ألا يوجد مكان آخر ليذهب اليه.

وفجأة انتبه أركادي اندريفيتش إلى فكرة كان عليه أن يتنبه إليها منذ البداية: هل يريد أوليغ فعلاً أن يصبح دبلوماسياً أمْ قال ذلك بالصدفة، لم نحاول أن نغيّر رأيه، وسارت الأمور على هذا المنوال. ولم يحدث أبداً، أنْ كرر أوليغ هذا الطلب أو أن رسم لنا مستقبله. أمرٌ عجيب: عادة من يشرب الخمر، يشعر بثقل في رأسه، وتصبح أفكاره مشوشة، أما هنا فقد جرى كل شيء على العكس مع أركادي أندريفيتش: كانت أفكاره مشحوذة وباتت أكثر رهافة. وتابع تفكيره.

«هل يريد أوليغ حقاً أن يصبح دبلوماسياً؟ على ما يبدو، أننا أنا وسفيتلانا أردنا، وتمسكنا بأول فكرة طرحها الولد. ما الأمر؟ لم يرد أن يذهب الى الجامعة، لأني أنا هناك؟ لقد خدعنا؟ ولكن ما السبب، إذا كان الأهل يريدون الخير؟».

نعم، لقد كان إحساس غامض يعذب أركادي اندريفيتش، وكان يُمني نفسه بالفشل رغم مساعيه الدؤوبة، وإمكاناته في الحذلقة.

كل ذلك من أجل ماذا؟ من أجل إحتجاج غير واضح، وتمرّد هادىء من قبل إبنه أوليغ. هل هكذا ممكن؟

عاد أركادي اندريفيتش من اللقاء. وفي نيتّه قول الحقيقة. تحدث أولاً مع زوجته التي ارتاعت من الإفتراضات الغريبة لزوجها. اعتقد الزوج، بأن زوجته سفيتلانا قد أصبحت غبيّة للغاية من جراء حبها الجارف لإبنها. وقرر، وعلائم الحزن بادية عليه، أن يأخذ على عاتقه ثانية مسؤولية مستقبل إبنه.

وتنفس أركادي اندريفيتش الصعداء. لقد قضى، على هذه التنهيدة، بأن تكون الحاسمة تاريخياً إلى درجة معينة، وخاصة بالنسبة إلى مصير أوليغ.

لا يمكن الإعتماد على أحد بعد الآن، وكان للأب حديث حاسم مع الإبن: بقي للإمتحان ثلاثة أيام. واستمر الحديث لمدة ثلاثة أيام كاملة. لقد توجّب على أوليغ التحضير للإمتحان لفترات طويلة. وحتى الفرص الثلاث التي مُنح إياها، التي كانت مدة كل واحدة منها عشرون دقيقة، قضاها مع الأب الصارم. وهكذا يمكن اعتبار أنّ هذه المدة التي قضاها أوليغ في الدراسة والتي تبلغ ثلاثة أيام، قد اندمجت في مونولوج واحد من دون انقطاع.

عاش هذا الإحساس أو جرّبه أوليغ على الأقل.

بدا لـ أركادي اندريفيتش، بأن الكلمات الأشد توتراً قد قالها في البداية، وخاصة عندما اكتشف بأنه هو المخطىء، حيث لا يخفي إبنه أية نوايا سيئة، فهو يريد بصراحة وصدق أن يُصبح دبلوماسياً. وجرت بعد ذلك، وحسب رأي أركادي اندريفيتش مناقشات بسيطة، ولكن حساسة حول مغزى الوجود.

وهذا الشيء مفسد لأي إنسان وخاصة قبل التجربة الحاسمة.

لقد بَدَتْ الأمور لـ أوليغ بشكل مُغاير. في البداية، إيضاح بعض الأمور السخيفة: هل يريد حقاً أن يدخل معهد العلاقات الدولية. لقد أدرك سؤال والده ذاك، كمحاولة أخيرة لمساعدته في تقديم الوثائق إلى الجامعة، وعندها ستجري الأمور بشكل أسهل. أما الأحاديث الأخرى فقد تحولت إلى ثلاثة أيام من العذاب. وبدا له، بأن ما قاله والده خلال عدة سنوات، سيكرره خلال ثلاثة أيام.

وعلى سبيل المثال، قال الأب بعد أن مضى بعيداً في الحديث:

- إنها كارثة، كارثة. وردّ الإبن قائلاً:

- أية كارثة؟ أجاب الأب:

- إذا لم تدخل الجامعة فهذه كارثة! لأنك ستذهب إلى الخدمة الإلزامية في الخريف، ولن تبدأ من جديد إلاّ بعد مضي ثلاث سنوات! وتصور أن تنهار في لحظات الأهرامات التي كرسنا لها عمرنا. لا، هل تتصور كيف ينبغي أن تحزم أمرك، وأن تحشد إرادتك وطاقتك ومعرفتك وحدة ذهنك؟ من الممكن أن تحمي الإبن من الأب الذي يريد له الشر، ولكن من الصعب أن نبعد الإبن عن الأب الذي يريد له الخير.

أحسّ أوليغ بأن قلبه يتمزّق، وخاصة عندما بدأ أبوه يضرب على الوتر الحساس. وتصبّب عرقا، عندما بدأ أبوه بحديثه اللانهائي. وشحب وجهه، عندما قفز أبوه من على الكرسي، وأخذ يركض في الغرفة مهددا بيديه ومطالباً بالطاعة. إنّ مستقبله - إذا لم يدخل الجامعة - يبدو حالك السواد، وسيقوده مصيره إلى نقطة اللاعودة. الإمتحان، بطبيعة الحال، شيء رهيب، غير عادي، ولكن الإمتحان المقبل بدا لـ أوليغ كنار جهنّم، كمحاكمة، وقراراً حاسماً لا رجعة عنه، سوف يحدّد مصير أوليغ. ولكن الحب أعمى، كما يقال، ولم يلاحظ الأهل، كيف ينقبض ويستسلم إبنهما المداس، المحروق بنار الحب المتحولة الى رماد.

والأسوأ من ذلك، أن الأب مسح نقاط العرق من جبينه، وخرج من غرفة إبنه، وكأنه خارج من عمل شاق وقال لزوجته:

ـ من الأفضل أن نستبق الأمور، وأضاف بعد قليل من التفكير: بإسم حبنا.

ينتج من ذلك، أنه مارس الضغط على إبنه عن سابق تصميم وإصرار، من غير أن يولي ثقته لإبنه أوليغ؟

بدا لـ سفيتلانا بأن هذا الأسلوب التربوي له أساس سيكولوجي عميق: يجب تحضير الولد لمواجهة الأمور الحاسمة قبل حدوثها، وأن نعتصر منه إلى الحدّ الأعظمي كل ما يتطلبه منه الإمتحان ـ الحزم، المسؤولية والحيوية.

ولكن لا، فهما ليسا من الناس الجهلة، إنهما مدرسان، أحدهما في المدرسة والآخر في الجامعة، وهل يصعب عليهما تحديد متى تنتهي التربية ومتى يبدأ الحب، أو متى تنتهي تربية المسؤولية ومتى يبدأ الترهيب. قال الأب لإبنه صباحاً قبل الامتحان:

ـ إنّ ذلك يشبه الموت!

ولكنه أضاف محتضناً إبنه:

لا بأس، لا تقلق، إلى الأمام نحو النصر!

أراد أوليغ، بكل قوته أن يقذف بنفسه على الديوان ويصرخ بملء صوته. ولكنّه قبّل أباه وأمه وذهب إلى الإمتحان.

كان السؤال الأول هو الإنشاء.

جلس إلى يمينه ويساره طلاّب فتيان، نشيطون ومرحون، وتكاد تُسمع أصوات دفاترهم تخشخش تحت الطاولات، فهم ينقلون بجرأة ولكن بحذر.

انغمس أوليغ في التفكير، وبدأ باختيار الموضوع المناسب، وهنا تحديداً، أخذ يعرق ويبرد. لقد بدأ بكتابة أحد المواضيع الذي نال إعجابه، ولكنه تذكر أباه فجأة، وفكر بأنه يجب عليه أن يحصل وبكل تأكيد على علامة ممتازة، وإلاّ الموت. بصراحة: شيء مرعب، هل يمكن أن تتصوروا ما الذي سيحصل في البيت.

لقد كان يحمل قلماً ممتازاً. إنه يجلب السعادة مباشرة، بحيث اضطر لأن يطلب ورقة بيضاء أخرى، بعد أن أصبحت الورقة الأولى غير صالحة، وبدأ كل شيء من جديد.

واستحال الموضوع المعروف له إلى كلمات لا معنى لها، وإلى جمل بليدة. وطار الوقت. وبدأ الطلاّب بتسليم أوراق الإمتحان، ولكن أوليغ لم يتمكّن من كتابة أكثر من نصف الموضوع.

ارتجفت يداه، وشحب وجهه، ولكنه كان يفكر بأبيه طوال الوقت، فقط أبوه لم يبارح ذهنه إطلاقاً. ماذا سيقول؟ ما العمل؟

أعاد أوليغ قراءة ما كتبه ـ حان الوقت لتسليم ورقة الإمتحان، وهكذا توقف عند نصف الموضوع. لقد بدا له الموضوع مشوّهاً، إنه من مستوى الصف السابع: أين الدبلوماسية هنا.

وما كان عليه الآ أن مزّق أوراق الإمتحان.

كان يفكر بأبيه فقط.

محطات القطار في موسكو خانقة ومزدحمة بالناس صيفاً. كل المقاعد مشغولة ومسافرو الترانزيت ينتظرون مرور قطاراتهم.

وسط المقاعد المزدحمة بالناس، ظهر ولد طويل أشقر الشعر، ذو مظهر أنيق.

لاحظ أحدهم بأن هذا الفتى شارد الزمن. وفكّر آخر أيضاً، بأنه لا عمل لهذا الفتى وسط هذه المقاعد.

يدلّ مظهره وشكله على أنه من سكان مدينة موسكو، إنّ باستطاعته الذهاب إلى البيت، فلماذا يتسكع هنا إذن؟

وبدا لأحدهم أن هذا الفتى شاحب ومريض.

بعدها سقط الفتى على الأرض.

قال أحدهم بازدراء:

أنظروا إلى هذا الصغير، فقد شرب حتى الثمالة!

لقد شعر الولد بالغثيان.

نادى أحدهم الشرطة.

ولكن بعض المسافرين الطيبين الذين يريدون الخير للآخرين، أخبروا الشرطة بأن الفتى كان مظهره غريباً، ولم يكن في حالة سكر.

فاستدعوا الإسعاف.

وفي المستشفى أظهر التشخيص بأن لدى الفتى إحتشاء في عضلة القلب.

- إنه أوليـــغ.

- لقد أنقذوه، إنه حي يرزق.

- المعهـــد؟

تلك هي النتيجة، كان ذلك هو الثمن.....

لننتبه مرة اخرى إلى القصة المأساوية التي رواها لنا البرت ليخانوف. لماذا هذه القوة المخلصة، الطيبة، الفائقة القوّة، كقوة محبة الأهل، في حماية الطفل من مختلف المصائب المحتملة، إنها تسحقه أحياناً، وتخنق عنده كل ما هو جيد، وأحياناً، وبكل بساطة، تدمره، «تحرقه»؟

كيف يمكن أن يحصل بأن يسبب الأهل الحريصون جداً على مصلحة طفلهم، الإحتشاء عند إبنهم؟ ولم يدخل أوليغ المعهد، الذي يفتح أمامه

الطريق ليصبح دبلوماسياً. إنه يعرف، بأن هذا الحدث لا يعني دماراً له بقدر ما يعني دماراً لآمال أهله.

إخلاص الأسرة اللامحدود، المبني على القناعة العميقة، بأنه لا أحد يتمنى الخير لـ (أوليغ) سوى الأب والأم، وعلى نفوذهم الذي لا جدال فيه، ولّد ذلك القلق القوي، وخلق ذلك الضغط الإنفعالي، الذي لم يتحمله الجسم الفتيّ.

ماذا يمكن أن نقول، فالحادثة إستثنائية، بل فريدة من نوعها. لو لم يكن نفوذ أو هيبة أهل ذلك الفتى بهذه القوة، لما كان عليه أن يقلق إلى هذه الدرجة بحيث يموت كمداً بسبب فشله، والأكثر من ذلك لم يكن المجال الدبلوماسي حلمه المقدس أبداً؟

وهكذا يرتسم أمامنا منطق معقد للتربية العائلية: الهيبة الزائدة عن اللزوم - تشكل خطراً، والهيبة الأقل من اللازم - أكثر سوءاً. أين هو «المعيار»؟ هذا المعيار لم يضعه أحد حتى الآن ولا يمكن لأحد أن يضعه.

ويقع هذا المعيار على الحد الفاصل بين الوعي والمشاعر، ويمرّ بواسطة خيط غير مرئي عبر عقل وذهن وقلب ومشاعر الأهل.

أن تبحث عن المعيار من خلال درجة هيبة الأهل، ليس صعباً فقط، ولكنه عبث لا فائدة منه. فإذا أردنا الذهاب بهذا الطريق من البحث، فإننا وبغير إرادة منا يمكن أن نجد أنفسنا على الطريق الخاطىء.

لا توجد هيبة زائدة عن اللزوم، ولا هيبة أقل من اللزوم - إنها دائماً واحدة، ولكن كما كتب / أ. س. مكارينكو/، توجد هيبة فعلية، حقيقية، وأخرى كاذبة، غير حقيقية.

سنعرض محاضرة من محاضرات المربي الروسي العظيم مكارينكو، مأخوذة من كتابه «عن هيبة الأهل». إقرأوه، وتمعنوا في المغزى العميق للنصائح الواردة فيه، وسوف تدركون كم هي معقدة آلية تأثير الأهل على الأطفال، وكم هي خطرة عواقب هيبة الأهل الكاذبة.

أ.س. مكارينكــو

عن هيبــة الأهل

(من كتاب «محاضرات في تربية الأطفال»)

تبدأ التربية من ذلك العمر الذي يتعذر فيه إقامة البراهين المنطقية، وممارسة الإقناع، وإعلان الحقوق الإجتماعية، حيث الطفل ما يزال صغيراً. ولا يمكن للمربّي أن يمارس التربية من دون الهيبة.

يكمن مغزى الهيبة في أنه لا يتطلب أية براهين، وتُفهم الهيبة كجدارة الكبير غير المشكوك فيها، وقوته وقيمته كما تراها عين الطفل البسيطة. ويجب على الأب والأم أن يحوزا على الهيبة في عيون أطفالهم. غالباً ما يتردد هذا السؤال: ماذا نفعل مع الطفل إذا لم يسمع الكلمة؟ إذا لم يُطع؟ إنِ كلمة «لا يطيع» تعني أنه ليس للأهل أية هيبة في عيون أطفالهم.

أولئك الأهل الذين «لا يطيعهم أطفالهم» ميالون دائماً إلى تفسير الأمور لصالحهم، قائلين بأن الهيبة هي هبة من الطبيعة، وأنها موهبة فريدة. فإذا انتفت الموهبة فليس باليد حيلة، ويكفي أن نغبط أولئك الذين يحملونها. هنا تحديداً يخطىء الأهل. فالهيبة يمكن أن تُنَظَّم في كل عائلة، وهذا ليس عملاً صعباً على الإطلاق. ويا للأسف، هناك بعض الأهل الذين يقيمون هيبتهم على أسس كاذبة. إذ أنهم يسعون بالدرجة الأولى إلى فرض الطاعة على أولادهم، وهذا هو جلّ ما يريدون. إنه الخطأ بعينه. فالهدف يجب أن يكون واحداً وهو التربية الصحيحة. ويجب أن نسعى إلى تحقيق هذا الهدف. وتشكل هنا طاعة الأطفال إحدى الطرق للوصول إلى ذلك الهدف.

يسعى أولئك الأهل الذين لا يفكرون بالأهداف الحقيقية للتربية، للحصول على الطاعة من أجل الطاعة. حيث يهنأ لهم العيش، في هذه الحالة، وينحصر هدفهم في هذا الهناء من العيش. ولكن التجربة تثبت أن لا الطاعة ولا الهناء يدومان طويلاً. فالهيبة المرتكزة على أسس كاذبة، تساعدنا فقط لأجل قصير جداً، وسرعان ما يتهدم كل شيء، ولا يتبقى لا طاعة ولا هيبة. ويحصل أحياناً أن ينحصر المسعى الأساسي للأهل في خلق الطاعة عند أطفالهم. على أن أهداف التربية الأخرى تأتي في الدرجة الثانية: صحيح أن الأطفال يكبرون ويطيعون، لكنهم ضعفاء.

هناك أنواع عديدة من هذه الهيبة الكاذبة. وسوف نبحث هنا بالتفصيل عشرات من هذه الأنواع على الأقل. ونتمنى أن تتوضّح الصورة لنا بعد ذلك الشرح، ونتوصل إلى معرفة الهيبة الحقيقة. لنبدأ.

١ ـ الهيبة المرتكزة على القمع:

إنه أحد أنواع الهيبة المخيفة ولكنها ليست الأكثر ضرراً ـ وأكثر من يتأذى من هذا النوع من الهيبة هم الآباء. إن الأب الموجود في البيت، الذي يرغي ويزبد دائماً، ويحنق، ويستشيط غضباً بسبب أمور تافهة يقوم بها الطفل، ويسارع إلى العصا مهدداً عند كل حالة، بغض النظر إن كانت تستدعي العقاب، أم لا، ويجيب على أسئلة إبنه بفظاظة، ويعاقب طفله على كل خطيئة، تلك هي هيبة القمع. فالأسرة بأكملها تعيش على أعصابها من جراء هذا الإرهاب الأبوي. إن هذا النوع من أنواع الهيبة يسبب الضرر ليس لأنه يُرعِبُ الأطفال، ولكن لأنه يضع الأم على الهامش وكأنها كائن غير موجود، وتنحصر وظيفتها في القيام بخدمة الأسرة. وأظن أنه لسنا بحاجة إلى البرهنة كم هو ضار هذا النوع من أنواع الهيبة. إنه لا يربّي شيئاً لدى الأطفال. إنه يعلمهم فقط على أن يتحاشوا لاحقاً الآباء الظالمين، ويعلمهم الكذب، والجبن، ويربي عندهم القساوة في الوقت نفسه. يخرج

من هؤلاء الأطفال المظلومين، ضعيفي الإرادة، أناس إما تائهون لا يصلحون لشيء، وإما طغاة يحاولون طوال حياتهم الإنتقام لطفولتهم المقموعة. هذا النوع الأكثر همجية من أنواع الهيبة يُلاحظ فقط عند الأهل غير المثقفين، ولكنه، لحسن الحظ، أخذ يتلاشى في الأيام الأخيرة.

٢ ـ الهيبة المرتكزة على البعد (ترك مسافة بين الأهل وأولادهم):

هناك بعض الآباء، وحتى الأمهات، ممن يعتقدون جدياً، بأنه لكي يترعرع الأطفال مطيعين، عليهم التقليل من الكلام معهم، والإبتعاد عنهم، والظهور عليهم، بين الفينة والأخرى بمظهر المسؤول. غالباً ما يكون الأب منعزلاً، له غرفة خاصة، يخرج منها بين الفينة والأخرى ككاهن من الدرجة الأولى. فهو يتناول طعام الغداء منفرداً ويتسلى وحده، حتى أوامره لأسرته، ينقلها عبر الأم. ويوجد أيضاً، بعض الأمهات اللواتي لديهن حياتهنّ الخاصة، واهتماماتهن وأفكارهن، حيث الأطفال يدورون عندها في فلك جداتهم أو مربياتهم.

لا يمكن أن نقول إلاّ أن هذا النوع من الهيبة لا يجلب أية فائدة.

٣ ـ الهيبة المرتكزة على الكبرياء المتعجرف:

إنه نوع خاص من أنواع الهيبة المرتكزة على البعد، ولكنه على الأرجح، الأكثر ضررا. يعتبر بعض الناس أنفسهم شخصيات محترمة ومهمة جداً، ويُظهرون هذه الأهمية في كل خطوة من خطواتهم، يظهرونها حتى لأطفالهم. فهم يتشدقون في البيت أكثر من مكان العمل. ويتحدثون فقط عن مآثرهم، ويتعالون على الناس الآخرين، وغالباً ما يحدث، في هذه العائلات أن يبدأ الأطفال في التكبّر جرياً على عادة آبائهم. ويبدأ هؤلاء الأولاد بالتشدّق أمام زملائهم بكلمات التبجح، ويكررون دائماً وأبداً: أبي مدير، أبي ـ كاتب، أبي قائد، أبي شخصية مشهورة. في جو الغطرسة هذا

للأب المتفاخر أن يفهم إلى أين يسير أطفاله، ومن يربّي. هذا النوع من الهيبةنصادفه عند بعض الأمهات: فستان جديد، معارف مهمة، سياحة الى شاطىء البحر - كل ذلك يعطيها الأساس من أجل التكبّر، ومن أجل الإنفصال عن الناس الآخرين، وعن أطفالها أيضاً.

٤ - الهيبة الناتجة عن التدقيق في الشكليات:

يُعير الأهل إنتباههم، في هذه الحالة، إلى الأولاد، ويعملون كثيراً، ولكنهم يعملون كالبيروقراطيين، وهم على ثقة من أن أطفالهم، يجب أن يطيعوا كل كلمة من كلماتهم من دون تردد، وإنّ كلمتهم هي شيء مقدس.

وهناك ميزة ظريفة تميزهم، وهي أنهم يعطون أوامرهم بكل برود وهدوء، وبمجرد انتهائهم من إعطاء الأمر، يتحولّ إلى قانون. إن هؤلاء الآباء مرهوبو الجانب، ولا يتجرأ الأطفال على التفكير بأن آبائهم قد أخطؤوا أو أنهم كانوا قساة معهم. فإذا ما قال الأب: «غداً سيهطل المطر، النزهة ممنوعة» فإنه حتى وإن كان الطقس جيداً في اليوم التالي، فإن الأطفال يعتبرون أن النزهة ممنوعة. وإذا لم يعجب الأب هذا الفيلم السينمائي - فإنه يحظر على أولاده دخول السينما، بغض النظر عن أنواع الأفلام التي تعرض في السينما. إذا ما عاقب الأب طفله، واكتشف بعد ذلك بأنه غير مذنب، فإن الأب لا يغيّر من عقابه شيئاً: طالما قلت ذلك، هكذا يجب أن يكون. يجد هؤلاء الآباء ما يكفيهم من الأعمال خلال النهار، فهم يرون في كل خطوة يخطوها أطفالهم مخالفة للنظام والقوانين، وعندئذ يرهقونهم بالقوانين والأوامر. وتمرّ حياة الطفل واهتماماته ونموه من دون أن يلاحظها الأب: فهو لا يرى سوى قيادته البيروقراطية في العائلة.

٥ - الهيبة المرتكزة على الوعظ:

يضيق الأهل جداً في هذه الحالة على حياة الأطفال بارشاداتهم ونصائحهم اللانهائية. بدلاً من أن يقول الأب أو الأم للطفل بعض

الكلمات، وحتى بصيغة طريفة، يجلسون أمامهم، ويبدؤون معهم كلاماً مضجراً ومملاً. إن هؤلاء واثقون جداً بأن رأس الحكمة التربوية موجودٌ في هذه النصائح. ويندر الفرح والإبتسامات في مثل هذه العائلات. ويسعى الأهل بكل ما في وسعهم أن يكونوا طبيعيين، ولا يريدون أن يخطؤوا في عيون أطفالهم. ولكن يغيب عن بالهم، بأن الأطفال ليسوا أناساً كباراً، ولهم حياتهم الخاصة، ويجب علينا احترام هذه الحياة. فالطفل أكثر انفعالية وأكثر شغفاً من الكبار. وأقل ما يشغل باله هو المحاكمات العقلية والمناقشات. وعادة التفكير يجب أن يتملكها الطفل بالتدريج وببطء، أما التشدق الدائم للأهل في الكلام، والثرثرة الدائمة، فهي لا تترك أثراً يذكر في وعي الأطفال.

ولا يمكن للأطفال أن يروا في وعظ الأهل أية أهمية.

٦ ـ الهيبة المرتكزة على الحب:

إنه النوع الأكثر إنتشاراً من أنواع الهيبة الكاذبة. يعتقد الكثير من الأهل، بأنه يجب على الأطفال لكي يطيعوا أن يحبّوا أهلهم، ولكي يكون الأهل جديرين بهذا الحب عليهم أن يظهروا في كل خطوة من خطواتهم حبهم لأطفالهم.

الكلمات اللطيفة، القبل اللانهائية، البشاشة والامتنان، كل ذلك ينهال على الطفل بكميات زائدة. وإذا صادف أن رفض الطفل أحد الأوامر، يسألونه مباشرة: (هذا يعني أنك لا تحب البابا؟)، ويتابعون بغيرة زائدة التعابير التي ترتسم على وجوه أطفالهم، ويطالبونهم بالرقة والمحبة. غالباً ما تلجأ بعض الأمهات، وبحضور الأطفال الى التحدث مع الجيران الحديث التالي:

«إنه يحب أباه بشدة، ويحبني كثيراً أيضاً، إنه ولد لطيف جداً. . . .».

غالباً ما تغوص هذه الأسر في بحر من العواطف والمشاعر الرقراقة، بحيث لا تلاحظ أي شيء آخر. ولا ينتبه الأهل إلى الكثير من الأمور الصغيرة في التربية العائلية. على الطفل أن يعمل كل شيء بسبب حبه لأهله.

يحمل هذا الإتجاه مخاطر كثيرة. فهنا تترعرع الأنانية العائلية، وليس عند الأطفال المقدرة، على مثل هذا الحب. وسيلاحظون سريعاً، بأنه يمكنهم بكل سهولة خداع أمهم وأبيهم، شرط أن يجري ذلك بعبارات رقيقة. ويمكنهم أيضاً أن يلقوا الرعب في قلوب أمهم وأبيهم، بمجرد تجهمهم أو حتى إظهار أن حبهم بدأ يخبو.

يتعلم الطفل منذ الصغر، إسترضاء الناس ومداراتهم لكي ينال حظوتهم. وحيث أنه لا يمكنه أن يحب كل الناس بشكل قوي، فيمكنه أن يتودد اليهم من دون أي حب، وبكل برودة واستهتار. ويحصل أن يحتفظ بحبه لأهله لفترة طويلة، ولكنه ينظر إلى الناس الآخرين كناس غرباء، ولا يحمل تجاههم أي عطف أو مشاعر بالحنّو.

إنه نوع خطير من أنواع الهيبة، لأنه يُنشىء ضمن الأُسرة أُناساً أنانيين كاذبين.

٧ ـ الهيبة المرتكزة على الطيبة:

هذا نوعٌ أحمق من أنواع الهيبة تنقصه الحكمة والعقل. تمرّ طاعة الأطفال، في هذه الحالة، أيضاً عبر حب الأطفال، ولكنه لا يُستدعى بالقبل وإبداء العواطف، وإنما بالتساهل واللين وبطبيعة الأهل، حيث يظهر الأب أو الأم أمام طفلهم، مثل ملاك طيب. فالأهل هنا يسمحون بكل شيء ولا يأسفون على شيء، فهم ليسوا بخلاء، إنهم أهل رائعون جداً. إنهم يخافون نشوء النزاعات، ويفضلون السلام داخل الأسرة. وهم جاهزون لكي يُضَحّوا بأي شيء شرط أن تسير الأمور بسلام فحسب في هذه العائلة. وبعد

أن يكبر الأطفال قليلاً، يتعلمون بسرعة إعطاء الأوامر لأهلهم، ويفتح تساهل الأهل أمامهم مجالاً واسعاً لتحقيق رغباتهم ومتطلباتهم ونزواتهم.

يحاول الأهل أحياناً إبداء مقاومة ولو بسيطة، ولكن من دون فائدة، فالوقت قد فاتهم، والخبرة الضارّة قد تجسدت في العائلة.

٨ - الهيبة المرتكزة على الصداقة:

يحدث أحياناً أن يتفق الأهل، قبل أن يولد أطفالهم، بأن يكونوا وإياهم أصدقاء. إن ذلك جيد عموماً. الأب يصادق إبنه، والأم تصادق إبنتها، ولكن الأهل يبقون الأعضاء الكبار في العائلة الذين يقومون بالتربية، والأطفال يبقون صغاراً ويخضعون للتربية.

إذا ما تخطت الصداقة حدودها، فإن التربية تتوقف وتبدأ عملية عكسية: يبدأ الأطفال بتربية آبائهم. يمكننا أن نلاحظ مثل هذه الأسر وسط المثقفين. ينادي الأولاد في هذه الأسر آباءهم بأسمائهم، ويهزأون منهم، ويقاطعونهم بخشونة، ويقاطعونهم في كل خطوة من خطواتهم، ولا يمكن أن يتناول الحديث أية طاعة مهما كانت.

ولكن، كما نلاحظ، لا توجد هنا أية صداقة، فأية صداقة غير ممكنة من دون الإحترام المتبادل.

٩ - الهيبة المرتكزة على الرشوة:

هذا نوع لا أخلاقي من أنواع الهيبة، حيث يتم شراء الطاعة بالهدايا والوعود الطيبة. فالأهل لا يخجلون من القول: إذا سمعت الكلمة فسوف أشتري لك حصاناً، أو سنذهب إلى السيرك. ولا تخلو العائلة، على الأرجح من بعض أنواع التشجيع الأخرى، مثل منح الجوائز، ولكن من الخطأ الفادح إعطاء جائزة لطفل جزاء طاعته، وجزاء علاقته الطيبة، بأبويه. من الممكن أن نقدم له الجائزة على دراسته الجيدة، وعلى قيامه بعمل

صعب تُكَلِّفه إياه. ولكن لا يجب علينا، بحال من الأحوال أن نعلن عن الجائزة سلفاً أو نحث الأطفال على عملهم بالمدرسة أو خارجها لقاء وعود مغرية. لقد تعرفنا على عدة أنواع من الهيبة الكاذبة إذ أنه يوجد الكثير من هذه الأنواع أيضاً. هناك الهيبة المرتكزة على المرح، الهيبة المرتكزة على سعة الإطلاع، والهيبة المرتكزة على الجمال.

ولكن الذي يحدث، هو أن الأهل لا يفكرون إطلاقاً بأي نوع من تلك الأنواع، ويعيشون كيفما اتفق، ويتمهلون ويبطئون في تربية أولادهم. اليوم مثلاً اغتاظ الأب وعاقب إبنه بسبب شيء تافه، وغداً يعترف له بالحب وبعد غد يعده بشيء ما أو بهدية ما رشوة له، وفي اليوم التالي يعاقبه ثانية، وحتى انه يذكره أيضاً بالأعمال الطيبة التي قام بها تجاهه. يبدو هؤلاء الأهل في عجلة من أمرهم، دائماً كالمجانين، وبعجز تام وبعدم فهم مطلق لما يفعلون.

ويمكن أن يحدث بأن يتمسك الأب بنوع من أنواع الهيبة، وتتمسك الأم بنوع آخر. ينبغي على أطفال هذه الأسرة أن يكونوا دبلوماسيين، ويتعلّموا المناورة تارة بإتجاه الأب، وتارة أخرى بإتجاه الأم.

ويحصل أيضاً أن لا يولي الأهل أي اهتمام لأطفالهم، حيث يفكرون فقط براحتهم الشخصية. مم تتألف الهيبة الحقيقية للأهل؟

يكمن الأساس الرئيسي لهيبة الأهل في حياتهم وعملهم وشخصيتهم وسلوكهم. الأسرة هي عمل كبير ومسؤول، يترأسه الأهل، ويتحملون مسؤوليته أمام المجتمع، أمام سعادتهم وأمام حياة أطفالهم. إذا قام الأهل بهذا العمل بشرف وإخلاص وبعقلانية، وإذا ما وضعوا نصب أعينهم أهدافاً رائعة وذات أهمية عظيمة، وحسبوا حساباً لكل شيء في أعمالهم وأفعالهم - فهذا يعني أنهم يحوزون على هيبة الأهل، ولا يجب البحث عن أية أسس أخرى ولا ينبغي ابتداع أي شيء إصطناعياً.

بمجرد أن يبدأ الأطفال بالكبر، يبدؤون بالإهتمام بعمل أبيهم أو أمهم، وبوضعهم الإجتماعي. يجب أن يعرف الأطفال وبسن مبكرة قدر

الإمكان، كيف يعيشون، وما هي إهتمامات أهلهم، ومن هم جيرانهم. يجب أن يبرز عمل الأب أو الأم أمام الطفل كعمل جدّي، ويستحق الإحترام، وأن تكون فضائل الأهل في عيون أطفالهم قبل كل شيء، فضائل أمام المجتمع، وذات قيمة حقيقية، ولا تقتصر على المظهر الخارجي فحسب. ومن المهم أن يرى الأطفال هذه الفضائل بشكل غير معزول وغير مجرد. يجب أن تعلم أنك أب، بالإضافة الى أنك مواطن - ويجب عليك أن تقوم بعملك الأبوي على الوجه الأحسن، وهنا تكمن جذور هيبتكم. عليك أن تعرف، قبل كل شيء ما هي إهتمامات طفلك، ماذا يكره، ماذا يريد، وما لا يريد. عليك أن تعرف من هم أصدقاؤه، ومع من يلعب، وبماذا يلعب، ماذا يقرأ، وما هي درجة إستيعابه للمقروء. أما إذا كان طفلك في المدرسة، فعليك أن تكون بصورة الوضع المدرسي، ماذا تعني المدرسة بالنسبة له، وكيف يتعامل مع المعلمين، ما الصعوبات التي يواجهها، وما هو سلوكه في الصف. هذه المعلومات يجب أن تكون في حوزتكم دائماً، حتى وإن كان ولدكم صغيراً بعد. لا يجب عليكم أن تتفاجأوا بمختلف المساوىء والإشكالات، بل يجب عليكم أن تتنبأوا بذلك وتحاولوا منع وقوعه.

كل هذا عليكم معرفته، ولا يعني ذلك على الإطلاق، بأنه يمكنكم متابعة الولد بالأسئلة الدائمة، والمضجرة، وبالمراقبة الرخيصة والملحاحة. عليكم منذ البداية أن تهيئوا الوضع، بحيث يبوح لكم أولادكم بأنفسهم، وعن طيب خاطر، بأي شيء يحدث معهم، وبحيث تكون عندهم الرغبة، والقناعة أيضاً بأن معرفتكم لما يحدث معهم ضرورية. يجب عليكم أن تدعوا إليكم أحياناً رفاق إبنكم، وعليكم الحضور إلى تلك الأسر، التي ينتمي إليها رفاق إبنكم، ولذلك عليكم أن تبادروا عند أول فرصة إلى التعرف الى تلك الأسر.

ولا يتطلب منكم ذلك الوقت الكثير، يلزمكم فقط الإنتباه الى أولادكم وإلى حياتهم.

أما إذا نشأت عندكم تلك المعرفة وذلك الإهتمام والإنتباه، فهذا لا يمر من دون أن يلاحظه الأطفال، فالأطفال يحبون معرفةً كهذه ويحترمون أهلهم على ذلك.

١٠ ـ الهيبة المرتكزة على المعرفة:

الهيبة المرتكزة على المعرفة تعود بالضرورة إلى الهيبة المرتكزة على المساعدة. توجد في حياة كل طفل كثير من الحالات، لا يعرف فيها كيف يتصرف، ويحتاج إلى النصيحة والمساعدة. ومن المحتمل أن لا يطلب منّا المساعدة، لأنه لا يقدر على القيام بذلك، عندها يجب علينا أن نهبّ لمساعدته بأنفسنا. يمكن أن نقدم له هذه المساعدة، غالباً، عبر النصيحة المباشرة، أو عبر طرفة من الطرف، أو في سياق حديث ما، أو حتى عن طريق الأمر. إذا كنتم تعرفون حياة طفلكم، فإنكم سترون بأنفسكم كيف سيسلك بالشكل الأمثل.

يجب علينا أن نمدّ يد المساعدة، وهذا ما يحدث غالباً، بأسلوب خاص جداً. ويتوجب علينا في بعض الأحيان إمّا أن نشارك الطفل ألعابه، وإما أن نتعرف على أترابه من الأطفال، وإمّا أن نذهب إلى مدرسته للتكلم مع المعلم المسؤول. إذا كانت العائلة كثيرة العدد فإن الأخوة الكبار أو الأخوات، يمكن أن يشاركوا أهلهم في مساعدة إخوتهم الأصغر.

يجب أن لا تكون مساعدة الأهل ملحاحة ومضجرة ومُتعبة. ينبغي على الطفل في بعض الحالات أن يتخلّص من الصعوبات بنفسه، وعليه أن يعتاد على تخطي الصعاب، ويعالج المسائل الأكثر صعوبة. ولكن من الضروري أن نرى ونتابع كيف سيقوم الطفل بهذه العملية، وألاّ نجعله يصل إلى نقطة الإرتباك والتشوش، لكي لا يصاب بالإحباط. ومن الضروري، أحيانا، أن يرى الطفل ويشعر بشدة حرصكم وانتباهكم وثقتكم بقواه.

١١ ـ الهيبة المرتكزة على المساعدة:

تكتمل هذه الهيبة بالهيبة المرتكزة على المعرفة. سوف يشعر الطفل بوجودكم إلى جانبه، وباهتمامكم العقلاني به، بحمايتكم له، ولكن سيعرف في الوقت نفسه أنكم تطلبون منه شيئاً ما، وأنكم لا تنوون أن تقوموا بالأعمال نيابة عنه، أو أن ترفعوا عنه المسؤولية.

إنّ نهج المسؤولية يعتبر بالتحديد، النهج الهام التالي لهيبة الأهل. يجب أن لا يعتقد الطفل بأيّ حال من الأحوال، بأن إشرافكم على الأسرة، وعليه هو نفسه، هو نوع من التسلية أو الترفيه. يجب أن يعرف بأنكم لستم مسؤولين عن أنفسكم فقط أمام المجتمع وإنما عنه أيضاً. على الأهل أن لا يتهيبوا مصارحة إبنهم أو إبنتهم بأنهم خاضعون للتربية، وعليهم تعلّم الكثير بعد، ويجب أن يكونوا مواطنين شرفاء وأناساً جيدين.

وأن الأهل مسؤولون عن بلوغ ذلك الهدف، ولا يخافون من تحمل هذه المسؤولية. لا يكمن في نهج المسؤولية هذا مبدأ المساعدة فحسب، بل مبدأ الطلب أيضاً. يمكن للطلب في بعض الحالات أن يكتسب شكلاً قاطعاً، لا يسمح بأي اعتراض. ويجب أن ننوّه إلى أن هذا الطلب يمكن أن يفيد فقط فيما لو كانت الهيبة المرتكزة على المسؤولية قد تشكلّت عند الطفل. يجب على الطفل حتى في سنوات عمره الأولى أن يشعر بأن أهله لا يعيشون معه على جزيرة غير مأهولة.

ومع نهاية المحاورة الثالثة نجمل ما ورد فيها:

ـ الهيبة ضرورية في الأسرة:

ـ يجب أن نميز الهيبة الحقيقية عن الهيبة الكاذبة، المؤسسة على المبادىء الإصطناعية التي تسعى إلى خلق الطاعة بأية أساليب كانت.

ـ الهيبة الحقيقة ترتكز على نشاطنا كمواطنين، على مشاعرنا، على معرفتنا لحياة الطفل، على مساعدتنا له، وعلى مسؤوليتنا تجاه تربيته.

المحاورة الرابعة

من أين تبدأ التربيــة؟

دار الحديث في المحاورات السابقة حول أهداف التربية والسمات «الحقيقية» للأهل، والجو السيكولوجي للعائلة وتكتيك التربية العائلية. أما الآن فينشأ السؤال التالي. بشكل شرعي ومنطقي تماماً: متى ومن أين تبدأ التربية؟

النصف الأول من السؤال واضح: من الطبيعي أن تبدأ التربية منذ ولادة الطفل، بالرغم من أن المقدمات من أجل ذلك تظهر قبل وقت طويل من ولادته. النصف الثاني ليس واضحاً جداً، كما يبدو من الوهلة الأولى.

هناك بعض الأمهات والآباء، الذين يحلمون وهم جالسون بالقرب من المهد، بمستقبل أولادهم، ولا يرضون بأقل من عالم رياضيات مثل لوباتشيفسكي، أو عالم كيمياء مثل مندلييف. الشاغل الرئيسي لهولاء الأهل هو تطور إبنهم الذهني. ويقرر البعض الآخر بأن إبنهم الراقد على السرير سيصبح كاتباً أو موسيقاراً أو شاعراً. وستحاول هذه الأسرة قدر استطاعتها أن تجعل إبنها يختلط بأجواء الأدب والموسيقا، أراد ذلك أم لم يرد.

لسنا بحاجة إلى تكرار القصة المعروفة عن الرسومات الهزلية، التي بطلها ولد صغير مربوط بالسلاسل إلى البيانو أو إلى جهاز آخر، وترتسم على وجهه علائم الرعب والكراهية بدلاً من الحماسة والإلهام.

هناك آباء وأمهات لطفاء (بالإضافة إلى الجدات والأجداد)، حيث ينحصر همهم الرئيسي في إطعام أولادهم، أو بالأحرى تسمين أولادهم الى

درجة تبعث عندهم الإعجاب ببدانتهم. تشكل السلامة الجسدية بالنسبة لهم - شيئاً معبوداً، يجب أن تخضع له كل العائلة. نريد أن نحذر الأهل من الوقوع في مطبّ النظرة الأحادية الجانب، وإظهار إحدى الجوانب، على حساب الجانب الآخر من جوانب التربية. إن وحدة وترابط التربية الجسمانية والعقلية والأخلاقية والجمالية ضرورية بقدر ما هو ضروري أيضاً لطف الكبار واهتمامهم، من المهم فقط أن لا تستبق الأمور، ولا نقفز فوق قدراته النفسية والجسدية. ومن المهم هنا أيضاً أن لا نخلط بين مختلف المفاهيم: فالإهتمام بالتغذية، على سبيل المثال، لا يعني أبداً التربية الجسمانية، والبدانة ليست مؤشراً مطلقاً على الصحة السليمة. فالتطور الذهني المبكر لا يضمن لنا بَعْدْ دراسة ممتازة، والميول الإبداعية، للأسف لا تشكل شخصية إبداعية.

إن تربية الأطفال الصغار لها نظامها. مهما أردنا ومهما سعينا إلى صياغة كل جوانب الشخصية، فإننا يجب أن نبدأ من الإهتمام بالتطور الجسماني. جميعكم تتذكرون المثل القائل: (العقل السليم في الجسم السليم)، وهو يصلح بشكل خاص للأطفال الصغار الذين لم يدخلوا المدرسة بعد، فالطفل الصحيح الجسم والمتين القوي، يتطور بشكل ممتاز في كل الإتجاهات.

لا تمر الأمراض من دون أن تترك أثراً. ومن الممكن أن تترك أثراً يمتد لعدة سنين، أو تترك علامة، تكون سبباً في معاناة الطفل على صعيد الإرادة والذاكرة. ومن الممكن أيضاً أن يتأخر التطور العام بما في ذلك التطور الأخلاقي. لقد كتب / ف. آ سوخوملينسكي/ : «أنا لا أخاف من التكرار مرات ومرات: العناية بالصحة هي عمل المربي الأهم. إن كل الأمور الأخرى، كالتطور الذهني ومتانة المعلومات، والثقة بالنفس، ترتبط بحيوية الأطفال ونشاطهم. إذا أردتم معرفة مقدار إهتمامي بالأطفال على مدى السنوات الأربع التي قضيتها في التعليم، فإن نصف هذه المدة قضيتها في

الإهتمام بصحة الأطفال[1]» كلما كان إهتمام الأسرة بصحة أطفالهم وبتطورهم الجسماني أبكر، كانت النتيجة أكثر فعالية. فالطبيعة تَفْعَلُ فعلها على الأرجح: سيمتلىء الجسم، وسيزداد طول الطفل، وستمتلىء عضلاته قوةً. الغذاء الجيّد يقوّي الجسم ويساعده في التغلّب على مختلف الأمراض.

بيد أن الأطفال يمرضون أحياناً حتى عند توافر الظروف الجيدة، ويتأخرون في التطور حتى عند الأهل الحريصين على أطفالهم، أو يكون نموّهم ناقصاً بالرغم من وجودهم في أسر رائعة. يجب علينا هنا ألاّ «ننتظر الرحمة من الطبيعة»، وأن نتعامل مع هذا الأمر بشكل عقلاني، وبتدبير، وبشكل منهجي. ولكي تكون الفكرة أكثر وضوحاً، إسمحوا لنا أن نوجّه إنتباهكم إلى خبرة أبوين غير عاديين، هما «لينا الكسييفنا» و «بوريس باڤلوفيتش نيكيتين». إن إسرتهما التي تضمّ تحت جناحيها الكثير من الأطفال هي محط أنظار علماء التربية والأطباء، والصحفيين، بالإضافة الى الأهالي. فالأهل قد شرعوا بتجربة جريئة فحواها التطوير الجسماني للأطفال. إليكم على كل حال مقالة لينا وبوريس التي تتضمّن تجربتهما في تربية الأطفال.

لينا وبوريس نيكيتين

التربية البدنية منذ المهد.... وحتى قبل

(فصل من كتاب «نحن وأطفالنا»)

الجمباز قبل الولادة

ولكن، ما هي الأهمية، على سبيل المثال، التي تحوز عليها حركة الطفل قبل الولادة إن كانت قليلة أو كثيرة؟ ونحن من جهتنا لم نقم وزناً لهذا الشيء، ولكننا أبدينا دهشتنا من أن أولادنا قبل ولادتهم غالباً ما يدفعون

---

(١) ف. آ. سوخوملينسكي. قلبي أعطيه للأطفال. كييف/ ١٩٦٩ ص ٨٧.

بقوة. وفكرّنا: يا لهم من كثيري الحركة. وبما أن الأسرة كبيرة العدد، فإنه يجب تحضير الطعام، خياطة الملابس، وغسيل الثياب، وكما ترون فإن أعمال البيت عند الأم كثيرة جداً.

الرابطة هنا لا تبدو وثيقة فحسب، وإنما مباشرة. إذا كانت الأم تشتغل باستمرار بالعمل الجسدي، وتتحرك كثيراً وبنشاط، فإن تشبع الدم بالأوكسجين ينخفض عندها. تبدأ بالتنفس السريع، وتزداد دقات قلبها. وماذا نستطيع أن نفعل للجنين الذي يحسّ أو يشعر أيضاً بنقص الأوكسجين. فهو يبدأ بدوره بالحركة، وتزداد دقات قلبه وهذا يزيد من كمية الدم الواردة إليه من الأم. ويحصل على الأوكسجين بقدر ما يتطلب.

وتتكرر هذه اللوحة تماماً، إذا ما حدث نقص في المواد الغذائية في دم الأم (يحصل ذلك، عندما لا تريد الأم أن تأكل). وهنا أيضاً يبدأ الجنين بالحركة (ويحصل عندها على خبز يومه).

لقد قام الباحثون بحساب دقيق لحركات الجنين، بعد الغداء بحوالي / ١،٣٠ - ٢ ساعة/ وتوصلوا إلى أن الجنين يقوم بعدة حركات تتراوح بين الثلاث أو الأربع حركات في الساعة، أمّا إذا مرّ على الأم عشر ساعات لم تأكل خلالها، فإنه يتحرك من / ٥٠/ حركة الى / ٩٠/ حركة في الساعة.

إن الفروق كبيرة كما تلاحظون.

عند قيامه بهذه الحركات، كما في أي تمرين، تتطور عضلاته وتكتمل، وتصبح أكثر متانة، بالإضافة إلى قلبه وجسمه.

يبدو أن نصيحة المرأة التي تنتظر مولوداً بأن تأكل كثيراً، وترتاح كثيراً هي نصيحة خرقاء. لا يتحرك الجنين كثيراً عند الطعام الكثير وقلّة الحركة، وهذا يعني أنه «لا يتمرّن».

ويرى النور غير مكتمل فيزيولوجياً.

حسب معطيات البرفسور / ي. آ. آرشافسكي/ ، فإنّ عدد المواليد

غير المكتملين فيزيولوجياً يزداد عاماً بعد عام. لقد تجنبنا هذا الخطر مصادفة (إن لم يكن كلياً، فبنسبة كبيرة منه). وعشنا في منزل لا توجد فيه أسباب الراحة، حيث كنا نقوم بكل الأعمال المنزلية بأنفسنا، لذلك توجب على أمنا شاءت أم أبت أن تتحرك كثيراً. وبالتالي «تمرّن» الصغار قبل ولادتهم.

من دروس خاصة

أصبح المولود الجديد الآن في البيت. متى يبدأ تطوره الجسدي وكيف، إذا كان لمسه ممنوعاً في الأيام الأولى؟

عرفنا بالتدريج، بأن الطفل في صغره متين أكثر مما نتصور. تلعب الثياب الخفيفة دوراً لا بأس في تطور عضلاته، فالطفل الصغير سيتعرض للبرودة ما دام مستيقظاً، وخاصة إذا كان لباسه خفيفاً، وستتقلص عضلاته بشدة مما يكسبه بعض الحرارة. ويسمي الأطباء هذه العملية بـ«إرتفاع الضغط في عضلات المواليد حديثاً». فإذا لجأنا إلى لفّ الطفل قصد تدفئته، فإن هذه القوة الحيوية تنخفض فجأة، وتسترخي العضلات. هذا يعني أن العضلات تبدأ بالتمرّن منذ الأشهر الأولى بفضل البرودة. ولكننا بدأنا بالرياضة البدنية منذ الأيام الأولى. كانت الأم دائماً هي المدرب الأول في الأسرة. وهذا مفهوم فهي التي تداعبه أكثر من الجميع وتحسّ بمشاعره، ولذلك فإن باستطاعتها تحديد إمكاناته ورغباته بدقة. ولكني سارعت منذ البداية إلى مساعدتها في كل شيء، وشيئاً فشيئاً أخذت على عاتقي «واجبات التدريب» أكثر فأكثر.

لم تنحصر مهماتي كمدرّب فقط، وإنما إتسَعَ نطاق نشاطي ليشمل بناء منشآت رياضية في البيت وفي الفناء، وكنت أقوم بتحكيم بعض المسابقات الرياضية، وأشارك فيها بنفسي أحياناً.

لقد قمت بتسجيل جدول مفصل يشمل نتائج التطور الجسدي

لأطفالنا منذ ولادتهم. وكتبت في دفتر يومياتي كل إنجازاتهم وكل خطوة لهم إلى الأمام.

وباختصار، فقد كانت التربية البدنية في العائلة هي شغلي الشاغل. بيد أننا نساند بعضنا البعض، ونفرح كثيراً بالإكتشافات التي نقوم بها.

لقد لاحظت الأم، على سبيل المثال، بأنه إذا تعاملنا مع الصغير بشكل حيوي، فإنه كردّ فعل، يبدأ بحركة نابضية، مقلصاً عضلاته. أما إذا لاعبناه ناقلين إيّاه من يد الى أخرى، وإذا قلبناه بشكل لطيف جداً، فإن جسدة يبقى مسترخياً وخاملاً. بعد أن رأيت كيف تتعامل الأم مع الصغار أصبحت أكثر جرأة في التعامل معهم، وبدأت أشعر كيف يصبح الأطفال أكثر متانة مع مضيّ الأيام، إذ يحصل خلال اليوم الواحد أن نأخذ الصغار ونلاعبهم عشرات المرات، حيث لا توجد أية رياضة خاصة يمكن مقارنتها مع هذا التمرين اليومي باستمراريته وبتواتره، وبتقلص كل عضلات الجسم. وليس من الضروري أن تخصص لهذا التمرين وقتاً خاصاً. علينا أن نكون حذرين فقط، لكي لا يتحول التعامل الحيوي والنشيط مع الصغير إلى تعامل خشن وفَظّ ومضجر بالنسبة له وللحاضرين أيضاً.

وحتى قبل أن نعرف عن وجود الكثير من الإرتكاسات الحركية الفطرية، لاحظنا، بأن الصغير في بعض الأوقات «خاصة قبل الطعام» يحاول أن يمسك بأصابع الكبار. وهذا يحدث بالضبط في الأيام الأولى والأسابيع الأولى من حياة الطفل. وبعد ذلك اكتشفنا، وسط دهشتنا، بأن الطفل منذ البداية يمكنه أن يتعلق ممسكاً بيد أمه وأبيه.

بدأنا تدريباتنا مع الصغير، بحيث كنا نجعله يمسك إصبعنا بقبضة يده نشده إلينا بعد ذلك، حتى يجلس. ونكرر العملية، نجلسه، وبعد ذلك نجعله يستلقي، ومن جديد نجعله يستلقي. لم تترك هذه العملية أثراً سيئاً عند الطفل، بالرغم من أنه لا يستطيع التحكم برأسه بعد، فهو يميل إلى الوراء

عند جلوسه. أمّا نحن فقد سررنا لأجله وأصبحنا أكثر جرأة. وبحلول الشهرين أصبح بمستطاع الصغير الوقوف عن طريق تمسكه بإصبع اليد، ويجب أن ننتبه هنا إلى نقطة هامة، وهي أننا نحس بشكل جيد مدى قدرته على التمسك.

يُنصح عادة بإعطاء الطفل عربة أطفال ليتمسك بها وليمشي وراءها. يتمسك بها الطفل بشكل قوي، ولكن هذه العربة، بالنسبة لي، لا تخلو من الخطر: إنك لا تشعر بالمتانة التي يمسك بها الطفل العربة. أمّا الأصابع فإنها تستشعر تلك القوة بسهولة، وحالما تبدأ يد الطفل بالإرتخاء (خلال مدة من ٥ ـ ١٠ ثا، حيث تزداد بعدها)، فإنك تستطيع وبسهولة أن تجعله يرقد ثانية. تساعدك هذه الطريقة على التحديد السهل لإمكانات الصغير، بحيث تخضعه كل مرة للحمل المناسب عندما يتمسك بأصابع الأب أو الأم.

واكتشفنا مصادفة أيضاً، أنه إذا وضعنا رأس الطفل على الكتف، وأمسكناه بإحدى يدينا من صدره، ووضعنا الأخرى تحت أرجله، فإنه يثبت قدميه بسرعة على راحة الكف. يبدو أن «الإرتكاس الإرتكازي» قد اشتغل، إذ قوّم الطفل رجليه وشدهما بحيث حملَ عليهما كل وزن جسمه.

لم نكن نعي عندها بأن فعلنا هذا يمكن أن يطور عند الطفل الإرتكاسات الفطرية، ويحول كل تلامس معه الى حركة رياضية مستمرة وفاعلة.

هيّا إقفز عن السرير!

ما أن بلغ عمر الصغير ثلاثة أشهر، حتى أصبح يمسك بقوة بأصابع أبيه وأمه، ويتعلق بهما بثقة (ڤانيا، على سبيل المثال، تعلق حوالي / ٤٣/ ثانية قبل الغداء).

وأدخلت بعدها إلى نظام الحياة اليومية تمريناً إضافياً، إذ توقفت عن

إنزال الطفل عن السـرير عن طريق حـمله إلى الأرض. وبدلاً من ذلك أصبحت أمد له يدي لكي يتمسك بها. وكان ذلك إشارة له تعني «تمسك بقوة». يتثبت الصغير بكلتا يديه، أرفعه بعد ذلك من على السرير. ولزيادة الحيطة، كنت أمسك يد الطفل بأصابعي الأربعة الباقية. عندها تصبح متانة القبض مضاعفة.

تقول لينا نيكيتين: أردت التنويه إلى أني لم أستخدم هذه الأساليب التي تستخدم في السيرك فقط (وذلك حسب تعابير جدتي). وإنما كنت أفضلّ أن آخذ الطفل، كالعادة من تحت إبطيه. لماذا؟ لأن ذلك الأسلوب بدا لي خشناً بالنسبة للنساء غير المؤهلات لذلك. على أنّي كنت مسرورة دائماً لأن هذه الألعاب تتيح للأب والإبن لذّة دائمة، وتجلب لهما فائدة أكيدة. أظهر الأب إهتماماً متزايداً بالإبن ووجد لغة خاصة للتعامل مع الصغير. لغة الرجال، هذه ضرورية للصغير، لكي نتلاقى النتائج الحتمية للتربية النسائية، كالأنوثة، وعدم الجرأة، وبشكل أساسي من أجل حفظ أو صون التربية. لم ندرك ذلك مباشرة، لقد شعرنا بشكل حدسي، بأن العلاقة المتنوعة بالطفل لا تلحق به الضرر. ولم يعق أحدنا الآخر بالقيام بما يحلو له بالتعامل مع الطفل. كان يحدث أحياناً، أن أرتاب من إختراعاته الدورية، ومن سخريته أحياناً من التحبب الأمومي، أو الحنان الأمومي، ولكن لم ترتق خلافاتنا إلى درجة النزاع.

كنّا نرى بأن الطفل يرتاح مع أمه ومع أبيه أيضاً. وهذا يعتبر بالنسبة لنا شيئاً رئيساً. يقول بوريس نيكيتين: بعد أن تمكنْ الصغير من الطريقة غير العادية في رفعه من على السرير، اخترعت طريقة جديدة، وأصبحت أرفع الطفل بيد واحدة من يده وغالباً ما كنت أرفعه من يده اليسرى. كنت أقدم له سبابتي وخنصري فقط، وأطوي الأصابع الأخرى. كانت يده الأخرى، تقوم عند ذلك بدور الوقاية. لقد تحوّل هذا التمرين مع الزمن الى لقطة

حقيقية من لقطات السيرك. كان الصغير يقف في البداية، على رجليه في السرير، وبعد ذلك يقرفص قليلاً، ومن ثم يقفز إلى فوق. لقد كانت حركة يدي متزامنة مع حركة رجلي الطفل، حيث اتحدت قوانا، وتحولت الى طيران سهل مندفع. وعلى ما يبدو أن الطفل الصغير بدأ يقفز بنفسه من على السرير إلى يدي. إن الإنطباع بسهولة هذه القفزة حدا بالجدّة إلى نعته بالسيركي (من كلمة سيرك). لقد تأقلم الصغير إلى حد كبير مع هذا النوع من اللعب، والأطفال حتى سن الخامسة تقريباً يستخدمون هذه الألعاب بكل سرور.

هل يمكنكم أن تحسبوا الآن كم مرة أرفع الولد عن السرير وأعيده اليه ثانية؟ عشر مرات، خمس عشرة بل عشرون مرة أحياناً. هذا العمل للكبار طبعاً، ولكن الذي يحصل لدينا هو أن الطفل الصغير يخضع لتمرين فعّال، انه يتوتر ّكلية، ولا تتطور عضلات يديه فقط، بل عضلات ظهره أيضاً وبطنه وصدره.

هذا النوع من التعامل يعجب الطفل كثيراً، فيداه تصبح متينة بشكل أسرع، وهنا (المصيبة) - إنه يعتاد على أن يطلب دائماً يد أبيه، إنه يريد دائماً ودائماً أن يتمسك بها، يقف ويجلس إنّ ذلك ممتع - ويبدو أنه سيستمر بالقفز طوال النهار. ولكن. . . . ماذا سيحصل لنا نحن الكبار؟ لقد اخترعت بديلاً: قمت بتثبيت عصا خشبية على السرير، بحيث يستطيع الطفل أن يطالها وهو راقد. وهكذا حصلت إبنتنا ذات الثلاثة أشهر على عارضة خشبية كأول هدية لها، وصنعت خصيصاً لها. ووضعت لها عارضة شبيهة بهذه في عربتها. في البداية ساعدنا الصغيرة بعض الشيء على تلمّس العارضة، وسندنا أرجلها بأكفنّا لكي تتمسك بها وتستطيع الجلوس والوقوف. بعد هذه المحاولة أصبحت تقوم وتجلس قدر ما تستطيع.

ولّد أحد التمارين التي ابتكرتُها عندها رضاً بالغاً: تقف الطفلة في العربة، أسحب العربة بوساطة العارضة الخشبية، مما يؤدي إلى إهتزازها

بشـدة، لقـد ولّد عندها هذا اللعب فـرحـاً لا يوصف. بيـد أن هذه المحـاولة تركت عند الآخرين الشعور بالخوف والقلق. «هل رأيتم في حياتكم طفلاً في الشهـر الثالث يقف على رجليه، بل أنه يهتز بشدة، ألا ترون أن أرجله ضعيفة ـ تلتوي من الوزن» ـ الكثيرون قالوا هذا، من غير أن يلاحظوا أن أرجله ويديه وظهره تتآزر، وبذلك يتوزع وزنه على عضلات جسمه.

وبدا أن ذلك ليس مخيفاً إلى تلك الدرجة، بل على العكس، يساعد على التطور الصحيح، للعضلات والعمود الفقري. لقد أصبحت أيدي أطفالنا منذ الصغر متينة وقوية، بل مستقيمة أيضاً ومتناسقة.

ما فائدة الحبـو؟

بات السرير بالنسبة للطفل معروفاً طولاً وعرضاً. وعلى الأرض المغطاة بشرشف كبير نسبياً، يكمل الطفل محاولاته في استيعاب وإدراك الفضاء الجديد بالنسبة له ـ الطفل يبدأ بالحبو. ونحن سنسمح له على الفور ـ عندما يصبح باستطاعته أن يترك البساط ويحبو على الأرض بالقيام برحلة في كل أنحاء المنزل. يبدو هذا (التحرر) مفيداً جداً لتطوير آلية الحركة. إنها مسافة هائلة «بالنسبة للطفل» التي يجب أن يقطعها إن أراد الذهاب إلى أمه في المطبخ أو الى أبيه في الورشة، إنه عمل صعب جداً ليديه ورجليه وحتى لقلبه، وهل يمكن مقارنة هذه الحركة بالحركات الصغيرة جداً التي كان يقوم بها في السرير.

ينظر حوله ويتساءل: ما هذه الأبواب ذات المقابض المرتفعة جداً، التي لا تريد أن تتحرك مهما بذلت من قوىً. ولمن هذه الأرجل الكبيرة التي تخطو بالقرب مني أو تقف في طريقي، هل يمكنني التعلق بها؟ وكأن كل هذه الأشياء قد صُمّمت وصنعت لعمالقة فقط. مهما حاول التقاط الكرة، فإنه لا يستطيع، لأن يده تنزلق عنها ومهما حاول أن يبعد الكرسي عن طريقه، فإنه لا يتزحزح من مكانه.

إنها حـالة صعبة جداً على الإنسان الصغير في هذا الوضع الجديد بالنسبة له، المجهول وغير المفهوم. بيد أن هذه الصعوبات، على ما يبدو، هي من أكثر محركات التطور جبروتاً. أما إذا وُجد بالقرب منه، أبوه أو أمه، أو إخوته وأخواته الذين سيقفون إلى جانبه ويدعمون إرادته في حال إخفاقه، فإن الصغير سيظهر، إصراراً مدهشاً ومثابرة لا نظير لها في مثل هذه السن في تخطّي هذه الصعوبات.

ولكي نعلّم الطفل الوقوف على رجيله، جلبنا هيكل سرير قديم قابل للطيّ، ووضعناه في منتصف الغرفة على السجادة. تمسك الصغير بقضبان السرير (كما في سريره) وأصبح بإمكانه النهوض والمشي حول السرير من دون أن يفلت من يده نقطة إرتكاز بمثابة عنصر أمان له. كانت تلك المجموعة الثانية من التمارين الرياضية، التي استوعبها صغيرنا. أما لاحقاً، في عمر الثمانية أشهر، فإنه سيواجه مجموعة من التمارين الرياضية الحقيقية، التي توجد أدواتها هنا في الغرفة (الحلقات العوارض، حبل يتدلّى منه كيس مليء برمل للملاكمة، سلّم، حبل أفقي يمتد عبر كل الغرفة الرياضية وهناك أشياء أخرى). لقد أنزلنا من مستوى إرتفاعهم فقط، ليتمكن الطفل من بلوغهم، بل ساعدناه أحياناً في التقاط الحلقة التي تفلت من يده.

في هذا الجو المليء بالأخوة والأخوات يتأقلم الصغار بسرعة ويبدؤون بالحركة بحرية في أنحاء المنزل. ومن الطبيعي، أن يجد الصغار أنفسهم في ظروف أفضل بالمقارنة مع الباقين الأوائل: لقد ازدادت الخبرة عندنا، وظهرت مجموعات جديدة من التمارين الرياضية، وحظي الصغار بمعلمين أكثر - الأخوة الكبار والأخوات. أثّر ذلك في تطور الصغير بشكل ملاحظ وانعكس على أساليب حبوه. وحصل عندنا خط بياني فريد من نوعه.

تعلّم الطفل الأول الطريقة العادية في الحبو حيث ارتكز على ست نقاط: يديه، ركبتيه وأصابع رجليه. أما الثاني فقد تدبّر أمره في الحبو على الركبة اليسرى فقط، أما الركبة الأخرى فقد وضعها على الأرض، هذا يعني

أنه مشى معتمداً على خمس نقاط إرتكاز، أما الباقون فقد انتقلوا بسرعة الى نقاط الإتكاز الأربعة.

هذا يعني أنهم لم يمشوا فحسب، وإنما ركضوا أيضاً من غير أن يلمسوا الأرض بركبتهم. إذا قمنا بمقارنة أساليب الحبو تلك، فإن قلّة الخبرة تبدو واضحة للعيان، فالنوع الأخير أكثر اكتمالاً من الأنواع الأخرى. فهو يسمح بالتنقل بشكل أسرع ولكنه يتطلب الكثير من الحذاقة والقوة والتحمّل. هذه الطريقة في الحبو يمكن أن يستعملها الطفل المتين والكثير الحركة، ذو الحركة المتوازنة، والقدرة على تحديد الإتجاهات في المكان بسرعة.

يحسب البعض أن الحبو لا يشكل طوراً إلزامياً في تطور حركة الطفل. هناك بعض الأطفال، لا يمرون بهذا الطور، ومشيتهم ليست أسوأ من الآخرين. ولكن هناك بعض الحالات التي يضطر فيها الأطفال الى الزحف بسرعة ولمدة طويلة وخاصة في الألعاب والتمارين الرياضية. فالحبو صعب جداً على الذين لم يعتادوا عليه: إذ يتم هنا إستعمال مجموعة أخرى من العضلات. عدا ذلك فإن اليدين تتطوران وتصبحان أكثر قوة عند الحبو. عموماً، الحبو رياضة رائعة من أجل التدريب الشامل للطفل، وتحضير رائع للمشي اللاحق.

نتعلم المشي و....... السقوط

تُدخل خطوات الطفل الأولى الفرح إلى قلوب الجميع: كباراً وصغاراً. وكم نعيش لحظات من الهلع والإضطراب... والجدات والأمهات هن أكثر من يخاف: وإذا وقع فجأة؟ ليس مخيفاً إلى هذه الدرجة إن وقع على السرير، أما على الأرض الصلبة؟ ويساعدونه ويعلمونه المشي بحيث لا يسقط: يمسكونه بيده، من ياقة معطفه، من قميصه، ويستمر هذا العمل على هذه الشاكلة حتى يتعلم الطفل المشي.

من يستفيد من هذه الطريقة في التعلّم؟ الكبار بالطبع، لأن ذلك يجعلهم أكثر اطمئناناً. أمّا بالنسبة للصغير؟ فإنه يجني فائدة ضئيلة للغاية من هذه المساعدة.

فحركاته مقيّدة، ولا يشعر بإمكاناته، ولا يتعرّف على مخاطر المشي وحيداً ولا يتعلم أبداً. . . . السقوط. «وهل يتوجب على الطفل بأن يتعلم السقوط؟» هذا سؤال مشروع. والجواب هو بالتأكيد لأن الجدة أو الأم لا يمكن أن يتواجدا إلى جانبه دائماً، والطفل عندئذ معرض للسقوط دائماً، وخاصة عندما يركض أو عندما يلعب لعبة تتطلب الحركة، وغالباً ما توجد حالات لا يمكن فيها تفادي السقوط. هذا يعني أن الرضّ القوي والإصابة تكون عند الطفل الذي لا يعرف كيف يسقط، أما الطفل الآخر المتعلّم فإنه ينجو إلاّ من بعض الخوف، على أنه لا يقيم وزناً للأشياء الأخرى.

الرياضيون وخاصة لاعبو السامبو، والبهلوانيون، ولاعبو الجمباز، ومتزلجو الجليد، والمظلّيون يتعلمون السقوط: يتكتلون ويشدّون عضلاتهم ويخففون الصدمة عن طريق السقوط على أرجل نابضيّة وعلى الأيدي وعن طريق التدحرج.

ولكن الممتع هنا، هو أن الأطفال يتعلمون هذه الأساليب في سنوات عمرهم الأولى - بشكل أسهل بكثير من الكبار، ومن دون تعليم خاص - إذا سُمح لهم بذلك بالطبع.

إنّنا كثيراً ما نرى أطفالنا يسقطون بشكل حاذقٍ جداً، ويتحكمون بجسمهم بشكل جيد، ونحاول أن نتذكر: كيف بدأ هذا؟ إننا لم نعلمهم هذا الشيء بالضبط. . . . .

ولكننا بالمقابل لم نقف في طريقهم، لم نعقهم، وهنا تكمن المسألة. لقد تركناهم يَحْبُونَ في سنٍ مبكرة على الأرض، سامحين لهم بالتجول في أرجاء المنزل، ولم نحاول أن نمنع أي ولد من أن يجد له نقطة ارتكاز،

لينهض جسمه قليلاً عن الأرض، وبعد ذلك. . . . يسقط. يحاول الأطفال الوقوف والتمسك بأي شيء عشرات بل مئات المرات في اليوم. وتنتهي الكثير من هذه المحاولات بالفشل - السقوط. لقد قام أطفالنا بهذه المحاولات بشكل حاذق جداً ولكن مضحك إلى حد ما. ذلك أن الولد، إذا ترنّح الى الخلف، يتجمع على نفسه بيسر (كالمطواة تماماً) ومن ثمّ يجلس على مقعده على الأرض. أما إذا ترنحّ إلى الأمام، فإنه يمد يديه إلى الأمام، ويصبح على الأربعة. عندما تكون يداه قويتين، فإن أنفه وجبينه لا يلامسان الأرض، لأن يديه تلعبان دوراً مخمداً كالنوابض. ولا يكترث الطفل لهذه السقطات، في أكثر الأحيان، حتى أنه لا يكاد يخاف ويُكمل رحلته وكأنّ شيئاً لم يكن. لم نعط نحن وطفلنا أهمية لهذه السقطات ولم نخف منها كثيراً. ولكن ذات مرة انتابنا خوف عظيم.

اضطررنا إحدى المرات أن نترك الصغير وعمره تسعة شهور عند جدته طوال النهار. بعد عودتي إلى البيت، ومن دون أن أتخذ الإحتياطات اللازمة، وضعت الطفل على الأرض وسط الغرفة. وهنا شاهدت لوحة غير عادية على الإطلاق. لقد خطا «اليوشا» إلى الأمام عدة خطوات، توقف بعدها ومن ثم ترنّح إلى الخلف وشرع يسقط. كان سقوطه غريباً بالنسبة لي، فهو قد وقف باستقامة وأرجع رأسه إلى الوراء، ولذلك اصطدم رأسه بقوة على الأرض. ما الأمر؟ أنا لم أفهم أين ذهبت حذاقة الصغير في السقوط؟

وانكشف السرّ في اليوم التالي، عندما حضرت الجدّة إلى عندنا. لقد ظهر بأنها كانت تخاف على «اليوشا» من الوقوع لأنه حديث المشي، ولذلك كانت تمشي وراءه كل النهار بحيث أنها كانت تسنده من الخلف عندما يترنّح إلى الوراء. ويبدو أن الصغير اليوشا لم يحتج إلى أكثر من يوم واحد لكي يستبدل أسلوبه في الدفاع ضد الكدمات، بإسلوب آخر هو الإعتماد على

جدته. وكانت النتيجة رضةّ قوية في قفاه. وأقنعتنا هذه الحادثة أكثر بأن نمتنع عن مثل هذه (المساعدة).

توجب علينا أن نفرح كثيراً بعد ذلك، لأن أطفالنا وفي اللحظات الحرجة (التعثر، الإنزلاق فقدان التوازن، . . . . الخ)، كانوا يتخلصون من الوضع بسهولة مدهشة. إليكم أحد الأمثلة. كنت أنا وابنتان من بناتي نركض مسرعين على طريق إسفلتي. فالظلام قد أقبل، ويجب علينا أن نسرع لكي لا تذوب بأيدينا المثلجات التي اشتريناها لتوّنا. ركضت البنت الصغرى ممسكة إحدى أصابعي، أما البنت الكبرى، ولها من العمر ست سنوات، فكانت تسبقنا بعدّة خطوات. وكان كل عدّاء يحمل بيده الاسكيمو (نوع من البوظة مغمور بالشوكولا). وكنا نعدو بكل قوانا: فالبوظة بدأت بالذوبان. وفجأة تعثرت البنت الكبرى وهي في قمّة عدوها فأسرعت لنجدتها: يااللفظاعة! سيتهشم وجهها إذا ما اصطدم بالإسفلت. ولكنها عندما بدأت بالسقوط، نجحت في أن تحني جسدها كالقوس، وأولّ ما سقطت على ركبتيها ومن ثم على بطنها وعلى صدرها بعد ذلك، وفي هذه اللحظة وضعت يدها الممدودة إلى الأمام على الأرض، حيث لعبت دور النابض وامتصت قوة إندفاع الجسم. وهنا وثبت برشاقة، وبإنتصار أرتنا الأسكيمو: إنه سليم معافى، لم يُمَسّ بأذى. لقد انتابني الخوف على وجه إبنتي من أن يصطدم بالأسفلت، أما هي فيبدو أنها قلقت على مصير المثلجات، وحتى أنفها لم يتلوث بالغبار. وعلي كل حال نحن ساعدنا صغارنا على تعلّم المشي، ليس بتركهم فقط في غرفة الرياضة، حيث يجدون هناك الكثير من نقاط الارتكاز. فقد كنا نقدم لهم المساعدة، نجعلهم يمسكون بإصبعين من أصابعنا لمساعدتهم على المشي. كانت هذه الأصابع في البداية قاسية ومتينة، وكان الطفل يمسك بها بقوة ويمشي معي ومع أمه أو إخوته الكبار متجولاً في كل أنحاء المنزل. بعد عدة أيام، وعندما بدأ الطفل يمشي بثقة، أصبحت إحدى هذه الأصابع فجأة غير متينة، بدأ تهتز،

وتتحرك بالإتجاه الذي تشدّه إليها، وبذلك لم تعد تصلح بأي حال من الأحوال ركيزة جيدة.

توجب على الطفل أن يحافظ على توازنه باستعماله يداً واحدة فحسب، فتراه متشبثاً بإصبع واحدة (قاسية)، وتاركاً الأخرى تماماً، لأن فائدتها أصبحت قليلة. وبعد مرور بعض الزمن، أصبحت، الإصبع الثانية أيضاً أقلّ متانة ولا تفي بالغرض. وأصبح الصغير بالرغم منه يعتمد أكثر فأكثر على قواه، وبدأ يمشي وحده بالتدريج.

كان باستطاعة الطفل أن يستغني تماماً عن نقاط الإرتكاز، ولكنه لا يقرر أبداً متى سيبدأ خطوته الأولى، لأنه يخاف من الوقوف وحيداً. هكذا حصل معنا في تجربة الإبن الأول.

أعطوه أي شيء الى يده - هكذا نصحتنا الجدة - إنه سيتسلّى ويكفّ عن الخوف.

لقد مددت له ورقة من الأوراق. أخذها بيده الحرّة - وتمسك باليد الأخرى بإصبع أمه. لقد شغلته الورقة تماماً، ومن دون أن ينتبه أخذها بكلتا يديه. استطاع في المرة الأولى أن يقف لمدة دقيقة. أما لاحقاً فقد جرت الأمور بيسر وسهولة. وبمساعدة قطعة الورق أيضاً، استطاعت إحدى بناتنا أن تخطو خطوتها الأولى، لقد مشت، ممسكة بقطعة الورق كنقطة ارتكاز. وهكذا مشت بنفسها.

لن نمسك أطفالنا بأيديهم لاحقاً ونقودهم، كما هو شائع عادة، وإنما على العكس، هم الذين يتمسكون، إن أرادوا بإصبعي أو بإصبع أمهم. لقد تدربت أيديهم بالتدريج وأصبحت قوية إلى درجة أنهم إذا تعثروا يتعلّقون بالإصبع ولا يسقطون أرضاً. هذه الطريقة مريحة جداً بالنسبة للإنسان البالغ، لأن الإصبع يمتلك حساسية مدهشة، ويعرف إن كان الطفل يمسك بقوة أو لا، ما هي درجة ثقته بمشيته، هل يمكن أن نسرع أكثر، هل علينا أن نمشي بضع خطوات بهدوء، أو نجلسه على أكتافنا.

«الفرسان» و «الخيل»

إن الأطفال، كما تعلمون، يحبّون التنزه، وهم يعتلون أكتاف آبائهم، ولكني، أنا كنت بالنسبة لهم «فرساً حروناً» لا تطيق أن يعتليها أحد ما أخرق، على أنها تحب «الفرسان» الأقوياء الشجعان الحاذقين.

لقد كنت أتمايل، ممسكاً الصغير برجليه، يمنة ويسرة، إلى الخلف وإلى الأمام، محاولاً أن «أطرح الراكب» أرضاً. وهنا يتأتى على الفارس، لكي لا يقع، أن يتمسك برأسي أو أن يتشبث بـ(ناصيتي) محاولاً أن يحافظ باستمرار على وضعية عمودية. وهذا صعب جداً لأن (الحصان) بالإضافة إلى ذلك يمكن أن يرمح، يثب، وقد يكبو. ولكن عضلات بطن الصغير تتوتر، بقدر ما يتمسك بقوة! وأقول مستحسناً:

«ما هذا الفارس القوي»؟ مهما حاولت فلن تجعله يسقط أرضاً. وماذا سيحصل لو أن أحد الركابين انقطع؟ وأفلت من يدي إحدى رجليه. عندها يطبق الصغير ويشدّة على رقبتي بكلتا رجليه ويتمسك بشكل أكثر قوة بـ «ناصيتي».

لا يستطيع أحدنا أن يعرف: هل هي لعبة، أم هي رياضة بدنية، على أن كلانا مسرور، والجهد المبذول لا بأس به بالنسبة لـ(الحصان) وبالنسبة لـ(الفارس).

عندما يبدأ الصغير باعتلاء الموبيليا التي تقف على أربع، علينا أن نكون يقظين في البداية. حتى الكراسي العادية التي ليس لها مساند، يمكن أن تحرن، وتلقي الراكب عليها أرضاً، وخاصة عندما يحاول الطفل أن يعتليها من الجهة الخلفية. ما العمل؟ الرغبة الأولى الغريزية التي نلجأ إليها

هي تثبيت الكرسي، لكي تقف بقوة على الأرض. يُقدم غالبية الناس على هذا العمل، ولكنهم لا يكتفون بتثبيت الكرسي، بل يلجأون إلى مساعدة الطفل في الصعود على الكرسي. يشعر الطفل هنا بأمان، طالما الكبار الى جانبه. ولكن ماذا سيحصل فيما لو صعد على الكرسي من دونهم؟ إنه لن يخاف بالطبع وليس بحاجة أصلاً إلى الخوف، لأن الكرسي كان يقف متيناً. ويبدأ بالصعود من دون أي وجل، وفجأة ـ طاخ طيخ ـ ويقع أرضاً. والكرسي عليه أيضاً. هذا يعني، أنّ عليه ألاّ يغيب عن نظرنا.

لا، لقد عملنا شيئاً آخر. عندما يبدأ الصغير باعتلاء مختلف أنواع الموبيليا المنزلية كأحصنة له، فإننا نحتال عليه بالتأكيد: إننا لن نمسك له تلك الأشياء، بل على العكس، نساعدها على أن تقع على الطفل، وذلك من غير أن يلاحظ، لكي يشعر بنفسه عدم ثبات الكرسي. عندها يقترب من «الحصان» قدر الإمكان، ويعتليه بحذر، وينزل في الحال إذا لاحظ أن «الحصان» بدأ يميل. بهذا الشكل نحن نعرّف الصغير على الموبيليا (الماكرة) التي أصبح باستطاعته أن يعتليها، ولكننا لا نلجأ أبداً إلى وضعه على الكرسي، ولا نرفعه إلى ذلك المكان الذي لا يستطيع بنفسه أن يصعد اليه. يفعل الطفل ما يستطيعه فقط، نحن نتبّع هذا المبدأ دائماً، حتى عندما نعرّف الأطفال على مجموعات التمارين الرياضية. وحتى عند الأراجيح، فإننا لا نُجلس أحداً على الأرجوحة، ولا نؤرجح أحداً. على كل منهم أن يتعلّم ذلك بنفسه. هذا مفيد بالنسبة للطفل (يتطور!) وممتع («أنا بنفسي أقْدِم على ذلك»)، وغير خطير (يصبح أكثر حذراً!). وهذا تخفيف عن الجدّات والأمهات في الوقت نفسه. فالوصاية الدائمة، والمتعبة تصبح غير ضرورية. لا تجعل الإستقلالية من الصغير أكثر قوة وجرأة وفطنة ومبادأة فحسب، بل تهوّن حياة الكبار بشكل ملحوظ، هذا، بالطبع، إذا لم يطلبوا من الطفل الطاعة العمياء.

الحركة هي مبدأ كل شيء

عندما نوفرّ للصغار الظروف المناسبة لحركاتهم المتنوعة، ونسمح لهم بالحركة قدر ما يريدون، لا يخطر على بالنا إطلاقاً، بأننا بهذا العمل لا ننمّي عضلات الأطفال فحسب، بل نقوّي أعضاءهم الداخلية أيضاً. لقد عرفنا بأن نمو الهيكل العظمي وما يرتبط به من عضلات ـ بحيث يبلغ منتهى الكمال يجرّ وراءه (أو كما يقول العلماء: يستدعي بالترابط) نموّ كل الأعضاء الأخرى وجُمَلْ العضوية.

إن دقات القلب سوف تتسارع إذا ركض الولد، وسيبدأ بالتنفس السريع والعميق، لأن العضلات تقوم بعمل كبير أثناء العدو. أما الجمل الأخرى التي يخدمها القلب، فيتوجب عليها، بشكل طبيعي، أن تزيد من إنتاجيتها وترفع من إستطاعتها. هذا يعني أن الطفل كثير الحركة، والنامي جسدياً بشكل جيد، يملك بالتأكيد أعضاء داخلية متينة. ينتج من هذا الكلام، أننا إذا أردنا طفلاً صحيح الجسم، علينا أن ننميّه جسدياً قدر الإمكان. عدا ذلك، فإن النشاط الجسدي المتدفقّ يساعد على التطور الذهني للصغار. إليكم هذه التجربة الممتعة التي أجراها العلماء الأمريكيون.

ستٌ من الأمهات الجريئات وافقن على تعليم أطفالهن المولودين حديثاً المشي. لقد وضعن أطفالهن على الطاولة وأمسكنهم من تحت الإبط وأمشينهم على طول الطاولة، شرط أن تلامس أقدام الصغار، الطاولة في البداية، حيث كان هذا كافياً لكي يبدأ بالعمل «إرتكاس المشي». وبدأت الأرجل بالمشي بتثاقل على الطاولة. كان رأس الطفل مرخى على صدره، ولكن ذلك لم يُعقْ المشي، إستمر التمرين في البداية مدة دقيقة واحدة، ثلاث مرات يومياً. وبسرعة قياسية بدأ الصغار يمشون بشكل جيد، حيث لم تعد هناك حاجة إلى أن تمسكهم أمهاتهم بأيديهم، واكتفين بمساعدتهم على الحفاظ على الوضعية الرأسية، وكان من نتيجتها أن بدأ الأطفال بالمشي

بشكل مستقل في ما بين الشهر السادس والسابع، أمّا أترابهم الآخرون الذين يرقدون في هذا الوقت في أَسِرَّتِهِمْ وفي أقمطتهم، فلم يستطيعوا المشي إلاّ في الشهر الثاني عشر، كما يفترض بجميع الأولاد (الطبيعيين).

ولكن ما أدهش العلماء ليس قدرتهم على المشي الباكر وإنما واقعة أُخرى تماماً، وهي أن هؤلاء الصغار الستة تفوقوا على أترابهم بشدة في النمو العقلي.

ومن المعروف الآن، بأنه من الممكن إستعمال إرتكاس السباحة عند الصغار بنجاح وتعليمهم السباحة منذ الأشهر الأولى لحياتهم.

وإليكم هذه المعطيات الإحصائية المرشدة: أكثر من ستمائة طفل ممّن تعلّموا السباحة قبل أن يتعلموا المشي، فاقوا بتطورهم الذهني أولئك الأطفال الذين لم يتعلموا السباحة في مثل هذه السن المبكرة.

وهكذا، إذا لم نحجز الطفل في السرير في الأشهر الأولى من حياته، وإذا لم ننتظر زوال الإرتكاسات الفطرية (هذا يحدث تقريباً بعد ثلاثة أشهر)، وإنما حاولنا إستخدامها وتنميتها، عندها سينمو الطفل بنجاح على الصعيدين الجسدي والذهني. على ما يبدو أن تعلم السباحة والمشي و«الجمباز» سيطوّر بالإضافة الى أجزاء الدماغ المطابقة لها، كل الأجزاء الأخرى.

ومن المحتمل أن يكون إمتلاك الحركات في هذه المرحلة من العمر هو أحد الأنواع الرئيسية للعمل الذهني عند الصغار. إنها تجربة جريئة أليس كذلك؟ عبّر بعض الأهالي، وبعض أطباء الأطفال عن مخاوفهم: «أليست تجربة جريئة زيادة عن اللزوم؟».

ولكن الحياة أثبتت صحة مبادىء عائلة نيكيتين. الطفل المحصن «المقسّى» يحتمل بيسر شديد أمراض الأطفال العادية التي لا يمكن أن يتحاشاها أغلبية الأطفال، والتي غالباً ما تترك على أجسامهم أثراً لا يمحى.

كانت ثقة آل نيكيتين كبيرة جداً في الإحتياطي اللامحدود لإمكانات أجسام الأطفال، التي من الضروري ومن اللازم استعمالها وتجنيدها من غير أن نأسف على القوى التي نبذلها. وهل نستنتج من هذا الذي قلناه، بأننا يجب أن ندعو الأهالي إلى الأخذ على الفور بتجربة آل نيكيتين. ولا في حال من الأحوال! أيُّ وسيلة تربوية تعطي نتائج إيجابية فقط في ظروف محددة.

إنّ مأثرة آل نيكيتين (مأثرة تحديداً، لأنها ليست تجربة من باب الفضول)، تكمن في أنهم وزنوا إمكاناتهم بشكل عقلاني متبصرّ، ودرسوا إمكانات أطفالهم وبدأوا حياتهم المنظمّة والمملوءة نشاطاً وحيوية، التي امتدت من يوم إلى يوم، ومن سنة إلى سنة، والمترعة بالبحوث والملاحظات والتحاليل.

يتطلب هذا العمل وقتاً طويلاً، وتفانياً لا يقاس، وحباً للأطفال غير محدود. وبالتأكيد هناك الحساب المتبصّر لكل شيء، لأن هذه الأعمال لا يمكن أن تمرّ من دون أخطاء. ومن المهم أن نُلاحظها في الوقت المناسب، ونتلافاها لكي لا تتكرر أكثر من ذلك. إذا كنتم جاهزون لذلك (تقدّموا، ابحثوا، حاولوا. ولكني أكرّر ثانية، يجب أن تكونوا حذرين جداً! انطلقوا من إمكاناتكم وظروف حياتكم.

تبرهن تجربة آل نيكيتين على الدور المتفوّق للتربية الجسدية وسط أنواع التربية الأُخرى. ينشأ أطفال هذه الأسر محبين للعمل، ونامين ذهنياً، ويتميزون بالأخلاقية العالية وبفهمهم للمثل الأخلاقية لمجتمعنا.

من الصعب إعادة تقييم مرحلة ما قبل المدرسة في حياة الإنسان من جديد. وبشكل مجازي، نقول إن هذه المرحلة هي أساس الشخصية. والإهتمام بالتطور الجسدي للطفل قبل سن المدرسة مهم جداً، ولكنه ليس القضية الوحيدة في الأُسرة. إن مسألة الإهتمام بالتطور الجسدي تقفز إلى

المقدمة في سن الطفولة فقط، لأن الطفل من دون هذه الرعاية لا يستطيع أن يتطور في كل المجالات الأخرى. وتتشكل الحاجات الأخرى، لاحقاً، بقدر تخطّي الحاجات الحالية وتكوّنها. يحتاج الطفل للمداعبة الدائمة، والملاطفة، من قبل الأهل والأتراب، واللعب أيضاً ضروري له، وخاصة في الفترة التي يتعرّف فيها على العالم وعلى نفسه. وتصبح حاجته إلى مساعدة الكبار له شديدة، وخاصة في الإجابة على أسئلته في الوقت المناسب، وإذا لم تملؤوا ذهنه ومشاعره بالأفكار والمشاعر النبيلة الضرورية، فإنكم بذلك تلحقون ضرراً جسيماً بالتربية، لا يمكن تعويضه لاحقاً. كلما كان تفكيركم بهذا الموضوع أبكر، وكلّما كان حلّكم له أكثر جدية، كانت طفولة إبنكم أكثر سعادة والمرحلة الإنتقالية إلى المراهقة تمرّ بأدنى الخسائر أو من دون خسائر تذكر. لكي نتحاشى المأساة، ونحجب الطفل عن القوى الشريرة، والتأثيرات الحمقى، وعن الفساد الداخلي، يجب أن نتتبع بإنتباه تطوره، والصيرورة المتدرجة لقواه الذهنية والجسدية والروحية.

إن الطفل اليوم ليس الطفل الذي كان البارحة، والطفل في الغد ليس الطفل الذي كان اليوم. هذا يعني أن تكتيكنا التربوي يجب أن يقتفي أثره دائماً، ويتنبه (يستبق) لمراحل صيرورة الشخصية، بحيث لا تصبح خاملة جامدة ولجوجة ومحافظة. المرونة العقلانية وبعد النظر، ومعرفة الخصائص التي تميّز كل عمر من الأعمار هي ألف باء التربية العائلية.

إن المثل القائل، درهم وقاية خير من قنطار علاج، يصلح في مجال التربية أيضاً. إنّ التربية أسهل بكثير من إعادة التربية من جديد. وإذا بدأت التربية بشكل يتوافق مع حاجات العمر وخصائص الشخصية، فإن احتمال الأخطاء أقلّ ودرجة المغامرة أو المجازفة أقل بكثير. لقد بدا لي أن أطرح السؤال التالي أكثر من مرة على أهالي الأطفال الصغار.

«أين يكمن المغزى الرئيسي في تربية طفلكم وهو صغير؟».

صرح الكثير من الآباء والأمهات، بأن الطفل سيبقى في نظرهم طفلاً مهما بلغ عمره. إني أقول بأنه لا فائدة من الإعتراض على هذا المدخل العاطفي تجاه المسألة. بل لا معنى له: لأن الأمور هي هكذا في واقع الأمر. والبعض الآخر من الأهل يؤكدون بأنهم لا يوفرون جهداً من أجل أن يحيا أطفالهم طفولة حقيقية. ويقولون: «سيتعلّمون لاحقاً كسب عيشهم - سيذهبون إلى المدرسة وستظهر لديهم، واجبات جديدة - وداعاً أيتها الطفولة!».

وماذا في ذلك؟ فهذا الكلام لا يخلو من الحقيقة أيضاً. . . أنا آسف لشيء واحد فقط، هو أن كلتا الإجابتين لا تحتويان على الشيء الرئيسي ألا وهو: المضمون التربوي.

ولماذا العجب فليس باستطاعة كل أب أو كل أم أن تفسر بوضوح وجهة نظرهم الخاصة في تربية أبنائهم. وعلى كل حال، فإن إجابات الكثير من الأهالي كانت صحيحة، من وجهة نظرنا: «نريد أن نعدّ الطفل للمدرسة، للحياة. ولكن كيف تفعل ذلك؟ . . .».

إننا نريد مساعدتكم، أيّها الأعزاء، لإدراك بعض تفاصيل تربية الأطفال قبل سن المدرسة، وبالحديث عن حدود التطور الجسماني والسيكولوجي للأطفال الصغار، وعن اختيار أساليب التربية الممكنة. وبهذا الصدد اخترنا لكم مقالة العالم المشهور / ن. م. اموسوف/، وهو عضو في أكاديمية العلوم الطبية في الاتحاد السوفيتي، وكاتب في الوقت نفسه، ونصير متحمس لربط الطب بالعلوم الأخرى، ومنها التربية.

ن. م. أموسوف

تربية الصغار

ما أعظم أهمية الأطفال الأذكياء

هذا يعني: الدراسة الجيدة، القراءة، الأسئلة، والسعي إلى الإدراك

والعمل. الولد (المريح) أو التلميذ، ليس بالضرورة أن يكون مثالاً في الطاعة. على أن لا يصبح في المستقبل كاذباً وطفيلياً، ويؤمن لنفسه مكانة محترمة في الحياة وفي المجتمع.

هذا على صعيد الشخصية. أمّا ما يعني المجتمع فهو المستقبل، أي أن يصبحوا علماء ومخترعين في المصانع، ومبدعين وعمال مهرة في كل مكان.

نحن نعمل على وضع نماذج للشخصية، وحوافز للسلوك، وبيان كيفيّة تجسيدها في مجال العمل والأسرة والمجتمع. إننا نبني نماذج كمية، ونُحاول أن نعبّر بالعدد عن المشاعر والهيبة، عن الوعي الذاتي والأهداف، عن شدة العمل، عن مستوى حدة الذهن وأشياء أخرى كثيرة. ونتصور كل ذلك في حالة من الحركة: كيف تتشكل الشخصية وتتغيّر من لحظة الولادة وحتى الموت.

من أجل بناء النماذج (الموديلات)، علينا أن ندرس المسألة بالتفصيل، ونعزل الجوهري عن الثانوي، الحقيقي عن المشكوك في أمره. وهذا يخص «الأطفال الأذكيا» أيضاً. نورد اليكم بعض الأفكار التي تخص الموضوع: «الشيء الرئيسي - المورثات: يجب أن يولد الطفل ذكياً».

«كلا، القضية كلّها تنحصر في المدرسة، وفي وضعية التعليم»، «التعليم - هراء. فهناك متعلمون خسيسون أيضاً.»، «الشيء الرئيسي هو التربية، الحساسية المطلقة تجاه الخير والشر».

«يجب عدم تعليم الطفل قبل سن المدرسة - لأن ذلك يمكن أن يفسده. دعوا ذلك للمعلمين». الأسرة: (الشيء الرئيسي - الوسط الثقافي».

إن ما يحزننا جداً هو قلّة المعلومات الموثوق بها التي يقدمها العلم المعاصر، وخاصة فيما يخص هذا الموضوع. الأمر الوحيد غير المشكوك فيه هو أن التربية تحتل المكانة الأولى. وهل وصل الإنفصال إلى هذه الدرجة بين

التربية والتعليم؟ التربية هي غرس مشاعر الواجب، الضمير، الشرف، الحنان، والإخلاص للمبدأ وللوطن.

التعليم - هو حشو الدماغ بالمعلومات وتعلّم استخدامها من أجل بلوغ الأهداف، أنانيةً كانت أم معادية للوطن.

أنا لا أؤكد - بأن كل المتعلمين، ذووا أخلاق عالية. لا أؤكد حتى بأنهم جميعاً أذكياء، ولكن هناك شيء آخر: الأذكياء أخلاقيون أينما وجدوا. ويتوافق سلوكهم أكثر مع مصالح المجتمع. والبرهان غير المباشر على ذلك - هو إحصائيات الجريمة. فالمجرم كما هو معروف، ذهن سافل، وصنف منحط، ولا مبال بالعمل. يعني ذلك وجود العلاقة التالية: «ذهن - أخلاق». ولكن هل المجرمون غير أذكياء منذ الولادة؟ إنه سؤال محرج مرّة أخرى: التناسب بين المورثات (الجينات) والبيئة.

لا يمكن حلّ هذا السؤال ما لم يكن هناك معيار كمّي لقياس السلوك في مراحل العمر المختلفة. بيد أنه توجد معطيات جدية لصالح الدور القيادي لتأثير المجتمع.

من غير الممكن طبعاً أن نجعل من أيّ صغير عبقرياً، ولكن أن نرفعه إلى مستوى جيد فهذا ممكن جداً على ما يبدو. (عدا الأطفال الذين يحملون عاهات ولادية).

هناك ملاحظة أخرى. فالتربية عن طريق غرس المشاعر من دون تطور الذهن، عمل صعب. إنها ممكنة فقط عن طريق الهيبة في الأسرة، والإقتداء بالآخرين. ولكن لو كان جميع الأهل مثاليين لما كانت هناك أية مشاكل. يؤثر على الإنسان المحدود وسط محدود، وعلى الإنسان الذكي وسط أوسع، يشمل: الكتب، الراديو - والتلفزيون. تنحصر القضية الأساسية في سهولة تربية الإنسان الذكي، ومن الممكن أن تجعل منه مواطناً صالحاً بسهولة.

لنعد من جديد إلى البداية: من أين نأخذ العقل؟

هناك معلومات من مختلف فروع العلم .

إن دماغ الطفل المولود حديثاً، متشكل فقط، بالسمات الرئيسية . فهو يؤمن ّضبط الأعضاء الداخلية، وبعض الإرتكاسات الخارجية البسيطة : الإمتصاص، البلع، والألم . حتى إمكانية الرؤية والسمع محدودة جداً، فالجينات مبرمجة بالتطور اللاحق الذي سينتاب الدماغ بعد الولادة : تكاثر الخلايا ونضجها وإقامة الروابط . بعد خمسة أسابيع من ولادة الطفل يثبت نظره، ويبدأ بالإصغاء في الأسبوع السادس، ويتلو ذلك سلسلة طويلة من الإنجازات . ولكن البرنامج غير قاس : فالخلايا الناضجة مجبرة على القيام بوظيفتها فوراً، وعملية النضج نفسها ترتبط جوهرياً بالجهد الوظيفي الواقع على الخلايا . إن عدد الخلايا الجديدة وروابطها يمكن أن تغير إلى حد كبير من فعاليتها . وسيؤثر ذلك مستقبلاً في الطبع الذي يعتبر أساس الشخصية . هناك تجارب ممتعة أجريت على الحيوانات حيث استطعنا عبر بعض التأثيرات الموجهّة الباكرة أن نغيّر بعض آليّات السلوك النظرية، كالعلاقة بالأم مثلاً .

لنعد إلى الأطفال ثانية . يبدو أن جميع الأطفال يتطورون بشكل متشابه في الأشهر الأولى : يبتسمون، يمسكون رؤوسهم، ويفوهون بالأصوات الأولى . هناك بعض الإختلافات البسيطة التي تنتج عن السمات الفطرية . ويبدو أن الوسط المحيط ضروري جداً حتى للولد الصغير . والتشابه المتبدّى لنا في السنة الأولى من عمر الطفل، يمكن تفسيره بقلة التأثيرات التي يحتاجها الطفل في هذا العمر، وهي متجانسة تقريباً .

إن أحداً لم يحاول حذفها أو تغييرها بشكل جذري، ولكن الحياة نفسها في مختلف الأزمنة ومختلف الأمكنة، نفذّت مثل هذه التجارب . ومن المعروف مصير عشرات الأطفال الذين خطفتهم الحيوانات وقامت بتربيتهم ومن ثم تمّ إنقاذهم . السمة الرئيسة التي تميّز هؤلاء الأطفال هي أنهم متخلفون عقلياً إلى درجة كبيرة، ولم تُجْدِ نفعاً عملية تربيتهم وتعليمهم .

وحتى لو استطاع الأطفال أن يعودوا إلى المجتمع البشري بعد خطف دام (٥ ـ ٦) سنوات، فإنه من الصعب تعليمهم المشي المنتصب، وبضع عشرات من الكلمات لا غير.

كانت محاولات التسريع من التطوّر إستعراضية، حتى أنها كانت تفتقر إلى المنهج، وعلى ما يبدو أن القضية كلها تنحصر في تجزئة التأثير: عليهم أن يستبقوا النضج، ولكن ليس إلى حد كبير، وألاّ يحمّلوا الدماغ أكثر مما يطيق بالإنفعالات غير المستحبّة.

تُصرّ بعض الشخصيات العلمية ذات الشهرة الواسعة منذ زمن بعيد، على إمكانية تطوير الذهن بمساعدة الجهود الباكرة الموجهّة نحو هدف محدد.

من هؤلاء الشخصيات عالم النفس السوفيتي / ل. فيغوتسكي/ ، الذي صدر كتابه «التفكير والكلام» في عام ١٩٣٤، بعد عدة أشهر من وفاته. لقد برهن عالم النفس في كتابه على أهمية التعليم المبكر للأطفال على فهم الحديث والتكلّم. إذ أن الطفل لا يعرف أسماء الأشياء، كما أنه لا يراها.

وصف عالم النفس العظيم (بياجيه) في الثلاثينات من هذا القرن، المراحل التي يمرّ فيها الأطفال في معرفة العالم المحيط. وتقدّم بمقولة فريدة من نوعها: «بقدر ما يرى الطفل أكثر ويسمع، بقدر ما يريد أكثر أن يرى ويسمع». هناك تناسب أمثل بين المعلومات الجديدة، وبين الشيء المتراكم. للمعلومات الجديدة الكثيرة تأثير سلبي على الإنسان إذ أنها لا تُدْرَك جميعها، وتفقد مغزاها، ولقلة المعلومات الجديدة نفس التأثير أيضاً، إذ أنها تؤدي إلى ملل الشخص وضجره.

إن فنّ التعليم يكمن في اختيار الجرعة المناسبة. وهذا الشيء يخص الكبار، بيد أنه هام جداً للأطفال أيضاً، حيث التأثير المجزأ على الطفل لا يؤدي فقط إلى تراكم المعلومات وإنما إلى تكوّن الدماغ أيضاً، ويؤثر على قدراته العقلية وعلى إدراكه.

في جامعة هارفارد في الولايات المتحدة الأمريكية، أُجريت تجارب واسعة حول التعليم المبكر.

وضع العالمان / بيوتون وايت/ ، / وجون بوريمز/ طرقاً خاصة تسمح بالتقييم الكمي لمستوى الذهن وللقدرة على التواصل مع الناس. وبدآا بالأطفال منذ سن السادسة، واكتشفا إختلافاً كبيراً جداً في التطور. وأظهر التحليل بأن ذلك يتحدد بظروف الأسرة، وبنوعية تربية الأم. كل شيء يتعلق بمعرفة الأم وبراعتها، وبالزمن الموجود تحت تصرفها.

بعد ذلك أخضع العلماء للمراقبة عدة مئات من الأطفال الصغار، الذين تتراوح أعمارهم بين السنتين والثلاث سنوات. بعد معرفة دقيقة لظروفهم العائلية. وظهرت النتيجة بعد ٣ـ٤ سنوات أصبح جميع الأطفال الذين تعلموا باكراً وبشكل صحيح، من الممتازين أما الأطفال في المجموعة الضابطة فلم يبرز منهم سوى ١٠٪ فقط.

نستنتج من أعمالهم بأن أسس الذهن توضع (تُرسى) في الأعوام الأولى من العمر. وبحلول السنة الرابعة يمتلك الطفل نصف الذهن، بالمقارنة مع ذهن ابن السبعة عشر عاماً وبحلول السنة السادسة فإنه يمتلك الثلثين.

إن وتائر النمو اللاحق تتحدد بالمستوى البدئي قبل دخول المدرسة. إذا كان المستوى سيئاً، فإن جهود المعلم تبدو غير فعالة بشكل كاف. ويسود الإنطباع في أن المدرسة لا تضيف المعلومات بالتدريج بالنسبة لمستوى ما قبل المدرسة، وإنما تضاعف المعلومات عن طريق ضربها بثابت محدد. ومصدر هذا الإنطباع يكمن في أن الإختلاف في المستوى الذهني ينمو مع زيادة العمر تحديداً.

الخطوة التالية كانت تجربة ـ بعض المربين ـ المتحمسين الذين نظموا دروساً منتظمة مع الأطفال الصغار، إفرادياً أو في مجموعات غير كبيرة تضمّ من ٣ـ٥ عناصر.

والنتيجة كانت كما هو متوقعّ: يتناسب نموّ الذهن طردياً مع العمر ومع الوقت المبذول ولكن ما مقدار جدية هذا الأمر؟ يبدو أنه جدى إذ تقف عند منابع هذا الإتجاه الجديد أسماء عظيمة من علماء النفس.

إن المقدمات النظرية غير مشكوك فيها : الوظيفة / Function/ تكوّن بنية الكائن الحيّ النامي. ولكن العلم التربوي الحقيقي لم يبدأ إلاّ منذ فترة قريبة.

هناك شيء واحد غير مشكوك فيه وهو أن العلم التربوي الحقيقي مهم جداً لتربية الإنسان الجديد. وهذا ما يستدعي التفكير لدى علماء النفس، ولدى علماء التربية وعلى الأخص لدى الأهل، لأنهم يتحملون المسؤولية الرئيسة تجاه مصير أطفالهم. إذا لم تستطع الأسرة إعداد الطفل للمدرسة، فإن المعلمين لا يستطيعون تغيير الوضع جذرياً.

كيف يبدو نظام التربية الفعّالة الباكرة؟ الشرط الأول - التجزئة الصحيحة للفعل المؤثر بما يرتبط مع العمر. إن زيادة التأثير تؤدي الى الإجهاد والإحباط، والقليل منه لا يفعل فعله.

الشرط الثاني - الشكل، الحب والحنان، الإعتدال والصرامة ولكن من دون تعنّت. وبالإضافة إلى ذلك هناك المثال الشخصي الذي يفيد في تربية المشاعر والأحاسيس. وعلينا أن لا ننسى أهمية تقسيم الوقت أيضاً: ان نخصص ساعة للحوار مع الطفل، ومن ساعة إلى ساعتين للقراءة أما عن الصحة فهناك نظام التغذية، والرياضة البدنية.

* * *

البـــرنـامج

العام الأول: الألعاب والأحاديث. ينبغي التكلم مع الطفل كثيراً ومنذ وقت مبكر. أن نشير إلى الأشياء ونسميها. أن نقرأ للطفل الذي له من العمر ستة أشهر، الكتب المصورة وملاحظة ردة فعله وتجزئة المصاعب اعتماداً عليها، الإستمرارية، الوقفات والتغييرات، ويمثل التواصل مع الكبار المصدر الرئيسي للمعلومات بالنسبة للصغار.

العام الثاني: تشكلُّ الكلام. أنْ نبذل جهدنا في تعليمه التكلّم، التحدث معه، القراءة له، وتوجيه الأسئلة. تعليمه اللعب بالألعاب.

العام الثالث: إستمرارٌ لما سبق، توسيع قاموس كلماته، والسعي إلى تصحيح لفظه للكلمات. القراءة والحوار. تعليمه العلم باستقلالية: اللعب بالألعاب، الرسم. التواصل يعطيه المعلومات والمادة، وبذلك يتطور الإبداع لديه في وحدته.

العام الرابع: بالإضافة إلى التعليم، وهو شيء واجب كما تعلمون، يجب أن نجعله يعمل كل يوم من ١٥ - ٢٠ دقيقة، ولكن من خلال الضغط الحذر جداً. وأن نعلمه الأحرف، المقاطع، الكلمات... الكلام الصحيح نحوياً. الرسم، واللهو المستقل مع الألعاب.

العام الخامس: القراءة، الرسائل. بحول السنة الخامسة، على الطفل أن يمتلك القدرة على قراءة الكلمات البسيطة، وكتابتها بالأحرف

الطباعية. نصف ساعة إجبارية من العمل. خدمة ذاتية بسيطة، دفعه إلى العمل المستقل.

العام السادس: آلية القراءة. أن يبدأ الطفل، بحلول السنة السادسة، بالقراءة من أجل نشدان الراحة أو المتعة، شيء عظيم. ولكن من النادر أن نواجه مثل هذه الحالات للأسف. العدّ. بعض الدروس الذاتية: الرسم، الألعاب، بعض الألعاب التركيبية البسيطة. كتابة الرسائل، تعلّم الحساب.

من المفهوم تماماً أن كل ما ورد هو لوحة تقريبية. الأوقات الزمنية يمكن أن تتروح قليلاً، ولكن النقاط الرئيسية التي تشمل التعليم، مهمة جداً: الحديث، العدّ، القراءة، الرسم، والقدرة على العمل الذاتي المستقل.

وتختبر جودة النتائج بمجموع المعلومات والمهارات التي يحوز عليها الطفل، وأيضاً بتطور الإرادة ونموّها. الشيء الرئيسي، الذي يجب علينا تذكرّه هو تربية الطفل الصغير، الذي يعتبر عملاً جدياً بالنسبة للأهل، وغالباً ما تظهر مجموعة كبيرة من الأسئلة والإعتراضات، أهمها:

«من أين لنا الوقت؟» شيء باطل: في البيت طفل أو طفلان، وثلاثة أو أربعة من الكبار، لأن العمر يمكن أن يطول أحياناً. هل يمكن أن نجد عدة ساعات من أجل التحدث مع الصغار.

«لا يمكننا ذلك». هذا صحيح. أن نقدر ـ ليس بالعمل السهل. يجب أن نتعلّم ذلك. من الصعب جداً فيزيائياً التكلّم مع الطفل ساعتين أو ثلاث ساعات. فالمواضيع تنضب، ونتعب من الإختلاق ونبدأ بالبحث عن المخرج. يمكن أن نلجأ إلى كتب الأطفال. فالقراءة أسهل بكثير، عدا عن ذلك، فإن الكتب تتضمن الأخلاق والتربية.

«كيف نتصرّف بشأن التلفاز؟». إنه ليس التقاعس. هذه مسألة سهلة جداً، فالطفل الذي يشاهد التلفاز، يحصل على بعض المعلومات. ولكن

طريقة التلقّي سلبية جداً، فالمشاركة غير فعالة. ولذلك نقتصر فقط على برامج الأطفال.

لن أخوض هنا في المسائل الخصوصية لتربية الأخلاق، أي (ما هو الجيّد، وما هو السيء). الفكرة الأساسية هي أن: النمو المبكّر عبر التعليم يسهل كثيراً حلّ المسائل التربوية المعقدة. ويستوعب الطفل الذكي المعايير الأخلاقية بسهولة. ولكنه يبدأ من جهة أخرى بالفهم المبكّر لعيوب المربيّن. ولذلك يجب أن نُدخل ضمن برنامجنا الكتب الجيدة والأفلام الجيدة لكي تتشكل المثل الصحيحة عنده.

ويجب أن نفكر جدياً بتنظيم العمل في دور الحضانة وفي رياض الأطفال. لقد ساد، حتى الآن كما نرى الإهتمام بـ «الحياة الجسمانية» للأطفال، على أن هذا لا يمكن إهماله، أو التغاضي عنه أبداً، ولكن الذهن ليس أقلّ أهمية من الصحة. فمن غير الممكن تعويض السنوات المبكرة التي مضت... يلزمنا مؤسسات تجريبية للأطفال، تمارس تأثيرات تعليميه بدرجات مختلفة. فمن واجب العلماء ـ إنشاء هذه المؤسسات وقيادتها والتدريس فيها. ويمكن أن نحصد النتائج بعد مرور عدة سنوات. عندها يمكن حلّ مسألة التربية ككل. ولكن الأسرة تبقى أساس التربية والتعليم قبل سن المدرسة. على الأهل والجدّات والأجداد أن يعرفوا، بأن طبع الطفل وذهنه يتشكلان قبل دخوله المدرسة. والمسؤولية تقع على عاتقهم، وهذا ما يتفق حوله معظم علماء التربية.

يجب أن نعلّم الأهل كيف يربوّن أطفالهم، لأن ذلك ليس عملاً سهلاً على الإطلاق، أنا لا أنادي بأن يمتنع الأهل عن تعليم أطفالهم الصغار ذوي الثلاث سنوات، القواعد وجدول الضرب، ولكن هناك مبدءٌ واحدٌ لا يستدعي أي شكّ أو إرتياب. يجب أن لا نتأسف على الوقت الذي نبذله في الحديث مع الأطفال، وأن لا نكتفي بالإجابة عن الأسئلة اللانهائية لطفلنا، وإنما يجب أن نشارك بأنفسنا وبفعّالية على إجراء الحوار.

يجب أن نعلم الطفل الحروف أولاً، وبعد ذلك المقاطع ومن ثم القراءة. يبدأ بعض الأطفال فقط بالقراءة بإرادتهم، إذ ترتبط القراءة الأولية، بجهد كبير من الإنتباه. وينبغي إبداء بعض الإصرار على أن لا يكون مفرطاً، لكي لا يؤدي إلى نفور الطفل من القراءة. إن تربية الأطفال مهمة جداً، حيث تقع على عاتق الأهل والدولة. يجب أن لا ننسى ذلك أبداً، وخصوصاً الذين عندهم أطفال أو من سيصبح عندهم أطفال في المستقبل.

* * *

أ. س. بيلكين
التربية حتى سنّ الخامسة

(فصل من كتاب «انتبه ـ الطفل»)

هناك صيغة شرقية ممتعة جداً في التعامل مع الطفل، تقول: «حتى الخامسة عامله كالقيصر، وبعد الخامسة كالخادم، وبعد الخامسة عشر كالصديق». إنها ملاحظات الحياة، فهي تحتوي على مغزى عميق. فالتربية الشعبية هي مخزن مليء بالكنوز، التي إما لا نقدرها أحياناً حق قدرها، وإما لا نعرفها. وإذا أردنا معرفة أسباب الإنحراف، فإننا يجب أن نبدأ تحديداً من لحظة شعورنا بالتقصير والإهمال تجاه أطفالنا.

يتكون أساس شخصية المستقبل كما قلنا سابقاً، في مرحلة ما قبل المدرسة. وإذا ما أجرينا مقارنة مجازية بين الإنسان البالغ وبين بناية من عشرة طوابق، فإننا يجب أن نعترف بأن الطوابق الثمانية الأولى تعادل تلك المرحلة من العمر قبل الخامسة. أما كل الحياة اللاحقة فتعادل الطابقين المتبقيين.

لقد نوّه / أنطوان دوسانت ـ ايكذوبيري/ بدقة قائلاً: «نحن جميعاً ضرب من ضروب الأطفال». سنوات الطفولة الباكرة تبرمج الكثير من سمات شخصية الإنسان البالغ. إنها تبرمج ولكنها لا تحدّد بشكل قدري. ليس لدينا الحق في أن نلصق جميع نواقص تربية الإنسان بعيوب مرحلة ما قبل المدرسة، من غير أن ننسى طبعاً بأن الكثير يتشكل في مرحلة ما قبل المدرسة.

والشيء الذي يعرقل السير الطبيعي للتطور الأخلاقي عند الطفل، هو النواقص الجدية في التربية العائلية.

التواصل ـ الحاجة الرئيسية للطفل

التواصل الدائم للطفل مع والديه وخاصة مع الأم ـ مهمٌ جداً. يفترض طبيب النفس الانكليزي جون بويلبي، بأن إبعاد الطفل الذي لم يبلغ من العمر ثلاث سنوات عن أمه، أكثر من ثلاثة أشهر متواصلة، يسبب له تغييرات في الحالة النفسية، لا يمكن إصلاحها أبداً، وتجعله ميالاً إلى السلوك غير الإجتماعي.

يبدأ الطفل المحروم من حنان الأم من رعايتها واهتمامها بالإكتئاب، وتنشأ عنده حالة من إنقباض النفس (الغمّ والقلق)، التي تترك بصماتها على شخصيته في المستقبل. وحسب رأي العالم الفيزيولوجي الأمريكي نيل ميللر، فإن عزل الطفل عن والديه، وبشكل خاص عن أمه، يؤدي به الى الهبوط الذهني وإلى التوتر العصبي، وإلى تقوية العدوانية الخ. . . .

إني أذكر حتى الآن كيف اقتربت مني إحدى الأمهات، بعد إحدى محاضراتي العامة، والدموع تسيل على خديها وقالت: «لماذا تحدثتم عن ذلك فقط! إبنيْ يعيش عند جدته في القرية منذ أكثر من سنة ولم يبلغ الثلاث سنوات من العمر. هل يعني هذا أنه سيصبح مجرماً؟! إن الإمكانات التصحيحية (التصويبية) للتربية غير محدودة في الواقع (فعلاً)، ولكن لا ينبغي التملّص من مسائل التواصل مع الطفل.

يظهر من تحليل مئات الأعمال الشخصية التي ارتكبها المذنبون الأحداث أن ٨٢٪ منهم لم يكن لديهم تواصل لائق مع أهلهم.

إمّا أن الأسرة كانت تفتقد أحد الوالدين (الأب على الأغلب)، وإمّا أن الأهل لم يكونوا يهتمون بأطفالهم، أو أن الجو السيكولوجي السائد في الأسرة (الشجارات، المشاحنات) لا يترك مجالاً للتواصل اللائق.

«حبّ الوطن يبدأ من حبّ الأم» ـ هكذا قال المربيّ الروسي العظيم / ف. آ. سوخوملينسكي/ ، إذ لا يمكن للإنسان أن يصبح وطنياً حقيقياً، من

دون أن تكون طفولته ملئية بحبّ الأم. «تذكرّي أيتها الأم، بأنكِ أنتِ المربي الأساسي، بكِ يرتبط مستقبل المجتمع» بهذه الكلمات استقبل سوخوملينسكي الأهالي في المدرسة.

نحن نتكلم كثيراً عن الأم ولكن هذا لا يعني التقليل من دور الأب أبداً. وكما يؤكد بعض من علماء النفس، فإن غياب الأب يؤدي إلى انحلال (تفتت) الوحدة السيكولوجية في الأسرة. والأطفال هم أكثر من يشعرون بذلك. هناك أسرة مؤلفة من ثلاثة أشخاص، الزوج، الزوجة والإبن البالغ من العمر ست سنوات. كانت حياتهم جيدة في البداية ولكنها بدأت تسوء شيئاً فشيئاً. كانت الزوجة تلوم زوجها على عدم مساعدته إيّاها في الأعمال المنزلية. واستمرت المشاجرات حتى اضطر الزوج أخيراً إلى مغادرة المنزل وترك الأُسرة.

وعلى ما يبدو فإن الطفل قد تقبّل الأمر بهدوء، ولكن ذلك كان خارجياً فقط، فقد بدأت الأم، بعد أسبوع، تلاحظ بأن شيئاً غير طبيعي يحدث مع الولد. كان يبكي بهدوء في الزاوية، ويتململ في الفراش، ويتألم بصمت، وبعد مضيّ عدة أيام قال الإبن لأمه: (هل تعرفين يا أمي، دعي أبي يعود إلى البيت، دعيه يجلس على الأريكة، ويقرأ الجريدة.... إذا لم يكن لديه الوقت ليلاعبني فلا بأس.... أنا سأتحمل. دعيه يعود فقط...».

نلاحظ في كلمات الطفل الحنين والشوق نحو الأب. تصوروا أن مجرد وجود الأب في الأسرة قد ملأ حياة الطفل بالمشاعر الهامة جداً من أجل توازنة النفسي، وخلق جواً مستقراً في الأسرة.

لا يفترض التواصل اللائق مع الطفل المكوث معه فحسب، بل ملاعبته أيضاً. فالطفل يتعلق بالإنسان الذي نادراً ما يلاعبه، أكثر من الإنسان الذي لا يلاعبه أبداً، ولكن حاجاته اليومية كالشراب والمأكل والملبس، هي

أقل الحاجات التي ترضيه. هذا ما توصل إليه البحاثة روساً كانوا أم غير روس. يتعرف الطفل من خلال اللعب على العالم، على نفسه، وعلى المحيطين، ويتعلّم فن التواصل. أما الأهل الرازخون تحت عبء أعمالهم وهمومهم الحياتية واليومية، فإنهم ينسون ذلك أحياناً، وبذلك، ومن غير إرادة منهم، يهيئون التربة المناسبة للإنحرافات المستقبلية.

يحتاج الطفل إلى حنان الأهل وملاطفتهم كحاجته إلى الهواء. عليه أن يتشبع بهذا الحنان، في سنوات حياته الأولى، لكي يستطيع فيما بعد أن يعطيه للآخرين. قرأت منذ عدة سنوات في «الجريدة الأدبية» مقالة بقلم / تشايكوفسكي/ عنوانها «طلقة نحو الهدف»، ورد فيها أن امرأة شابة قتلت حبيبها السابق بطلقة بندقية. وعندما صرخ الناس المحيطون بها قائلين «ماذا فعلت، لقد هشمت رأسه؟». أجابت بكل برودة أعصاب: «هذا مستحيل. لقد صوبت البندقية نحو قلبه». لنقلها بصراحة، إن المقتول لم يثر أية شفقة، لأن صفاته الأخلاقية كانت بعيدة كل البعد عن المثال الأخلاقي. ولكن الإمرأة القادرة على أن تقتل بكل برودة أعصاب إنساناً بعيداً عنها تماماً، من الصعوبة أن تستند إلى مشاعر العطف أو الحنان.

ما يهمنا من وجهة النظر التربوية هي المرحلة التي سبقت هذه المأساة، والتكوّن الأخلاقي للمشاركين فيها.

لقد قدمت لنا المقالة المفتاح لفهم الأحداث التي جرت.

ترعرعت هذه الإمرأة «بطلة القصة»، على يد أمٍّ صارمة جداً ومبدئية. كان اهتمامها بابنتها ورعايتها لها جيدة، ولكنها لم تلاطفها أبداً، ولم تكن رقيقة معها على الإطلاق. وهكذا ترعرعت الإبنة مبدئية أيضاً، وصريحة. . . . ولكنها جافة وباردة. وكما عرفنا، فإن حبيبها السابق لم يتركها لأنه لم يجد عندها ذلك الدفء وتلك الرقة التي تتصف بها النساء تحديداً.

«يبدو أن طفولتها، التي قضتها من دون رقة وحنان وعطف، هي سبب احتدام غضبها الدائم، حتى أنها فقدت القدرة على العطف من دون رجعة، وتولّد عندها نوع من الأنانية المفرطة. . . » هذا ما كتبه عالم الوراثة المشهور / ف. ب. افرومسون/ .

يجب ألاّ نفهم مفاهيم الحنان والرقّة بشكل أحادي الجانب. هناك أيضاً جانب خارجي حسيّ يتمثل في ضمّ الأطفال واحتضانهم وتقبيلهم، وهذا النوع من الحنان ضروري أيضاً، فهو ضروري وطبيعي كما الحبّ الأمومي تماماً. ولكنه ليس الأسلوب الوحيد، والرئيسي لإبداء المشاعر.

يدور الكلام عن الرقة المرتبطة بلباقة كبيرة، وعن مقدرة الأهل على المشاركة الوجدانية لأطفالهم. تعني المشاركة الوجدانية - فهم حالة الطفل الداخلية والجسدية، والإسراع لنجدته في الوقت المناسب، والتخفيف من آلامه وتوفير الراحة والطمأنينة له، بالإضافة إلى فهم حالة المحيطين. وبكلمات أخرى، فإن الرّقة الحقيقية للأهل تكمن في تربية الرقة عند الطفل.

عندما نسعى لكي نؤمّن لأطفالنا طفولة سعيدة ومريحة، فإننا ننسى أحياناً، من خلال إبعادنا إياهم عن مشاغل وهموم الكبار، بأننا بذلك نحرمهم من إمكانية المشاركة الوجدانية.

«هناك في الطفولة يجب أن لا تكون سعادة مطمئنة، من دون تفكير. على الطفل أن يقدر على موازنة رغباته مع إمكانات الأهل». تجد أفكار / سوخوملينسكي/ هذه صدىً حتى في أيامنا هذه، حيث المستوى المادي والثقافي للأسرة يرتفع، وفي مقدور الأهل تلبية الرغبات اللامتناهية لأطفالهم. ويجب التنويه إلى أن الاحصائيات تعطينا أرقاماً منذرة بالخطر. لقد أجرت / ن. بافلوفا/ استجواباً في إحدى الاصلاحيات الأحداث تبين من خلال أنه من بين الـ/ ١٤٥/ المستجوبين هناك / ١٢١/ ، كانت لديهم

ظروف مـادية جـيـدة. ،هناك / ١٠٠/ كـان لديهم أباء ودودون، وهناك / ١٠٤/ كـان أهلهم يوجـهـونهم دائمـاً، وهناك / ٩٥/ ممن كـان أهلهم يتعاملون معهم بحنان زائد، ولم يرفضوا لهم طلباً. «لم يرفضوا لهم طلباً». ولكن الأمر لا ينحصر في تلبية المطالب المادية. فهذا الشيء هو أقلّ ما يقلق الطفل قبل سن المدرسة. ولكن الحديث يدور عن ذلك الحب غير المتبصّر للطفل وتلبية كل رغباته، مهما كانت من دون تحفظات، وعن محاولة الأهل «استباق» حاجاته.

مهما كان الطفل صغيراً عليه أن يعرف، بأن مزاج أهله سيىء اليوم، فالأم يؤلمها رأسها، والأب مشغول بأعماله. هذا لا يعني على الإطلاق بأننا نستطيع أن نحمّل أطفالنا مزاجنا السيىء، ونحرمهم من السعادة والمرح. فالحديث يدور عن المعالجة العقلانية للأمور وعن الإبتعاد عن التطرّف.

التحديد المتبصرّ لمتطلبات الطفل اللامحدودة ضروري حياتياً. إنه نوع من الوقاية من التقلبات ومن التربية على ضبط النفس، والقدرة على الكبح.

على الطفل أن يرى بنفسه إمكانية إظهار إهتمامه ببعض المتطلبات التي تتعرض لرفض الأهل، وأن يجد الرضى والقناعة في رفض رغباته الخاصة، ليس من السهل أبداً بلوغ هذا الشيء ولكن ينبغي السعي لبلوغه بكل تأكيد.

في تربية الأطفال ما قبل المدرسة، ينبغي أن نتذكر دائماً، ذلك القانون الذي يمكن أن نسميه مجازياً: قانون التوازن والتعويض. يكمن جوهر هذا القانون بالتالي: يجب ألاّ يكون عند الطفل إمّا الكثير من الإنفعالات والمشاعر المفرحة فقط، وإمّا الكثير من الإنفعالات والمشاعر المؤلمة فقط. على هذه الإنفعالات أن تتوازن فيما بينها بشكل من الأشكال. عندما نواجه تلميذاً منغلقاً وعابساً بشكل دائم، فإنه يحق لنا إفتراض الكثير من الأسباب، ومن بينها المتعلقة بالمرض. ولكن هذا لا يستثني، بأن هذا الطفل كان محروماً في طفولته من الفرح والسرور. وعندما نواجه مراهقاً أهوجاً ذا

عقلية سطحية وغير جدّي، فإنه بالإضافة الى كل الأسباب التي يمكننا افتراضها، هناك سبب آخر: طفولة يسيرة جداً، لم يعكر صفاءَها أحدٌ.

لا تجري الأمور في الحياة بهذه السهولة. كتب المربيّ البولوني / يانوش كورتشاك/ قائلاً: «لا يوجد أطفال، هناك أُناس، ولكن بمقاييس مختلفة من الأفكار والمشاعر، تذكروا بأننا لا نعرفهم...». لا شيء يمرّ على الطفل من دون أن يترك أثراً عليه بما فيه الدموع والضحك.

كل ذلك ينطبع بشكل ما، ويُحْفَظْ في وعيه في مجاله الإرادي-العاطفي.

من أنا يا تُرى؟ تقييم الشخص لذاتـه

معرفة الذات-حاجة طبيعية عند الإنسان. فالطبع والمشاعر والعلاقة بالمحيط، تتعلق بالمدى الذي يستطيع من خلاله الإنسان أن يقيم شخصيته. في تلك الحالات التي لا يتطابق فيها مستوى إدعاء الشخصية مع إمكاناتها، ينشأ صراع داخلي، يؤثر سلبياً على الصفات الأخلاقية للإنسان، وغالباً ما يولّد العصاب وحالات من الهيجان المتعمّد.

لا توجد ضرورة للبرهنة، على أن السعي، بالنسبة للطفل، لإيجاد الجواب على السؤال «من أنا يا ترى؟» من الممكن أن يُعْتَبر أحد البواعث الرئيسية في التواصل مع الكبار. ومن البدهي أن تكون الكلمة الأولى والكلمة الأكثر أهمية بالنسبة للطفل هي كلمة الأهل. إنه يثق بهم من دون قيد أو شرط، ويقبل رأيهم على أنه قطعي وموثوق به. يمكننا أن نصطدم بنوعين من الأخطاء. النوع الأول-وهو الأكثر انتشاراً-الحَطّ من قدر الطفل أو الحَطّ من التقييم الذاتي للطفل. والسبب الرئيسي لعدم التطابق هو سعي الأهل إلى الحكم على إبنهم من خلال فعل قام به أو ذنب ارتكبه، وتعميم هذا الحكم على شخصيته ككل.

الذنوب العفوية التي يمكن أن يقوم بها الطفل (أنْ يسقط شيئاً ما،

يكسر أو أن لا يخدم نفسه بنفسه الخ . . . .)، تُقَيَّم عادة بتعابير محددة مثل: «مغفل» و «قذر» ويحدث أن يُصنِّف الإختلاق (الخيال) عند الأطفال، والخداع البريء في صنف (الكذب)، ويطلق على الطفل صفة (مخادع) أو (كذّاب).

إليكم مثلاً هذا الأسلوب الشائع. إذا أراد الأهل أن يُشْعِروا الطفل بالخجل على فعل سلبي قام به، فإنهم لا يكتفون بإنتقاء الكلمات اللاذعة، ولكنهم يجرون مقارنة حتميّة مع أحد الأطفال الآخرين: «أنظر إلى جارك كوليا - إنه ولد مثلك! مهذب، نظيف، ولطيف، إنه أفضل منك».

سيشعر الطفل في هذه الحالة بعقدة النقص أو بعدم الكمال، وبأن جاره كوليا أفضل منه وهو لا يستوي إلى أن يكون نَدّاً له. وهل يؤدي ذلك إلى الندم الصادق على ما قام به، أو أنه يوقظ عنده السعي لأن يصبح أفضل؟ ليس دائماً على الإطلاق، وإنما على العكس. «لا أذكر يوماً أحببت فيه أخي الكبير اليوشا، لأن أهلي كانوا يؤكدون لي على الدوام بأن اليوشا هو فخر العائلة - أمّا أنا فأمثّل العاق، وعليّ أن آخذه قدوة لي. ولكني لا أريده أن يكون قدوة بالنسبة لي، مما شكلّ عندي، نوعاً من الضغينة تجاهه، بحيث لم أعد أتحمله أو أطيقه على الإطلاق . . ». هذا ما قاله لنا أحد الأطفال.

الحطّ من قدر الطفل يمكن أن يرتبط مع عدم الإنتباه إلى إهتمامات الطفل، ومع تعابير الإزدراء والإستخفاف التي تقال بحقه: (السخرية منه إذا أخفق في اللعب، أو إذا لم يستطع قراءة الشعر، أو الرسم، أو الغناء الخ). يجب ألاّ ننسى دور تلك الأساليب الأخرى في التربية، كالعقاب الجسدي، التهديدات، الحرمان من اللباس والغذاء، بالإضافة الى النعوت البذيئة، والشتائم الفاحشة الخ . . . . .

الخطأ الآخر هو المغالاة في التقييم. هناك بعض الأهل الذين يُرْجِعُون، إتجاهات الطفل مهما كانت ضئيلة، إلى السمات الممتازة التي يحوز عليها.

يحضرني الآن مشهد من الفيلم السينمائي المشهور (سيريوجا). الطفل متكدر لأن أهله لا يصطحبونه وإياهم، فيناجي نفسه قائلاً: إذا مت الآن، فإنهم سيقولون عني، بأني كنت طفلاً مطيعاً، مهذباً.

كلمات الصغير هذه، الذي لا يتجاوز عمره الخمس سنوات، تكرر علينا أجوبة الكبار، وتظهر بشكل واضح وجلي تكوّن تصوره عن نفسه، بالرغم من أنه لا زال سطحياً، حيث ينتظر الطفل من الآخرين علاقة مناسبة وعلى قدم المساواة.

«كدّ الروح» هكذا (وصف) / ف.آ. سوخوملينسكي/، مشاعر الطفل، وإمكانيته على المشاركة الوجدانية. القدرة على الإنفعال بأفعاله وأفعال الآخرين، متطورة جداً عند الأطفال قبل سن المدرسة. إنه يشعر بالفرح عندما يمتدحه الآخرون، ويشعر بالحزن عندما يؤنبونه. ويتأثر بسرعة بالخلافات العائلية، بالمشاحنات، وباللهجة الفظة لأقاربه وللأعزاء على قلبه. ولا يستطيع أن يفهم دائماً، من على صواب من أعضاء الأسرة ومن على خطأ، ولكنه يمكن أن يعاني جداً وبشكل عميق من هذه العلاقات غير الموفقة والمشؤومة.

وهذا ما يترك بصماته على سلوكه وعلاقاته بالآخرين.

لا يبدو الطفل المدلّل في وضع أفضل بكثير من وضع الطفل المهمل أو المهجور. إنّ أقل تقصير في تلبية رغباته يستدعي لديه إحتجاجاً عاصفاً، وهو غير مهيأ للإجهادات الإنفعالية المعقدة، ولا يقدر، وحتى لا يرغب في احترام مشاعر الآخرين.

إن اختلاف وجهات نظر الكبار في الحياة، وفي معايير الأخلاق وقواعد السلوك، يشكل خطراً على تربية المشاعر الأخلاقية.

تقول لنا الطفلة مارينا وعمرها سبع سنوات: «أحب جدتي كثيراً، إنها طيبة جداً وحنونة وهي تقول لي، بأن أكون دائماً لطيفة وطيبة. وإذا

اقترب مني أحد الأطفال، وطلب مني إعطاءه الدراجة ليقوم بجولة عليها، فيجب علي ألاّ أرفض، لئلا يعتقدون بأني بخيلة وشحيحة. أما أبي فيستاء كثيراً، ويقول، بأن الأولاد إما أن يحطموا الدراجة أو يسرقونها: «الدراجة لها ثمنها: لقد جمعت ثمنها بعرق جبيني. وهل يعتقد الناس أن هذا لا يهمني». ويقول لي بأن لا أعير انتباهاً للآخرين. وأنا أحب أبي أيضاً، لأنه يعمل كثيراً، ولا أريد أن أسيء إلى مشاعره. لذلك فإني أتصرف على النحو التالي: نهاراً عندما يكون والدي في العمل، أعطي الدراجة للأولاد لكي يلعبوا. وعندما يعود والدي من العمل، لا أعطي الدراجة لأحد، إنما ألعب وحدي، إني أشعر بالخجل أمام الأولاد، وأرثي لحال والدي. . . ».

هذا الوضع الذي تجد فيه الطفلة نفسها ليس سهلاً على الإطلاق. أنْ تمارس خياراً أخلاقياً في مثل هذه الحالات، يعجز عنه حتى الكبار. فكم بالأحرى الصغار. لا تعرف الإبنة بل لا تفهم جوهر الخلاف بين الهدف المعيشي للأب والجدة، ولكنها متأثرة به بشكل واضح كعدم توافق جدّي للغاية. من الممكن في هذه الحالة أن ينشأ عند الأطفال إجهاد إنفعالي، وحتى إنحرفات عُصابية.

لا تنحصر خطورة مثل هذه الحالات بالحالات النفسية فقط. إن سن ما قبل المدرسة كما هو معروف، هو مرحلة تشكلّ التصورات الأخلاقية الأولى عن الخير والشر، والشرف والواجب والضمير. فإذا ما تأتّى للطفل منذ نعومة أظفاره أن يقوم بأعمال تخالف ضميره، وأن يتأقلم أو يتكيفّ مع المتطلبات المتباينة للآخرين، فأين هي إذاً الوصاية الأخلاقية التي سيأخذها معه في المستقبل في سنوات الفهم الممتاز لجوهر المعايير الإجتماعية؟ إذا كانت إنطباعات الطفولة تترك أثراً لا يُمحى في الوعي وفي مشاعر الشخصية، فهل لنا أن نأمل بجبروت التأثيرات اللاحقة؟ هل يستطيع المعلمّ، المدرسة، وأوساط الرأي العام، أن تستأصل من الجذور، ذلك الشيء السيء الذي غرس في روح الطفل في صغره؟

إنّ تشوّه التصورات الأخلاقية للأطفال غير مخيف بذاته. مفاهيم الطفل عن «الخير والشر»، مرنة جداً. ويستطيع أن يغيّر تقييمه لهذا الحدث أو ذاك بسرعة، تحت تأثير الكبار وخاصة إذا كانوا عزيزين على قلب الطفل. ولكن ما يبقى في ذاكرته من دون شك (حتى من غير أن يعي ذلك)، هو التصور عن عدم ثبات المعايير الأخلاقية ووقتيتها.

عدم أمانة الكبار التي تبدو بريئة للوهلة الأولى (على سبيل المثال: الخداع عن طريق المزاح، الخداع كوسيلة للحصول على الطاعة الخ...)، وعدم قدرتهم أو عدم رغبتهم في الوفاء بوعدهم، تُربي عند الطفل، في المحصلة، علاقة واهنة بالتزاماته الخاصة، وعدم ثقة بالآخرين الذين يتواصل معهم. تخلق التناقضات في الإتجاهات التقييمية الظروف الملائمة لتشكلّ التصوارت عن الطابع الثنائي (المزدوج) للأخلاق ولقواعد السلوك. بعض معايير السلوك من أجل «الإستخدام العام»، والبعض الآخر من أجلك أنت ومن أجل تبرير أفعالك وآثامك.

إن وحدة المتطلبات التربوية هي قانون قطعي لا يمكن تغييره. والتناقضات الداخلية في الأسرة، التي لا يمكن تفاديها في أغلب الحالات، يجب أن تخفى عن عيون الأطفال، تلك العيون الحساسة والمتيقظة. ومن الصعب الحديث عن تخطيّ التناقضات السيكولوجية الخالصة. ولكن بلوغ وحدة وجهات النظر الأخلاقية والمنطقية في مراعاة المعايير الأخلاقية ضروري لا محالة.

لا تشكل مشاعر الطفل المواقف الحرجة فقط، بقدر ما تشكلها أيام العمل البسيطة في الحياة العائلية. الحوار مع الأطفال، القيام بالنزهات، إرتياد السينما والمسرح، اللقاءات المسائية عند التلفاز، إستقبال الضيوف الخ... كل ذلك يعتبر مصدراً للتأثير العاطفي. ومن المهم ألاّ نقف مكتوفي الأيدي، عند حصول إختلاف في الرأي داخل الأسرة.

«ذهبت إحدى المرات مع إبني إلى السيرك، وكان من عادته أن يحافظ على هدوئه التام، وقت تقديم عروض البهلوانات. ولم يثر لديه ظهور المهرج أية إنفعالات خاصة، بالرغم من أن القاعة كلها استقبلته بعاصفة من التصفيق، وخاصة الأولاد. وانتعش المشاهدون أكثر، عندما بدأ المهرج بممارسة بعض الألعاب البهلوانية مع كلبه. يورى ما زال صامتاً. يبدو أن ذلك لم يعجبه، وهو غير مهتمّ بما يجري على المسرح. ولكن القاعة جمدت فجأة. فالكلب قد انزلق من على كتف المهرج وكاد أن يسقط أرضاً، إلاّ أنه أمسكه من رجله. فعوى الكلب. وتأوّه تعاطفاً معه أحد الأطفال. أما يورى فقد ثبت نظره على الحلبة حيث لم يستطع المهرج إمساك الكلب. فأفلت منه، وسقط بشكل أخرق على رجل المهرج، وعوى بشكل مخيف. وفجأة ووسط هذا الصمت المتوتّر دوى ضحك إبني الجهوري، الفرح. لقد صُدِمْت. فهذا الضحك لم ينسجم مع الصمت المطبق للمتفرجين. وانحنيت نحو إبني يوري وسألته: (لماذا ضحكت؟! ألم تأسف على الكلب؟». وتهدل يوري فجأة، وأصبح وجهه لا مبالياً، وهزّ كتفيه وقال: «لقد سقط الكلب بقوة على الأرض!». عندها انتابني الخوف. لماذا لم أستطع ملاحظة ذلك سابقاً؟ لماذا لم أر بأن انفعالات الطفل، تختلف كثيراً عن إنفعالات الآخرين. لقد فهمت الآن أنّي بإنشغالي بأعمالي اليومية، لم أعرف مشاعر طفلي، ولم أستطع أن أفهم حالته، وأن أفسرّ بعض الأفعال التي لم يكن لديّ الوقت أبداً للإنتباه إليها، بالرغم من أنها كانت غريبة حتى في السابق...».

يمكن أن نواجه في حب الأهل العميق والصادق إتجاهين متطرفين. أحدهما يمكن أن نعبّر عنه بالصيغة التالية: «إبني - ما أريده، يفعله». والصيغة الثانية «إبني - ما يريده يفعله». ليس من الصعب ملاحظة أن نقطة الإنطلاق في التربية، في كلتا الحالتين ليست في مصلحة الطفل. إمّا القمع

المتسلط لشخصيته ولمشاعره، وإمّا اللامبالاة وإهمال حالته العاطفية. وضع الأهل هذا، خاصة عندما يضعون أنفسهم في مركز إهتمام التربية، يمكن أن يُدعى بالوضع الأناني. فالأهل، على سبيل المثال، لم يوفروا لا الجهد ولا الوقت من أجل أن يسلك أطفالهم سلوكاً لا عيب فيه. لا تستدعي حياة مثل هذا الطفل الحسد دائماً. هناك قَسْرٌ لرغباته، تنظيم قاس لوقته، وكبت للتجليات الطبيعية للطفولة. بإسم ماذا؟ إسألوا هؤلاء الأهل فيجيبونكم- لخير طفلنا.

وفي واقع الأمر؟

عند الأهل، في بعض الأُسر، ظمأ لا يروى لبلوغ شيء ما في مجال الفن وفي المجتمع. «نحن لم نبلغه، فليبلغه طفلنا». ويتبنّون مبدأ ضيّق الأفق في بعض الحالات: (فليكن أفضل من الناس الآخرين). وفي حالة ثالثة يتباهون بالرغبة البسيطة عند أطفالهم الخ.....

هذا المبدأ في التعامل مع الطفل يخلق منه إمّا كائناً ضعيف الإرادة، طفلياً(*)، وإما كائناً قاسياً وعدوانياً.

يتكون هذا النوع الانفعالي لشخصية الطفل تقريباً في العائلات التي يسود فيها المبدأ المركزي[1] حيث يبدو الطفل في مركز اهتمام العائلة، وحيث يتوحّد الأهل معه من خلال تقمصّهم لمشاعره ورغباته، بحيث يحرمهم ذلك من إمكانية السيطرة على حياته الإنفعالية (العاطفية)، ويبدو وسطه الروحي الداخلي باباً مغلقاً بإحكام أمام الأهل.

(*) الطفلية- تخلف في التطور يتميز بوجود بعض السمات الفيزيائية والسيكولوجية التي تميز الأطفال، عن الناس البالغين.

(١) المبدأ المركزي (Centrum)- مبدأ لمجموعة من النظم التربوية الغربية في التربية الحرة (جان جاك روسو). ينفي هذا المبدأ، التعليم المنتظم للأطفال وتربيتهم حسب مناهج موضوعة سلفاً أو حسب برنامج صارم. يتطلب تنظيم الدروس فقط على اساس الرغبات والاهتمامات الناشئة عند الاطفال (م).

لقد علّقت إحدى الأمهات بصدق على هذه الحالة: قائلة «عندما أقدم للطفل لعبة جميلة، شوكولا لذيذة، فإن روحي تفرح وهذا يسعدني تماماً، لأني أشعر بإمكانية تقديم هذا الفرح والسرور. ولكن هل يفرح طفلي، لذلك؟ ألا يبدو أننا نحقق السعادة لأنفسنا فحسب، عندما نفترض أننا نقدمها إلى الطفل؟». «أنا وطفلي»، «طفلي وأنا» إنه تطرّف. نقطة البدء تقع بينهما، والأصح هكذا: «وطفلي وأنا». يجب أن تبدأ نقطة البدء، على الأرجح، من الطفل.

عندما لا يلعب أحَدٌ مع الطفل

يدور الحديث هنا عن ذلك الإنحراف في التربية الذي يُعَرَّف علميا بأنه ندرة التواصل مع الأتراب. الأطفال الصغار قبل المدرسة ودودون وأليفون جداً. هذا يخص كل الأطفال المترعرعين بشكل عادي، بالإضافة إلى البهجة والتفاؤل أيضاً. إذا كان الطفل الصغير من ٣ ـ ٤ سنوات يمكن أن يكتفي تماماً بصحبة أهله، وصحبة اللُّعب والألعاب، فإن الطفل الذي عمره خمس سنوات لا يكتفي بذلك، وإنما يحتاج إلى رفاق يلعبون معه.

العقاب الصارم بالنسبة له، هو إبعاده عن الآخرين وعن أترابه.

في مجال علم العاهات (defectinae) توجد مقولة تشيخيصية بسيطة وموثوق بها، تساعد في التعرّف على الإنحرافات في نموّ الاطفال. يسألونه: «مع من تلعب؟ وما هي الألعاب التي تمارسها؟». إذا اشتكى الطفل من أترابه «وقال لا يريدون أن يلعبوا معي»، فينبغي عندئذ التفكير ملياً. الشرط الأول والضروري لقبول الطفل في الإشتراك في اللعبة، هو الرغبة والقدرة على مراعاة قواعدها.

إليكم هذه الحكاية التي روتها إحدى المربيات في روضة الأطفال: كوليا طفل من أسرة جيدة، إنه لطيف ومهذب مع الكبار. ولكن الأطفال لا يحبونه كثيراً. عندما يلعبون بالسيارات، فإنه يأخذ لنفسه الكبيرة منها،

والأكثر جمالاً. ولا يسمح لأحد أن يلمسها. وإذا قلت له: «لست أنت الوحيد صاحب هذه السيارة» فإنه يتبرّم ويتجه نحو الزاوية. ولكنه لا يعطي السيارة لأحد. وإذا لعبوا لعبة عسكرية (لعبة الحرب) فانه يصرخ ويعطي الأوامر، ولا يعترف بأية أوامر أخرى تصدر عن غيره. إنه يأخذ ألعاب غيره بكل سرور، ويحطمها بسرعة، ولكنه لا يعطي لعبته لأي كان، وإذا استطعت إقناعه بإعطائها أحداً ما، فإنه سرعان ما يسترجعها...». يدور الحديث هنا عن الولد الذي يُربَّى على أساس السلوك حسب الرغبات والإهتمامات الناشئة للتوّ عنده. طفل وحيد. كل شيء له، لم يعتد على إخضاع رغباته واهتماماته للآخرين.

عدم الإستقرار العاطفي عند بعض الأطفال يعيق إمكانية اللعب مع أترابهم، إضافة إلى كونهم عدائيين وسلبيين مما يؤدي إِلى نفور الآخرين منهم.

ويمكن أن تندرج في أساس عدم الاستقرار هذا خصائص المزاج، وزيادة التهيّج العصبي، وعدم القدرة على ضبط النفس، وعدم الكفاءة في الإندماج بجو اللعب العام.

أمّا بالنسبة للأطفال الذين يعانون من عاهات جسدية، فإن اللعب لا يجلب لهم السعادة، بقدر ما يجلب لهم التعاسة والإضطرابات الدائمة.

يتصف الأطفال بالكرم وجودة النفس، ولكنهم قساة في الوقت نفسه، باستطاعتهم السخرية من التلعثم والضحك على الطفل الأعرج، ويستطيعون بالمقابل الإهتمام بهم بشكل مؤثر مثير للعواطف.

يرتبط كل ذلك ببراعة الأهل في التقييم الصحيح لسلوك الأطفال والتنظيم المتقن لألعابهم. لماذا، على سبيل المثال، يضعون الأطفال المتخلفين عقلياً في مؤسسات خاصة قبل المدرسة؟ لأنهم يشغلون في الألعاب أماكن غير ملائمة على الإطلاق. حيث يسخر الآخرون منهم، عندما يسمعون

أجوبتهم الخرقاء، أو عندما يلاحظون ردود أفعالهم غير المناسبة تماماً. فالمتخلّف عقلياً يمكن أن يشعر بنفسه متساوياً مع الآخرين، عندما يكون وسط أناس من أمثاله، يلعبون معه، ويقوم بالدور الذي يعجبه أكثر. إذا قال إبنك: «أنا لا أريد أن ألعب معه»، أتركوا كل شيء وفتشوا بسرعة عن السبب، إنه إنذار الخطر.

ويمكن أن نواجه الحالة التالية: طفل ذو تربية جيدة، وجد نفسه في محيط من الأطفال ذوى تربية سيئة. مثال ذلك: إنتقال الأسرة، وتغيّر ظروف الحياة، وظهور جيران جدد الخ. . . هذه الأسباب غير كافية لتفسير عدم رغبة الطفل في اللعب مع أترابه. إذا لم يجد الطفل لغة مشتركة مع الأطفال الآخرين، ينبغي عندئذ أن نستفسر عن قدرته على التأقلم مع مختلف الظروف، وعن سماته في التعامل مع الآخرين.

جميع الأطفال قبل المدرسة ودودون ولطيفوا المعشر. إنهم يكيفّون بسهولة إهتماماتهم مع إهتمامات الأطفال الآخرين.

مهما كانت تربية الأطفال، جيدة أم سيئة (من وجهة نظر أمّ أو أب معين) فإنهم دائماً يستفيدون من خبرة بعضهم البعض. ولا حاجة للأهل أن يُملوا على إبنهم بشكل ديكتاتوري: «صادق هذا، أمّا ذاك فابتعد عنه».

يجب الإنتباه إلى أن الحديث يدور عن الأطفال قبل المدرسة. مع أن هذه التحريمات غير مرغوبة حتى لاحقاً، ولكنها تمتلك طابع الإستراتيجية التربوية عند الأطفال قبل سن المدرسة. لماذا نعير إنتباهاً كبيراً إلى علاقة الطفل باللعب؟ إنها مسائل تتعلّق بالتواصل، والحياة ضمن جماعات الأطفال.

لا أريد الذهاب إلى روضة الأطفال.....

هناك أطفال يحبّون بيتهم (لا يستغنون عن جوّ البيت). لقد ترعرعوا وهم محاطون بحب أهلهم، جداتهم وأجدادهم. وتعوّدوا على نمط محدد

من العلاقات أولاهم عناية خاصة جداً، ووضعهم في مركز الإهتمام والرعاية. للتربية البيتية فضائل كثيرة ولكنها تشتمل أيضاً على سلسلة كاملة من العيوب.

أيّ معلم للصفوف الأولى، وحتى الذي لم يتعرّف بعد، على تلاميذه بالتفصيل، يمكنه أن يحدد من دون خطأ، الأطفال الذين ارتادوا روضة الأطفال، وأولئك الأطفال الذين ترعرعوا في ظروف بيتية. ومما يميز الأطفال الذين ارتادوا رياض الأطفال: التطّور العام الجيّد، الإستقرار العاطفي، حب المعاشرة، الهمّة العالية، والفعالية الإجتماعية الكبيرة، تشتت التفكير، وعدم الانضباط.

الأطفال البيتّيون، أكثر انغلاقاً، وأقلّ فعالية، ولكنهم يتميزون بشدة تركيزهم وانتباههم، ويحبهم للإنضباط.

غالباً ما بكي الأطفال البيتيون في الأيام الأولى لتواجدهم في روضة الأطفال، ويطلبون العودة إلى البيت، إلى أمهم، ويخجلون من الخروج من الصف خلال الفرصة.

هذا لايعني، بطبيعة الحال، بأن التربية البيتية أحس أو أسوأ من التربية الإجتماعية أي في محيط أوسع. لكل منها خصائصها التي ينبغي أخذها بعين الإعتبار.

إنتقال الطفل البيتي (الذي ترعرع في جو البيت) إلى روضة الأطفال يجب أن يكون دائماً ممتعاً بالنسبة للطفل، حيث توجد مجموعة واسعة من الأتراب، وإمكانات أكبر للعّب!..

يجب على الطفل أن ينتظر اليوم التالي بفارغ الصبر، وأن يغادر مساء، صحبة الأطفال من غير رغبة منه. هذا هو شعور الكثيرين من الأطفال قبل سن المدرسة، الكثيرون ولكن ليس الجميع. «عندنا، كما في الحكايات، ثلاثة عصور من رياض الأطفال: عصر ذهبي وعصر فضي،

وعصر برونزي. وبعد ذلك يأتي كالعادة العصر الحجري. في البداية لم يستطع أندري إنتظار بزوغ فجر اليوم التالي. وعندما نصطحبه معنا مساء إلى البيت يسألنا دائماً: «هل الصباح قريب؟» لقد أعجبه الأطفال جداً، والمربية والألعاب، كان ذلك العصر الذهبي. بعد ذلك صار اندري يستيقظ بصعوبة. وعندما نحاول إيقاظه يزمجر قائلا: «الوقت ما زال باكراً للذهاب إلى روضة الأطفال». لقد ذهب عن طيب خاطر، ولكن من دون لهفة كما في السابق. لقد اعتاد على ما يبدو، وتلاشت عنده جدّة الأحاسيس، وأصبح النظام اليومي مضجراً إلى حد ما. لقد كان ذلك العصر الفضّي.

بدأ الخلل يظهر بعد نصف سنة. صار يذهب إلى الروضة من دون رغبة، وكان ينتظر أيام العطل بفارغ الصبر. كان يجيب عن أسئلتي باختصار شديد: «أشعر بالملل» كيف ذلك؟ لماذا يجب أن يشعر بالضجر وسط أطفال كثيرين؟ أجابت المربية على سؤالي هذا، وهي تهز كتفيها: «لا ألاحظ شيئاً ذا أهمية، لم يتغيّر أي شيء على ما يبدو. إنه في الحقيقة، لم يعد يغنّي كما في السابق، ولا يحب المشاركة باللعب، ولكن كل ذلك ليس مهما جداً....».

لا، كان ذلك جدياً إلى أبعد مما نتصور. وحان ذلك اليوم الذي صرّح فيه اندرتي والدموع تسيل على خديّه، بأنه لم يعد يرغب أكثر في الذهاب إلى روضة الأطفال. وحاولت إقناعه بشتى السبل، ولكن من دون جدوى. «أشعر بالملل، الأولاد يسيئون الي!» إنهم يسيئون إليه! على أنه سابقاً كان بإستطاعته أن يسيىء إلى من يريد.

ومن جديد ذهبت إلى المربية وقالت لي: «إبنك جرىء جداً، وليس مطيعاً جداً، تارة يضحك من دون سبب، وتارة لا تستطيعين أن تجعليه يتكلم حتى كلمة واحدة. إنه يسيء إلى الأولاد، ويشاكسهم، وإذا ما سخر منه أحد ما، فإن ذلك سيؤول إلى العراك لا محالة. عندكم إبن «صعب المراس».

لقد عرفت لاحقاً، كيف بدأ كل هذا. عندما انتزع اليوشا إحدى اللُّعب من أحد الأطفال، أجبرته المربية على إعادتها، وقالت أمام الجميع بأن «اندري كولاك(*) صغير، كل شيء له، ولا شيء للآخرين»، عندها ضحك الجميع، وأصبحوا يشاكسونه ويلقبونه بالكولاك. لم يفهم الأطفال معنى هذه الكلمة، ولكنها أعجبتهم لسبب ما. كانت هذه القصة مقنعة جداً. وقد أبرزنا هنا عدة نقاط هامة. مما لا شك فيه أن الطفل مدلل. طفل وحيد ترعرع في أحضان أهل، وأجداد وجدات محبين ومهتمين. عانى من مرض الحمّى القرمزية ومن التهاب الرئتين. وكانت النتيجة: سرعة غضب مفرط. وقد أدّى اقتران هذه الصفة مع الدلال إلى عدم الإستقرار العاطفي وإلى السلوك الأناني.

لقد بحثنا في سمات هؤلاء الأطفال. أما الحديث فيجري الآن عن شيء آخر: لماذا أصبح الطفل يشعر بـ«عدم الراحة وسط مجموعة عادية من الأطفال؟ ومن أي شيء ابتدأت انفعالاته؟ كان سببها الجملة التي قالتها المربية بحق أندريه عندما نعتته بـ«الكولاك»، حيث تلقف الأولاد هذه الكلمة، وأصبحت لقباً. فالمربي هو الشخص الأكثر نفوذاً، علاقته بالأطفال تحدد علاقتهم فيما بينهم. ويصبح أولئك الذين يمدحهم المربي موضوعاً للتواصل وأولئك الذين يؤنبهم المربّي (موضوعاً لعدم الرغبة في التواصل معهم، حيث يتجنبهم الآخرون، ولا يرغبون في مصادقتهم ويتخذ الأتراب تجاه هؤلاء «من غير وعي منهم على الإطلاق» ما يرونه من عقوبات، كتجاهلهم أثناء اللعب، والألقاب، وبعض الصدمات الخفيفة أحياناً. . . الخ.

يجب ألاّ نتصور كل شيء بهذه البساطة الزائدة، وألاّ تُدرك كل كلمة من كلمات المربّي بشكل فعّال وصحيح، وألاّ تحدد مباشرة علاقة مجموعة الأطفال بشخص منفرد. ولكي تفعل الكلمة فعلها، يجب أن تتوافر بعض

(*) كولاك ـ فلاح غني.

المقدمات الملائمة لذلك. وكانت هذه المقدمات متوفرة فيما يتلقّ بـ أندري، وهي سرعة الإنفعال، وعدم القدرة في أن يكون رفيقاً جيداً أثناء اللعب، وحبّ الخصام المتزايد، حيث أدّى كل ذلك إلى تعقيد علاقته مع أترابه وخلق جواً سيكولوجيا غير مناسب.

● إن التقييم السلبي لسلوكه من قبل المربية قد شكّل الدافع لكي يكتسب كره أترابه له شكلاً ملموساً، تجسد في اللقب الذي حصل عليه.

لقد تأثر الطفل بالوضع الذي وجد نفسه فيه من غير أن يفهمه. إن عداوة الآخرين تجبر هؤلاء الأطفال غير الموفقين «المشؤومين» على البحث عن مخرج من هذه الحالة الإنفعالية المشؤومة.

في مثل هذه التقييمات التي يبديها المربّون والأتراب لا يصطدم الطفل فقط بموقفه تجاه سماته الشخصية، بقدر ما يصطدم بعدم رغبة المحيطين به في الإعتراف له بحقه في الإنتباه إلى نفسه، وإلى إهتماماته ورعايتها، مهما بدت صغيرة وغير ذات أهمية في نظر الكبار.

يحاول الطفل المحروم من هذا الإنتباه أن يعيده اليه، ويمكن أن يتخذ هذا المسعى أشكالاً غير متوقعة، وسلبية في أكثر الأحيان، وتصادف هنا حالات العصيان وحب الخصام المتزايد. . . . الخ.

من الصعوبة في هذه الظروف أن نبالغ في تقييم دور المربّي فالحالة النفسية لكل طفل على حدة، لا تتعلق بسلوك المربي فقط، وإنما بسلوك العاملين في مؤسسات الأطفال أيضاً وبعلاقاتهم فيما بينهم.

إن ذلك مهم جداً، فالإنسان كائن إجتماعي، ولا وجود له خارج المجتمع، ولا يستطيع أن ينمو ويصبح شخصية متكاملة. إن قدرة الإنسان على العيش وسط أناس آخرين لا تظهر فجأة فهي ليست فطرية، ومن الممكن القول بأن الطفل يتعود على الحياة «وسط الناس» من لحظة الولادة.

يتم بلوغ ذلك عن طريق خلق بعض السمات الفردية ـ السيكولوجية

عنده (الإنتباه، الإرادة، النمو العاطفي) ومهارات السلوك الإنضباطي المهذّب. ولا يمكن للسمات الفردية ـ السيكولوجية أن تنمو في معزل عن السمات الإجتماعية. كلٌ منهما يرتبط بشكل وثيق مع الآخر. فالسمات الفردية ـ السيكولوجية تشكّل القاعدة من أجل الجوانب الإجتماعية لشخصية الطفل. وقد برهنّا سابقاً، على سبيل المثال، بأن عدم الإستقرار العاطفي للطفل يعيق أو يحد من لعبه مع أترابه، ويسبب علاقتهم السلبية به. ويتأثر الطفل بذلك على طريقته الخاصة. ويمكن أن يطال النفور من رفاق اللعب وكراهيتهم، قواعد اللعب، ومعايير السلوك التي تعترف بها المجموعة. ومن هنا الطريق المؤدي إلى العلاقة السلبية ببعض معايير الحياة الإجتماعية. هذه «الحياة الإجتماعية» في روضة الأطفال، لا زالت محدودة بأطر الأسرة، ولكنها معايير إجتماعية على كل حال، ويعني إستيعابها أو التمكّن منها، أننا صعدنا الدرجات الأولى في الأخلاق التي ستقودنا إلى «الأخلاق الكبرى» لكل المجتمع.

يبدأ الطفل في كره معايير المجموعة عندما تتأزم علاقته مع أترابه في المجموعة وتكمن حكمة المربّي، قبل كل شيء، في الحفاظ على التفاعل المتبادل ضمن المجموعة، والحيلولة دون إنهياره، كي لا تتكدر حياة الطفل بالإنفعالات القاسية بالنسبة لعمره. يشكل (إقحام) الطفل في العالم المعقد للعلاقات البشرية أحد المهام الرئيسية للتربية. هذا ما كتبه المربّي العظيم / سوخوملينسكي/ ، فهي في الوقت نفسه من أصعب المهمّات. لا تكفي هنا القدرة على رؤية العلاقات بين الأطفال، إذ أن القدرة على التنبؤ بإتجاهات تطورها، مهم جداً.

لا يقدّم المربّي الخبير والحساس للأطفال أية حجة على الإطلاق، للتعامل مع بعضهم البعض بإزدراء وعداوة. فهو يلاحظ في الذنب الذي يبدو بريئاً للوهلة الأولى، خللاً جدياً في المواقع الأخلاقية المستقبلية. يقدم / سوخوملينسكي/ وصفاً للحالة التالية:

ذهب طفل في الرابعة من العمر، إلى الفناء ليقضي حاجته بدل أن يذهب إلى المرحاض، على مرأى من أمه وجارتها. لم تستأ الأم من ذلك، وإنما قالت بحنان: «ألا ترين، أي ولد عندنا، إنه لا يخشى شيئاً».

من النظرة الوقحة، ومن الشفاه المتبرّمة، ومن الإبتسامة الساخرة المستخفة لهذا الولد الفظّ ذي الأربع سنوات، يمكنك أن تخمن مباشرة أي كائن سافل سيكون ذلك في المستقبل، إذا لم تزجره، ولم تجبره على أن ينظر إلى نفسه بعيون الناس الآخرين».

إذا أخذنا من كل العوامل المتنوعة للتطور الأخلاقي للأطفال قبل سن المدرسة، الرئيسية منها، والأكثر جوهرية، فإننا يمكن أن نعبّر عنها بالصيغة المختصرة التالية: التحضير السيكولوجي والتربوي للمدرسة، وللحياة ضمن جماعة متتلمذة من الأطفال، وحياة الطفل ضمن مجموعة في روضة الأطفال، يمثل، درجة تحضيرية نحو المدرسة. إنّ حصول أي اخفاق في مثل هذه الظروف هو إنذار بالخطر. «لن أذهب إلى روضة الأطفال» في هذه الجملة إنذار بالخطر ليس للأهل فقط وإنما للمربين أيضاً بالإضافة إلى الطفل نفسه.

* * *

المحاورة الخامسة

«هموم وهواجس التلميذ الصغير»

لا يوجد ولا يمكن أن يوجد أطفال

لا يريدون التعلّم منذ بداية الدراسة.

عدم القدرة على الكدح تولّد عدم الرغبة،

عدم الرغبة ـ الكسل.

كل حلقة جديدة في سلسلة العيوب هذه

تصبح أكثر متانةً

وتحطيمها يصبح أصعب فأصعب.

الوسيلة الرئيسة لتجنّب هذه العيوب ـ

تعليم الخاضعين للتربية على العمل باستقلالية

منذ الصغر

ب.آ. سوخوملينسكي.

أقرب أعوان التلميذ وأفضلهم يمكن أن يكونوا أهله،

فيما لو أرادوا وعملوا بشكل جدّي على تربية أطفالهم،

وإذا امتلكوا المعارف الكافية لكي يساعدوهم

كما ينبغي.

ب.غ. ريد كين.

لقد كان أكثر ما يدهشني، كمدير مدرسة سابق، لوحة تتكرر بإستمرار، حيث يصطف في الأول من أيلول، طابور طويل بهي إحتفالي من تلاميذ الصف الأول، والتهاني و. . . . الدموع تسيل على وجوه الكثير من الأمهات.

لماذا يقترن هذا اليوم الرائع بـ «دموع الأمهات»؟ ما هي أسباب الشجن؟ هل يمكن أن تكون هذه الدموع هي دموع الحنان، والفرح؟ هلّموا نتعمق في جوهر الأمر. حتى الواحد والثلاثين من آب كان إبنهم في البيت مجرد طفل. وفي الأول من أيلول أصبح تلميذاً! انتهت طفولته الخالية من الهموم، ودخل في حياته وإلى الأبد عملاً مكثفاً ودائماً، وانخرط في منظومة من الإرتباطات المسؤولة، التي سترافقه طوال حياته. . . . من المفهوم، أن مثل هذه الأفكار لا يستطيع قلب أي أمّ تحمّله. عتبة المدرسة - ليس مفهوماً فيزيائياً خالصاً فحسب - وليس سمة متجسدة فقط، تفصل حدود المؤسسة التعليمية عن العالم المحيط. لا ، لا يوجد ذلك الحدّ الفاصل بين مرحلة الطفولة وبداية مرحلة سن الرشد، وصيرورة الطفل مواطناً. من المهم جداً أن يكون عند الطفل الرغبة في الدراسة منذ الأيام الأولى لدخوله المدرسة، وجلوسه وراء المقعد الدراسي. فالكثير سيتعلق مستقبلاً بالكيفية التي ستسير فيها السنوات الأولى من الدراسة: إذا كانت مرحلة ما قبل المدرسة تشكل شخصية المستقبل، فإن المدرسة الإبتدائية تشكل قاعدة التعليم الإعدادي. بهذا الشكل يمكننا تحديد الأهمية العظمى لهذه المرحلة الهامة في حياة كل طفل. تزداد أهمية هذه المرحلة بإرتباطها خصوصاً مع قضية إصلاح المدرسة - انه حدث عظيم، وواقعة ذات أهمية إجتماعية كبيرة - ويخص هذا الإصلاح كل أعضاء المجتمع. ومن أهم منجزات الإصلاح هي إبتداء الدراسة منذ سن السادسة.

فالأهل ينتابهم القلق - ألا نحرم، بهذا الشكل، الأطفال من طفولتهم؟ ويضاف إلى قلق الأهل أيضاً قلق المربين العاملين في مؤسسات تربية الأطفال قبل المدرسة - هل يمكنهم بعد ذلك تجهيز الأطفال للمدرسة؟ أمّا معلمو الصفوف الأولى فيتساءلون: هل بإستطاعة الأطفال في سن السادسة أن يستوعبوا منهاج الصف الأول الإبتدائي؟ ويبقى أخيراً أطباء الأطفال الذين أدلوا بدلوهم أيضاً: ألا تؤثر الدراسة المبكرة على صحة الأطفال وعلى حالتهم النفسية؟

إن القلق في محله، شرعي وقانوني. ولكن العلم السيكولوجي - التربوي لا يقف مكانه. إنه يقوم بالأبحاث منذ زمن بعيد. وفتح لنا آفاقاً واسعة تحدونا للتفاؤل: فالتعليم منذ السنة السادسة أصبح ملحاً، وسيكون الأطفال أكثر إستعداد للتعلّم في الصفوف الأولى.

فالمرحلة الإبتدائية المؤلفة من ثلاث سنوات، ستصبح أربع سنوات، هذا يعني أننا سوف لا نُحمل الأطفال جهداً فوق استطاعتهم، وبمقدورهم إستيعاب المعلومات بشكل أفضل في الصفوف الإعدادية والثانوية. وعن المهمات التي تقع على عاتق المدرسة، يكتب عالم النفس السوفييتي والمربيّ والدكتور في العلوم السيكولوجية البروفسور / ش. آ. أمونا شفيلي/ ، مقالة ستكون موضوعنا اللاحق.

تبدو لنا هذه المقالة للوهلة الأولى وكأنها مخصصة لعلماء التربية فقط. مما لا شك فيه أنها مخصصة لهم بالدرجة الأولى، ولكنها مفيدة للأهل أيضاً: فيها الكثير من النصائح فيما يخصّ تجهيز الأطفال الصغار، الذين بلغوا السادسة من العمر، إلى المدرسة. إنه عمل لا يخص المعلمين فقط وإنما الأهل أيضاً. ليس مصادفة أن تُجري المدارس دروساً خاصة للآباء وللأمهات للتعرف على المنهاج الدراسي للصفوف الأولى، لكي يستطيع الأهل مساعدة أطفالهم في تحضير واجباتهم البيتية الصعبة. في الرياضيات والقراءة والكتابة.

يدور الحديث هنا عن الأطفال الأصغر سناً ـ الذين عمرهم ست سنوات. على الأهل أن يكونوا بصورة الوضع تماماً، فيما يخصّ تنظيم العملية الدراسية معهم، لكي يتجنبوا إمكانية الوقوع في الخطأ أثناء التربية.

تساعد مقالة البروفسور / ش. آ. أمونا شفيلي/، على فهم خصوصيات الأطفال في سن السادسة من العمر، وبأي شيء يختلفون عن أطفال السابعة من العمر، وكيف ننظم الدروس معهم في الظروف البيتية، لكي نسهل عليهم عملية إنخراطهم في المرحلة الجديدة والصعبة من الحياة ـ وهي الدراسة في المدرسة. إن قائمة الأسئلة في نهاية المقالة (هل يمكننا إجبار الطفل على التنفيذ الفوري للأوامر والوصايا؟ وهل يمكن ان نطلب من الأطفال الجلوس من غير أن يأتوا بأية حركة؟ هل علينا أن ننزع من الطفل اللعبة التي أحضرها معه إلى المدرسة؟ وأسئلة أخرى) تخص الأهل كثيراً.

إذا أرادوا أن يعرفوا خصائص عمل المربين مع أطفالهم الصغار في السادسة من العمر، عليهم أن يفهموا بشكل أفضل واجباتهم المهمة، وخصوصاً لتسهيل الفهم المتبادل الكامل بين العائلة والمدرسة.

ش. آ. أمونا شفيلي
التأمّل في غد الأطفال ذوي السادسة

(فصل من كتاب «مرحباً أيها الأطفال»)

لقد تأملت بقضية طفولة أولئك الأطفال الصغار ذوي السنوات الست من العمر، وبدا لي أحياناً، بإنني بإجباري الأطفال على الجلوس وراء مقاعد الدراسة، أنتزع منهم الطفولة، وتأملت أيضاً في أن المعلمين والمربين والأمهات والآباء، يمكن أن ينتزعوا الطفولة من الأطفال، بمجرد دعوتهم للجلوس وراء المقاعد والمباشرة بتعليمهم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب.

غالباً ما أتذكر صديقتي في الكلية كان عمرها سبعين عاماً. لقد باشرت منذ عشرين عاماً بإجراء تجاربها الأولى بتدريس أطفال السادسة القواعد والرياضيات في شروط رياض الأطفال. لقد سمعتها تقول في أحد الدروس: «أتعرفون أنّ هؤلاء الأطفال سيقطعون شوطاً بعيداً. لكي يعيش أطفال السادسة طفولتهم الحقيقية، ينبغي تعليمهم». بدت لي هذه الكلمات حينها متناقضة ظاهرياً. «ما الذي يدعونا إلى إنتزاع الطفولة من الأطفال سلفاً قبل سنة! هكذا سمعت عن لسان بعض العلماء - لماذا السرعة؟».

أمّا هي فقالت: نعلّمهم لكي نجعلهم يحوزون على الطفولة الحقيقية».

لا أحد يجادل الآن في أنه من الضروري إلحاق الأطفال بالدراسة قبل سنة من الأوان.

جيش من أطفال السادسة شقّوا طريقهم إلى المدرسة، والبعض الآخر، اندفع إلى داخلها و «احتلّ» أفضل غرف الدراسة، وطالبوا بأفضل المعلمين وأذكاهم: «علّمونا!». والقسم الآخر من هذا الجيش احتشد وتجمع حول مربينه في رياض الأطفال، وجلس وراء الطاولات، ولم يكتف بطلب الطعام اللذيذ فحسب، بل طالب أيضاً بالدراسة الجيدة: «علمّونا!». والبعض منهم إنضمّ إلى آبائهم وأمهاتهم وطلب منهم ليس فقط الشوكولا والألعاب ولكن الكتب أيضاً والأحرف والأعداد والمساطر. أما ما تبقّى منهم فقد قرر التعامل مع المسألة المعرفية بالإعتماد على سعة إطّلاع الآخرين ومساعدة بعضهم البعض في القواعد وعلى إمكاناتهم الذاتية في تخمين الحروف المصورة المعروضة على شاشة التلفاز، وعلى لافتات المخازن وفي العناوين الغريضة للجرائد والمجلاّت.

ها هي الطفولة التي تمرّ حالياً!

من هم - إنهم أطفال السادسة؟

هل يُعقل أنهم ملّوا من طفولتهم؟ هل يعقل أن الطبيعة ـ الأم قد غيّرت فيهم خصائص العمر؟ بالطبع لا، فالطبيعة لم تغيّر فيهم أي شيء.

إنهم أطفال السادسة، يشكلون ظاهرة الثمانينات. فهم لا يسعون الى هجر طفولتهم، وإنما إلى إيجاد الطفولة العاقلة. وهنا يكمن، على الأرجح، مغزى كلمات صديقتي القديمة. واقتنعت بذلك أكثر فأكثر، وأقبلت على تعليم وتربية أجيال وأجيال من أطفال السادسة.

ماذا تعني الطفولة؟ ماذا تعني الطفولة البهيجة والسعيدة؟ وكيف تفهم النداء التالي: «لنحافظ على طفولة الأطفال» كان يجب إيجاد الأجوبة عن هذه الأسئلة من أجل راحة البال ومن أجل تنشيط الوجدان التربوي لديّ.

واقتنعت من خلال ملاحظاتي عن أطفال السادسة، بأن الطفولة ليست عبارة عن مرحلة من العمر فحسب، يريد الطفل خلالها اللعب والقفز والركض والتنزه، والإتكّال أيضاً. الطفولة الحقيقية ـ هي عملية نموّ، وحياة إنسان تنتقل من حالة كمية إلى أخرى أكثر رقياً. لا يفكر الطفل بذلك، بالرغم من أن قواه النامية تأخذ هذا المنحى. ولكن الطفل نفسه ليس في حالة تؤهله لإنجاز عملية نضجه. يجب أن يهبّ لمساعدته أولئك الناس الذين يعتنون به ويقدمون له المعارف والخبرة.

ويبدو لي، بأنه في عملية النضج هذه تحديداً، يكمن مصدر بهجة وسعادة حياة الطفولة. من العبث أن نفكّر أحياناً، بأننا يمكن أن نسعد الأطفال بالهدايا فحسب أو بكثرةالنزهات.

وبالنسبة لي أصبح أمراً واقعاً، بأن أطفال السادسة اليوم لا يسعدون بذلك فقط. علّمه قراءة الحكايات، علّمه أساليب معرفة الواقع، وبقناعتي، فإنه سوف يفرح كثيراً لأنه يلامس مستقبله. فكل خطوة نحو النضج يخطوها الطفل بمساعدة الكبار، تشكّل مصدراً للسعادة التي يعيشها الطفل.

وهكذا قمت بصياغة وصيّة، من الممكن أن تحوي في ذاتها قوة القانون:

مساعدة الطفل على النضج وفقاً لقواه المتنامية ـ هذا يعني أن نجعل طفولته سارّة جذابة، ومشبعة عاطفياً، وعلى العكس من ذلك: إذا أبطأنا هذه الحركة نحو النضج عن طريق إعطاء الطفل الحرية الكاملة إعتماداً على المنطق الخيالي الكاذب، القائل بعدم حرمان الطفل من طفولته ـ هذا يعني حرمانه من المشاعر الحقيقية التي تمنحه فرح الطفولة.

يمكن البرهنة على هذه الإستدلالات العقلية إعتماداً على أن طبيعة الطفل لم تتغيّر، وإنما الذي تغيّر هو الوسط الذي يعيش فيه الطفل، والحياة التي تؤثر على طبيعته وفق إحدى نتائج هذه التغيّرات هي رغبة الطفل بتعلّم القراءة والكتابة والحساب، هذا يعني النضج عن طريق إستيعابه الأشكال الأكثر صعوبة للنشاط البشري.

ـ أطفال السادسة يريدون التعلّم.

أما نحن الكبار، فمستعدّون لإرسال أطفالنا إلى الصفوف التحضيرية في رياض الاطفال، ومجبرون على رعايتهم والإهتمام بهم، لكي لا يشعروا بخيبة الأمل في المدرسة والدراسة. فالعلاقة التي تتشكل عند الأطفال بالمدرسة بعد عام من الدراسة، ليست مسألة فارغة أبداً، وإنما يمكن أن تشكل جوهر الصف التحضيري بالنسبة إلى طفل السادسة.

إن علم تربية الصفوف التحضيرية، وكل الدرجات الأولى في التعليم يجب أن تكون ذات فائدة مضاعفة. من المهم جداً، أن يثق كل طفل بقواه، وأن يُسعد بكل يوم يقضيه في المدرسة، وبكل لقاء مع المربي، وبكل جرس يناديه الى الدرس. وما يكتسب أهمية مبدئية هو أن تغدو الحياة المدرسية بالنسبة لكل تلميذ مغزى حياته الخاصة. الصراخ بوجه الطفل، والشتم، والتخويف، والفظاظة، بالإضافة إلى الأشكال الأخرى من عدم اللباقة التربوية، يجب ألاّ يسمح بها خلال التعامل مع الطفل.

التربية الحقيقية أثناء التعليم الأولي، وأسلوب التعليم والتربية

المشحون بالحب الحقيقي للأطفال، يمكن أن يُبْنى حسب قناعتي، على المبادىء الإنسانية، وليس عن طريق الإكراه وإعطاء الأوامر.

لقد اشتغلنا طويلاً بخلق النظم التربوية المنهاجية، من غير أن نأخذ بعين الإعتبار الأطفال ومساعيهم ومشاعرهم وتوجيهاتهم. لم نأخذ بعين الإعتبار، شخصية الطفل وعزّة نفسه، وسعيه نحو السرور والنجاح. ويجب أن يتم تخطي تربية القهر هذه التي كرست عملياً علاقة الأطفال السلبية بالمدرسة والدراسة والمربين.

لم يولد الأطفال لكي يغيظوا مربّيهم ويعيقوهم في عملية تربيتهم وتعليمهم إياهم أنفسهم. ويجب أن نثق بأن الطفل يخفي في ذاته قدرات وإمكانات لانهائية لمعرفة الواقع، ويخفي في ذاته السعي والشغف نحو المعرفة. وحسب رأيي، فإن كل العمل المتجّه نحو تحديث العملية التعليمية- التربوية في الصفوف الإبتدائية، يجب أن يتجّه نحو تحويل العلاقة الأوامرية بالأطفال إلى علاقة إنسانية. على أن لا يكون ذلك مبادرة شخصية صادرة عن بعض علماء التربية المبدعين، وإنما يجب أن يكون مبدأ لعلمنا التربوي مع الأطفال. أطفال السادسة يريدون التعلّم، بيد أن ذلك لا يعني ابداً، بأنهم سيكونون سلبيين أو لامبالين تجاه الطريقة التي ستتبعها في التعليم.

نظام التعليم الأوامري- الإكراهي، والنظام الإجباري المستخدم مع الأطفال، يمكن أن يؤدي إلى تحطيم الرغبة في الدراسة عند الأطفال وعرقلة تطورهم بصورة مصطنعة. وإذا غاب عن ذهننا أو تناسينا بأن الأطفال لا يستطيعون هجر حاجتهم إلى اللعب، فإنّ أسلوبنا في التعليم لن يكون بالنسبة لهم دليلاً طيباً، وإنما سيكون قاسياً. فالجدال بين العلماء مستمر حتى الآن بصدد تعليم الأطفال من خلال اللعب، وبصدد الفائدة التي سيجنيها الأطفال من ذلك. الكثيرون من الذين يميلون إلى النظام الأوامري التعليمي يتكهنون بأن التعليم يمكن أن يلحق الضرر بالأطفال، الذين سيعتبرون بأن التعليم هو اللعب أو شبيه به. أليس من الأفضل بالنسبة للأطفال أن نجعلهم

يفهمون، ويشعرون منذ البداية، بالصعوبات والمعاناة التي ترافق عملية التعليم؟ ألا يُخفي هذا النوع من التعليم في ثناياه بعض الضرر وخاصة إذا بدا للأطفال فجأة بأن التعليم هو عملية مصحوبة بالآلام والعذاب؟

من الأفضل، برأيي طرح المسألة على الشكل التالي: يجب أن تحمل المسألة في ثناياها توضيح الجوهر السيكولوجي للّعب، وعلى هذا الأساس تتمّ معالجة قضية طابع التعليم. تمتلك القدرة على الإختيار الحر الأهمية الأساسية في اللّعب. فالطفل يختار اللعبة، يلعب بها ما دام لا يضجر منها، ويكفّ عن اللعب عندما يشعر بأنه لبّى حاجته. يشكل الشعور بالإختيار الحر، على ما يبدو لي، الأساس السيكولوجي للّعب.

بيد أن حق الطفل في الإختيار الحرّ لا يعني أبداً بأنه يفضل تلك الأشكال السهلة من النشاط، غير المترافقة بالصعوبات. عندما يختار الطفل اللعبة فإنه يختار الصعوبات المترافقة معها، مما يؤدي به إلى حشد طاقاته وإرادته لتخطيّها. وتكتسب لعبته طابعاً إنفعالياً محفزاً. والسيء في الأمر هو أن يعيش الطفل عملية التعلّم، كما يعيش عملية اللعب. عندئذ لن نتحدث عن التعليم المؤسس على اللعب وإنما عن التعليم الذي اختاره بعض الأطفال بأنفسهم، أي انطلاقاً من مواقعهم أنفسهم ومن حريتهم في الإختيار. هل يبتهج الطفل في اللعب؟ وهل تُدْخِل عملية التعليم البهجة إلى قلبه أيضاً؟ إننا نحن المسؤولين عن إدخال البهجة إلى قلبه، نحن المربين علماء التربية والمعلمين.

يشكّل العام الدراسي الأول نقطة البدء. فعملية التعليم والتربية يجب أن تكون ذات فائدة قصوى، ويجب أن نُجلس الأطفال وراء مقاعد الدراسة، لكي نخلق عندهم الظروف الأكثر ملاءمة لظهور إرهاصات الموهبة في الوقت المناسب، التي تبدأ بالإستيقاظ في هذه المرحلة من العمر تحديداً، والتي تمتلك أهمية كبيرة لتقدّم الأطفال اللاحق والناجح في

نشاطهم المعرفي. ماذا يلزم للطفل لكي يدرس بشكل ناجح؟ تلزمه القدرة على القراءة وفهم المقروء، وكتابة إنطباعاته، وامتلاك وجهة نظر محددة لفهم واستيعاب المادة والظاهرة المدروسة، والقدرة على عزل هذه المواد والظواهر من بين العمليات المتسارعة ومن بين كثرة المواد، والقدرة على التعبير الكلامي عن نتائج هذه الملاحظات. إن امتلاك مهارات كهذه وما يرتبط بها من معارف يحدّد جوهر جاهزية الطفل للتعلّم. ولا يمكن تحقيق التعليم في المدرسة من دون ذلك، كما أنه لا يمكن تحقيقه أيضاً من دون إمتلاك الكلام. تشكل هذه المهارات الأدوات الضرورية لنشاط الطفل التعليمي - المعرفي. بقدر ما تكون هذه المهارات أكثر تطوراً واكتمالاً، بقدر ما يستطيع الطفل وبشكل أفضل إستيعاب المعارف العلمية والمفاهيم والأفعال. إمتلاك الأطفال لهذه المهارات - بغضّ النظر عن الظروف التي تمّت فيها - حتى في ظروف المدرسة، يجب ألاّ نعتبرها تعليماً بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة. إن عملية إمتلاك الطفل القدرة على القراءة والكتابة والحساب البسيط يُسَمّى عادةً مهارة (حذاقة، براعة). بيد أننا يجب أن ننظر إليه كعملية تطور ونمو ستؤدي إلى تكوّن جديد. القراءة، الكتابة ومبادىء الحساب البسيط - إنها أقرب ما تكون إلى مكوّن جديد في عملية نمو الطفل على مستوى حديث من الثقافة، يكتسبه الطفل على الأساس الإجتماعي - السيكولوجي نفسه الذي يكتسب فيه المشي والكلام.

أطفال السادسة يختلفون إلى حد كبير عن أطفال السابعة: بخبرتهم في الحياة، بقدرتهم الإرادية، بمضمون كلامهم وعمقه، وبذخيرة ألفاظهم، وبعصبية أفعالهم، والشيء الأساسي هو التوجّه نحو اللعب والحاجة اليه.

هذا الفارق الضئيل في العمر بين أطفال الصف التحضيري وأطفال الصف الأول يجب أن لا يقودنا إلى الخطأ. لأنه إذا لم نُعط هذا الفارق الأهمية اللازمة فإن خبرة العمل مع الصف التحضيري يمكن أن تنقل بشكل ميكانيكي إلى الصف الأول.

لقد أملت عليّ خبرتي أن اختار عشرة أسئلة ترتبط بتنظيم العمل في الصف التحضيري، وكانت إجابتي عليها بشكل قطعي إما «لا» وإما «نعم».

إليكم الاسئلة التي أجبت عليها بالنفي:

١ ـ هل من الممكن أن نستخدم في الصف التحضيري خبرة العمل ذاتها مع الصف الأول من دون تغيير؟ لا!

٢ ـ هل من الممكن إجبار الأطفال على تنفيذ أوامر ووصايا المربّي من دون إبطاء؟ لا!

٣ ـ هل من الممكن إعطاء الأطفال وظائف بيتية الزامية؟ لا!

٤ ـ هل يمكن أن نضع علامات للأطفال؟ لا!

٥ ـ هل من الممكن أن نعلن في الصف ـ مَنْ مِنَ الأطفال يدرس أفضل من الآخرين؟ لا!

٦ ـ هل من الممكن أن نطلب من الأطفال بشكل صارم أن يجلسوا من دون أن يتحركوا؟ لا!

٧ ـ هل يمكن أن ننتزع من الطفل اللعبة التي أحضرها معه إلى المدرسة؟ لا!

٨ ـ هل يمكن أن نحتفظ بالأطفال للعام الثاني؟ لا!

٩ ـ هل يلزم أن نطلب من الأطفال، أن يذهبوا إلى المدرسة باللباس المدرسي مع الحقائب؟ لا!

١٠ ـ هل يمكن أن نقبل الأطفال الذين لم يكملوا السادسة بعد في الصف التحضيري؟ لا!

وإليكم الاسئلة التي علمتنا التجربة بأن نجيب عنها بالايجاب:

١ ـ هل تلزمنا طريقة خاصة للعمل في الصف التحضيري؟ نعم!

٢ ـ هل من الممكن أن نستخدم في الصف التحضيري خبرة العمل التربوي المتبعّة مع الأطفال قبل سن المدرسة في روضة الأطفال؟ نعم!

٣ ـ هل من الممكن تشجيع الأطفال لكي يستبقوا المربي في الإطلاع على الموضوع الدراسي؟ نعم!

٤ ـ هل يمكن للمربي أن يتناسى بعض الأخطاء قصداً، لكي يجدها الأطفال ويصوبوها؟ نعم!

٥ ـ هل يطلب من المربّي التمثيل في عمله مع الأطفال؟ نعم!

٦ ـ هل من المسموح له اعطاء الأطفال وظائف متنوعة لمنحهم حرية الإختيار؟ نعم!

٧ ـ هل من الضروري تقوية العمل المستقلّ للأطفال؟ نعم!

٨ ـ هل من الضروري أن يقيّم الأطفال الدرس؟ نعم!

٩ ـ هل من الضروري إعطاء الأهل صفات وميزات الأطفال، وتحضير ملخص يحتوي على بعض النماذج من عمل الأطفال؟ نعم!

١٠ ـ هل يجب أن نُجري دروساً مفتوحة من أجل الأهل؟ نعم!

هذه الإجابات الإيجابية والسلبية، والإجابات الأخرى الشبيهة بها، التي يمكن أن تنشأ في المستقبل أثناء العمل مع الأطفال، استخلصتُها، حسب قناعتي من الشيء الرئيسي، من الواقع التربوي الصحيح الوحيد، الذي سأعتمد عليه من الآن فصاعداً.

يجب أن نحب الأطفال من كل قلوبنا، ويجب أن نحبّهم بطريقة تجعلهم يظهرون هذا الحب. يجب أن يفهم المُربي بأن كل يوم دراسي يمر على التلاميذ، وكل درس، هو بمثابة هدية للأطفال.

وكل تواصل للمربّي مع الأطفال يجب أن يبعث فيهم الفرح والسعادة والتفاؤل.

برهنت أبحاث علماء النفس وعلماء التربية بشكل مقنع على أن نجاح التلاميذ أو فشلهم في النشاط التعليمي وخاصة تلاميذ الصف الأول، يحدد خصائص تطورهم الاخلاقي.

فالنجاح لازم وضروري للتلميذ المبتدىء كحاجته للأوكسجين. وكما قال / ب. آ سوخوملينسكي/ ، يجب أن تكون الدراسة بالنسبة للطفل مصدراً لـ «الفرح والحماسة والإندهاش من معرفة الجديد».

بمن يرتبط النجاح؟ بالمعلم طبعاً. فهو الذي يُمسك خيوطه بيديه. وأقل ما يرتبط بالتلميذ نفسه. فالمعلم يمنح الكثير ولكن ليس كل شيء. فإذا لم يكن لدى الطفل القدرة على التواصل، وإذا كانت عنده ذاكرة ضعيفة، وكلام ضعيف، وإذا لم يكن بإستطاعته القراءة والحساب، فسيحكم على نفسه حتماً بالعذاب الإضافي.

لا تخف ايها القارىء من كلمة «محكوم»، فإنها هنا لتقوية المعنى. تسعى المدرسة بالطبع لتخطّي التأخّر (التخلّف) عند الطفل، ويصبّ المعلمون كل جهودهم لكي يربّوا عند الأطفال الذهن والروح. ولكن هل يمكن القيام بهذا العمل لحظياً ومباشرة؟ لا على الأرجح. يلزمنا الوقت والقوى والصبر.

الطفل المتعثر قليلاً في تطوره سوف يرتقي درجات المعرفة بالتدريج، أمّا أترابه الذين سبقوه في التحضير للتعليم المدرسي، سيسبقونه ويقطعون شوطاً كبيراً، بحيث يبدأ الإهمال التربوّي بالتشكّل عند الطفل المتأخر وهذا نوع من المرض عواقبه وخيمة.

من المذنب في هذه الحال؟ يقع جزءٌ غير قليل من الذنب على عاتق الأهل اللامبالين، الذين بإنشغالهم بتأمين الرفاهية المادية لإبنهم أو ابنتهم، غالباً ما ينسون حاجاتهم الذهنية والروحية، ولا يثقلون كاهلهم بالإنشغال بتربية أطفالهم، تاركين الأمور تسير بعفوية. يمكن للأهل أن يعملوا الكثير

لكي يتجنبوا مثل هذه المآسي. سوف لا نتكلّم عن الحياة اليومية للطفل وعن راحته وتعذيبه وتسليته ـ لأن ذلك يعتبر الواجب الأساسي للأهل تجاه أطفالهم. إننا نرغب في لفت إنتباه الأهل الى ضرورة مساعدة الطفل في الدراسة. وتأتي المراقبة في الدرجة الاولى، المراقبة المستمرة غير اللجوجة والمهذبة. إذ أن المراقبة القاسية يمكن أن تقضي على الرغبة في العمل. لا تحوّلوا تنفيذ الواجبات البيتية للطفل الى «عقاب»، كما يحدث أحياناً عند بعض الآباء القساة أو الأمهات، الذين يجبرون أولادهم على اعادة كتابة النص عدة مرات. بيد أن المراقبة لا غنى عنها. فقد نوّه إلى ذلك / ف. آ سوخوملينسكي/ قائلاً: التلميذ في الصفوف الأولى غير مذنب إذا ما نسي القيام بواجبه المدرسي، لأن المراقبة اليومية للكبار لا بد منها».

المراقبة تعطي الكثير، ولكن ليس كل شيء. يوجد في حوزة الأهل ترسانة كبيرة جداً من الإمكانات التربوية، اكثر مما يبدو للوهلة الأولى، عندهم احتياطي كبير من المعلومات، ومهارات في العمل المستقّل. والكثيرون لديهم إمكانات تربوية فطرية، تعطي نتائج ممتازة في حال إستخدامها. فالحديث لا يدور على الارجح، عن إستبدال المعلمين، وإنما عن مساعدة الأطفال.

الطفل لا يريد التعلّم... إنها مصيبة. مصيبة للمعلّم، وللأهل، وله نفسه، فكيف سنواجه هذه المصيبة؟ تساعدنا في ذلك محاضرة عالم النفس. / ك. ف باردين/ ، الذي يقدم لنا الكثير من النصائح في كيفية مساعدة التلميذ في الدراسة، وكيف نوقظ عنده الإهتمام بالعمل الدراسي.

* * *

ك.ف. باردين

كيف نتلافى عدم رغبة الطفل في المدرسة

(فصل من كتاب «إذا كان طفلكم لا يريد الدراسة»)

استيعاب النشاط التعليمي

وهكذا، أصبح طفلنا تلميذاً. لقد تغيّرت حياته بشكل حاد. والمغزى السيكولوجي لهذا التغيّر معروف لنا - إنه تبديل النوع الأساسي للنشاط. فاللعب يخلي مكانه للتعليم. ماذا ينبغي على الأهل أن يفعلوا لكي تمر هذه الفترة الإنتقالية، قدر الإمكان، من دون صعوبات، ولكي لا يظهر عند الأطفال نفور حازم ومقاومة تجاه واجباتهم الجديدة؟ وهل من الضروري أن نقوم بعمل ما؟

لحسن الحظ، فإن هذه المهمة لا تقع على عاتق الأهل إلى درجة كبيرة، ويمكن أن لا يكون لهم أية علاقة بتعليم إبنهم أو ابنتهم. إذ يمكن أن تقع هذه المهمة بأكملها على كاهل معلمي المدرسة.

وإليكم ماذا يجب أن يفعله الأهل بشكل ملموس وخاصة عندما يكون لديهم تصور مبهم عن ذلك.

إذا كان دخول الطفل إلى المدرسة يُعتبر، قبل كل شيء، إستبدالاً لنشاطه الرئيسي، فإن مهمة الأهل الأولى تكمن في مساعدته على إستيعاب وفهم هذا النشاط الجديد. فالنشاط الدراسي غير مألوف أبداً بالنسبة إلى أي طفل، حتى للذّين يكونون في رياض الأطفال. وعندما يبدأ بهذا النشاط الجديد، فإنه غالباً ما يقع في عثرات، يصعب على الكبار فهمها من وجهة

نظرهم. فهل يخطر على بال الإنسان البالغ، بأن يكتب التمارين الكتابية أولاً، ثم يبحث في القواعد التي وضعت على أساسها هذه التمارين. لا أظنّ. إننا نواجه بعض الفتيان الذين يتبعون هذا الترتيب في حلّ وظائفهم، ليس في الصفوف الأولى فحسب، وإنما في الصفوف الأخرى أيضاً. إليكم مثالاً آخر. اتفق لي أن راقبت أحد تلاميذ الصف الأول وهو يكتب وظيفته بـ«الخط». كان يجب عليه أن يكتب حرفاً معيناً عدة مرات. كان الحرف مكتوباً بخط جميل في بداية كل سطر، إنه خط المعلمة كنموذج للكتابة. لقد كان عمل الطفل يثير الهلع، فالأحرف الأولى لا بأس بها فهي تشبه الى حد ما، الحرف المكتوب بخطّ المعلمة، وتسوء الكتابة بعد ذلك شيئاً فشيئاً، حتى لا تكاد تميّز الحرف المكتوب في نهاية السطر. «تنقصه الهمّة! بصوت أليم أوضحت لي ذلك أمه، عندما طلبت مني أن أراه.. لقد أجبرْته على إعادة كتابة الأحرف، ولم أقدم له طبق الحلوى بعد العشاء. وأوضحت له بأن يكون مخلصاً. ولكنه لا يريد أن يعمل كما يجب وهل يمكن استخدام العنف معه؟».

عندما نظرت إلى الدفتر الذي كتب عليه الأحرف تشكّل عندي انطباع وكأن الطفل يعاني من تعب عظيم عندما يقترب من نهاية السطر. فهل من المحتمل أن العمل المستمر يسبب له التعب؟ فالبداية الجيدة التي يبدأ بها الكتابة تدل على أن الإستراحة في نهاية كل سطر لها مفعول إيجابي. بيد أن تنبؤاتنا ذهبت أدراج الرياح، إذ قال الطفل بأنه كتب كل الاسطر مباشرة من دون توقف. وما كان مني إلاّ أن طلبت منه أن يكتب سطرين على التوالي: لقد كتبهما من دون توقف وكانت الأحرف مقبولة إلى حد ما في بداية السطر الثاني، إلا أنها اكتسبت شكلاً مرعباً بعد ذلك. إني لا أذكر بالضبط الوقت الذي أمضيته مع الطفل، ولكني أذكر بأنه هو نفسه لم يستطع أن يفسرّ لي، لماذا تخرج عنده الأحرف بهذه البشاعة في نهاية السطر.

ولكن كل شيء إتضح، عندما لاحظت إلى أين يوجه نظره عندما يكتب الأحرف. لقد تبيّن، بأنه عندما يبدأ بالكتابة فإنه ينظر إلى الحرف القريب منه، وهو في هذه الحالة الحرف الذي كتبته المعلمة. وبالطبع سيكون الحرف شبيهاً إلى حد ما بالنموذج. ولكنه عندما يكتب الحرف الثاني. فإنه لا ينظر إلى النموذج، وإنما إلى الحرف الذي كتبه لتوّه. وهكذا حتى نهاية السطر. ومن المفهوم الآن، لماذا يبدو كل حرف لاحق أسوأ من الحرف الذي قبله. وكانت المعالجة بسيطة للغاية. لقد أملينا عليه أسلوباً بسيطاً جداً في العمل - يتلخص في أن ينظر باستمرار، عندما يكتب، إلى الحرف النموذجي الذي كتبته له المعلمة - وهكذا عاد كل شيء إلى وضعه الطبيعي.

إليكم مثالاً آخر شبيهاً.

كانت إحدى التلميذات تعاني من حفظ الأشعار، وكانت علاماتها غير جيدة، فقد كتبوا لها في دفتر الملاحظات بعض العبارات مثل «لا تحفظ الأشعار»، «لم تحفظ الأشعار للمرة الثانية». أوضح الأهل للمعلم في هذه المرة، كما في المرات السابقة، بأن السبب هو عدم المواظبة، واتخذوا بعد ذلك الاجراءات المناسبة. دفعوا بالإبنة إلى الغرفة الأخرى وأوضحوا لها: «أجلسي، حتى تحفظي الأشعار». بيد أنها أطلّت بعد فترة وجيزة.

- هل حفظت الأشعار؟

- يبدو أني حفظتها. . . .

- ماذا يعني «يبدو» هلّمي أجيبي.

لقد بدأت بإلقاء الشعر بشكل جيد وبثقة، ولكنها عندما قاربت النهاية أخطأت قليلاً. ولقاء ذلك تلقت تأنيبا شديداً، وأعادوها ثانية الى الغرفة، لكي تدرس على إنفراد تلك الأشعار المشؤومة. واضطرت أن تكررها عدة مرات في أمسية واحدة، وكانت تنتهي الأمور أحياناً بالعقاب والدموع. وأحياناً يضجر الأهل من كل هذا، ويسمحون للطفلة بتناول

طعام العشاء، بالرغم من التحضير السيء للأشعار، وكانت تنجح أحياناً في حفظ الأشعار وإلقائها أمام الأهل ولكن، لم يكن ضمانة كافية للإجابة الناجحة أمام المعلّم. وتحوّل حفظ الأشعار، بالنسبة إلى الطفلة تدريجياً، إلى عملية تعذيب. وبدأت تعيش جواً من الرعب، والخوف والإنتظار، هل سيعطونها أشعاراً هذه المرة أم لا، وبدأت تكره الأشعار والدراسة أيضاً. وظهرت عندها مشاعر النفور من الأهل.

كان سبب فشلها بسيطاً جداً. فقد كان كافياً مراقبة عملية استظهارها مرة واحدة من بدايتها حتى نهايتها. إذ تبين، بأن الفتاة لكي تتذكر مقطع الشعر كله، كان عليها أن تعود كل مرة إلى السطر الأول. لقد استظهرت في البداية الربع الأول من الأشعار. وبعد أن تأكدت من أنها حفظته، انتقلت إلى الربع الثاني. ولكنها كانت تكرره دائماً مترافقاً مع الربع الاول. وعندما تصل إلى الربع الثالث، تصبح أكثر إرهاقاً، فلكي تحفظه عليها أن تكرر منذ البداية الربع الأول والثاني ومن ثم الثالث: أليس من الغريب، أنّ هذه الطريقة من الحفظ تجعل من استظهارها للقسم الاخير من الشعر **أسوأ من** استظهارها للأقسام الأولى.

كان يكفي أن نلقنها الأسلوب الصحيح في العمل، وأن **نعمل معها** أمسية واحدة، لنريها كيفية إستعمال هذا الأسلوب، لكي تزول مشكلة إستظهار الشعر بنفسها.

يوجد الكثير من هذه الأمثلة. ولكن يمكننا أن نستخلص الإستنتاجات الضرورية من تلك الأمثلة التي أوردنا لتوّنا.

أولاً: تشكل الدراسة بالنسبة للطفل نشاطاً جديداً وغير عادي، وخاصة في بداية دراسته في الصف الأول، بحيث يرتكب سلسلة كاملة من الأخطاء والهفوات الفظة وغير المنطقية، إلى درجة أنه من المستحيل على الكبار التنبؤ بها. ونطلق على هذه الحالة: «كل ما تفكر فيه تذوره الرياح».

أو «كل ما تبتكره يذهب هباءً». ومن الأمثلة على ذلك (التمرين في البداية ويعد ذلك المبدأ)، ولكن غالباً ما تكون هذه المسائل خصوصية وفردية إلى حد كبير - لكل طفل خصوصيته. إن ما يوحدهم هو عدم المنطقيّة واللامعقول.

ثانياً - إذا لم نُعرهم الإهتمام الكافي، فإن هذه الأخطاء والهفوات يمكن أن تتثبت، وتتقمص ّأسلوباً غير صحيح في العمل.

ثالثاً - كل هذه الأخطاء والهفوات يمكن أن لا يلاحظها أي إنسان عادي بالغ، وليس من الضروري أن يمتلك تأهيلاً علمياً عالياً، وأن يكون عالم تربية أو عالم نفس لكي يكتشفها. يلزمه فقط إظهار أو إبداء بعض الإنتباه نحو دراسة إبنه أو إبنته.

رابعاً - وأخيراً - لا يُبدى الكبار غالباً، الإنتباه اللازم تجاه أطفالهم. فالعواقب التربوية الناتجة عن هذا الأسلوب في السلوك؛ لا تحتاج الى تعليق: الأساليب غير الصحيحة للعمل تؤدي إلى الإخفاق في الدراسة، وإذا ما أصبح ذلك ظاهرة مستقرة، فإنه تكفي خطوة واحدة لتجلّي النفور من الدراسة والكراهية لها.

مشاكل الأطفال وهموم الكبار

لقد لاحظنا في كلا المثالين السابقين، كيف أن الكبار، حتى لم يكلفوا أنفسهم بتتبّع أمور أبنائهم الدراسية، ولم يحاولوا الإمعان في أسباب فشلهم وإنما اكتفوا بتبرير التدابير اللازمة ليشكلوا عند أطفالهم السمة المقابلة وهي الإنضباط، وأولى هذه التدابير كان العقاب العائلي.

في كلتا الحالتين كان العقاب بدل المساعدة والمساندة، هكذا كان سلوك الأهل. تكمن وراء سلوك الأهل هذا قناعة حياتية تنتشر وسط الكثير من الكبار، مفادها أن المشاكل التي تقلق الكبار هي مسائل جدية وهامة، وأما المشاكل التي تقف أمام الصغار فهي تافهة لا تستدعي الإنتباه والتفكير.

وبنتيجة ذلك، فإن اهتمامنا نحن الكبار، غالباً ما يخوننا عندما نريد إظهاره تجاه أطفالنا، وخاصة عندما يدور الحديث عن أعمالنا وعلاقاتنا مع الناس الكبار. فالكثير من البالغين يصبحون هنا شبيهين الى حد ما بالأطفال.

تصوروا بأن أحد البالغين الراغب في السفر مع مجموعة من الأصدقاء، قد كُلّف بمعرفة موعد إنطلاق القطار. وبالرغم من أنه لم يعرف موعد إنطلاق القطار فإنه لم يعتبر نفسه مذنباً. فهل هذا ممكن؟ أما منطق الفتيان، وسلوكهم في مثل هذه الحالات، فيختلف كلياً. كلّف أحد المراهقين أو أحد طلاب الصفوف العليا، الذي يشترك، على سبيل المثال، في رحلة مع مجموعة من التلاميذ، لمعرفة موعد إنطلاق القطار، ومن المحتمل أن يجيبك عندما تسأله عن موعد إنطلاق القطار وبكل بساطة: «لقد هتفت إلى محطة القطار، وكان الخط مشغولاً»، ولا تعجب إذا حملقت فيك عيون شاخصة، غير فاهمة لماذا أنت ساخط وغير راض إلى هذه الدرجة، ألم تسمع بأن الخط كان مشغولاً. والشيء المؤسف، أنه عندما تمسّ القضية تربية إبنك الخاص، فإن منطق محاكمتك وسلوكك، غالباً ما يشبه إلى حد عجيب محاكمة وسلوك الأطفال. أنا أعرف، إحدى العائلات، على سبيل المثال، التي لجأت إلى أحد علماء النفس بصدد إصلاح دراسة إبنها، وحصلت على تعليمات تنصّ على المتابعة اليومية لتنفيذ واجباته البيتية. ومرّت عدة شهور من دون إحراز أي تقدّم. القضية التي بدت للوهلة الأولى بسيطة تماماً، اكتسبت تعبيراً غامضاً.

- هل تراقبون تنفيذ الواجبات المدرسية في البيت؟

- نراقبها؟

- بانتظام؟

- كما قيل لنا سابقاً: يومياً.

بيد أن الأمور إتضحت بعد ذلك، وتبين بأن مراقبة الأهل لإبنهم تنحصر بالسؤال التالي:

هل حضرت دروسك؟

وبعد أن يقدم الطفل جواباً أكيداً (لقد كان يقدم هذا الجواب بشكل دائم، لأنه كان يفهم، أنه في حالة الإجابة السلبية، سوف يتلقّى اللوم والتأنيب، أما أن يتلقى المساعدة فذلك ما لم يكن ينتظره من الأهل)، يتابع الأهل القيام بأعمالهم التي يعتبرونها على الأرجح، جدية ومهمة، وتخصّ الكبار.

الحديث اللاحق لهؤلاء الأهل مع عالم النفس كان يشبه إلى حد كبير حوار الطرشان، حيث أوضحوا له، بأنهم يعودون منهكين إلى البيت، بعد يوم عمل شاق وبأنهم يستغرقون ساعة كاملة كل يوم للوصول إلى مكان عملهم، بالإضافة إلى الواجبات الأخرى بعد العودة من العمل، كالذهاب إلى المخازن، والإنتظار الطويل في الدور. ونحط رحالنا أخيراً في البيت حيث ينتظرنا عدد لا بأس به من الأعمال المنزلية، التي ينبغي القيام بها بشكل أكيد، هل يُعقل أنّ عالم النفس لا يفهم كل ذلك؟ وهل يُعقل أنه يريد منا أن نتتبع أطفالنا خطوة خطوة، بحيث نأخذ منهم دفاترهم وندقق صحة عملياتهم الحسابية في التقسيم والضرب؟

بكل بساطة، لا يتبقى لدينا القوى الكافية للقيام بذلك العمل. وإذا افتقدنا القوى فهل يُجدي الطلب في هذه الحالة؟ عندئذ، سينظر هؤلاء الأهل، الأهل المثقفون ذوو الكفاءة العلمية العالية، تلك النظرة الجلية الواضحة نفسها، التي نظر فيها المراهق إليكم، عندما لم يستطع أن يهتف الى محطة القطار، والذي لم يدرك ما هي الإحتجاجات التي يمكن أن نرفعها ضده بهذا الصدد.

إنه تشابه تامّ بين الكبار والصغار، فكما يرى المراهق المبرر في إنشغال

الهاتف، كذلك يرى الكثير من الكبار مبرراتهم في انشغالهم بالخدمة، والتعب، والعودة المتأخرة نسبياً الى المنزل الخ. . . .

إني أنوّه مباشرة إلى أن القضية لا تكمن في دحض الحجج الواردة كمبررات. فهذه الحجج مقنعة بشكل كاف إذا أُخذت بذاتها. فالشيء الرئيسي يكمن في حث الأهل على إستبدال ـ الموقف الطفولي ـ في البحث عن المبررات ـ بموقف الكبار ـ في البحث عن أساليب بلوغ الهدف. إنّ ايجاد المبررات لذلك الشيء الذي لم تفعله ممكن دائماً أو شبه ممكن. يجب علينا أن نبحث عن شيء آخر تماماً، وهو كيف يجب أن نفعل لكي نتجنّب المبررات؟ وبكلمات أخرى كيف نقدر أن نفعل ما هو لازم وضروري. والإنسان البالغ قادر على إيجاد السُبُل الضرورية له، إذا استطاع أن يدركها فقط. ولكن الغريب في الأمر، أنّ أغلب الكبار يعرفون جيداً عواقب الإتصال الهاتفي بمحطة القطار، ولكنهم لا يفهمون أبداً عواقب التقصير تجاه أولادهم وبناتهم، وعدم إيجاد الوقت اللازم للتعامل معهم بتبصّر وبإنتباه. والأنكى من ذلك، أنهم لا يريدون التفكير حتى بذلك. وبالمناسبة فإن العواقب المحتملة هنا مؤذية جداً. لنبحث ذلك تفصيلاً.

الخمول الذهني عند التلميذ

درس علماء النفس منذ زمن بعيد أسباب وآليات نشوء ما يسمّى بالخمول (السلبية) الذهني. إنه أحد أكثر الحالات التي تؤدي إلى عدم الرغبة في الدراسة. تنشأ هذه السلبية عادة كردّ فعل على المادة (الموضوع) المهجورة كلياً. إذ يكفّ التلميذ عن فهم ما يجري خلال الدرس، وعمّا يسأل المعلّم، وبماذا يجيب رفاقه في الصف.

فهو يستسلم ولا يرغب في فهم ما يجري في الصف ولو جزئياً، ولا في أن يفكر، ولا حتى في أن يعمل ذهنياً على الإطلاق. وتتحول الرغبة في الإجهاد الذهني إلى عادة، تؤدي إلى نموّ الخمول الذهني عنده.

ما هو منشأ هذا الإهمال للمادة (للموضوع)؟ ينشأ أحياناً عن الإنقطاع المستمرّ عن الدوام الرسمي بسبب المرض أو، على سبيل المثال، بسبب تغيير مكان المسكن، والإنتقال إلى مكان آخر. ومن الممكن أن تنشأ أحياناً كعاقبة من عواقب الأخطاء التربوية.

اتفق لي منذ مدة قريبة أن أواجه حادثة طريفة. تلميذ في الصف الرابع، امتدّ المرض به لعدة أشهر، ورقد في المستشفى مرتين، حيث وضع في المصحّ. كانت القضيّة واضحة جداً، على الطفل أن يُعيد السنة الدراسية مرة أخرى. بيد أن المدير تمسّك بفكرة أخرى. إستطاع التلميذ، خلال شهر كانون الثاني أن يداوم في المدرسة حوالي الأسبوعين، وخلال هذا الوقت نجح في الحصول على علامات جيدة في مختلف المواد، وعلى علامات ضعيفة في البعض منها. وعلى هذا الأساس أتاحوا له الإنتقال إلى الربع الثالث من السنة الدراسية، . ممّا أعطاهم الحق بعد ذلك في ترفيعه الى الصف الخامس. لقد كان الأمر واضحاً بالنسبة لي. فالتلميذ لن يستطيع الدراسة في الصف الخامس، وسيكون منذ الأيام الأولى في حالة لا تسمح له بفهم ما يجري في الدروس. وستنشأ عنده حتماً السلبية الذهنية. بيد أن الذي أقلق المدير هو شيء آخر تماماً. فهو قد حرص تماماً على أن لا يكون في المدرسة أي رسوب في الصف، بحيث لا يسيء إلى المؤشرات الشكلية لعمله. لقد أُتيح لي التكلم معه شخصياً، ولكن لم تستطع أيّ حجج سيكولوجية أن تغير موقفه. وهناك أمر آخر، فقد تظهر أحياناً وبشكل مفاجيء، السلبية الذهنية عند تلميذ لم يمرض أبداً، ولم ينتقل من مسكن إلى آخر، ولم يتخلّف عن دروسه، وبإختصار، إنه ملتزم تماماً بالمدرسة.

ما السبب الذي يكمن وراء ذلك؟ على الأرجح ـ العلاقة غير الجدية للأهل بقضية هامة جداً وهي مساعدة التلميذ في دراسته. لقد تحدثنا أعلاه، بأن هذه المساعدة، تحتل المقام الأول، من أجل تعليم الطفل إستخدام الأساليب الصحيحة في العمل. مثل كتابة الأحرف حسب النموذج، وحفظ

الأشعار، والحساب الذهني - فالطفل يمكن أن يرتكب أخطاء فظيعة في كل هذه الحالات. فإذا لم نتدخل في الوقت المناسب ولم نُصْلِحْ هذه الأخطاء، فإن الفعل المناسب سيبدو إمّا غير قابل للتشكل على الإطلاق أو أنه يتشكل بحيث يتخلله عيب كبير.

لنتصور، أن درسنا اليوم هو الحساب الشفوي. الحساب الشفوي صعب جداً على الأطفال للوهلة الأولى. ويمكن أن نحصل على النتيجة المطلوبة بشكل أسهل بكثير عن طريق إستخدام العيدان، والعيدان المرسومة على الورق النشّاف، وأخيراً بإستخدام أصابع اليد. هذا الإغراء عظيم جداً. ولكن ماذا يحصل للتلميذ إذا انصاع لهذا النوع من الإغراء؟ ففي الوقت الذي يستوعب فيه كل التلاميذ ببطء وبجهود كبيرة، الأساليب الصحيحة للعمل، فإن هذا التلميذ سيراوح مكانه على الأرجح ولن يتزحزح قيد أنملة، ولكنه يبدو نشيطاً في الظاهر، إنه يفلح في إيجاد الجواب على كل سؤال بشكل أسرع من الآخرين، ويرفع يده في الوقت المناسب، مستبقاً الآخرين، ويحصل على علامات جيدة، وإستحسان المعلّم، ولكنه لا يدرك على الإطلاق لماذا يجب عليه الجدّ في العمل، طالما يمكنه العمل بشكل أسهل. يمر الوقت، وتبدأ الأفعال الذهنية، عند أولئك الذين يعملون بشكل صحيح بالإنزياح نحو الأفضل، وتصبح مهارة العمليات الحسابية أتوماتيكية، وتنمو سرعة حلّ الأمثلة، ويبدأ الصف بإستباق تلميذنا هذا، حيث ينحدر مستواه من الأوائل إلى المتخلفين في الصف.

إنه لم يدرك بالطبع، بل لم يفهم بأن ما خيّب أمله هي تلك الأساليب التي استخدمها والتي برر بها عمله على الدوام. وباتت تزداد صعوبة حل المسائل بالنسبة له بشكل حاد.

فالأطفال المعتادون على أساليب الحساب في الذهن لا يتعاملون مع الأسلوب الآخر، فهو يبدو لهم صعباً. ولكن هذه الأساليب لا تسبب

صعوبات مبدئية، حيث الإنتقال إلى الحساب الشيئي، غالباً ما يكون غير ممكن مبدئياً، وخاصة خلال الوقت المتاح في الدرس.

فالتلميذ الذي لم يتعلم الحساب ذهنياً، لا يفلح الآن في اللحاق بالصّف، ولا يفهم ما هي الأمثلة التي حُلّت بشكل صحيح، والتي لم تحل بشكل صحيح، ولا يفلح في البدء بحلّ التمرين، حتى يكون الصف قد انتقل إلى التمرين الآخر.

لم يتبقّ إلا القليل حتى يكفّ التلميذ عن فهم ما يجري في الصف. ومن هنا الخطوة الأولى نحو الخمول الذهني وعدم الرغبة في الدراسة.

هناك حالات شبيهة بهذه، حيث يُفاجأ الأهل تماماً بظهور هذه الأشكال من الخمول. فالتلميذ المواظب على المدرسة، وعلاماته جيدة، ينقلب وضعه فجأة، وتصبح علاماته سيئة. إن ما يزعج في الأمر هو أنه لم يطلب المساعدة أبداً، ولم يطلب منّا تفسير أي شيء، كان غامضاً بالنسبة له. وفجأة ها هي النتيجة! تقول المعلمة بأنه لا يعرف أي شيء، وحتى أنه لا يريد أن يفعل أي شيء خلال الدرس. وفي البيت تبدأ الهستيريا: «أنا لن أذهب إلى المدرسة بعد الآن! خلصوني منها! أنا سأموت، إذا لم تخلصوني منها!». وخلال بحثهم عن الأسباب المؤدية إلى ذلك، يلقي الأهل المسؤولية على عاتق المعلّمة، وذلك في غياب الحساسية والمدخل الفردي. ويبحثون أيضاً في أمر المرض العصبي، وفي عرض إبنهم على طبيب الأمراض العصبية، ولكن آخر ما يفكرون به هو كيفية سلوكهم الخاص مع إبنهم، الذي يستدعي الإنتباه بالدرجة الأولى. هل يتذكرون كم هي عدد المرات التي جلسوا فيها مع إبنهم، وراقبوا فيها كيف يقوم بواجبه الدراسي، وذلك من غير أن يضجروا.

هل يصادف أن وجدوا عنده أساليب غير صحيحة في العمل، وأشاروا له نحو الأساليب الصحيحة، أم لم يصادف أن فعلوا ذلك. ألم يحدث معهم، أن انحصر إهتمامهم بالطفل بسؤاله فقط إِن كان أتم وظائفه أم

لا ، أو أنه بحاجة إلى مساعدة أم لا ، كما حدث في المثال الذي بحثناه سابقاً .

سيعرف كل أب وكل أم ، إذا طرحت على نفسها هذه الأسئلة ، إن كانت قد قامت أَمْ لا ، بما يلزم تجاه إبنها أو إبنتها ، لكي تتجنب الظواهر الصعبة .

حدث لي أن واجهت الكثير من الحالات ، التي كان من الصعب فيها تحميل الأهل مسؤولية عدم استطاعتهم إيلاء الإهتمام اللازم لأطفالهم . إحدى هذه الحالات هي إفتراق الأبوين ، وبقاء الطفل عند أمه ، إذ عليها لكي تعالج الصعوبات المادية التي تواجهها ، أن تُنْهي دراستها في المعهد من خلال الدوام المسائي لعدة سنوات كاملة . وفي حالة أخرى ، يجد الطفل نفسه في أحضان جدّته ، التي لم تجد في نفسها القوة الكافية على إيلائه الإهتمام اللازم . وفي الحالة الثالثة ، حدوث مكروه في الأسرة ، كإصابة الأم بالعمى حيث ينصبّ معظم إهتمام الأسرة على معالجتها من هذا المرض . ماذا يمكننا القول ، بالمقارنة مع هذه الحالات عن الأسرة المرفهة بشكل كامل ، وبالرغم من ذلك تواجه الغياب التام من جهة الإهتمام بالطفل . وتُبرِّر ذلك بالتعب بعد العمل وبالأعمال المنزلية وما شابه ذلك؟ وماذا نقول عن الأسرة التي تفضّل مشاهدة التلفاز ، والكلام مع الجيران لساعات طويلة ، وشرب الخمر ، على الإهتمام بطفلها؟

من الواضح تماماً ، أنّ المرض إذا أصاب بستاناً للأشجار المثمرة بسبب فقدان الأدوية اللازمة لمكافحة ذلك المرض ، حيث يمكن أن نتخذ هذا مبرراً ، فإن البستان سيهلك لا محالة . والشيء نفسه يمكن أن نقوله عن الأطفال : إذا لم يجد الطفل العناية اللازمة من الأهل بسبب انشغالهم ، فإن هذا الإنشغال إذا أردتم ، يمكن أن يصبح حجة أو مبرراً ، عندها ، يجب ألاّ نندهش ، إذا ترعرع طفلنا ونشأ على غير ما نرغب به .

مهما كانت صعوبة الظروف المتشكلة، فإن الطفل سيستمر في النمو والتطور، ولا يمكنكم إيقاف هذه العملية ولو لدقيقة واحدة. ومهما عملنا في حينه (ليس مهماً في أية ظروف) فالتعويض سيكون صعباً، أو بالأحرى غير ممكن.

العائلة والمدرسة

لنتوقف الآن عند إحدى القضايا التي تسبب غالباً حيرة الأهل وارتباكهم. «فالقارىء المهتم ممكن أن يقول: حسنٌ: نحن تعرفنا على حججكم، ونحن موافقون على أن الطفل يحتاج إلى مساعدة الأهل عندما يدخل المدرسة، ولكن قولوا لي من فضلكم لماذا يجب على الأسرة أن تنظم هذه المساعدة بالذات؟ أليس من المنطقي أن نطلب مثل هذه المساعدة من المعلّم؟.

فكما تعلمون أن قضيته الأساسية هي تعليم الأطفال، ويحصل مقابل ذلك على مرتب شهري، وبالإضافة إلى ذلك فإنه يمتلك الثقافة التربوية اللازمة، ويلقن الأطفال، على الأرجح، أساليب العمل الصحيحة بشكل أفضل».

غالباً ما تواجهك مثل هذه الآراء أو ما يشابهها، حتى في تلك الحالات التي لا يبحث فيها الأهل عن البراهين لتبرير عدم رغبتهم في العمل مع الطفل.

إنها أفكار صادقة تماماً، في أكثر الأحيان ـ ولكن لماذا علينا أن نُقحم أنفسنا في هذه القضية، إذا كان باستطاعة المعلّم أن يقوم بها على أكمل وجه؟

لنحاول البحث في بعض الحجج المشابهة. يجب أن نعترف قبل كل شيء، بأن كل حجّة يوجد فيها أو تحتوي على جزء من الحقيقة. ولذلك فإنها تبدو مقنعة. وبالفعل، فالمعلم مؤهّل للقيام بهذا الدور بشكل أفضل بكثير

من الأهل العقلاء إلى حد كاف. إنه يحوز على التعليم الإختصاصي والمدخل التربوي، المرتكز على خبرة العمل مع الكثير من الأطفال، ويعرف الأخطاء النموذجية التي يقع فيها التلاميذ، وأمامه خبرة زملائه في التعليم والإمكانية الدائمة للإهتمام بهم وتوجيههم بالنصائح والمساعدة والكثير غيره. بيد أن المعلم تنقصه بعض الإمكانات التي يحوز عليها الأهل.

فالمعلم يقوم بالتعليم، قبل كل شيء، وجهاً لوجه. ويجلس أمامه أكثر من ٣٠ـ٤٠ تلميذاً وعليه أن يتوجّه إلى الأغلبية الساحقة منهم، ويمكن أن يتناسى تماماً البعض الآخر. ولم يستبعد أحد، بالطبع، مطلب المدخل الفردي في التعليم. سيءٌ ذلك المعلم الذي يتشبّه بالبائع غير المهذب في المخزن، الذي يصرّح قائلاً: «المشترون كثر وأنا وحيد»، وحتى إذا لاحظ المعلم بأن أحداً ما من تلاميذه لم يستوعب شيئاً ما، أو أنه يواجه بعض الصعوبات فإنه لا يستطيع إهمال الصف بأكمله والإنشغال بواحد أو إثنين من التلاميذ. أما عمل الأهل، فعلى العكس من ذلك، لا يحمل طابعاً تقابلياً وجهاً لوجه، وإنما يجري بشكل فردي خالص.

بيد أن الشيء الرئيسي لا يكمن في الطابع الفردي لهذا العمل، وإنما في النتائج المنبثقة عنه. لماذا لا يوجّه المعلم التلميذ نحو الطريق الصحيح، عندما يحاول أن يحلّ التمرين قبل أن يحفظ المبدأ المناسب لذلك؟ أو لماذا لا ينبهه عندما يبدأ بكتابة الأحرف، إلى النموذج الذي كتبه له المعلم؟ ولماذا يقف لا مبالياً تجاه التلميذ الذي يستعمل أصابعه للعد بدل استعمال ذهنه؟ لقد سبق وشرحنا هذه الحالات. وهل لا تكفي المعلم الثقافة التربوية، أو لا يعرف بأن الأساليب التي يتبعها التلاميذ غير صحيحة؟ وهل تنقصه الخبرة التربوية، أو أنه لا يتصور إلى أي شيء يمكن أن ينتهي كل ذلك؟ وأخيراً هل يفتقر إلى المدخل التربوي نحو الأطفال، وهل هو في حالة لا تسمح له بتوضيح الأساليب الصحيحة للعمل معهم؟ من الواضح، أن الجواب على تلك الأسئلة الثلاثة يمكن أن يكون بالنفي.

المعلم يحوز على كل شيء ـ الثقافة، الخبرة، والمدخل التربوي. هناك شيء واحد لا يملكه هو إمكانية مراقبة العملية الجارية وعملية إكتساب المعارف.

لقد وصلنا الآن إلى النقطة السيكولوجية الهامة ـ إلى ضرورة التمييز بين المراقبة حسب المنتوج، والمراقبة حسب العملية. إن مراقبة إستيعاب المعارف والمعلومات التي يحققها المعلم، تعتبر مثالاً نموذجياً للمراقبة حسب المنتوج. يعني ذلك، أن المعلم يرى النتيجة النهائية فحسب، على أنه لا يرى كيف سارت عملية الإستيعاب، وهل كانت الجهود المبذولة منظمة عقلانيا أم لا. فالمعلم يمسك بين يديه دفتراً مليئاً بالأخطاء، ويشير بشكل صحيح تماماً إلى عدم فهم الطالب للمبادىء الضرورية لحل مثل هذه التمارين. ومن أين للمعلم أن يعرف بأن التلميذ يحلّ التمارين أولاً، وبعد ذلك يحاول أن يستوعب المبدأ، أو بكلمات أخرى، يضع المحراث أمام الحصان؟ فالمعلم يرى الأحرف المكتوبة بشكل قبيح، ولكنه من الصعب أن يخمن من دون أن يرى، كيف يعمل التلميذ في البيت، وبأنّه لم يوفّق في اختيار النموذج.

ويتعامل المعلم، بالشكل نفسه، مع واقعة الحفظ السيء للأشعار، حيث تخفى عنه واقعة إستعمال الأساليب اللاعقلانية في الحفظ. فالمعلم يقيّم المنتوج أو الناتج الذي بين يديه. فهو يضع علامة سيئة على الكتابة السيئة للأحرف، وعلى الحفظ السيء للشعر، وعلى عدم المعرفة الدقيقة لمبادىء الحساب. ولكن بالرغم من رغبته الملحّة، فإنه لا يستطيع أن يقول شيئاً عن كيفية جريان العملية، ولا يمكنه أن ينصح بأي شيء. فمن أجل ذلك يتوجب عليه أن يزور كل تلميذ في بيته ليتبين الطريقة التي يحضر فيها كل تلميذ دروسه. وهل نحن بحاجة للقول بأن ذلك مستحيل عملياً؟ وبالطبع يجد المعلم دائماً الوقت لكي يوضح للتلاميذ في الصف، أساليب العمل الصحيحة. ولكن كيف فهم التلاميذ شرحه، وكيف استعملوا هذه

الأساليب عند تحضيرهم لوظائفهم البيتية، في حال استعمالهم لها طبعاً، هل أضافوا لها بعض التعديلات التي يمكن أن تفرغ الأسلوب المقترح من مغزاه تماماً أم لا ـ كل ذلك يبقى خارج إطار رؤية المعلم. وإليكم الخلاصة:

عندما يحصل التلميذ على الدرجة التي يضعها المعلم مقابل العمل الذي قام به، يجب عليه، وعلى أساس هذه الدرجة أن يستنتج ذهنياً صحة أو عدم صحة عملية استيعابه للمعلومات. وهذه العملية ليست صعبة، على الأرجح، بالنسبة للتلميذ الصغير. ويمكن أن يحدث، وإن يكن ذلك نادراً، أن العلامة التي توضع للتلميذ يمكن أن تربكه لزمن ما ولن نتحدث عن العلامات الجيدة التي يمكن الحصول عليها عن طريق التلقين أو النقل. لنأخذ المثال السابق عن الحساب الشفوي.

إن التلميذ الذي ما زال يستعمل الأسلوب القديم بالحساب بواسطة أصابعه، استطاع أن يسبق الجميع ويحصل على علامة جيدة، في الوقت الذي كان فيه التلاميذ الباقون قد تعلّموا للتوّ الأسلوب الصحيح في الحساب، وهو الأسلوب الذهني. إن إيجاد الجواب الصحيح، والقول، ما هو حاصل جمع ثمانية وخمسة، أو ما هو حاصل طرح سبعة من خمسة عشر، أسرع بالنسبة للتلميذ الذي تعلّم العدّ على أصابعه. ولكن ما دور المعلّم هنا؟ وكما قلنا سابقاً، فالمعلم يحكم حسب الناتج.

إنه يرى أمامه يداً مرفوعة، يداً مرفوعة قبل الجميع، أو في عداد الأيدي المرفوعة الأولى، ويبدو الجواب صحيحاً دائماً، ومن الطبيعي أن يحصل هذا التلميذ على علامة جيدة، منتوج جيد تقابله علامة جيدة أو (تقييم جيد). وبذلك يترسخ لدى التلميذ بشكل لا إرداي أسلوب عمل غير صحيح.

أما الأهل الذين يراقبون عن كثب كيف يحضّر أطفالهم وظائفهم

البيتية، فيبدون في موقع يختلف تماماً عن موقع المعلم. لديهم الإمكانية الكاملة لمراقبة كل عملية ولذلك، فإن باستطاعتهم تقديم تلك المساعدة لهم التي لا يستطيع أن يقدمها المعلّم. فالمساعدة ضرورية للطفل من الطرفين، من قبل المعلم ومن قبل الأهل، بيد أن هذه المساعدة مختلفة، ولا يمكن أن تحلّ إحداها محل الأخرى.

إذا كانت مساعدة المعلّم تبدو أحياناً أفضل أو أسوأ، موفقة أو أقلّ توفيقاً، فإن الأهل من جهتهم لا يقومون بهذه المساعدة دائماً.

* * *

المحاورة السادسة

المرحلة الصعبة من العمر، هل هي صعبة؟

الأطفال حساسون جداً

تجاه كل نوع من أنواع الرياء والنفاق،

إنهم مستقيمون ولا يتحملون التباعد

بين القول والفعل،

من المهم احترام جهدهم، دراستهم، قناعاتهم

والمثل الأعلى مهمّ بالنسبة لهم أيضاً

ن.ك. كروبسكايا

تسمى فترة المراهقة عادةً بالمرحلة (الإنتقالية)، الصعبة)، وبمرحلة «التحوّل». ولكن الأمور ليست كذلك.

هل هي مرحلة إنتقالية؟ نعم. إنه إجتياز لحدود الطفولة تجاه الشباب. من الصراحة الساذجة نحو الجذر العقلاني المتبصّر، من الإعتراف اللامشروط بالهيبة نحو نفيها القطعي، حيث ستتشكل سمات الإنسان البالغ.

وهل هي مرحلة صعبة؟ إنها كأية مرحلة أخرى من العمر. ليست أصعب من مرحلة ما قبل المدرسة أو مرحلة الفتوّة. إذن من أين هذا الرأي الشائع الذي يقول بأن المراهق صعب القياد، مشاكس وسريع التهيّج، وخطر في بعض الأحيان؟ «عدائية فطرية»، «إتجاه لا إجتماعي للشخصية»، «تمرّد ضد السلطة»....

... عندكم في الأسرة يترعرع إنسان مراهق. إنه بالفعل يفرض عليكم الكثير. ويمكن أن يبدو «صعباً»، إذا لم تفهموا بأن طفلكم الحبيب، العزيز المطيع، الذي كان البارحة يذهب إلى الصف الثاني أو إلى الصف الثالث ممسكاً بيدكم، والذي كان ينفّذ بطاعة نصائحكم وإرشاداتكم، ويقوم بواجبه المدرسي بشكل مجدّ، وكان في لحظات الفرح والسعادة يقفز، إلى أحضانكم وتقبلونه على مرأى من الجميع، وتلاطفونه ـ قد أصبح الآن إنساناً آخر.

إنه يسحب يده بحنق، عندما تحاول، حسب العادة القديمة، بأن تمسك بها لكي تقطع الشارع، ويحتج بإمتعاض على الأوامر القطعية، ويبتعد بضجر عن العناق الأبوي اللطيف، (وخاصة بحضور الآخرين).

لا تتعجبوا، لا تتكدروا، ولا تستاؤوا. . . عندكم في الأُسرة يترعرع مراهق. هذا يعني أنكم تتعاملون مع طفل، تعقدت حياته، بشكل لا مثيل له، بآلاف مؤلفة من التناقضات المتنوعة. المراهقة - إنها التناقض بين النمو الجسماني العاصف ووضعية «الطفل»! بين السعي ليبدو كبيراً وبين عدم القدرة على أن يصبح كذلك. إنه التناقض بين السعي نحو الحرية الشخصية وبين عدم القدرة على استعمالها الصحيح.

ترتبط صعوبات فترة المراهقة بالهيجان المرتفع للتلاميذ، وبسورة الغضب وبردّة الفعل الحادّة تجاه الإهانة، وبالإنتقادية الزائدة بصدد الكبار.

إذا عرف الأهل هذه الخصائص، وكانوا مستعدين للتعامل معها، فالسعادة تنتظرهم في التعامل مع هذا (الشعب المتميز) السائر على طريق الرجولة والنضج الإجتماعي. أما إذا لم يتفهّم الأهل هذه الخصائص، عندئذ لا بُدّ من النزاعات، والليالي المؤرقة، والآلام العميقة، وحالات العجز.

كيف سنبحث في تفاصيل علم نفس المراهقين.

يمكن أن يقدم مساعدة كبيرة للأهل بهذا الصدد كتاب. / ر. ي كوفالينكو/ . وسوف نختار لكم منه فصلاً بعنوان «القوّة الطيبة للثقة».

لن تُبحث، مسألة «العمر الصعب» في هذا الكتاب بشكل عام، وإنما سنأخذ بعين الإعتبار خصائص تطور الفتيان والفتيات. هذا المدخل قيّم جداً: لأن التغيّر الواضح في سلوك الفتيان والفتيات - رجال ونساء المستقبل، يبدأ بالظهور في الحدّ الفاصل بين الطفولة والشباب. تظهر الرغبة لدى المراهقين بالتشبه بالكبار ليس على صعيد المظهر الخارجي فحسب، وإنما على صعيد بعض «أنماط السلوك» أيضاً. وتتغيّر وجهات نظرهم تجاه أنفسهم وتجاه المحيطين بهم. إننا لا نطلب من الأهل، على تخوم هذا التحوّل، سوى العناية الخاصة والمؤازرة.

ر. ي. كوفا لينكو

التأثير الايجابي للثقة

الفتيان

جلستُ وإياه في الفصل الثاني في المسرح الصيفي في المعسكر. في البداية لم أنتبه كما ينبغي: رأيت فقط ناصيته الباهتة وأذنيه البارزتين. بيد أنه بدأ يضايقني فجأة. فالفتاة تغني على خشبة المسرح، وهو يصدر أصواتاً معينة ويقشط شيئاً بالمقعد، وشيئاً فشيئاً بدأ ينكزني بمرفقه بإصرار. قلت له: ما لك تتصابى؟ إجلس بهدوء. فكفّ عن الحركة، وهدأ، بيد أنّه لم يكن ينظر إلى خشبة المسرح إلاّ قليلاً، فهو مشغول بشيء ما. نظرت باتجاهه، فإذا المسافة بيني وبينه حوالي عشرين سنتيمتراً، وكانت يده تشغل هذه المسافة. كان يبدو وكأنه نظّف هذا المكان لأحد ما، ويحرص على أن لا يشغله أحد. لا. ليس هكذا توضع الكف عندما تحجز المكان. هل يُعقل أنه يمسك بخنفساء؟

- ماذا لديك هناك؟

أزاح يده. وبرز من تحتها مسمار بنهاية حادّة.

لقد سحب يده ورفع ذقنه وبدأ ينظر إلى المسرح. كان هادئاً، وكأن حملاً ثقيلاً انزاح عن كاهله.

وبنهاية الحفلة الموسيقية وجدت وإياه حجراً، وطرقنا المسمار.

وهاكم الفتى الثاني، أنا لم أره على الإطلاق، ولكنه تراءى لي وكأنه حقيقي. في إحدى المدارس عرضوا علي لأول مرة في حياتي موضوعاً إنشائياً لطفل في الصف الثالث. لقد كتب بحروف واضحة جداً: «بدأت الحرب، كان عمري عشرون عاماً. أرسلوني في إحدى المرات للإستطلاع. لبست رداء للتمويه، وبدأت بالتسلل إلى العدوّ.

وفجأة اخترقت إحدى رصاصات العدو صدري. بيد أنّي عدت الى وعيي في أحد مكاتب الأعداء ورأيت أمامي عقيداً ألمانياً يسألني:

ـ هات ما عندك عن قوّاتكم.

فبصقت في وجهه وأسلمت الروح».

والفتى الثالث الذي أردت أن أحدثكم عنه، كان الفتى الأصغر في فرقة الطلائع. وعندما رأته قائدة الطلائع علّقت قائلة: هل هنا دور لحضانة أم معسكر طلائع.

بيد أنها ما لبثت أن غيرت رأيها فيما بعد. فهذا الفتى السمين، الذي دخل المدرسة الخريف الماضي، فتن قائدة الطلائع بقدرته على التحمّل وبحبه للعمل. لقد بهر الجميع، كما أنه حلّ المهمة الصعبة: يرتب سريره صباحاً، ويغسل وجهه ورقبته وأذنيه، وبعد الغداء ينام ملء جفنيه، على عكس الآخرين الذين كانوا يتقلّبون بضجر وعيونهم مفتوحة. وصل إلى المعسكر في إحدى الأمسيات، الطلائع الأكبر سناً وأعلنوا أنفسهم رؤساءً. ستكون الأمسية مليئة بالألعاب والعروض المشوّقة. وكانت هناك اللافتات المزينّة والأكياس المملوءة بالجوائز وصيحات الفرح، ولكن ڤوڤكا لم يرتبك بالرغم من كل ذلك. لقد تفحصّ، بهدوء كل شيء، ووقف بالدور بانتظار القفز عن الحبل. كان حبلاً عادياً مربوطاً بشجرة صنوبر. من يقفز عن هذا الحبل، يأخذ قطعة شوكولا من فتاة تلبس قلنسوة مهرّج. وسرعان ما جاء دور ڤوڤكا. فبعد أن قفز الفتيان وحصلوا على الشوكولا، ركضوا إلى العروض الأخرى المشوّقة. وبقي فوفكا وحيداً، وياللمسكين، فقد باءت بالفشل جميع محاولاته في القفز عن الحبل.

وأخيراً أشفقت عليه الفتاة التي تلبس القلنسوة وأعطته قطعة الشوكولا وقالت له بأنه سمين، ولن يستطيع القفز.

أخذ فوفكا قطعة الشوكولا، ولكنه لم يبتعد. وقالت لنا قائدة المعسكر

فيما بعد، بأن فوفكا كان يركض مسرعاً ويقفز، وكرر هذه المحاولة أكثر من مئة مرة. وعندما نجح أخيراً في القفز عن الحبل، جلس على العشب وأخرج قطعة الشوكولا من جيبه ووضعها في فمه. تموج ذاكرتي بأرتال طويلة من الأطفال الصغار وخاصة عندما أكتب هذه الأسطر. فالولد «سلافكا»، على سبيل المثال، كبر وشبّ. ولكنّي أتذكره عندما كان في الصف الثالث الإبتدائي. عندها لم يفهم، حقيقة، ما هي المصيبة التي حصلت له. قالوا له «أنت لست كفؤاً لأن تصبح طليعيّاً!». ولكنه غضّن وجهه، كإجابة على ما قيل له، وذهب للتو إلى الرتل الإحتفالي، وأخذ مكانه في نهاية الرتل. لم ينهره أحد من الفتيان «دعوه يقف، فإنه سيشعر بنفسه أفضل».

ولكن «سلافكا» لم يقف طويلاً في الرتل في وضعية الإستعداد.

تبيّن فيما بعد بأنه لم يمرّ يوم من دون أن يقوم سلافكا بعمل صبياني طائش.

تارة يصيح كالديك في دروس الحساب، وتارة أُخرى يرش الفتيات بالحبر، مع أنه يفتقر إلى الشجاعة والجرأة الى حد بعيد: يفعل فعلته، ويقع، وبعد ذلك يقول وهو يمسح الدموع عن وجنتيه: «هذا ليس أنا». ولكنّه تحسن فيما بعد وأصبح طليعياً ممتازاً فالأطفال في مثل هذا العمر ميّالون الى القيام بخطوات مستقلّة، محاطة بأسرار روما نطيقية.

والفتيات؟

يجب أن نذكر، بأن ظهور الاستقلالية عند الفتيان والفتيات في سنوات المدرسة، مختلفة جداً. هذا التذكير لا يهدف الى أن نضع نصفي البشرية وجهاً لوجه.

اسألوا فتيات الصف الخامس، ما هو رأيهن بالفتيان الذين معهم في الصف. إنهن يجبن: بأنهم أكثر الناس شقاوة على وجه الأرض ـ هؤلاء الفتيان يحصلون على علامات ضعيفة، ويقفزون على المقاعد أثناء الفرص،

ويجلسون كالصمّ البكم في اجتماعات الطلائع، في الوقت الذي تناشدهم فيه الفتيات للصداقة.

من المؤسف، أن التعامل مع الفتيان والفتيات في المدارس لا يرتقي إلى التعامل المبدئي. لتتحمل الفتيات مصاعب الكثبان الثلجية وأسر الأعداء، وليغسل الفتيان ممر المدرسة الطويل، وليكن بالتساوي ريّ الأزهار وتقديم الهدايا إلى الأمهات في عيدهنّ. إنه هو، الفتى، وهل يستوجب أن ينكّس رأسه (أمام عيون رفاقه). إنه هو الذي حطّم الزجاج، وهو الذي هرب من البيت، وهو الذي تشاجر مع المسيئين.

لا تكمن القضية، في أن الفتيان يحتاجون أكثر من الفتيات إلى مجال أوسع للقيام بأفعالهم، القضيةّ هي في غياب هذا الجهد ـ ليس بالضرورة أن يكون جسدياً ـ الذي يسمح للفتيان بالنمو وتعزيز إستقلاليتهم.

يملك الفتيان المتخلفون عن المدرسة، كما هو معروف، والذين يدخلون في نزاعات مستمرة مع الكبار، طبعاً شاذاً. هؤلاء الفتيان يحسّون بحاجة ماسّة إلى الثقة. ولكن الثقة لا تحدث عندهم أي انتباه زائد. ويهوي الفتى من بين زملائه ويختطّ طريقاً منفرداً، ولكن ليس صحيحاً على الدوام.

الثقة بالصغار في الأسرة ـ ليس بالعمل البسيط. من الصعب علينا غالباً أو يصعب علينا، أن نقف وإبننا على مستوى واحد.

لا تُسقط من حسابك الخبرة الحياتية المختلفة، والمستوى المختلف من المعارف، وحتى ما نسميّه بالمسؤولية: نحن مسؤولون عنهم، أما هم فليسوا مسؤولين عنّا. إذن ليس لنا مخرج آخر سوى أن نكون أصدقاء لأطفالنا، ونثق بهم، ونقاسمهم الرأي.

إن اكتساب ثقة الأطفال يعني مراعاة إهتماماتهم وتسلياتهم. والتوغّل في عالمهم الداخلي وفهمهم يعني أيضاً الإنتباه الفوري نحو ميولهم وإمكاناتهم، وحتى إلى موهبة إبنك تجاه هذا النوع من النشاط أو ذاك.

يحلم جميع الفتيان تقريباً بصديق أكبر منهم. إذا كانت الفتيات يملن إلى مصادقة أترابهنّ، فإنه لدى الفتيان مادة للفخر والإعتزاز بأن صديقهم يكبرهم سناً. هذا يفترض بأنه أكثر قوّة وحذاقة، ويدافع عنه هذا الصديق عندما تعترضه المصاعب، ويقدم له النصيحة عند اللزوم. طرحنا في إحدى المدارس على تلاميذ الصف هذا السؤال: «ما هو الحلم الذي كان عندك ولم يتحقق؟». أجاب بعض الأولاد: «كان حلمي أن يكون عندي أخ أكبر مني». أما بالنسبة للفتيات فتبيّن بأنه ولا واحدة منهنّ كانت تحلم بأن يكون عندها أخت أكبر منها.

إن تنشئة الأطفال وتربيتهم بحيث يصبحون أقوياء، أذكياء، قادرين أن يحلّوا بأنفسهم هذه المعضلة الحياتية أو تلك ـ عمل ممتع ولكنه ليس سهلاً أبداً. تنشأ عند الأهل يومياً عشرات الأسئلة من هذا القبيل.

قال لي إبني اليوم بأنه كان مجبراً على الشجار مع أحد الأشقياء الذي هجم على أحد الضعفاء. كيف سأتصرّف؟ فالشجار ممنوع.

لماذا المنع؟ عندما يضرب القوّي الضعيف، وعندما يهجم الشقي على زميله، فإن الفتى الصادق يتخذ قراراً مستقلاً: فهو يستجمع شجاعته ويقوم بحماية زميله. الإنسان الجيد، لا يمكن أن يبادر على الإطلاق، بإيذاء أحد، ولكن هل نريد منه أن يقف مكتوف الأيدي ويتفرّج في الوقت الذي يتعرض فيه زميله إلى الضرب، مسترشداً بالنصيحة القائلة: «الشجار ممنوع». إنّه الجبان فقط هو من سيفكر بهذه الطريقة. حتى قوانين الطلائع تنصّ على أن: «الطليعي، يجب أن يكون شجاعاً»، «الطليعي إنسان جيد».

إبني في الصف الثامن، ولكن تصرفه غريب مع الفتيات: إنه يشاكسهم ويلّوح لهن بقبضته ويهددهن. ماذا أقول له؟

قولي له بأن تصرفه يشبه تصرف التلميذ الصغير في الصف الأول الإبتدائي. إنهم الصغار فقط الذين يتصرفون على هذه الشاكلة، فعندما

تعجبهم الفتاة، يعبّرون عن إعجابهم هذا بقبضاتهم. لقد قرأ الكثير من الكتب، وحتى أنه يعرف، بأنه يمرّ بمرحلة إنتقالية، ولكن عليه أن يعبر الى عالم الكبار، وليس إلى الوراء، إلى عالم الطفولة.

إنه أحد الأسئلة الأكثر صعوبة.

كل أم تحلم بالطبع، بأن يكون إبنها إنساناً مستقلاً، ويستطيع التعامل مع القضايا المنزلية. ولكن نادراً ما يُتاح لنا، في الحياة، تعليم الفتى كل ما هو متعارف عليه بأنه عمل نسائي. ألا يحدث أنه خلال عملية التعليم هذه، أي- الغسيل ومسح الأرض وتحضير طعام الغداء- يشعر بأنه يفقد هيبته كرجل؟ فهو يمكن أن ينشأ حاذقاً في الأعمال الحياتية المنزلية على حساب فقدان الرجولة.

تجيب عن هذا السؤال بشكل كامل ومقنع / ناد يجدا كروبسكايا / في مقالتها.

«هل ينبغي أن نعلّم الفتيان «عمل الإمرأة»؟

لقد كتبت بأن «الحياة العائلية مترافقة في المجتمع الحديث- ويمكن أن تستمر طويلاً على هذه الشاكلة- بمجموعة من الأعمال الصغيرة، المرتبطة بفصل الأعمال المنزلية. إن تنظيم الإنتاج وتغيّر شروط الحياة الإجتماعية، سيُدخل في المستقبل تعديلات هامة في هذا الجانب، ولكن الحياة العائلية، حتى الآن، مترافقة مع طهي الطعام وتنظيف الغرف، وخياطة إللباس، وتنشئة الأطفال الخ. . . كل هذا العمل يقع على كاهل المرأة».

وبعد:

«كل تلك الأحاديث التي تقول بأن «المرأة بطبيعتها مهيأة» للقيام بالأعمال المنزلية، عبارة عن سخافات، تشبه إلى حد كبير تلك الأقوال التي كان يرددها أرباب العبيد بأن «العبد بطبيعته مهيأ ليكون عبداً».

بالحقيقة، لا يوجد في الأعمال المنزلية تحديداً، أي شيء يجعل من هذا العمل مناسباً لشخصية المرأة أكثر من ملاءمته لشخصية الرجل.

. . . يجب على الفتيان والفتيات أن يتعلموا القيام بكل ما هو ضروري في الأعمال المنزلية، وألاّ يعتبروا بأن قيامهم بهذه الأعمال ينتقص من كرامتهم».

في أسرتنا يترعرع طفل؟ عليه ألا ينسى بأن المستقبل يخبىء له ليس فقط مسؤولية العمل كرجل، بل مسؤولية صيرورته زوجاً وأباً. وعلى الرغم من أن ذلك لن يحدث في القريب العاجل، علينا ألاّ نتحاشى أو نستحي من الخوض في هذه التفاصيل. إن إجراء حوار حساس ومؤتمن داخل الأسرة، حول هذا الموضوع، ليس مفيداً على الصعيد الحياتي فقط، ولكنه إعتراف أيضاً باستقلاليته منذ الصغر وبقدرته على فهمنا.

الفتيـات

كان يا ما كان، في قديم الزمان، كانت هناك فتاة، فتاة عادية تماماً. في الشتاء تركض مسرعة إلى المدرسة فوق الثلج، وفي الصيف تحزم حقائبها وتشق طريقها عبر ممرّات التايغا. لقد عرفت كيف تفرح بالأزهار، وكيف تصدّ المسيئين. عرفت كيف تحرص على الصداقة وكيف تحب بقوة. كانت فتاة غير حسودة، ومستعدة لأن تقاسم الآخرين كل ما لديها. وها هو ساعي البريد، منذ عدة سنوات، يحمل اليّ رسالة. كانت رسالة / لينا مايكوفا/ .

إليكم بعض ما جاء فيها:

«أحببت المدرسة بكل جوارحي. وأُحبيّها دائماً عندما أمر بجانبها: وهي تجيب. لا أحد يسمع ذلك طبعاً، أما أنا فأسمع. كل حياتي في المدرسة، كل أصدقائي، كل أفراحي، وكل أفكاري. أما في البيت فأحمل مزاجاً آخر، ليس كذاك المزاج».

«لقد استقبلنا السنة الجديدة في المدرسة. واحتفلنا أيضاً بعيد ميلادي

الرابع عشر عند شجرة رأس السنة، وانتهت الأمسية في الساعة الحادية عشرة.

عندما خرجنا من المدرسة كان الضباب يخيم على كل المدينة. وعندما دقت الساعة الثانية عشرة أضمرت ثلاث أمنيات: أن أستمع في السنة الجديدة إلى حكاية (أغنية الغابة)، أن اغرس بالقرب من المدرسة شجرة بتولا، وأن أقول لـ (ب) بأنه انسان جيد جداً. أن استجمع قواي وأقول».

«كان عندنا في المدرسة البارحة إجتماع مع الأهل. لقد بحثوا أمور الكسالى، والمغرورين، والكذّابين. وتناولوا الجميع! (نحن المجتهدين- النشيطين) جلسنا هادئين، متبخترين ولم ننتظر إنهيال الكوارث على رؤوسنا، إنهم لا يناقشون أمرنا. ولكنهم ما لبثوا أن تناولونا أيضاً! وبدا أن الجميع مذنبون، وأنه يوجد في المدرسة تلاميذ لا يستحقون شارة الطلائع».

«لا أدري لماذا يعتبر بعض الناس أنفسهم فوق المسؤولية؟ يمشي ويرى قصاصة من الورق على الأرض ولكنه لا يرفعها. إنها ليست في بيته. لماذا يعتبرون أن ما يخصهم هو بيتهم فقط، ولباسهم وطفلهم؟ إن الوطن كله يخصني: فالشجرة التي في الغابة هي شجرتي، وساحة المرجة هي ساحتي، آه لو تعرفون، كم أريد الخير للناس»، «الربيع، الربيع! تحدوني الرغبة في أن أركض إلى كل واحد، وأقول له، أُنظر إنه الربيع».

«لقد سافرت إلى المؤتمر، وتمّ اختيار مئة وعشرون / ١٢٠/ مندوباً من مدينتنا، وكان أكثر ما يقلقني هو حالة الطقس. وماذا لو بدأ المطر بالهطول. إلى متى سيستمرّ إرتباط الإنسان بالطبيعة»؟.

«عدت من المؤتمر. وخلّفْتُ ورائي خمسة أيام لا تُنسى. لقد عشنا في الخيم، وطبخنا الطعام بأنفسنا على المواقد. ما أجمل الجبال! ما أجمل الغروب! والنهيرات ما أكثرها؟ لقد أطلقنا نحو السماء أكثر من / ١٢٠/ صاروخاً، منها الأحمر ومنها الأخضر، و على شرف فتيان وفتيات

المعسكر. وفي الصباح أخذوا سبعة من رفاقنا نحو مكان آخر. ليسافروا، إني أحسدهم على ذلك. إذا بدأ كل شخص يحسد الآخر، فإن أحداً لن يرى السعادة أبداً على هذه الأرض.

أنا أرى الأمور كالتالي: إذا استولى عليك الحسد، فيجب أن تسخط على نفسك. كانت عودتنا على متن الباخرة. وكان ذلك مفرحاً ومحزناً في آن معاً. لقد انتهت سنوات الطلائع. وسالت دموعي على خدّي. كم أريد بأن يعود الزمن من جديد إلى الوراء».

«إنّي معجبة إلى الأبد بعبقرية ليرمونتوف. تولستوي، بوشكين، وحتى لو أرسلوني إلى القمر فاني سأصطحب معي رواية (ذبابة الخيل)، (الحرس الفتي)، (كيف سقينا الفولاذ)، و(الأشرعة الحمراء).

ويخطر على بالي، بأنّ جميع الكتّاب والشعراء يجب أن يكتبوا الكتب الرائعة فقط، لكي يعلمونا الحياة، وحبّ الجمال، ويجبرونا على التفكير، التفكير الأكيد).

«هنئوني. لقد دخلت اليوم في صفوف الشبيبة! إن ما يُثلج صدري، أن أعرف أنّ أحداً ما قد بدأ حياة جديدة حقيقية!».

هذه الفتاة عاشت سنوات المدرسة بيسر وهناء. ونالت كل شيء من دون صعوبات تُذكر. أحبّها المعلمون، واعتبرها أهالي صديقاتها مثالاً يحتذى به. أنهت مدرستَها بإمتياز. ولم يشك أحد بدخولها الجامعة وبسهولة كبيرة أيضاً.

ولكن كما يقول المثل، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. لقد تقدمت إلى إمتحان القبول في كلية الفيزياء ولكنها أخفقت، ولم تعد إلى البيت لأن كبرياءها لم يسمح لها بذلك. التحقت بالعمل في إحدى المدارس الواقعة في مدينة نوفوسيبيرسك، كقاعدة معسكر طلائع. وتلقيت منها رسالة يائسة: إنهار كل شيء، لا يوجد عدل على وجه المعمورة وناشدتني للمساعدة.

نحن لم نر بعضنا البعض أبداً حتى الآن. ولكن الطلعة (الهيئة) التي تشكلت عندي من جراّء قراءتي لهذه السطور طابقت الأصل تماماً، لقد استقبلتني فتاة عمرها سبعة عشر عاماً، بضفيرة كستنائية اللون تتدلّى على ظهرها، وبعينين جميلتين واسعتين واثقتين. لم ألاحظ مباشرة، بأن وراء هذه النظرة، يختبىء الضيم وعدم الثقة.

قالت بأن القضية وما فيها تكمن في أني فتاة. لو كنت فتى، لقبلوني في كلية الفيزياء. وهنا في المدرسة، لو كنت فتى، لعملت بشكل آخر. الأطفال هنا عنيدون، بالكاد تستطيع أن تحثهّم نحو عمل ما.

قضينا المساء كله في الحديث معاً. كانت لينا تعيش خيبة أمل مريرة، وحاولت أن تبرر إخفاقها بأسباب «موضوعية»: لم تفلح في دخول المعهد، لأنها فتاة أولاً، والعمل لا يناسبها، أما الأطفال فهم كُسالى. وفجأة فهمت السبب الحقيقي لخيبة أملها. لا، إنّها لم تكن مستاءة أو متذمّرة. لقد كانت في عمرها البالغ سبعة عشر عاماً، ذات طبع قوي جداً. ولكن هذا الطبع نادراً ما تجلّى في أعمال مستقلة. إن كل ما كان في حياتها المدرسية لم يتطلب حلولا أو قرارات مستقلة: عملت مع الجميع في المصنع، وذهبت إلى المؤتمر سويةً مع باقي أعضاء الوفد. لقد كانت فتاةً نشيطة في المجموعة، وكانت الأولى فيها على الدوام، ولكن لم يوكل إليها أحد أعمالاً مستقلة، فقد كانت تجربتها قليلة في الأعمال الخاصة، ولم يحدث قط أن اتخذت قرارات مستقلة في الأسرة التي نشأت فيها.

ولذلك تحولت اللقاءات الأولى مع الصعوبات الحياتية إلى خيبة أمل مريرة. إن تربية الشعور بالإستقلالية غالباً ما تضعه الأسرة على عاتق المدرسة. هناك-فرقة الطلائع، هناك يجب أن يتشكّل عندهم الحسّ بالإستقلال والمسؤولية. أما في البيت فيكفيهم تحضير الدروس والإستراحة.

فالضغط الدراسي كبير، فماذا يمكن أن تطلب منهم أكثر.

نادراً ما ترى إحدانا الأخرى. عندما أتصل بالهاتف وأقترح على صديقتي الذهاب إلى المسرح، تعتذر قائلة:

- أعذريني لا أستطيع الذهاب هذه المرة، نذهب في وقت آخر.

ولكنها حتى في المرة القادمة لا تجد الوقت الكافي لذلك.. ولكني عندما أراها، أقول لها مباشرة:

إن من يسمعك يظن بأنه لديك عشرة أطفال. لقد أصبحت ابنتك نتاشا في الصف السادس فهل من المعقول أنها لا تستطيع أن تأخذ على عاتقها جزءاً من مسؤولية الأعمال المنزلية؟

تتنهد صديقتي قائلة:

ليس لديها الوقت لذلك.

إنها تقول الحقيقة. نتاشا ليست من الكسالى، وليس لديها الوقت الكافي لذلك بالفعل. إنها تعود من المدرسة في الساعة الواحدة، تسخن الطعام، تأكل وتبدأ بالدراسة. في الساعة الثالثة تأتي إلى عندها اثنتان من زميلاتها. تصحح لهما نتاشا وظائفهما، وتشرح لهما الشيء غير المفهوم. بعد ذلك تذهب إلى المدرسة للإشراف على إصدار الجريدة، وبعدها تتوجّه إلى قصر الطلائع لحضور إحدى المحاضرات. وفي هذا الوقت تعود أمّها من العمل، تنظّف الشقة، تغسل وتمسح وتحضّر الطعام لليوم التالي.

ذهبت إحدى المرات من دون أن أهتف إلى صديقتي، وابتعت بطاقتين لحضور إحدى الحفلات الموسيقية. وقلت لها بحنق: هذا يكفي. ألبسي لنذهب. ولم تكن إبنتها نتاشا في البيت.

- ذهبت مع الفتيان لجمع الخردة.

- إنها ستعود إلى البيت، تأكل وتذهب للنوم، لا شيء سيحصل لها، لقد أقنعتها بذلك، واقتنعت.

بعد مشاهدة الحفلة ذهبنا إلى بيتها. فقد أردت أن أقنع صديقتي، بأن إبنتها نتاشا ستقوم بأعمالها بشكل ممتاز، من دون الإعتماد على الأم، وأن كل شيء في البيت على خير ما يرام. ولكني لم أبرهن على شيء. فأحذية نتاشا بقيت على حالها من الأوساخ عند عتبة البيت، والنور لم يكن مطفأ في المطبخ والحمام، والصحون والكؤوس لم تكن مغسولة أبداً.

وقالت والدة نتاشا وهي تبتسم بحزن: لقد حان الآن وقت الفصل الثالث من الحفلة الموسيقية.

وأقبلت على غسل الصحون والكؤوس، ومسحت الحذاء لابنتها، ونظفت معطفها أيضاً ومسحت المطبخ.

إنتابتني رغبة جامحة في أن أوقظ نتاشا، وأوبخها على فعلتها، ولكن قلبي لم يطاوعني. كانت تغطّ في نوم عميق: لقد عملت الكثير خلال النهار.

بعد عدة أيام ذهبت إلى المدرسة:

ـ نتاشا، تعالي لنتحدث قليلاً بشأن والدتك.

ماذا لو أرسلنا إلى بيتكم فريقاً خاصاً لمساعدة والدتك؟

ـ احمرّت نتاشا، ولكنها استدركت قائلة:

ـ إن هذه الفرقة تأخذ على عاتقها بيوتا أخرى تماماً. ولماذا نحن بحاجة إليها؟

ـ لكي يبقى لدى والدتك بعض الوقت تقضيه مع الكتب والأصدقاء، وفي الذهاب إلى المسرح.

هناك بعض الأطفال الذين يُقبلون على الأعمال في المدرسة بكل رضى وسرور: يغسلون البلاط يناوبون في الصيدليات، ويعملون أيام الآحاد. كل ذلك جيد جداً. وعندما يحين وقت العودة إلى البيت بالنسبة

لهذا التلميذ فإنه لايرَيَدي أمه التعبتين، ولا يلاحظ البلاط الممسوح وغطاء الطاولة النظيف، ولا يتفوّه بكلمة مع أعزّ شخص لديه:

- هل من عمل. هل من مساعدة أقدمها لك؟

وكأنه مع خلعه اللباس المدرسي، يخلع أيضاً كل ما قام به منذ ساعة، وينساه أيضاً. هناك فرقة عمل، أما هنا - البيت. هناك يجب عليّ أن أعمل وأن أساعد الناس، أما هنا في البيت فذلك غير ضروري لأن الأم تقوم بهذه الأعمال.

الأمهات هن الأمهات، ليس لديهن خطط للأعمال المنزلية، ولا يجبرن أطفالهن على القيام بذلك. ولذلك أكثر ما يقلقهن هو كسل أولادهم وحصولهم على علامات ضعيفة، وليس الأواني غير النظيفة التي يتركها الأولاد في المطبخ.

عندما تبعد الأمهات أولادهن عن الأعمال المنزلية، فإنهن يحرمونهم من إمكانية إدراك الترابط بين العمل الإجتماعي والعمل المنزلي، وبأن هذا الترابط ليس ضرورياً.

وتنشأ هنا علاقة ذات إتجاه واحد وخاصة بالأعمال المنزلية تتجه من الأطفال باتجاه الأهل، وهي علاقة مطلبية. وعلينا إغلاق هذه الحلقة، وكلما كان ذلك أبكر، كان أفضل.

لا بأس عليكم، فالحياة تجبر الفتاة أو الفتى على القيام بالأعمال المنزلية. وكلما كان الفتيان يقومون بهذا العمل بشكل جيد، كانت حياتهم الخاصة العائلية أكثر سعادة.

وصلتني، إحدى المرات، رسالة من إحدى تلامذة المدرسة:

«فكرت طويلاً، قبل أن أقدم على كتابة هذه الرسالة لكم، وأخيراً قررت. من الصعب علي جداً كتابتها، ولكن كتابتها ضرورية. يجب أن نتخطى العواطف الكاذبة، ونقوم بخطوة حاسمة. أطلب منكم ألاّ تعتبروا

رسالتي مجرد شكوى. أنا لا أشتكي، وإنما أتهم. إني أتّهم والدتي. لا تفكري أبداً، بأنها مجرمة أو ذات سلوك سيء وإنما على العكس.

ولا تأخذي عني فكرة سيئة، أرجو أن تقرأي رسالتي حتى النهاية.

أمي - إمرأة عظيمة. عندها عدة ميداليات وبعض الأوسمة. إنها تُدعى دائماً، وكل شهر تقريباً لحضور المؤتمرات والندوات.

هذا هو المظهر الخارجي الذي تظهر فيه أمام الناس.

أما في الواقع فهي ليست كذلك على الإطلاق. الهدف الأساسي في حياتها - هو النقود. إنها تراكم النقود، ليرة بعد ليرة. وَقَعْتُ في احدى المرات، وعلى سبيل المصادفة، على دفتر التأمينات، وعندما نظرت إلى المبلغ إنتابتني هزة عصبية. كان المبلغ ألفان وثمانمائة روبل. تصوروا أن لباسي في الصف هو الأسوأ. وعندما يدور الحديث عن شراء معطف أو حذاء، تجيبني قائلة: «صيفاً تعملين وتشترين».

بشكل عام، لا يمكنها بأي شكل من الأشكال أن تتخلى عن قرش واحد. ولولا الجوائز، لما كان عندنا أي شيء. التلفزيون هدية، الراديو - هدية. فهي تقتر حتى على نفسها. ولولا أنها تذهب إلى الإجتماعات والمؤتمرات، لما اشترت لنفسها ثياباً أنيقة تلبسها. لقد حصل شجار عنيف، عندما وجدت دفتر التأمينات وقلت لها كل شيء وجهاً لوجه، ووعدتها بأني سأفضحها أمام الناس. وهي، بالطبع، غضبت غضباً فظيعاً.

وبعد ذلك تصالحنا ولكن ليس نهائياً.

رمتني بالدفتر وقالت أنه بإستطاعتي أن آخذ كل النقود وأغصّ فيها. وأجبتها بأن لا تجعل من ذلك قصة، لأنه أولاً، لا أحد يعطيني هذه النقود، وثانياً: أن هذه النقود لها وليست لي. لو استولى عليّ الغضب فلأنها فقدت غريزة الأمومة بسبب البخل، وذكّرتها، بأن الأهل مجبرون على إطعام أطفالهم وإكسائهم حتى بلوغهم الثامنة عشر من العمر. لا تعتقدوا بأني فتاة

أهوى اللباس فقط، وألهث وراء الموضة أو أني غير واعية. لو كانت حياتنا صعبة، لم أكن لأطلب أي شيء. أما أن يكون عندنا تلك الكمية من النقود فلماذا علينا أن نحرم أنفسنا من كل شيء؟ هذا ما لا أفهمه. نحن نصارع عيوب الماضي.

البخل - إنه شيء مرعب وفظيع. وأنا أريد أن أحاربه، ولكن لا أعرف كيف.

إني الآن في الصف التاسع. دراستي تتروح بين الوسط والجيد».

سافرت إلى إحدى القرى، وهناك قال لي رئيس الكولخوز: لا تطبعي الرسالة حفاظاً على سمعة الأم. لقد كانت تعمل من الفجر وحتى غياب الشمس. فالأرض كانت تحوز على كل حواسها. أمّا ثمرتها الحقيقية فلم تعتني بها...

وقال عن الفتاة: «يا لها من فتاة لا تملك حسّ الإستقلالية». هذا يعني بأنها فتاة قاسية جلفة، لا تميّز بين ما هو أساسي في الحياة وبين ما هو ثانوي.

لقد تكلمنا طويلاً مع الأم.

قالت الأم: لقد تمنيت لها، وأتمنى لها الخير على الدوام، أما لماذا لم ألبسها لباساً فاخراً، ولم أنفق عليها كل النقود، وإنما طلبت منها أن تعمل بنفسها - فهذا باعتقادي صحيح لأني هكذا نشأت أيضاً.

وطال بنا الحديث حتى وصلنا إلى الشيء الرئيسي: أنانية الفتاة وقسوتها، ومزاعمها هي حاصل تربية محددة.

متى بدأ ذلك وكيف؟

قالت الأم: كانت البنت صغيرة، وكانت كلما رأت شيئاً عند الأطفال الآخرين تطلبه لنفسها أيضاً. إنك تقول لها كلمة صارمة قاسية، فتجيبك بعشر.

لقد كان رئيس الكولخوز على حق: لم تربّ الأم «ثمرتها الحقيقية، الرئيسة». من الطبيعي أن يطلب الأطفال أو يرغبوا ما يرونه عند أترابهم. وعدم تلبية رغباتهم تولّد الحقد والحسد. أن تلبّي أية رغبة للطفل هذا شيء قاتل، وليس أقل خطراً من ذلك حرمانه منه كلياً. هذا التطرف بكلا الإتجاهين، لا يقود الى أي شيء حسن.

لم يخلق هذا الجدار من عدم التفاهم بين الأم وإبنتها خلال يوم واحد.، شكلياً كانت الأم على حق: إعملي، إقبضي أجر عملك، إشتر لنفسك ما تريدين. ولكن الأم لم تقل هذه الكلمات، إلاّ بعد أن تكوّن لدى الإبنة قناعة أكيدة، بأن أمها بخيلة ولا تكنّ لها الحب والمودة. أما في واقع الحال فإن الأمور لم تأخذ هذا المنحى. لقد كان لباس الإبنة رايبسا جيداً وليس أسوأ من أترابها، وبالطبع، ليس على حسابها وإنما على حساب والدتها. وكان بخل الأم يأخذ إتجاهاً آخر تماماً: بخيلة في حديثها الحميم مع إبنتها، ولا تشاركها حياتها أيضاً ولا تُشعرها بأنها قريبة منها أو صديقة لها.

كانت الفتاة صغيرة، واعتبرت الأم بأن الإبنة لا تفهم معنى كلماتها، وكان من نتائج هذه العلاقة ظهور إستياء متبادل.

عندما تتشكل لدى الإنسان قناعة محددة حول ظاهرة حياتية معينة، فإنه من الصعب عليه أن يغيّرها. لذلك من المهم جداً أن تترافق كل خطوة يقوم بها الطفل بثقة الأهل العقلانية تجاهه. الأول من أيلول هو بداية العام الدراسي. يدخل تلاميذ الصف الأول إلى صفوفهم حاملين بأيديهم حقائبهم المدرسية وباقات الورد. أربعون تلميذاً، أربعون باقة. وتتوزع باقات الزهور لتملأ المكان خلال دقيقة واحدة.

انتهى الدرس الأول. وَدَّعَتْ المعلمة. وتناولت المعلمة باقة ورد وأهدتني إياها على سبيل الذكرى، ذكرى هذا اليوم الإحتفالي الرائع، يوم دخول المدرسة.

وهنا تراك تسمع صوتاً إنفعالياً:

- هذه باقتي!!

- أعذريني - قالت المعلمة - لقد اعتقدت بأن هذه الباقة هي باقتنا نحن جميعاً. فإذا كانت لك فخذيها من فضلك.

ومدّت لها الباقة. أخذت الفتاة الباقة. عادت أدراجها، توقفت، وفكّرت ملياً. وما لبثت أن عادت إلى المعلمة ثانية وقالت:

- خذيها، لقد كانت هذه الباقة لي سابقاً.

هذا هو القرار الأول المستقل الذي اتخذته هذه الفتاة. كان ذلك أول مهمة لها. الدرس الأول لا يذهب هباء بالنسبة للفتيات الصغيرات.

الخدمة الكبيرة التي قامت بها المعلمة هي أنها لم تلقن الفتاة ماذا يجب عليها أن تفعل، وإنما قادتها إلى أن تأخذ قراراً مستقلاً.

في إحدى الأمسيات الصيفية، وعندما نام الجميع في معسكر الطلائع، قصّت عليّ قائدة المعسكر حادثة جرت عندهم يوم الأحد.

أتى الأهل في هذا اليوم، لزيارة أولادهم في المعسكر. وجلبوا لهم أشهى المأكولات والحلويات. وبقي الطعام في المطعم على ما هو من دون أن يمسّه أحد، وكان قادة المعسكر غير راضين عن ذلك. وبحلول المساء غادر الأهل، تاركين لدى أولادهم الكثير من الشوكولا والمربيات. لم يأكل الأولاد حلوياتهم، وإنما اتجهت أنظارهم نحو العلبة الحمراء التي تحملها مارينا، التي لم تتركها من يدها بعد. وعندما كانت تفتح العلبة أحياناً، كان الفتيان يرون أنواعاً جميلة جداً من الشوكولا. وبالرغم من أن الجميع قد أُتخموا من الشوكولا، فإنهم لن يرفضوا أبداً الشوكولا التي كان يمكن أن تقدمها لهم مارينا. ولكنها لم تعطهم شيئاً.

وفجأة بعد العشاء حدث شيء لا يُنسى، لقد اختفت علبة مارينا التي

تحتوي على الشوكولا اللذيذة. واستاءت مارينا جداً. وضجّ الأولاد. وأراد أحدهم التوجّه بسرعة إلى قائدة المعسكر، ليقصّ عليها ما حدث.

ولكن مارينا أوقفته قائلة:

لا حاجة إلى ذلك - سأعرف بنفسي، من أخذ علبة الشوكولا. سأنظر الآن في عيون كل واحد منكم، ومن يحمرّ خجلاً، يكون هو من أخذ العلبة.

احمر وجه (بوريا) في البداية، وبعد ذلك وجه (تانيا)، (سفيتا) وبعدها وجه (فولوديا). كل من نظرت إليه بارتياب، اصطبغ وجهه بحمرة قانية.

قالت مارينا بغضب: هل من المعقول أنكم جميعاً قد سرقتم علبتي؟

استلقت مارينا بعد ذلك على السرير لكي تنام، فشعرت بعلبة الشوكولا. عندها تذكّرت بأنها قد خبأتها هنا بنفسها، تحت غطاء السرير.

صرخت بأعلى صوتها: أيها الفتيان لقد وجدتها، لقد وجدتها. ها هي علبة الشوكولا.

وتابعت قائدة المعسكر: بأن أكثر ما أدهشها، هو أن الفتاة التي خبأت العلبة ومن ثم اكتشفتها لم تحمرّ خجلاً.

هذه الفتاة لا تنقصها لا القدرة على القيام بأعمال مستقلة، ولا حدة الذهن والفراسة. ولكن مشكلة هذه الفتاة تكمن في أن استقلاليتها مترافقة مع حب الذات ومع عدم الثقة بأترابها..

وقصوا عليّ رواية أخرى في ذلك المعسكر بالذات.

كانت الجدة توقظ لينا على الدوام في البيت. وكانت لينا تفتح إحدى عينيها وتقول لجدتها: (دقيقة واحدة) وتعود للنوم. ولذلك اعترضت الجدّة على الأب عندما اشترى لها بطاقة للتوجه إلى المعسكر وقالت: (من سيوقظها هناك؟).

لقد خافت لينا في البداية، من أن لا يسمحوا لها بالتوجّه الى المعسكر.

أتركوني أسافر، هناك سأستيقظ، بمجرد سماعي أول تغريدة طائر.

قالت الجدة: لا أعرف أي طائر سيغرّد أولاً، ولكنه لن يوقظك.

تبيّن فيما بعد أن الجدة كانت على حق. لقد اجتمعت فرقة الطلائع إستعداداً لدرس الرياضة ولينا ما زالت تغطّ في نوم عميق. أما في اليوم التالي، فقد استيقظت سوية مع الآخرين، أخذت منديلها وفرشاة أسنانها، وبعدها عادت من جديد إلى السرير للنوم. وهكذا نامت وفرشاة الأسنان بين يديها.

ـ وبعد هذه الحادثة أطلق عليها الفتيان على سبيل المزاح لقب رقدة (هجعة). لقد كان بالأحرى أن تطلق عليها إسم رقدة، وأن نكتب لها هذا الإسم بأحرف صغيرة.

لم تستأ لينا من ذلك. وذهبت مع الجميع إلى الغابة لجمع الأزهار، وغنّت مع الجوقة، وكانت من الأوائل الذين سجّلوا في فريق تربية الأرانب. وحتى أنهم اختاروها رئيسة للفريق. فطلائع الكولخوز كان عليهم أن يأتوا بالأرانب صباحاً. ومضت الصباحات، صباح تلو صباح، وبيوت الأرانب ما زالت فارغة.

ـ هل من المحتمل أن يكون الأرانب مرضى؟ سألت لينا قائدة المعسكر.

لقد جهزت لينا الجزر للأرانب، ولكن مجيئهم تأخر للأسف.

وفجأةً في إحدى الصباحات والجميع ما زالوا نياماً، صاح صوت رنان أيقظ الجميع.

ـ أحضروهم! إنهضوا! أحضروا الأرانب!

قفز الجميع من الأسرّة وأسرعوا نحو بيوت الأرانب ليشاهدوها.

وبعد أن أشبع الطلائعيون فضولهم في التطلع إلى الأرانب، قال أحدهم:

- هل تعرفون من أيقظنا، إنها «الهجعة بحروف صغيرة».

وأجابت قائدة المعسكر:

- عندما ينتظر المرء شيئاً ما سعيداً، أو يشغله شغل ما فإنه لا ينام.

إن فرح لينا واهتمامها كانا نتيجة الثقة التي أولوها إياها. لقد عينوها رئيسة للفرقة المسؤولة عن تربية الأرانب، وهي أول من شعر بالمسؤولية تجاه العمل المكلّفة به.

أكثر من يلاحظ ذلك، هم الذين يرافقون تلاميذ الصف الأول الإبتدائي عندما يذهبون للمرة الأولى إلى المدرسة في الأول من أيلول، حيث يستيقظ هؤلاء الأطفال حتى قبل أن يرن جرس ساعة الميقات. ولكن سرعان ما يتبخر هذا الإحساس عند الكثير من التلاميذ.

ومن جديد تعلو أصوات الجدّات والأمهات على الأطفال النيام: «إنهضي يا تانيا!».

«بوريا لقد تأخرت!». لم يتعزز لدى الطفل ردّ الفعل المستقل تجاه هذه المسألة، ولم يفوضوهم لكي يهتموا بأمر وصولهم إلى المدرسة في الوقت المناسب، وتتحول هذه المسألة بالنسبة للأسرة بعد عدة سنوات، مسألة جمعهم وإرسالهم إلى المدرسة، إلى مسألة شاقّة.

المهمة الصعبة، ولكن الضرورية، هي دعم وتطوير البوادر الأولى للإستقلالية وعدم جعلها تخبو. بيد أن فعلنا وعملنا هنا يجب أن يكون بإختيار. إذ يحدث أحياناً، أن ما يدعو للبهجة في الطفولة الأولى، يبدأ بإثارة القلق، في عمر الثانية عشر، وهذا واضح.

«إبنتي سفيتلانا تحب اللباس الفاخر جداً وتمشي كراقصة باليه، وتعلو وجهها علائم الفرح». وبعد خمس إلى سبع سنوات: «لا أعرف ما ذا أفعل، إنها تقول دائماً: «صديقتي لودا، اشترت أحذية على الموضة، وكاتيا اشترت معطفاً». هذا يعني أن إبنتي سفيتلانا تريد أن أشترى لها أشياء جديدة.

وأقول لها: «يجب أن تكثري من النظر في الكتاب وليس في المرآة».

لم يخطر ببال الأم، أن تنشأ إبنتها على هذه المشاكلة. ويدوي هنا المثل الشعبي القائل: «الذي تزرعه تحصده». علينا أن نزرع بذور التفاهم المتبادل في وقت مبكر، وأن نحافظ على هذا الزرع. أما إذا لم نفعل ذلك، فإن نصيحة: «إنتبه إلى كتابك أكثر» تدخل من الأذن اليمنى وتخرج من الأخرى.

هناك وجه آخر لهذه القضية. الخوف الأمومي الزائد عن الحدّ أمام الإهتمامات الجديدة لإبنتها المراهقة. كل رغبتها في أن تكون إبنتها مستغرقة في كتبها وعلومها، على أن تضع إهتمامها باللباس وبمظهرها الخارجي في الدرجة التاسعة أو العاشرة. ولكن كيف يمكن فعل ذلك؟ وهل علينا فعله؟ إن النفي هو أحد الأجوبة الوحيدة: لماذا، وكيف يبدأ عدم التوافق بين الأم وبين إبنتها الشابّة؟ يجب أن لا ننسى أنّ الفتاة كبرت. إنها الآن تعرف الكثير عن الحياة: من الكتب، ومن التواصل مع أُسر صديقاتها. إنها تتعامل بشكل آخر الآن مع فتيان صفها الذين لم تعرهم أدنى انتباه منذ سنة خلت، وهي تبدو بشكل آخر أيضاً. إنها تشعر في كل خطوة من خطواتها بأنها إنسان آخر. وبأنها فتاة في الصف الثانوي الأخير. فجيرانها من الفتيان الذين كانوا يضربونها بقوة بالثلج، كفّوا عن مضايقتها الآن. والمارة الذين يسألونها أن ترشدهم إلى أحد المخازن يتفوهون بكلمة (فتاة).

حتى أنها تستطيع الدخول إلى الأفلام المُحظّرة على الذين عمرهم أقلّ من ستة عشر عاماً. لقد تغيّر الكثير في حياتها. أمّا في البيت فكل شيء كما

في السابق. وتقول الأم أحياناً: «أنت أصبحت كبيرة . . .». ولكن هذه الكلمات لا تعني سوى إضافة بعض الواجبات الأُخرى إلى الإنسان البالغ. «عليك منذ الآن أن تساعديني أكثر في الأعمال المنزلية».

«يجب أن تعودي إلى البيت في الوقت المناسب». إنها متطلبات صحيحة وفي محلّها. ولكن أين هي الحقوق المتوافقة مع العمر الجديد للإنسان؟ أين هي الدرجة الجديدة من الثقة، التي يحتاج إليها الإنسان الجديد؟ غالباً ما تبقى الحقوق كما هي، حتى في العائلات التي يسود فيها التفاهم وعلاقات الصداقة.

يريد الأولاد أن يصبحوا رجالاً حقيقيين، والفتيات، نساءً حقيقيات. إنها تجليات طبيعية، وقانونية لعمر المراهقة. إن / ر.م. كوفالينكو/، محق تماماً في أن المراهقين، فقط في تواصلهم اليومي، وفي الدرجة الأولى مع أمهم وأبيهم، وبملاحظتنا علاقاتهم الإنسانية الأصيلة، والمشبعة بالإحترام والثقة، يفهمون قوانين إصلاح الذات، ويتعلمون تلك القواعد البسيطة، في «الجمع» و «الطرح» في الحياة العائلية، التي سيتشكل على أساسها لاحقاً الإنسجام في العلاقات المتبادلة ضمن أُسرهم الخاصة، وفي علاقاتهم مع أولادهم.

إن مثال الكبار يشبه الكتاب الذي يقرأه المراهقون يومياً، فهم لا يقرأون ما يطفو على السطح فقط، ولكن حتى ما بين السطور. وبما أن الإهتمام عظيم بهذا الكتاب فعلى الأهل أن يتذكروا بأنه من الممكن إصلاح أي كتاب أو إعادة صياغته، ما عدا هذا الكتاب فليس بالإمكان إصلاحه أبداً. على الأهل أن لا يخطئوا في «كتاب الحياة»، ومن غير المسموح به أن يقوموا بأفعال خاطئة، يخجلون منها لاحقاً.

وأكثر ما يشد إنتباه المراهقين، تلك الكتب الإفتراضيّة المكرسة لبحث بعض القضايا الحساسة جداً، أو ما يسمّى بـ«المنعطفات الحادة في التربية». حيث يدور الحديث عن العلاقات بين الجنسين، وعن التربية الجنسية عند

الشبان والشابات. فالقضية، على الأرجح، معقدة جداً: حيث يتشابك فيها بشكل وثيق جانبان إثنان ـ الجانب الفيزيولوجي والجانب الأخلاقي. تولي المدارس عامة إهتماماً كبيراً لعلم أخلاق العلاقات المتبادلة بين الجنسين، أما المسائل الفيزيولوجية، فتبقى وللأسف، في الظلّ.

يحدث ذلك، على ما يبدو، نظراً لأنها بحاجة إلى تدخل الطبيب المختص، الذي بإمكانه أن يروي للتلاميذ بشكل مهذب وذكي عن أكثر الجوانب غرامية في العلاقات الإنسانية. نترك الحديث الآن عن «المنعطفات الحادة» في التربية للطبيب النفسي والكاتب فلاديمير ليفي.

* * *

فـلاديميـر ليفـي

دفاع النعامة

ـ أنت تكذب، تكذب دائماً!

ـ ها ها ها ـ أنت أحمق على ما يبدو!

ـ أنت الأحمق: إنك تكذب!

ـ ولكن لماذا نتخاصم؟ هل تعرف ماذا تفعل عندما يجبرونك على الذهاب إلى النوم؟ يمكنك أن تنام ساعة، ساعتين. هل تعرف كيف يمكنك ذلك؟ يمكن أن تبتلع كمية كبيرة من الشاي. إنهم عندك في الغرفة المجاورة، أليس كذلك؟.

وأنت يمكن أن تضع أذنك على الحائط.... ولماذا ترغي وتزبد، ماذا دهاك؟....

الصـدمة

بوريا، كان قد بلغ الثانية عشر من العمر عندما عرف بالتفصيل كيف يأتي الأطفال. إنه تأخير!...

كان ذلك صدمة نفسية بالنسبة له. لقد مرض. وكان يحب أهله الى درجة العبادة. لقد بنوا سوية مركباً شراعياً. وفجأة بدأ ذلك الولد (سانكا) يلحّ عليه بالأسئلة.

وتبين أنه لا يعرف شيئاً! وبعدها، أخذ سانكا على عاتقه توضيح كل شيء، آه لو تعرفون كيف أوضح ذلك...

على مدى أسبوعين تقريباً لم يذق طعم النوم. وفي إحدى الليالي لم يتمالك نفسه، وقفز من السرير. . . قالت أمه: «أردنا حمايته. . . الحفاظ على علاقة طاهرة مخلصة. . . إنه لم يسأل أبداً عن أي شيء. . . وخاصة عن هذه المسألة. . . لقد درس البيولوجيا في المدرسة. . . واعتقدنا أنه سيكبر وسيفهم كل شيء بنفسه ـ أمّا الآن فلا يمكن أن يغفر لنا ذلك. ويقول، إنه لا يريد أن يعيش. . . ».

على كل حال ينبغي إخضاعه للعلاج: نومه سيء، متهيج، متوتر، لا يثق بأهله، غير إجتماعي مع أترابه، ويتخيل بأن عنده أمراضاً معينة، وفقد الإهتمام بأي شيء. . . لقد قلبت بيني وبين نفسي هذه الحادثة وسألت نفسي: هل من المعقول أن يكون الولد منذ البداية غير سويّ وغير متزن نفسياً، وجاءت «تصريحات» سانكا لتكون باعثاً أو دافعاً فحسب، دفعةً باتجاه الحالة المرضية وليست سبباً؟ كم من الأولاد في نفس العمر أو حتى أصغر من ذلك يتلقون مثل هذه المعلومات ولا يحدث لهم أي شيء، وتمرّ وكأن شيئاً لم يكن. . .

نعم، إنها حالة فريدة. بيد أن الأهل لو كانوا أقل بساطة وأكثر تبصراً، لتمكنوا من تحاشي هذا الإحباط أو التخفيف منه إنْ أمكن. كان بالإمكان إكسابه هذه المناعة الوحيدة مسبقاً، موضحين له شيئاً ما، بهدوء وبمرونة. . . وبشيء من الدعابة والمرح، التي لا تخلو منها حتى الأشياءِ الجدية.

وهذا طفل في السابعة من العمر يستخبر أيضاً: ولكن قولي لي، أخبريني، كيف حدث ذلك؟ وأين كنت سابقاً، عندك أم عند البابا؟

لقد أصبحت أعرف عن الفراشات وعن الأزهار. وأيضاً عن القطط والكلاب. . .

إن خليّة البابا ركضت بإتجاهك؟ ولكن كيف عرفت إلى أين تركض؟ هل قلتِ لها أنتِ؟

وماذا لو ضللّت الطريق؟ وماذا لو خلقت بنتاً؟

وهذه فتاة في الثالثة عشر من العمر:

-أريد أن أصبح طبيبة في المورثات، لكي أصنع الناس من جديد (أغير الناس) ونتخلص من القذر والقبيح. . . يجب أن نصنع كل شيء من جديد، كل الكائن. . .

فتاة في السادسة عشر (عن الكبار):

إنهم ينظرون نحونا بعيون قذرة (دنيئة).

سرّ الولادة، سرّ تجدد الحياة. . . سر الهوى، سر الحب. . . .

هناك أنواع للتربية: تربية على القراءة، الحوار، الأحاديث، وهناك تربية المثال الأعلى وهناك تربية-الخوالج الإنفعالية، الأفعال، العلاقات، والخبرة الشخصية. . . .

أما دراسة بيولوجيا التكاثر في الكتب المدرسية، وقراءة الكتب، وسماع المحاضرات بخصوص الأخلاق وعلم الصحة، فيمكن أن نعزوه إلى التربية الجنسية. كل شيء هناك، ممكن، صحيح، وجيد ولكنه مجرد.

علينا أن ننتبه إلى أن الحياة تولّد تربية ملموسة حسيّة. كل منا، نحن الكبار، سيلاحظ إذا استذكر خبرته الماضية، تلك اللحظة التي بدأت فيها تربيته الملموسة واستمرت. إني أظن أن الكثيرين يوافقون على ما يلي: لم يحصلوا على أية معلومات بهذا الشأن، ولا على أية تربية، وهكذا اعتقد الكبار، بأن الأمور سوف تجري كما جرت معهم سابقاً، وبأن هذه المسألة لا تملك أية أهمية. ويتضح عاجلاً أم آجلاً بأن كل شيء له أهمية ليست قليلة وأحياناً دراماتيكية. . . .

هذه الحالة غير منطقية إلى حد ما.

كيف تُجيب على أسئلتهم

«ستة احتمالات نموذجية»

١ ـ الإخماد السهل لهذه الأسئلة «كف عن ذلك. لا تلحّ. بعد ذلك. ليس لديّ وقت. ألا ترى أني مشغول. إذهب إلى جدتك «للنزهة». لا تطرح مثل هذه الأسئلة السخيفة. إسأل عن شيء ما آخر».

ردة الفعل: «سأسأل ولكن ليس لكم» أو (هذه الأسئلة غير مفيدة للكبار، غير مفيدة أبداً».

٢ ـ وضع حد للأسئلة بالإعتماد على العمر. «ما زلت صغيراً لتعرف ذلك، ستكبر وتعرف. ستعرف الكثير، ستكبر بسرعة».

ردة الفعل: «هل الإنتظار طويل؟ لا تريدون أن توضحوا لي، سأستوضح بنفسي» أو «لا أريد أن أكبر، ولا أريد أن أعرف أي شيء».

٣ ـ وضع حد للسؤال مع إجراء التحقيق. «ولماذا أردت أن تعرف عن هذا الموضوع فجأة؟ هذا الموضوع الغريب؟ يالها من تفاهة ووقاحة.. من علّمك ذلك؟ تكلّم، أليس (ميشا) هو الذي علّمك؟ (أليس هو؟)».

ردة الفعل: «آخ، هكذا إذن...».

٤ ـ إستجابة، ولكن ليست حول الموضوع. «إني أرحّب بهذا وأثني عليك وأهنئك. شيء رائع. من الممكن القول بأن هذا السؤال قد ورد إلى ذهنك في الوقت المناسب. لأننا إذا أخذنا بعين الإعتبار حاجة الطفولة إلى المعارف المتعددة الجوانب، فإنه لا بد من نشوء هذا السؤال. وكما هو معروف، فالمعرفة ـ قوة، ويجب أن يكون عند الإنسان كل شيء رائعاً، كل شيء من دون إستثناء، دخيلته، وهذا كيف نسميّه..... ولكن، أنت تعرف، وهكذا، لنأخذ أولاً الجانب الفلسفي العام لهذه القضية....» ردة الفعل: «آه، متى ستكفّ عن هذا الكذب المضجر؟».

٥ ـ إستجابة حزينة (كئيبة). أوف، ما هذا... هذا يعني أنك لا تثق بالقلق؟...

ولا بالبستان ولا بالمخزن؟.. جيل ميئوس منه، مساكين لا يمكن إبعادكم عن الأخبار. ولكن إليك ما سأقوله لك، أنت تعرف كيف يحصل ذلك عند النحل؟ وهذا ما يحدث أيضاً وللأسف عند الانسان...».

ردّة الفعل: «ولماذا هذا الأسف» أو «أنتم أنفسكم المساكين».

٦ ـ إستجابة فريدة من نوعها «ضحك مستمر، ها، ها، ها، هي، هي، هي، لنخرج من المطبخ لكي لا تسمعنا الجدّة، سأوضح لك شيئاً ما. ها، ها، ها، في البداية..».

ردة الفعل «ماذا بعد، ماذا بعد...».

لنفترض أن الطفل ما زال صغيراً، وساذجاً بعد، لكي يصدّق هذه القصص والحكايات ونحن نؤثر ذلك. أما لاحقاً؟.

«لاحقاً سيكون كل شيء واضحاً» ـ هكذا يحدونا الأمل.

بيد أن المسألة هي أنه لن يكون شيء واضحاً لاحقاً. أو سيكون واضحاً ولكن ليس الى حد كاف.

هل أنتم متنورون؟

... أرجو الموافقة على أمر واحد هام جداً. إن إهتمام الطفل ومن أي عمر كان بمسائل الجنس أمر طبيعي، وحتمي، وضروري. وهذا الإهتمام له صفة الطهارة.

إنه إهتمام بسر الأسرار، بأقدس أقداس الحياة. يبحث الطفل هنا عن الحقيقة، كما في أي شيء آخر. يبحث لكي يطلّع على السرّ.

فضول الأطفال الجنسي شائع ومعروف. ونحن نعرف الكثيرين،

حتى قبل البلوغ، كانت عندهم الرغبة ـ لقد استيقظ عندهم الميل الجنسي أو ما يشابهه.

بعض التجارب المريبة، الاستمناء، ومحاولات الإرتبارط.

بيد أنه لا بد من ملاحظة الجانب الآخر: إن الفضول الجنسي عند الأطفال ـ أقلّ بكثير مما هو عند الكبار. إنه الفضول، نعم، ولكن باختلافات فردية.

ولكن ذلك يمرّ بسرعة، فيما لو. . . .

فيما لو حقق مأربه، بهدوء ومن دون ذعر، وفي حدود التفاهم المتبادل.

إذا ما اعترانا الحماس التربوي المترافق بالإرتياب بكل شيء وخاصة فيما يتعلق بهذه الأمور، فإننا سوف لا نلاحظ تقريباً الجانب الآخر من علاقة الطفل بالجنس. هذه العلاقة الظاهرة تحديداً، البريئة. والأكثر من ذلك ـ دفاع عن النقاء، دفاع ذاتي عن العفة، وعدم رغبة فعّالة حتى هذا الوقت ـ في المعرفة. عناد حتى اليأس أحياناً، إصرار، لا نحمّل أنفسنا وذواتنا أكثر مما تستوعب، من دون إكراه، من دون تحريفات ومن دون جروح.

بعض الأطفال سريعو التأثر إلى حد مرضيّ، والبعض الآخر متوازن، ولكن رد الفعل الأوليّ المباشر عند الجميع ـ هو الإرتداد والنكوص.

إنها ليست سذاجة بسيطة، أو تخلفا في تطوّر الأحاسيس، وإنما بالتحديد دفاع ذاتي داخلي. يبحث الطفل في كل شيء، وينجذب نحو كل شيء. لا توجد عند الإنسان تلك الغريزة التي تمتلك نقيضها، ولا يوجد ذلك الميل الذي لا يُدحض. إنه انعكاس غير قابل للمنع.

الطفل يثق بنا. ولكن بعد مرور بعض الوقت يرى فينا ذلك المثقف المتنور الذي ينوره بأسرار العالم والإنسان.

هل نثق بأنفسنا أم لا؟

من ابتدع الخجل؟

إنهم يسألوننا بكلمات نادرة، وغالباً بارتباك صامت معاتب: لماذا لم نولد من الرأس كما ولدت أثنيا، ومن زبد البحر، كما ولدت أفروديت؟ أين هي أعياد الزهور، والرقصات البهلوانية، أين الموسيقى. . لماذا هذه الفيزيولوجية المعقدة الغامضة؟. . . .

ولماذا يتوجّب إخفاء ذلك؟ .

إننا نسأل أنفسنا وسط القلق والإضطراب: من أين عدم الراحة تلك، والحساسية، وتكمن حساسية ذلك الموضوع في صعوبة التحدث به على إنفراد فكم بالأحرى علناً؟ ماذا يقلقنا وماذا يوتّرنا، ماذا يجبرنا على أن نبتسم بوئام تارة، ونحمرّ خجلاً تارة أخرى، وتارة أخرى ننفجر ساخطين؟ لماذا يسبب هذا الأمر الطبيعي، والأكثر من الطبيعي هذه العلاقة غير الطبيعية؟

هل هو أمر طبيعي؟ أم أنه يجب أن نعتبر أن ما يأتي بنا إلى هذه الحياة شيء يبعث على الخجل، وفي نفس الوقت. . .

ولكن هل نستطيع الحديث عن أية تربية جنسية، إذا فهمنا وأدركنا أسباب هذه الإزدواجية في أنفسنا؟ هنا بإمكان أحد الوالدين، المربّي أو المعلّم أن يغرس علاقة صحيحة بالجنس، إذا لم يكن هو نفسه قد امتلك هذه العلاقة؟

والشيء الرئيسي هو كيف سنفهم هذه العلاقة الصحيحة، وبماذا سنقارنها؟ كيف يجب أن تكون؟ تختلف التحديدات والتعاريف هنا من إنسان إلى آخر وحسب العمر. من إنسان شاب، إلى إنسان مسنّ، من الإمرأة إلى الرجل، من امرأة لديها أطفال، الى امرأة لم تعرف أبداً العلاقات الحميمة، من الطبيب المختص بالأمراض التناسلية إلى مدرس الأدب، من العسكري إلى الفنّان. . .

لا مبالاة عامة، بالرغم من كل التلاوين المختلفة، والنداءات التي لا

مثيل لها . . . كثير من الكتب يمكن أن تكتب عن نقطة واحدة هي : لماذا يصعب علينا التعامل مع قضية الجنس بهدوء، ولماذا يشكل هذا الموضوع معضلة تحديداً.

المحرمات الجنسية - لماذا، أين اللباقة في ذلك؟ هل اللباقة الخالصة البريئة هي في التحكم بتوجيه الميول، وعدم السماح بالإنحراف؟

ألا يُدخل ذلك خلسة بعض الغيرة؟ أو شيئاً آخر بعد؟ هل هو، من أجل رفع العشق والإلهام نحو الجنس؟ أليست الروح الإنسانية نفسها تنتفض ضد تعسّف البيولوجيا البشرية؟ فكلمة «العفة» تتألف من كلمتين (باللغة الروسية) من كلمة (تماسك) و (حكمة). ولكن هل تكمن الحكمة في عدم إمكانية فصل الجنس عن الإنسان الكامل، عن محتوى أو مضمون حياته؟ البحث في كل هذا ليس أمراً سهلاً، وبالأخص إذا كان الأمر يخصك أنت . . .

الجهل بالوراثة

« . . . بغض النظر عن إرادتنا، نحن مضطرون لتعويد طفلنا على آداب السلوك: نحرضه على الخجل من بعض المظاهر الجسدية، كالعريّ، وبعض المحرمات الأخرى. يكفي هذا الشيء ليهيىء التربة الصالحة لتشكّل الإزدواجية في العلاقة بالجنس، والتوتّر، والسرية، ولتشكل الأمراض النفسية اللاحقة.

هذا السرّ المكنون يبدو (مُلَطّخاً) بجسد الإنسان فحسب. وعندما يعرف الطفل عن ذلك من الشارع، يعاني من الصدمة والخجل والمرارة - إنه يخجل من أهله بالدرجة الأولى. كيف؟ . . . بهذه البساطة وبهذه القذارة؟ وأبي وأمي - بهذا الشكل - وجئت؟ . . . ».

وهكذا تبدأ أولى مبادىء المنافقة والوقاحة - أُسلوبان أساسيان للدفاع تجاه الحقيقة غير المفهومة، ولاحقاً عندما تصبح حاجة الجنس واحدة من حقوقهم آخذين بعين الإعتبار حاجتهم في المعرفة عنه عملياً - فإنهم

يصطدمون بتلك الحواجز والأسلاك الشائكة، من التقزز والقرف، إلى الإغراء الكاذب، والدناءة.

«الحرمان من الثمرة» يلعب دوراً مزدوجاً: إنه ينفر من جهة ويجذب من جهة أخرى. . . من الصعب بمكان في هذه الحالة السيكولوجية، إعطاء المعلومات التي تستبق الغريزة لكي لا تقوم هذه المعلومات باستفزاز الغريزة.

أما المعرفة المتأخرة فهي أكثر خطورة أيضاً. . . .

الرأس في الرمل

هل يمكننا الإفتراض بأنّ عدم إثارة أو مناقشة مواضيع الجنس مع الأطفال، هي على قدم المساواة مع تلك «الأسئلة الأبدية» التي تشمل مغزى الحياة ومغزى الموت، وجوهر الحقيقة، جوهر الكذب ـ أو إذا ابتعدنا عنها و «أغلقناها» أو حددناها ـ فإننا بذلك «نغلق» الميل إلى الأسئلة حتى عند أطفالنا، أو «نصونهم»؟ لا. إننا بذلك نصون أنفسنا من أنفسنا فحسب: إننا بذلك نوقع على عجزنا الداخلي، وننغلق تجاه أطفالنا. وبذلك نجعل أسئلتهم تدور في الخفاء. إننا نرفض بأنفسنا الروابط الحيّة معهم ومراقبتهم وتوجيه تطورهم أو نموهم الروحي.

إنه دفاع النعامة. . . .

ليس كلّ شيء يمكن الكلام عنه علناً، وبشكل مباشر هذا شيء صحيح. فالحديث هنا يمكن أن يرتدي قالباً راقياً، نثرياً كان أم شعرياً ـ إنه السرّ. . . بيد أن الإعلان عن موضوع غير مريح، أو ظاهرة غير مرغوبة بأنها ليست موجودة، يعتبر أسلوباً متيناً، حيث تتم تنمية (تربية) هذا الموضع أو هذه الظاهرة حتى نعجز عن مراقبتها. وهناك أسلوب آخر على العكس من ذاك تماماً وهو إظهار الإرتياب والشك بالموضوع المطروح أو الظاهرة، وعندها يمكن أن ينشأ تصوّر بأنه لا وجود لموضوع غير مريح.

يتوجب عليّ أحياناً، مثل عالم النفس، الغوص في الجو الحياتي الداخلي لكثير من العائلات، التي تحرم مناقشة مسائل الجنس، وملاحظة مختلف أنواع العواقب السيكولوجية.

يتسم الجو العام بغياب المرح والمباشرة وكثرة الكتب، والتصنّع، والإفتراء. يمكن أن نصنّف نموذجين متطرفين، أو بشكل أدقّ، إتجاهين في تطور الأطفال ضمن هذه الأسر، بعلاقتهم اللاحقة بالجنس - وأرجو أن تلاحظوا بشكل خاص - بأنه ليس بالجنس فقط.

العصاب الجنسي الفعّال (النشط).

إنه زيادة الاهتمام والميل الى درجة مفرطة. سأحصل على ما أبتغي - سأعرف، سأفهم، سأحاول، سأجرب، لا تراقبوني، لا توقفوني، لا تعيقوني!

السعي الشديد والمتنامي لتخطيّ المحرمات، وعبور حدود المسموح. ومن عواقبه السيكولوجية: التعنّت، عدم الثقة، التحفظ، ثورات من العدوانية، و (حملات) مفاجئة من الإستهتار والوقاحة. إستمناء عابر، مؤقت. أحلام جنسية سرية مترافقة مع محاولات جدية لتحقيقها. وتمر السنون - وكما يقال أحلاها مرّ، ويتأرجح هذا الشخص بين الوقاحة وبين تبكيت الضمير . . . وغالباً ما يصبح طاغية في الأسرة، وخاصة في مجال المراقبة الجنسية (كل ذلك عصاب!) تجاه أطفاله.

العصاب الجنسي السلبي:

عدم الإهتمام بالظهور. إزاحة الميل نحو اللاشعور. أما محتوى الشعور فهو: الخجل، القذارة والنفور - لا يمكن لذلك أن يكون. لا أريد. لا يوجد!

أما محتوى اللاشعور فهو: كل الأماكن مملوءة بـ (هذا)، يمكن أن نبحث عنه في كل مكان ونجده. ويرغمه عدم الإعتراف بالميل الجنسي عنده حسب الآلية الحتمية للتحويل السيكولوجي - على أن يراه في الآخرين.

طيف العواقب السيكولوجية: الإستمناء (الوسوسة) الجنسية، صراع مهين وغبي مع الميل الجنسي، مترافق مع إنتصارات قليلة وخسائر كثيرة، الشعور بالهلع، والذنب، وعدم الثقة، وعدم الكمال، عدم الراحة الداخلية، وانقباض النفس، الحياء، الإنغلاق والتقييد المؤلم بالتعامل وخاصة مع الجنس الآخر، فقر في العواطف وسبر ذاتي عديم الجدوى، وخاصة إذا كان النشاط محدوداً

لاحقاً ـ صعوبات متنوعة في الحياة الغرامية (التي يمكن ألا تتم).

في الحياة الزوجية عدم الشعور بالرضى، أو عدم القدرة على الإرضاء.

يمكن أن تتخذ الغيرة شكلاً من أشكال الهذيان الخيالي. التعامل مع الأطفال ـ غياب المباشرة، التأرجح بين الليبرالية المفرطة والطغيان، مع ما يرافق ذلك من مراقبة جنسية زائدة. . . ويمكن أن ينطبق عليه عندما يكبر في العمر هذا الإحتمال: «الشيب على رأسه، والشيطان في داخله. . .».

إِني أتغاضى عن الكثير من التناقضات والاقترانات لكي أقدم صورة مبسطة. ولكن ما يطفو على السطح هو عدم التوازن، وعدم الإنسجام في العلاقة بالجنس، حيث ينتقل من جيل إلى جيل، ويولدّ الكثير من المشاكل، التي تبدو وكأن لا علاقة لها بالجنس.

أما السبب الرئيسي فهو بسيط للغاية ـ إِنه الجهل

زواج بالتدريج

. . . . نسأل أنفسنا: ماذا نتمنى لأطفالنا؟ ماذا نُضَمِّن مفهوم (التربية الجنسية)، وهل نعترف أخيراً بأنها ضرورية؟ ما هي الأهداف والنتائج، ما هو البرنامج؟‹ ما هو المثل الأعلى؟ (الصحة)، (الإنسجام)، (السعادة). . . (النقاء الأخلاقي). . . (الثبات الأخلاقي). . . نعم، نعم، إنه لشيء رائع. ولكن. . . .

من مجمل الأحداث اليومية والطبية الكثيرة حول هذا الموضوع، حاول المؤلف أحياناً الوصل إلى تصور جامع: كيف نتصور، نحن الأهل، التربية الجنسية (المثالية) لأطفالنا المراهقين. لقد حصلنا على اللوحة التالية تبعاً لازدياد العمر.

من سن / ٣ حتى ٧/ نربيهم بحيث لا يكترثون (ولا بأي شيء من هذا القبيل).

من سن / ٧ حتى ١٢/ سنة نربيهم بحيث لا يكترثون ولا يخضعون (لمثل هذه التأثيرات).

من سن / ١٢ حتى ١٦/ سنة نربيهم بحيث لا يكترثون ولا يخضعون ولا يسمح لهم (بحضور مثل هذه الأفلام).

من سن / ١٦ حتى ١٨/ سنة نربيهم بحيث يكترثون، ولكن قليلاً. بحيث يغازلون، ولكن بهدوء. وأن يحبوا، ولكن بالتدريج شيئاً فشيئاً. وبحيث لا نسمح لهم (بأي شيء من هذا القبيل). من الثامنة عشرة ـ التفكير المتمهل بالزواج المقبل، وبالعائلة، بولادة الأطفال وبمسؤولية هذه الخطوة التي لا يمكن إصلاحها.

من / ٢٣ حتى ٢٥/ سنة على ما يبدو حان الوقت للزواج، عن حب إن أمكن ولكن بتبصّر. إستعداد مسبق وبكل الوسائل. وبالإستفادة من نصائحنا وارشاداتنا.

من / ٢٥ حتى ٣٠/ سنة ولكن إلى متى أخيراً، هل ستعيش وترى الأحفاد؟ لقد تأخرنا، وآن الأوان منذ زمن بعيد! إجراءات صارمة بإلغاء العنوسة، العزوبة، حياة الوحدة، وبعض العواقب الأخرى لعدم الطاعة وعدم الإنتباه لنصائحنا. يجب القيام بخطوة جدية. نحن نُريد لأطفالنا الصحةّ، ولكن نرغب أيضاً، بأن لا تتجلّى فيزيولجيتهم الصحيّة قبل الوقت المحدد بالنسبة لهم، وأن لا تتجسد بشكل يختلف عن الشكل المعتاد المؤدي

إلى الحصول على شهادة الزواج، وفي أسوأ الحالات يمكن أن نواجه إنحرافاً صحياً قبل الأوان، نريد زواجاً قائماً على الحب، ونريد زواجاً متبصراً، ومن الصعب علينا في الحقيقة أن نتخيل مثل هذا الحبّ المتبصرّ. نرغب في أن يفهموا هذه المسائل في الوقت المناسب، وأنه لا يمكننا أن نقترح عليهم عملياً أي شيء. أما إمكانية تقاسم الخبرة الشخصية فهي محدودة جداً. نرغب في أن يعرفوا شيئاً ما ـ ولكن الذين لا يعرفون أي شيء تقريباً ـ أقل منّا.

نريدهم أن يفهموا الجمال، السعادة، كمال الحياة، ولكننا نحن أنفسنا نبعدهم وننفرهم من ذلك بتحذيراتنا الخطيرة، وشكوكنا المربية.

إقتراح بتغير المصطلح

هكذا سيكون أسهل وأقرب إلى الحقيقة. التربية الودية المخلصة تجعل الشخص أكثر قرباً، وأكثر حميمية، وتربية أعمق المشاعر وأقواها تجعله يدرك ذاته والآخرين. لا، إنها ليست زركشة كلامية. لا ينبغي أن نهمل التربية (الجنسية) أو نخفيها بأي شكل من الأشكال. وحتى لو كان الجنس مفصولاً عن الانسان الكامل ويغير إشارته من السالب نحو الموجب، فإن المشاكل سوف لا تتناقص، وإنما تنزاح فحسب باتجاه آخر. يلزمنا مفهوم يجمع بين الجنسية (Sexulity) والعمق الروحي كما هي في واقع الحال، أي، كما يمكن أن يكون في الحياة المنسجمة.

تربية (أخلاقية)؟ لا يوجد أي تناقض هنا. تشابك (الجنسي) و(الأخلاقي) يعطينا التربية (المخلصة)(الودية). والحياة الصعبة واللطيفة.

تقول لنا الخبرة الطبية العلاجية بأنه لا توجد أية تربية (جنسية) خالصة وإنما تربية كاملة وغير قابلة للتجزئة: الإنضمام إلى الحياة وإلى بعث الروح في الحياة..

ـ لقد تعرفتم على وجهة النظر الطبية المهنية بشأن قضايا التربية

الجنسية. نشير إلى أن هذا المدخل الطبّي مؤسس على حوار ناضج علمي على وجه التقريب مع المراهقين، عن الجانب الفيزيولوجي لحياة الكبار الذي استدعى دائماً وسيستدعي إهتمام المراهقين الزائد، وترك وسيترك أثراً خاصاً في مخيلاتهم.

التثقيف الطبي ، عمل واجد وضروري، على المدارس أن تعيره إهتماماً أكثر بكثير مما توليه الآن، على أن لا تتوقف عند هذا الجانب من جوانب التربية فقط. التثقيف والتربية مفهومان غير متماثلين. إذا لم يستطع المراهقون أن يروا في العلاقات الجنسية سوى الجانب الفيزيولوجي فسيخفى عنهم الجانب الأكثر أهمية وجوهرية ألا وهو الجانب الروحي، الأخلاقي. إنهم لا يلاحظون في الحب التجليات الرائعة للروح البشرية ونماذج التضحية والنبل.

-التثقيف الطبي الضعيف، غير المدعّم بالجانب الأخلاقي، يمكن أن يسبب إهتماماً غير مرغوب ويخلق حاجة مبكرة إلى حياة الكبار الغرامية. يجب أن يوجهّ التثقيف إلى وعي الطفل، إذ تضيف التربية إليه المشاعر وحسن السلوك. فقط في الإلتقاء المتناغم لهذا الجانب وذاك، يمكن أن نتكلم عن الجانب التربوي للتربية الجنسية.

المثال الرائع لهذا الإلتقاء يمكن أن نجده عندا لمربي الروسي العظيم. / أ. س. مكارينكو/ حيث ندعوكم إلى قراءة بحثه التالي وننوه إلى أنه هو نفسه اعتبر التربية الجنسية أحد أصعب القضايا التربوية.

* * *

أ.س. مكارينكو
التـربيـة الجنسية

(من كتاب محاضرات عن تربية الأطفال)

إن قضية التربية الجنسية من أصعب القضايا التربوية، حيث نواجه هنا، أكثر من أية قضية أخرى، قدراً كبيراً من الآراء غير الصحيحة والمغلوطة.

هذه القضية ليست صعبة جداً فقد وجدت حلاً لها في كثير من العائلات ومن دون أن تسبب هزّات مؤلمة. تكمن صعوبتها بالنظر إليها بمعزل عن القضايا الأخرى، وبإعطائها إهتماماً زائداً بمعزل عن مجمل القضايا التربوية الأخرى.

يمكن أن يجد الأهل الحل الصحيح لمسألة التربية الجنسية لأولادهم عندما يكون هدف التربية واضحاً أمامهم، بحيث يشمل معظم جوانب الحياة بما فيها المسألة الجنسية.

عندما يصبح هذا الهدف واضحاً أمام الأهل، تصبح ظروف الوصول إليه، وبلوغه واضحة أيضاً. ومن المعروف أن كل إنسان عندما يبلغ سناً معينة فإنه يعيش الحياة الجنسية. ولكن الحياة الجنسية غير مقتصرة على الإنسان فقط، بل تشكل جزءاً هاماً من حياة الكثير من الكائنات الحية.

تختلف الحياة الجنسية عند الإنسان جوهرياً عن الحياة الجنسية عند الحيوانات، بسبب التربية الجنسية. ويمكن أن لا ينحصر إختلاف الحياة الجنسية عند الإنسان عن الحياة الجنسية عند الحيوانات في الإتجاه الجيد فقط، وإنما في الإتجاه السيء أيضاً. فالحيوانات تعيش الحاجة إلى الحياة الجنسية

بقدر ما تسعى إلى الذرية للبقاء، ولا نواجه عندها حالات الدعارة والفسق، أما الإنسان فيسعى في أكثر الأحيان إلى اللذة الجنسية، بغض النظر عن الرغبة في إنجاب الأطفال. ويكتسب هذا السعي أحياناً أشكالاً مشوّقة وغير مبررة أخلاقياً، بحيث يسبب التعاسة للآخرين.

لقد قطع الإنسان شوطاً كبيراً في التطور، ولم ينحصر تطوره في الشكل فحسب، وإنما تطور على الصعيد الإجتماعي أيضاً. صاغ الإنسان خلال هذا التاريخ الطويل من التطور، نماذج بشرية تشمل الكثير من الجوانب الأخلاقية، ومن ضمنها كانت نماذج لعلاقات الإنسان الجنسية. إننا نعرف جيداً بعضاً من هذه النماذج كبيع النساء بالاضافة إلى أشكال تاريخية كثيرة من تعدّد الزوجات حيث تعتبر المرأة للذّة الرجل فقط، إلى الدعارة، حيث يشتري الرجل ولفترة قصيرة ملاطفة النساء، وأخيراً الأطر القسرية للعائلة، حيث يُجْبَر الرجل والمرأة على العيش سوية من دون إرادتهما. تختلف هذه المظاهر من مجتمع لآخر. ونواجه بعض الحالات من الفهم المغلوط لمفهوم الحرية الجنسية، كالاستبدال العشوائي للشريك الآخر تحت يافطة الحب الحر. يمكن أن تؤدي هذه المظاهر بالتأكيد إلى المعاناة المريرة والتعاسة وإنهيار الأسرة وإلى تيتم الأطفال من خلال حياة الشخص العامة وكذلك من خلال حياته الجنسية. ويجب أن لا ينسى بأنه عضو في مجتمع معين وأنه مواطن في بلد معين.

لذلك عليه أن يراعي من خلال تعامله مع المرأة، جميع متطلبات الأخلاق الإجتماعية التي يفرضها المجتمع. وهذه الأخلاق الإجتماعية تتطلب من كل مواطن متطلبات محدودة حتى في الحياة الجنسية. لذلك على الأهل أن يربّوا أطفالهم بحيث لا يكون سلوكهم معاكساً للأخلاق الإجتماعية. بماذا تطالب الأخلاق الإجتماعية فيما يخص قضايا الحياة الجنسية؟ إنها تطالب بأن تكون الحياة الجنسية للإنسان، لكل رجل ولكل إمرأة، في حالة وفاق وإنسجام مستمر، وخاصة فيما يتعلق بجانبين من

جوانب الحياة: الأسرة والحب. إنها تعترف بتلك الحياة الجنسية الطبيعية والمبررة أخلاقياً، المؤسسة على الحب المتبادل، التي تتجلى في الأسرة عبر الإتحاد الكلي بين الرجل والمرأة، الذي يسعى لتحقيق هدفين: السعادة البشرية وولادة الأطفال وتربيتهم. من هنا وضوح أهداف التربية الجنسية. يجب علينا أن نربي أطفالنا، بحيث يستطيعون عبر الحب فقط أن يتلذذوا بالحياة الجنسية، وبحيث يحققون هذه اللذة وهذا الحب وتلك السعادة عبر الأسرة تحديداً.

عندما نتحدث عن تربية المشاعر الجنسية المستقبلية عند الطفل، يجب أن نتحدث بشكل خاص عن تربية حبّه المستقبلي، وعن تربيته كمحب للحياة العائلية. وستكون كل تربية جنسية أُخرى، ضارة بالتأكيد وغير إجتماعية.

على الآباء والأمهات أن يضعوا نصب أعينهم ذلك الهدف، الذي على أساسه يربيان أولادهم بحيث يتيح لهم الحصول على السعادة فقط من خلال الحياة العائلية، وأن يبحثوا ضمن هذا الإطار عن سعادة حياتهم الجنسية، إذا لم يضع الأهل هذا الهدف نصب أعينهم فإن أولادهم سيعيشون حياة جنسية فوضوية، وبالتالي سيعيشون حياة مليئة بالمآسي وبالتعاسة وبكل أنواع القذارة والضرر الإجتماعي. أما إذا وضع الأهل هذا الهدف أمام أعينهم فعليهم أن يبحثوا عن الوسائل الضرورية لبلوغه. ويمكن أن يجدوا هذه الوسائل في الأدبيات الخاصة بهذا المجال، أو في الكتب الأدبية. ويمكن أن نواجه مختلف الآراء والوصفات الجاهزة ومختلف وجهات النظر والنصائح المتناقضة. على الأهل أن يتعلّموا جيداً الإمعان في هذه الآراء، ويختاروا منها ما يفيدهم ويساعدهم في تربية أطفالهم تربية صحيحة، ويوصلهم إلى الهدف المنشود. التربية الجنسية الصحيحة كأيّ تربية أخرى للسجايا البشرية يتم بلوغها في كل خطوة، وخاصة إذا كانت حياة الأسرة منظمة بشكل صحيح.

إن قدرات الإنسان العامة وشخصيته السياسية والأخلاقية، تطوره

وقدرته على العمل، شرفه، وإخلاصه لوطنه، وحبّه لمجتمعه، كل ذلك يشكل الأساس الحاسم في مسائل الحب والحياة العائلية. لذلك فمن الصحيح تماماً أن تنمو الحياة الجنسية لإنسان المستقبل في كل خطوة يخطوها وحتى عندما لا يفكر فيها الأهل ولا المربون.

هناك مثل قديم يقول: (الكسل ـ هو أم جميع العيوب). يعكس هذا المثل بشكل صحيح تماماً ذلك القانون العام، ولكن ليس لجميع العيوب أم واحده. ليس الكسل فقط، وإنما كل انحراف للإنسان عن السلوك الإجتماعي الصحيح، سيقود حتماً إلى السلوك المعيب في المجتمع، وسيؤدي أيضاً إلى فوضى الحياة الجنسية. لذلك لا توجد أساليب أو طرق خاصة لمعالجة قضايا التربية الجنسية. وإنما نعرف مدى صحة أو عدم صحة التربية الجنسية من خلال الشكل العام للعمل التربوي وإتجاهه ومن خلال المظهر الذي يتجلى به كلياً.

عندما نربي عند الطفل، الشرف، الأمانة، حب العمل، والإخلاص والصدق، الإستقامة والنقاء، التعود على قول الحقيقة وإحترام الانسان الآخر، ومشاعره، وإهتماماته وحب الوطن، فإننا نربيه من خلال ذلك حتى في مجال العلاقات الجنسية. من بين هذه الطرق العامة في التربية، ما له علاقة أكثر بالتربية الجنسية، وما له علاقة أقل. ولكن إذا أخذنا هذه الطرق مجتمعةً، فإنها تحدد إلى درجة كبيرة مدى نجاحها في تربية زوج المستقبل أو زوجة المستقبل، ودرجة حبهم لأسرهم. بيد أنه توجد طرق وأساليب تربوية محددة، مخصصة لأن تكون مفيدة تحديداً في مسائل التربية الجنسية. وهناك من الناس، من يعلق آمالاً كبيرة على هذه الأساليب والطرق ويعتبرونها التعبير الأكثر حكمة عن الإبداع التربوي.

يجب أن نشير بشكل خاص، إلى أنّ هذه النصائح الخصوصية تحتوي تحديداً على أكثر الطرق ضرراً في مجال التربية الجنسية، ولذلك يجب التعامل معها بحزم دائم. تحوز قضية التربية الجنسية على إهتمام كبير جداً

منذ القدم. واعتقد الكثيرون آنذاك بأن المجال الجنسي هو المجال الرئيسي والحاسم في بنية (تكوين) الإنسان الفيزولوجي والنفسي، وبأن كل السلوك البشري يرتبط بالمجال الجنسي. يسعى مناصرو هذه المبادىء (النظرية) للبرهنة، على أن كل تربية للشباب والشابات هي تربية جنسية في جوهرها.

ظل الكثير من هذه النظريات مدفوناً في الكتب، ولم تصل إلى القارىء. ولكن ما تسرب منها إلى المجتمع الواسع، ولّد الكثير من الآراء والأفكار الخطرة والضارّة. إن أكثر ما يقلقنا، هو أن يكون الطفل مستعداً للحياة الجنسية من غير أن يرى فيها أي شيء (مخجل) أو شيء سرّي.

بسعينا نحو ذلك، نحاول قدر الإمكان، وبشكل مبكر، أن نطلع الطفل على كل أسرار الحياة الجنسية وأن نشرح له سرّ ولادة الأطفال.

طبعاً هناك من يخدع الأطفال ويروي لهم قصصاً وحكايات عن اللقالق وعن المجرمين الوهميين في ولادة الأطفال. وينطلق البعض من أن إفهام الطفل كل شيء فيما يخص الحياة الجنسية، بحيث لا يبقى لديه تصور بأن ذلك شيء مخجل سيؤدي تحديداً إلى التربية الجنسية الصحيحة.

يجب أن نتعامل مع هذه النصيحة بحذر زائد. وأن نتعامل مع القضايا المتعلقة بالجنس برصانة أكبر، ولا نجعل منها نزوات لا يمكن إصلاحها. وفي الحقيقة غالباً ما يسأل الطفل عن مصدر الأطفال. ولكن لا ينتج بالضرورة من هذا الاستفهام، أن نشرح له في هذا العمر المبكر كل شيء وحتى النهاية. فالطفل تنقصه المعرفة في كل المجالات وليس في المجال الجنسي فقط. فهو لا يدرك إلا القليل من مختلف قضايا الحياة. ويجب أن لا نتعجل بتحميله معلومات هو عاجز عن حملها في هذا العمر المبكر.

وحتى عندما لا يتعدى عمر الطفل الثلاث سنوات يجب أن لا نفسر له من أين تنشأ الحرارة والبرودة، وكيف يقصر النهار أو يطول. وحتى عندما يبلغ السابعة من العمر، فإننا لا نحاول أن نشرح له تركيب محرك الطائرة، بالرغم من أن هذه المسائل تبدأ بجذب إنتباهه. لكل معرفة عمرها الخاص

ولا يوجد أي خطر من القول له : أنت ما زلت صغيراً بعد، ستكبر وستعرف كل شيء. يجب أن ننوه إلى أنّ الطفل لا يوجد عنده أي اهتمام لجوج بالمسائل الجنسية، ولا يمكن أن يوجد. ولا يحين هذا الاهتمام إلاّ في مرحلة البلوغ الجنسي فقط، حتى تحين هذه الفترة لا يوجد أي شيء سرى في الحياة الجنسية بالنسبة للطفل. ولذلك لا توجد أية حاجة ملحة، لأن نشرح له عن كيفية ولادة الأطفال، بمجرد سؤاله عن ذلك. ولا تحتوي أسئلة الأطفال تلك، على أيّ فضول جنسي خاص، ولا يجلب إخفاء السر عنه أي ضرر أو معاناة. ويمكننا أن نصرف الطفل عن السؤال بشكل مهذب ونبعده عنه بمزاح بسيط أو بابتسامة، عندها سينسى سؤاله بسرعة، ويشغل نفسه بشيء آخر تماماً. ولكن إذا بدأتم الخوض معه في أدق تفاصيل العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة فإنكم بذلك وبالتأكيد ستعززون عنده الفضول نحو المجال الجنسي. وستعززون عنده بعد ذلك وبشكل مبكر الخيال المثير. تلك المعرفة التي تعطونه إياها غير مفيدة له بتاتاً. بيد أن الخيال الذي تثيرونه عنده، يمكن أن يضع حجر الأساس للإنفعالات الجنسية التي ما زال صغيراً عليها.

يجب أن لا نخاف أبداً من إمكانية معرفة الطفل سرّ ولادة الأطفال من رفاقه وصديقاته، ويمكن أن تبقى هذه المعرفة سرية. الكتمان في هذه الحالة غير مخيف أبداً. وعلى الطفل أن يعتاد على أن الكثير من جوانب حياة الإنسان التي يشكلها المجال السري الغرامي، يجب أن تبقى طي الكتمان ولا نعرضه على الملأ. فقط عندما تكون علاقة الطفل بالحياة الغرامية للناس قد تشكلت عنده وترعرعت، وعندما يعتاد على كتمان الأسرار، عندها يمكننا، وبعد أن يكبر قليلاً، أن نتكلم معه عن الحياة الجنسية. يجب أن تجري هذه الحوارات بسرية مطلقة بين الأب والإبن أو بين الأم وابنتها. وسوف تحقق هذه الحوارات الفائدة المباشرة والفعلية عندما تتزامن مع الاستيقاظ الطبيعي للحياة الجنسية عند الشباب والشابات. لا يمكن أن تسبب هذه الحوارات، في هذه الفترة الزمنية أي ضرر، حيث يدرك الأهل والأولاد معاً بأن هذه

المواضيع هي مواضيع هامة وسرية، وبأن الخوض فيها يجلب الفائدة. كما أن هذه المواضيع يجب أن تتطرق إلى قضايا الصحة الجنسية، وإلى مسائل الأخلاق الجنسية أيضاً. علينا أن لا نُضَخِّم من أهمية الحوارات في مرحلة النضج الجنسي بالرغم من ضرورتها، وباختصار فإن هذه الحوارات، ستكون أفضل لو جرت مع الطبيب أو نظمت في المدرسة. يسود عادة بين الأهل والأولاد جوٌّ من الثقة والوداعة، ومن الإلفة والطهارة الذي غالباً ما يتحطم عند الخوض في هذه المواضيع الصعبة وبشكل مكشوف.

ورداً على الحوارات المبكرة جداً بخصوص التربية الجنسية يمكن أن نحتج بالتصورات التالية: يؤدي الحوار المبكر وقبل الأوان في المسائل الجنسية بالطفل إلى وجهة نظر عقلانية فظة تجاه المجال الجنسي، ويضع نقطة البداية للإستهتار والمجون.

تضع هذه الحوارات المسألة الجنسية أمام الطفل في إطار فيزيولوجي، فهذه المواضيع لن تقترن في هذه الحالة بمواضيع الحب، أي بالعلاقة ذات القيمة الإجتماعية الراقية تجاه المرأة. حيث يمكن أن يقال للطفل بكلمات بسيطة مباشرة، بأن العلاقات الجنسية تتحقق بالحب، وتصوروا لو أن الطفل لا يملك أي تصور عن هذا الموضوع. ان حوارات كهذه ستكون ذات اطار فيزيولوجي ضيق، بغض النظر عن ارادتكم.

إن إثارة هذه المواضيع مع الأطفال بعد أن ينضجوا ويكبروا تتيح لكم إمكانية ربط الموضوع الجنسي بالحب، وينشأ عندهم علاقة الإحترام العميق تجاه هذه المسألة، الإحترام الجمالي البشري. إن شبابنا وشاباتنا يتعرفون على مواضيع الحب من الأدب، ومن تجربة الناس الآخرين، ومن الملاحظات الإجتماعية. وعلى الأهل عندئذ أن يرتكزوا على هذه المعارف والتصورات التي أصبحت في حوزة أولادهم.

يجب أن لا تنفصل التربية الجنسية عن تربية مشاعر الحب العميقة والكبيرة، المشاعر المزدانة بوحدة الحياة وبالمساعي والآمال. ولكن مثل هذه

التربية الجنسية يمكن أن تنشأ أيضاً من الخوض الفاضح في تفاصيل وجوهر المسائل الفيزيولوجية المحددة.

كيف نقوم بهذه التربية الجنسية؟ يمثل المثال الأعلى، هنا مكاناً مرموقاً ورئيسياً. الحب الحقيقي بين الأب والأم واحترام أحدهما الآخر، والمساعدة المتبادلة، والملاطفة والرقة المتبادلة - كل ذلك إذا جرى على مرأى من الأطفال منذ السنوات الأولى لولادتهم فإنه يعتبر عاملاً تربوياً عظيماً، ويحفّز لديهم الإنتباه إلى تلك العلاقات الجدية والجميلة، بين الرجل والمرأة. ويعتبر تربية مشاعر الحب عند الطفل، العامل المهم الثاني. إذا كبر الطفل ولم يتعلم أن يحب أهله وإخوته وأخواته ومدرسته ووطنه، وإذا كان طبعه ميالاً إلى الأنانية المفرطة، فهو لن يكون قادراً عندئذ على أن يُحب المرأة التي يختارها. غالباً ما يُظهر هؤلاء الناس مشاعر جنسية قوية جداً، ولكنهم ميالون دائماً الى عدم إِحترام تلك المرأة التي تشاركهم، ولا يقدرون حياتها الروحية، ولا يبالون بها. ولذلك فإنهم يغيّرون إرتباطاتهم بسهولة وسرعة، ولا يقفون بعيداً عن حد الإستهتار والمجون. ولا يقتصر ذلك على الرجال فقط، بل نواجهه عند النساء أيضاً.

الحب غير الجنسي - الصداقة، خبرة هذه الصداقة المقترنة بالحب، المعاشة في الطفولة، وخبرة العلاقات الطويلة (التي تمتد لفترة زمنية طويلة) بأناس محددين، وحب الوطن، المغروسة منذ الطفولة، كل ذلك يشكل الطريقة الأفضل لتربية العلاقات الإجتماعية الراقية بالمرأة - الصديق. إِذ لا يمكن ضبط المجال الجنسي أو تنظيمه من دون هذه العلاقة. ولذلك فنحن ننصح الأهل أن ينتبهوا إلى مسألة مشاعر الطفل تجاه الناس والمجتمع ومن الضروري أن نسعى لكي يكون عند طفلنا أصدقاء (الأهل، الأخوة، الزملاء) بحيث تكون علاقته بهم غير عرضيّة وغير أنانية، يجب أن نحفز عنده منذ الصغر الإهتمام بالقرية وبالمدينة وبالوطن. وبالطبع فإن مواضيع كهذه لا تكفيها أحاديث عابرة. على الطفل أن يرى الكثير، ويفكر بأشياء

كثيرة وأن يعيش إنطباعات حيّة. ولذلك ننصح الأطفال بقراءة القصص الأدبية المخصصة لهم وإرتياد المسرح والسينما.

مثل هذه التربية هي التي تنعكس إيجاباً، حيث يشمل ذلك الجانب الجنسي أيضاً. وسيدفع النظام الصحيح المتبع في الأسرة بهذا الاتجاه أيضاً وبشكل مفيد. الولد أو البنت المعتادة منذ الصغر على النظام وغير المعتادة على الفوضى والحياة غير المسؤولة، هذه العادةسوف تنتقل فيما بهد وتصبح في صلب العلاقة بالمرأة وبالرجل. فالنظام الصحيح يكرر نفسه من خلال التربية. تبدأ التجربة الفوضوية (المشوشة) في الحياة الجنسية غالباً في ظروف اللقاءات العرضية والفوضوية بين الشباب والشابات وفي ظروف العطالة والضجر والملل، وقضاء الوقت الفارغ بشكل لا مسؤول. على الأهل أن يعرفوا مع من يلتقي إبنهم أو إبنتهم، وما هي المصالح التي يتوخاها أويسعى إليها من هذه اللقاءات. ويساعد النظام الصحيح أخيراً على الشعور بالصحة الجسدية الجيدة، بحيث لا تظهر عنده أو عندها أية إنفعالات جنسية مبكرة. النوم في الوقت المناسب والإستيقاظ الباكر، وعدم هدر الوقت في النوم من دون فائدة ـ ذلك النظام هو صيانة أخلاقية جيدة وجنسية أيضاً.

الشرط الثاني المهم في التربية الجنسية هو تحميل الطفل حملاً عادياً من المشاغل والأعمال. لقد دار الحديث عن هذا في الحوارات السابقة، ولكن هذه المسألة تحتل مكاناً هاماً حتى في التربية الجنسية. بعض التعب اللذيذ الذي يحلّ بالطفل بحلول المساء، وتصوراته منذ الصباح عن واجباته وأعماله خلال النهار، كل ذلك يشكل مقدمات هامة جداً من أجل التطور الصحيح لخيال الطفل، ومن أجل التوزيع المتناسق للأعمال خلال النهار. لا يتبقى للطفل ضمن هذا النظام اليومي مجال للتجوال الذي لا طائل منه ولا للقاءات العرضية، ولا لفتح الباب على مصراعيه أمام مختلف الأوهام والخيالات. أولئك الأطفال الذين أمضوا فترة طفولتهم الأولى في ظل نظام

دقيق وصحيح، يميلون في الكبر إلى هذا النظام وتكون علاقتهم بالناس أكثر تنظيماً وتهذيباً.

وتضاف الرياضة أيضاً إلى مجال التربية الصحيحة، حيث تنعكس حتمياً على المجال الجنسي. إن ممارسة الرياضة بانتظام وبشكل صحيح، تجلب فائدة كبيرة، وبقدر ما هي جلية وواضحة هذه الفائدة لسنا بحاجة إلى البرهنة عليها.

كل الإجراءات والمبادىء التربوية التي نوهنا إليها ـ تبدو وكأنها غير موجهة مباشرة نحو هدف التربية الجنسية، ولكنها تقود بالتحديد إلى هذا الهدف من خلال تربية الطبع، وتنظيم خبرة الشبيبة النفسية والجسدية: إنها تشكل بالتحديد الوسائل الأكثر جبروتاً للتربية الجنسية. هذا الجو الذي تطبق فيه هذه المبادىء والطرق، تساعد الأهل على التأثير المباشر على أولادهم من خلال الحوار. إذا لم نراع كل تلك المبادىء والشروط المشار اليها، وإذا لم نربّ عند الطفل مشاعر الإحترام تجاه الناس والجماعة، وإذا لم يوضع نظام للعمل وللرياضة، فإن أي كلام لا يجدي نفعاً حتى وإن كان ذكياً وجاء في الوقت المناسب.

يجب أن تنشأ هذه الحوارات بالتأكيد مصادفة، ويجب علينا أن لا نستبق الأمور بالحوار أبداً، وأن لا نعلم الطفل شيئاً ما لم يظهر ذلك في سلوكه. ومن الضروري في الوقت نفسه، ملاحظة أدق التغيرات في سلوك الأطفال وإنحرافها عن المألوف، لكي لا نقف بعدها عاجزين أمام ظاهرة مكتملة. ويمكن أن يكون الباعث إلى هذه الحوارات: الأحاديث، والكلمات الوقحة الماجنة، والإهتمام الزائد بالمشاحنات العائلية الغريبة، المرتبطة بوضوح بالإهتمام الجنسي؛ عدم إحترام المرأة، والإهتمام المفرط بالهندام؛ الغنج المبكر، والإهتمام بالكتب، التي توضح بشكل مكشوف العلاقات الجنسية. وفي عمر أكثر نضجاً، يمكن أن تتخذ هذه الحوارات طابع

الإقناع، وكشف الظاهره وتحليلها وإظهار الحلول الإيجابية الممكنة. أما في السن الأقل نضجاً فيجب أن تكون هذه الحوارات أقصر، وممزوجة بلهجة التحريم المباشر، وبالمطلب البسيط الواضح في سلوك أكثر استقامة.

أما الحوارات الأكثر فعالية، فهي التي يوجهها الأهل لأولادهم بشكل غير مباشر وخاصة مع بعض الناس الذين تطغى عندهم المسائل ذات الطابع الجنسي.

يستطيع الأهل عبر هذا الأسلوب من التلقين أن يعبّروا بحرية عن إدانتهم الحادة لذلك السلوك ويعبروا عن نفورهم أيضاً. ويمكن أن يظهروا أيضاً بأنهم لا ينتظرون مثل هذا السلوك من إبنهم أو إبنتهم، وبما أن ثقتهم كبيرة في ذلك، فهم حتى لا يتحدثون مع أطفالهم بهذا الشأن. في مثل هذه الحالة يجب أن لا نقول لهم:

(لا تفعل ذلك أبداً، هذا غير جيد) وإنما من الأفضل القول: «أنا أعرف بأنك لا تقوم بهذا العمل، إنك لست الإنسان الذي يمكن أن يفعل ذلك».

* * *

نحـــن وأطفــالنــــا

المحـاورة السابعـة

مرحلـة الشباب

إنكم مهما حاولتم أن تسمّوا الساعة التي يحين فيها الربيع وأن تحددوا اليوم الذي يحين فيه الصيف فلن تستطيعوا ذلك. لأن التقويم لا يتطابق دائماً مع الواقع. فأوقات السنة تتبدل بالنسبة إلى كل إنسان، حسب اللحظة التي لاحظها فيها، وتستمر الفترة الإنتقالية لفترة زمنية لا يمكن لخبرتنا العادية اليومية أن تحددها بشكل دقيق.

إننا تلاحظ إذا تعمدنا تتبع الزمن، مرور الساعة، الدقيقة، الأيام، ولكننا لا ننتبه عملياً إلى تلك الخطوة الضئيلة التي يخطوها عقرب الثواني في كل لحظة.

هذه هي حياتنا أيضاً من خلال مراقبتنا لأطفالنا.

لقد كبر أولادنا الآن وتخطّوا سن المراهقة، بيد أن حياتهم السابقة ومراحل نموّهم من الطفولة وحتى تخرجهم من المدرسة تبدو وكأنها حدثت البارحة. إنها الحقيقة، لقد كبر الأولاد وأصبحوا أناساً آخرين ونحن لا نزال نعذب أنفسنا بالسؤال التالي: أي أناس هم؟

لا يمكننا الإجابة عن ذلك التساؤل باختصار. لقد أصبحوا أكثر ذكاء، أكثر ثقافة أكثر تعقيداً، وأكثر تناقضاً و. . . . . غير مفهومين. إليك كيف يقيّم ليف تولستوي فترة إنتقاله إلى مرحلة الشباب.

«كانت تعتريني أربعة مشاعر تشكل أساس أحلامي: الشعور الأول: الحب تجاه التي أحبها والتي لم يغب عن بالي أبداً أنني يمكن أن التقيها في أي مكان. . .

الشعور الثاني: كان حب الحب لقد انتابتني رغبة عارمة في أن يعرفني الجميع ويحبوني. . . الشعور الثالث: الأمل بسعادة غير طبيعية، لقد كان هذا الأمل قوياً وصلباً، بحيث تحوّل إلى جنون. . . .

الشعور الرابع والرئيسي هو الشعور بالإشمئزاز من نفسي، والشعور بالندم، ذلك الندم الممزوج بالأمل في السعادة إلى درجة أنه لم يترك مجالاً للحنين[1]».

يتصف إدراك العالم بالذاتية دائماً، وبالأخص عند الإنسان ذي الخيال المتطور والغنيّ، ذي العلاقة المبدعة الخلاقّة بالواقع. ولكن هذا التنوع الكبير لا يخلو من قوانين بارزة بوضوح تخصّ العمر.

إن فهم هذه القوانين وإعادة تشييد العلاقات العائلية، ليست شرطاً حقيقياً فحسب للتفاهم المتبادل بين الأهل وأولادهم الناشئين، ولكنها ضرورة حتمية.

الصحفية / أنيفا بريلونسكايا/ تتكلم بصورة مقنعة عن هذا الموضوع تحديداً ويتضمن حديثها فكرة هامة جداً، أود أن ألفتّ انتباه الأهل اليها: لكي تفهموا أطفالكم الواقفين على عتبة البلوغ بشكل صحيح، يجب أن لا تكتفوا بتصوراتكم الخاصة فقط. يكمن فنّ تربية (الأطفال الكبار) في قدرة الكبار على وضع أنفسهم مكان أطفالهم والغوص في عالم إنفعالاتهم، ومراعاة حاجاتهم. هذه القدرة ليست فطرية وإنما سمة مكتسبة علينا بالضرورة تطويرها. ولكن ما هي السبل إلى ذلك؟.

تكمن مصيبة بعض الأهل في أنهم يعتمدون بشكل مبالغ فيه على قوة

(١) ل. ف. تولستوي. المختارات. موسكو. الأدب: ١٩٥٨ ـ المجلد ـ ٧ ـ ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

تأثير كلماتهم وعلى التوبيخ، ولكنهم قلما ينتبهون إلى أفعالهم الخاصة، التي تفضح بشكل مكشوف جوهرهم الداخلي، ومضمونهم الأخلاقي.

إذا استوعب الأطفال القيم التي ينادي بها الأهل، فإن التفاهم فيما بينهم سيكون أسهل، أمّا القيم المختلفة فتعرقل التفاهم بين الأهل وأطفالهم وتؤدي إلى نشوء الحواجز فيما بينهم.

ولذلك من المهم جداً على الأهل أن لا يُغرقوا حياتهم بالتوافه، وإنما عليهم أن يعودوا أطفالهم مشاطرتهم نفس وجهات النظر والمبادىء في الأمور الصغيرة والكبيرة، وأن يروا الرابطة بين المثل العليا والأعمال اليومية.

علينا أن نراقبهم دائماً، وأن لا ندعهم يفلتون من مجال رؤيتنا، لكي نعرف مدى إدراكهم للعالم الخارجي، وكيف يقيمّون عالم الكبار.

ي. س. بريلوفسكايا
الخروج من «دائرة الطباشير»

(فصل من كتاب «الأطفال الكبار»)

الصديق الأكبر سناً، الأم، المعلم.. من منا نحن الكبار لا يريد أن يصبح صديقاً لأولاده وتلاميذه؟ وكلما أصبح الأولاد أكبر، كان القرب منهم ذا معنى أكبر. وليس عبثاً القول بأنه كلما كان الأولاد أصغر كانت الهموم أقل وكلما كبروا كبرت الهموم معهم. بعد أن فكرت برسائل المربين، وخاصة رسائل الأهل، بخصوص صعوبة علاقاتهم المتبادلة مع المراهقين، وبعد أن قارنت قلقهم بملاحظاتهم الخاصة، توصلت إلى إستنتاج سبب الكثير من النزاعات وإن كان خفياً أحياناً: عندما يحاول الأهل تحديد الأطر الحياتية لأبنائهم، ومن خلال تقييماتهم لأفعالهم ومن خلال نصائحهم لهم، يعتمدون بالدرجة الأولى على تصوراتهم ومقاييسهم

وأمانيهم الخاصة، من دون أن يحاولوا وضع أنفسهم مكان أولادهم وفهم متطلباتهم. إنها مرحلة إنتقالية من الطفولة نحو الشباب. . متى، وفي أي جزء من هذا الطريق الطويل (والقصير) سيحدث القطع؟ متى سنفقد إتصالنا مع أطفالنا الكبار؟ لقد وقع بين يدي كتاب عصر النهضة للكاتب الفرنسي الإنساني ميشيل مونتان. وبينما أنا أتصفحه وقعت عيني على عنوان بخصوص (حب الأهل).

لقد كتبت هذه المقالة في ربيع عام ١٥٨٠ في الأول من آذار، ومما جاء فيها:

«أنا أدين كل عنف في تربية روح الشباب، التي ستذوب في إحترام الشرف والحرية. في القسوة والإكراه يوجد شيء ما عبودي غير إنساني. إنني أرى بأننا إذا لم نستطع التوصل إلى عمل شيء عن طريق العقل والحصافة والمعرفة، فيجب أن لا نلجأ الى القوة. ويتابع قائلاً: (وبخصوص الأطفال، أنا انصح بأن نكون أكثر تماسكاً وتحفظاً، لأنهم ميالون إلى الخضوع بدرجة أقل، ويميلون بدرجة أكبر إلى الإستقلالية. وبالتالي يجب أن نسعى إلى أن نُطوِّر عندهم حب الإستقامة والصدق. . . . ».

هناك مثل لاتيني يقول بأن الدواء إذا لم ينفع، فقد ينفع الحديد، وإذا لم ينفع الحديد، فقد تنفع النار، وليس هناك وصفة جاهزة لكل حالات الحياة. لا توجد وصفات ولكن توجد بالمقابل مبادىء أخلاقية حكيمة. ليس هباء أن حملت الذاكرة البشرية عبر مئات من السنين قولاً مأثوراً لاتينياً مشهوراً «يجب أن نتعامل مع الطفل باحترام عظيم»، فالحكمة قديمة قدم العالم، وبالرغم من ذلك لا يتاح لنا دائماً بلوغها عملياً. سافرت منذ عدة سنوات إلى إحدى المدن الجنوبية الصغيرة، التي وصلتني منها رسالة مليئة بالألم والقلق.

وبمجرد وصولي إلى الفندق هتفت إلى / لودميلاسيرغييفنا/ ، وبالرغم من هطول المطر الغزير فإنها وصلت إلى الفندق خلال عشر دقائق

وعندما دخلت الغرفة، كانت تلهث من التعب، وكانت مبللة بماء المطر، لأنها نسيت مظلتها في البيت.

إنها إمرأة وقورة، ذات هيئة واثقة، وحيوية، تعمل مديرة. كانت تقاوم الظروف التي تحيط بها، فقد كانت حياتها صعبة مع زوجها، إذ حصلت على الطلاق وربّت إبنها لوحدها.

وبالرغم من كل ذلك أنهت دراستها الجامعية. لقد فكرت وأنا أصغي إلى كلامها وتساءلت: لماذا لا يتفق مظهرها أبداً مع حيرتها الداخلية وسؤالها الأليم: ما العمل؟

منذ ثلاثة أشهر خرج من البيت إبنها الوحيد. عمره خمس عشرة سنة. إنه في الصف الثامن، وهو ليس كأي مراهق آخر متروك إنه من الأوائل منذ الصف الأول.

كانت آخر محاولاتها للتصالح معه منذ عدة أيام. انتظرته عند المدرسة. نادته إلى البيت، تضرعت إليه، بكت في الشارع. فرافقها إلى البيت وقال لها:

«كل شيء سيكون على ما يرام يا أمي، ولكني لا أستطيع أن أغير قراري الآن». أما الآن فهي قلقة وخائفة: وفجأة؟

لقد هدأ من روعي أحد أصدقائي بأنْ لا داعي للقلق الآن، فابنك إيجور يدرس ويعيش عند زملائه.

هيهات أن يتاح لها إعادة إبنها. لقد غاب عن البيت ثلاث ليال متتالية.

وهكذا لم يعد إيجور إلى البيت يوم الأحد. واضطرت الأم عندئذ إلى اللجوء الى الهيئات الرسمية. لماذا استعجلت ذلك الأمر؟ هل كان إبنها غير مرتاح بالبيت؟

وهل تركت أمور تربيته تسير بعفوية وتلقائية؟ وهل شعرت بأنها فقدت كل تأثير عليه؟ هذه الأسئلة جميعها وردت إلى الذهن في الحال. بيد أن الأجوبة بدت مدهشة أكثر. لقد كان البيت الذي خرج منه إيجور كما يقال كيلا طافحاً. وكان يملك، نتيجة غيرته من رفاقه، دراجة نارية، وآلة تصوير، بالإضافة إلى هارمونيكا وغيتار... هل يمكن أن تكون أمه قد دللته؟ لا، على العكس. كان وقت إيجور مبرمجاً من الصباح وحتى المساء: الدوام في المدارس الموسيقية والرياضة، القراءة، تحضير الدروس، النزهات.

وعرفت الأم زملاء إبنها، الذين يلتقي بهم، وعرفت أهاليهم. وعندما تعرف إيجور على فتاة، تعرفت الأم مباشرة على والدتها: «أنا لن أقف عثرة في طريق صداقتهما، ولكن الصداقة يجب أن تبقى ضمن أطر محددة. ليلتقوا مرة في الأسبوع، ليكن يوم الأحد، من السابعة وحتى العاشرة».

وغالباً ما كانت تذهب إلى المدرسة. وتتدارس الأمر مع المسؤولين هناك. وبأي شيء ألوم نفسي الآن؟ هكذا سألت الأم نفسها، وهي مقتنعة تماماً بأن امرأة أخرى كانت سبباً فيما حدث. إيغور: شاب طويل حاد المزاج شديد التركيز، مرتاب، حاد الذهن. وإرادة ناضجة. وفي الوقت نفسه كان ذا سذاجة يائسة، ضعيفاً، فضولياً، ومتطرفاً إلى حد التهور.

كان مزيجاً قابلاً للإنفجار.

هل كان وأمه صديقين؟ لا، قال إيغور. من الصعب أن تكون معها صريحاً. لا تبدر منها إلا الملاحظات تلو الملاحظات. «لم ترغب في أن تصغي أو تفهم أو تبحث في أي شيء».

كل نزاع عائلي ينكشف عبر وجهات نظر طرفي النزاع.

وكل منهما يفسر نفس الكلمات والأفعال حسب هواه.

لقد قارنت، أقوال الأم والإبن عند مشاحناتهما. «إجلس، أقول لك إجلس. لماذا هبط مستواك الدراسي؟ حان الوقت لأن تجدّ أكثر! ويردّ قائلاً: «تعتبر المعلمة بأن العلامات الجيدة يمكن أن أحوز عليها في أي مادة. «وهنا فقدتُ أعصابي...»..

«ولكن قل لي من فضلك، لماذا تبدأ بالشجار على الفور؟» ـ «أقول لك: إني أوفر لك كل شيء: الموسيقى، الرياضة. ولكن عليك واجب بالمقابل». لقد اعتذر إحدى المرات قبل أن يسافر في رحلة. وقلت له: «لقد أدركت، أليس كذلك؟ أريد أن أسمع منك، بأنك هنا تحديداً أسأت التصرف، هنا...».

تم طرد إيغور شتاء من المجموعة السياحية، بسبب عجرفته وأنانيته. (عندما ابتعدت عن أصدقائي، بقيت وحيداً). لقد بدأ يشتاق إلى الرحلات الجماعية. وبدأت تشغل باله الرغبة في أن يفعل شيئاً ما لكي يقدروا شجاعته، وطلب منهم أن يمتحنوه، ووعد بأن يصبح مواطناً صالحاً. وها قد حان موعد الرحلة التي ستدوم ستة أيام.

تأخر إيغور عن الإجتماع، واستغرق يومين ليلحق بهم. وقال لي الرحالة. «لقد تغير رأساً على عقب: كان يناوب خارج الدور. وعمل بشكل مضاعف».

«لقد انتابتني رغبة عارمة في أن أجد في والدتي ذلك الصديق الذي يشاركني أفكاري.

ولكن للأسف، لم يحدث شيءٌ من هذا القبيل، لأن والدتي كانت تعتبر بأني ما زلت صغيراً».

الإصرار الذي أظهرته الأم لكيّ تبعد إيغور عن المجموعة، ولكي يرفض أصدقاءه الجدد، استدعت عنده مقاومة طبيعية: لماذا؟ «لقد احتدمتُ غيظاً، لقد توجستُ...». أما الأم فقد كانت تطالب بالطاعة المطلقة: إنها لم تلاحظ كم كبر الولد.

حان الوقت للكلام عن المعلمة / كيرا فيودروڤنا/ . إنها امرأة كبيرة وأم لإبن شاب، استطاعت أن تجد لغة مشتركة مع الشباب. ونَفَذَتْ إلى قضاياهم اليومية باهتمام وحماسة. إنها لم تمارس قيادتها أثناء الرحلات، وإنما كانت تعتمد على الرأي الجماعي. كانت تدعو إلى منزلها أفضل السواح «الرحالة»، لاحتساء الشاي، وتجري عندها أحاديث ممتعة، ويغني بعض الزملاء الأغاني الشعبية المعروفة. كانت الأحاديث ممتعة جداً للشباب: عن الحب، عن أن الانسان هو صانع نفسه، وعن صلابة الارادة الخ... كانت / كيرا فيودورڤنا/ تعطي دفعاً للأحاديث وللحوارات. وكانت تصغي إلى الشباب وهم يتكلمون من دون أن تقاطعهم أو تدلي باستنتاجاتها، وتقصّ عليهم قصصاً من الحياة. قررت / لودميلاسيرغييفنا/ والدة إيغور، أن تشاورها بشأن إبنها عندما رأت نفوذها عليه. وأخذت بعين الإعتبار عندما تحدثت بأن هذه الكلمات ستصل مسامع إيغور، حذّرت على سبيل المثال، من أن إيغور، إبنها إذا لم يصبح مطيعاً فإنها ستجعله يدخل المعهد المهني بدل الجامعة. وتكلمت في السياق عن هفواته وأخطائه من غير أن تتبصر في الأمر، بحيث أنّ نقل هذا الكلام عبر الآخرين، يمكن أن يترك إنطباعاً سلبياً عند الإبن، ويؤثر على كبريائه. كون / كيرا فيودروڤنا/ أكثر لباقة، فقد خمنت غيرة الأم. وكونها بعيدة النظر أيضاً، لم تشجع الإبن على الإستياء من أمه، ولم تخبر أحداً مما قالته الأم بشأن المعهد المهني. لقد عرفت بأن إيغور يحلم بأن يصبح فيزيائياً، ويحضّر نفسه ليسجل في الفرع الذي اختاره، وفهمت بأن الأم تريد أن تخيف الإبن فحسب.

وبمثابة نوع من الحوافز الجيدة ولكن الفظة، التي تقلب الخير إلى شر، أَمْلَتْ/ كيرافيردروفنا/ على إيغور، كيف يمكنه أن يؤثر على أمه: تارة كان يأخذ إلى أمه الكتب التي تبحث في تربية المراهقين، وتارة أخرى كان يطلب منها أن تسمع من الراديو برنامج (الكبار والصغار)، مما أثار غضب

/ لودميلاسيرغييفنا/ . ومن خلال ثورة الغضب هذه، قررت من دون تبصّر، أن تشدد قبضتها على إبنها.

« لقد فكرت (سأزحف على ركبتي، إذا كانت على حق، حتى ولو مرة ـ من الأفضل أن أموت» .

هناك صديقان لـ «ايغور» أعمارهم تتراوح بين الخامسة والسادسة عشره حاولت أن أتشاور معهم بشأن مصالحة إيغور مع والدته، وكانا مقتنعين تماماً بأن والدته كانت السبب في بداية إنقطاع العلاقة بينهما بسبب لجوئها إلى الدوائر الرسمية، والتحدث بهذا الشأن عن إبنها: «منذ البداية تبعث النصائح من دون تبصّر، إذ كيف نفسر لجوئها المباشر إلى لجنة المدرسة؟»

انعقدت جلسة اللجنة يوم الجمعة، واستمرت من الرابعة حتى السابعة عندما حان دور إيغور. لقد انتظرا في الممر الطويل الضيق. حتى أنهما، الإبن والأم، لم ينظر أحدهما إلى الآخر، بالرغم من أن أحدهما لم ير الآخر منذ يوم الاحد. كان الابن يذهب إلى المدرسة بانتظام، وكانت الأُم تذهب إلى هناك أيضاً. كانت تذهب إلى المعلمين. وكان الإبن يتلهف رغبة في أن يوضح الأمور لوالدته، بيد أنه ينتظر الخطوة الأولى من أمه، لقد تحرقت شوقاً إلى رؤيته، ولكنها كبحت نفسها.

عنّفت اللجنة إيغور بقسوة. أين كنت تنام؟ ماذا تأكل؟ فأجاب:

«في الغابة، ساعدني الرفاق. . . .». وألزمته اللجنة بالعودة إلى البيت. «هل هذه محكمة!» ـ هكذا صاحت / كيرا فيودروفنا/ . عندئذ وجهوا لها تأنيباً بصدد سلوكها غير اللبق. طالبوا بفصل إيغور من حلقة الرحّالة.

تذكرت الأُم تلك اللحظات: «لم يكن عندئذ لا تفاهم ولا طمأنينة». ويتحسر أحد التربويين حتى الآن قائلاً «كنا نحطم حطباً». أما إيغور فقال: «لقد قالت لي اللجنة بأن الأُم دائماً على حق، ومنذ ذلك الحين بدأت أتجه نحو القطيعة. . .».

صبّت / كيرا فيودروفنا/ الزيت على النار . كان يجب على أحد ما أن يمد يده إليه . لقد قررتُ مساعدة إيغور . أما أنا فإنني على ثقة بأن روحه لم يشبها أية شائبة . وهنا ناقضت نفسها قائلة :

ـ لقد أكدوا لي بأنه إذا قدم امتحاناته بشكل جيد فسيرفعون عني التأنيب . طبعان نسائيان عنيدان ، أنانيان . كأنك تضرب في الصخر . وتشفياً من أمه كانت / كيرا فيودروفنا/ تطعم إيغور ، وتساعده سوية مع زملائه في تحضيره للإمتحانات ، بالرغم من أنه أهمل دروسه وقت شجاره مع والدته . لقد كان يأتي إلى البيت لينام فقط . وانتقلت الأم المحتدمة غيظاً من هيئة رسمية إلى اخرى .

قدمت عريضة أخرى إلى اللجنة وإلى النيابة العامة . وأصرت على أن يضعوا إيغور تحت المراقبة في غرفة الأطفال عند الشرطة . وفي الوقت نفسه شكت / كيرا فيودروفنا/ الأم إلى مساعد النائب العام . . . لقد ضجت المدرسة بسبب تخفيض علامة إيغور بالسلوك . كانت الأم تذهب كل يوم إلى المدرسة . . . وتمت مناقشة الأمر قبل الامتحانات في الاجتماع . . » .

في البيت مشاهد عاصفة وترصّد . وأصبح إيغور يقضي لياليه عند زملائه . وسافرت إحدى المرات إلى أقارب ابيه . أما / لودميلاسيرغييفنا/ فقد وصلت إلى حدّ اقتحمت فيه شقة / كيرا فيودروفنا/ مصطحبة شاهداً معها ، وقلّبت البيت رأساً على عقب .

ولكن دون جدوى فهي لم تجد إبنها هناك . وحدث شجار سخيف وفظ ، وانهال رفاق إيغور مدافعين عن كرامة / كيرا فيودروفنا/ ومعترضين على عمل والدته .

قالت الأم : لم أرد أن أفضح إبني ، ولكنني لجأت إلى الناس بسبب الإرتباك والحيرة . وكنت كلما لجأت إلى مكان ، يطلبون مني تصريحاً أو عريضة . وكنت أقدمها . يطلبون وقائع وأنا أبدأ في البحث عنها .

لا يستحق الأمر هذا القدر من الإهتمام الزائد، لكي نقتنع بعدم واقعية تلك الإفتراضات التي لقنني إياها بعض النصحاء المربين، الذين لم يروا الأساس الذي يقوم عليه نفوذ / كيرافيودروفنا/ لدى الشباب. لقد مشت في الطريق التي اتبعتها / لودميلاسيرغييفنا/ ، وتحدثت مع جميع الذين تَوَجَهَتْ إليهم، ومع كل خطوة كنت أخطوها كنت أقتنع أكثر فأكثر بأنه: توجد أفعال غير قابلة للعكس. هناك أشياء لا يمكن تغييرها إلا عن طريقنا نحن بالذات، أمّا أن نولي هذا التغيير لأحد ما آخر فذلك غير ممكن بل مستحيل، من غير الممكن استرجاع الحب باستعمال قوة خارجية. قال لي أحد أعضاء اللجنة المكلّفة بقضايا الأحداث: لقد أوصلْنا إليها ولدها، أما الباقي فكان يجب عليها أن تسويه بنفسها كأمّ. أنا موافق بأنها يمكن أن تكون قد تسرعت قليلاً. ولكن ماذا لو حدث مع الولد شيىءٌ ما.

وأدلت بدلوها أيضاً المسؤولة عن غرفة الأطفال عند الشرطة، حيث قالت: لقد سعت الأم أن تفعل كل شيء بأيدٍ أُخرى، وكانت تضع دائماً شروطاً جديدة.

التقى والدا إيغور بشكل غير منتظر في النيابة العامة. وبعد أن عرفت الأم أين سيعيش ولدها، إعترضت بشدة «لا أريده أن ينام عند الغرباء». وهنا لم تتمالك نفسها نائبة النائب العام، وقالت: (إن إبنك ليس قطعة أثاث عندك في البيت. ولن تضعيه ككرسي في الزواية. هل من إعتراضات لديك؟». لم تجد الأم عندها أي اعتراضات. ووجدت من خلال تحركاتي ضمن هذه المدينة الصغيرة، أن كل المؤسسات قريبة من بعضها البعض. وأن كل الأشخاص الذين تحدثت إليهم كانوا يعرفون بعضهم البعض، وكان عليّ أن أوجه لهم سؤالاً معيناً: لماذا لم يخطر ببالهم أن يوقفوا / لودميلا سيرغييفنا/ منذ محاولاتها الأولى في نقل قضية شجارها مع إبنها من النطاق الضيق إلى نطاق أوسع؟. كان من الممكن القضاء على هذا الشجار في المهد لو أن أحداً ما أصرّ على / لودميلاسيرغييفنا/ ، بأنه من الخطأ أن تقبض على

زمام إيغور كولد صغير وقد أصبح شاباً. كانت تناقش كل خطوة من خطواته مع المعلمين، مع الأصدقاء، مع / كيرا فيودروفنا/ ومعه بالذات، كل ذلك أحاط حياته بأطر من التحريمات المستمرة، والتحديدات القاسية (القيود القاسية). بدل أن تُصبح صديقاً له، ومرشداً مهتماً لابنها الناشيء، أرادت أن تكون قائدةً له، وراعياً قاسياً. وبدل أن تحاول إقناعه بالتدريج عن طريق الحوارات الهادئة، بالشيء الذي تراه صحيحاً وعقلانياً، وأن تصغي إلى حججه، وأن تتعمق في قناعاته، لجأت إلى الصياح، وإعطاء الأوامر فحسب، وفرض إِرادتها بشكل قطعيّ. لقد أصغوا إليها في المؤسسات الحكومية، لأنهم مجبرون على سماعها. قالوا لها، بأن الوقائع غير كافية، وأن شكوكها ضعيفة الأساس، آملين في أن تتنازل، بيد أن ذلك زاد من تعنتها فحسب. لقد أعماها الحقد على ولدها. إنها بنفسها، وبيدها كانت تضاعف مصيبتها مع كل خطوة تخطوها. كلما أوغلتُ في تتبع طريقها، كنت أتكدر أكثر فأكثر من أولئك الذين لم يكبحوها أو يردعوها. ألا نأخذ هنا تلك النزاعات التي من الممكن أن يعالجها أطراف النزاع بأنفسهم؟ ألا يمكن أن نعزوا هذه النزاعات إلى الرعاية المتميزة؟ والشيء الأهم - هل النتيجة كانت عظيمة من جراء تدخل كهذا؟

لقد أجمع كل من تدخل في حل هذه القضية على رأي واحد هو أن الزمن هو الكفيل بالمصالحة بين الأم وابنها. وبالرغم من كل ذلك فكرت في إمكانية الإقدام على خطوة مهما كانت بسيطة، قبل أن يتحجّر، البغض والإستياء في القلوب.

قالت لي الأم: أنا مستعدة لأن أعتذر من / كيرا فيودروفنا/ ، لأنني مذنبة تجاهها. فقد كنت أفقد صوابي في بعض الأحيان. . . .

قالت / كيرافيودروفنا/ بعصبية: يهمني شيء واحد هو أن تقوم / لودميلاسيرغيفينا/ برد الإعتبار لسمعتي الطيبة.

والتقينا عن طريق الإتفاق المشترك. التقينا في السبت صباحاً أنا ونائب رئيس اللجنة لشؤون الأحداث، السكرتير المسؤول في اللجنة، الأم وكيرافيودروفنا. وبدا للجميع بأن المياه ستعود إلى مجاريها بعد ذلك المشوار، الذي قطعوه خلال عدة أشهر. آن الأوان لكي تبحث الأم بنفسها عن الطريق إلى قلب إبنها، وأن لا تجعل كل المدينة تتدخل في هذه المسألة العائلية الدقيقة. وعلى / كيرافيودروفنا/ أن تسمع نداء العقل وتترك الأم وابنها في هدوء، حيث كان تطفلها تجاه تلك العلاقة يتصف بالغطرسة والأنانية وبعدم التروّي.

ليس لآخر سواها الآن أن يستوضح ويدرك سبب الذنب والمصيبة. أما إذا أصرا على شجارهما، فستكون النتيجة سيئة لكليهما ولـ إيغور أيضاً. قال المعلّم:

حاولا أن يفهم أحدكما الآخر... إني أعرف إيغور... فهو متقلب المزاج، بيد أنه تلميذ موهوب ومستقيم وكلاكما يحاول أن يصلبه... وتوجّه بالكلام إلى / كيرافيودروفنا/ قائلاً:

لا يجب أن تحفزوا الولد على أن يكسب الريح من جراء إهانة والدته.

ألا تدركون أنكم تفسدونه؟ وأخيراً جرى الإعتذار المتبادل. ولم تمضي ساعتان على هذا اللقاء حتى اقتحم إيغور الفندق بسرعة الإعصار وقال: قالت لي / كيرافيودروفنا/ بأنهم منعوها منعاً باتاً من اللقاء معي. هذا يعني أني لست حراً.

وهتفت الأم لي بعد شهر، وقالت بأن / كيرا فيودروفنا/ رفعت بحقها مذكرة إلى اللجنة.

«للأسف أخذوه من جديد» إنها تطلب إعتذاراً خطياً. لقد كفّ إيغور عن الكلام مع والدته. هكذا طلب منه الناس الذين أسكنه أبوه عندهم.

على ما أظن أن أغلبكم سمع بالقصة المشهورة لـ برتولد بريخت: حيث كان هناك امرأتان كل منهما تدعي بأن هذا الولد هو أبنها، ولكي يحدّد القاضي لمن سيكون الولد، قرر وضعه داخل دائرة من الطباشير، وقال لهما: لدى الأم الحقيقية القوة الكافية لكي تسحبه نحوها. بيد أن إحدى الامرأتين تركت الولد خوفاً عليه من تمزق يده ـ تلك المرأة كانت أمه. لم أعرف كيف سارت الأمور لاحقاً بين / لودميلاسيرغييفنا/ وإبنها إيغور. ما أعرفه هو أن الأم لم تتجه أكثر إلى الدوائر الرسمية. وأعتقد بأن (تمرده) قد انتهى أخيراً بالمصالحة مع والدته. لقد كان يحبها.

وعلى كل الأحوال، كان الشقاق عميقاً ومؤلماً، ومن الصعب القول، بأن الأم قد استطاعت أن تجد بعد ذلك الشجار، التقارب الروحي والقلبي مع إبنها الذي يمر بمرحلة البلوغ.

إنك تشعر بهذه المصيبة، وعاجز في الوقت نفسه عن المساعدة. والأنكى من ذلك أن استياء الأم بدأ يزداد بقدر ما بدأت تدرك بأنها بنفسها جلبت المصيبة إلى البيت.

* * *

ملاحظات تمس الجوهر

إختلاف «درجات الحراره» وتصادم وجهات النظر بالاضافة إلى التناقضات بين الناس الكبار، الذين يرتبط بهم الولد بعلاقة النسب والدم، تثقل كاهله، وتكون مفعمة بالعواقب السلبية. . . لا يحاول المعلم الجيد أبداً أن ينال من سمعة الأهل، أو يتطاول عليها أمام الأطفال، ولا يحاول أن يستوضح العلاقة مع والد التلميذ أو مع والدته بحضوره هو، ولا يسمح لنفسه أن يدين أفعالهم علانية، حتى عندما يستحقون ذلك. إنه حظر أخلاقي، مقدس وقطعي. ومن الضروري على المعلم، من جهة أخرى، إحترام أهالي تلاميذه. هذا الإحترام الذي يجب أن يظهر بالضرورة حتى في أصغر الأمور.

الفتيان وحتى الأطفال الكبار، بما يتميزون من حزم، وحساسية زائدة، وعدم إتزان، ميالون إلى الحكم المتعنت على أولئك الذين يعلمونهم ويربونهم. وهناك ما يكفي من الدوافع لإظهار الإستياء: العلاقة، التي تبدو للتلميذ بأنها غير مناسبة، وأقل من اللازم، الكلمة الطائشة، التي يمكن أن يقولها المعلم بحق التلميذ في لحظة غضب، فالمعلم غير معصوم عن الخطأ. بيد أنه يجب أن يعمل عندنا التحريم الداخلي عند مناقشة أمر المعلم وإدانته ضمن النطاق العائلي. يجب علينا أن نجد شكلاً هادئاً ومهذباً بالحديث مع المعلم، عن الأمور التي تقلق الأهل بشأن العلاقة بين التلميذ والمعلم، وأن لا تتكرر حرفياً شكاوى التلميذ. وفي الحقيقة، فإن الأخطاء التربوية الجدية والإجحاف الفظ بحق التلاميذ، من الظواهر النادرة.

تنشأ الإحتكاكات بين الأهالي والمعلم في غالبيتها نتيجة سوء التفاهم المتبادل، ومن جراء الإحتجاجات التي تفتقر إلى الأسباب والدوافع، أما

الزعل فيزداد، ليس بسبب إختلاف الآراء، بقدر ما يزداد نتيجة الشكل الذي تُعرض به المشكلة. كل ذلك يُلحق في السياق النهائي ضرراً أخلاقياً بالأطفال. وكلما كان عمر الأطفال أكبر تطلب من الأهل والمعلمين والمرشدين، اللباقة والحكمة، والدقة المتبادلة في إصدار الأحكام بحق الآخرين، والقدرة على فصل الرئيسي عن الثانوي وصغائر الأمور، والسخافات والشجارات اليومية، والقدرة على ضبط النفس، عدم التسرع باصدار الأحكام، وعدم الغضب لأسباب تافهة، كل ذلك يكتسب أهمية متزايدة في العلاقات العائلية مع الأطفال. عندما يكبرون، يشعر الإنسان في المرحلة الإنتقالية من العمر بأقل تباين في المزاج، ويتأثر بلهجة الحديث بحدّة، ويمكن أن يسقط في اليأس والقنوط وأن يرى كل شيء أسود اللون، إذا ما تعرض لمصيبة أو لكارثة لحظية أو شجن.

يبدو لنا للوهلة الأولى تحديداً، أن الإنسان في مثل هذا العمر، يجب أن يمتلك أعصاباً فولاذية. بيد أن الحقيقة هي غير ذلك تماماً. فمن الصعب عليه تحمل الأذى، الصدمات، والإساءات والهزائم، إذ أن أقل شعور بالإجحاف والتعسف بشكل غير طبيعي. إننا أحياناً ومن دون أن ندري، وباصرار نَخزُ أطفالنا في أماكن أليمة. فبمجرد دخول الأب إلى البيت ينهال بالأسئلة على إبنه ليستوضح منه ما هي العلامات التي نالها اليوم بمادة الجبر أو الحساب، بالرغم من أن الولد، سيخبر أباه بنفسه بكل سرور، فيما لو نال علامة جيدة. أو أحياناً يسخرون بشكل عابر، وهم يتناولون طعام الغداء، من إحدى الفتيات أو أحد الفتيان الذي شاهدوه أو شاهدوها مع إبنهم أو إبنتهم، من دون أن يراعوا شعور أبنائهم الجالسين معهم.

تُعاني الفتاة، على سبيل المثال، من البدانة، وأمها لا تترك فرصة تفوتها من غير أن تشير إلى هذا العيب عند ابنتها. للأم هدفها الخاص فهي تعتقد، بأن إيحاءها لابنتها بأنها غير جميلة، يمكن أن يؤمن رصانة نسبية: فالبنت ستصبح أكثر تواضعاً وحشمة وخاصة عندما تحين المرحلة (الصعبة من

العمر). فالأم هنا، لا تأخذ بعين الإعتبار بأن معاناة وعذاب هذه الفتاة (غير الجميلة) يمكن أن تجرّ وراءها سلسلة كاملة من الأعمال الطائشة غير المعقولة واليائسة.

ويمكن أن يهبط عند أولئك الذين يعدّون أنفسهم من الفاشلين، مستوى القدرة على المقاومة، وإمكانية تخطّي الصعاب.

من المهم جداً أن نعزّز عند الشباب الوعي بموهبتهم و بقيمتهم الإنسانية. كثيراً ما نتكلم عن التربية القدوة، آخذين بعين الإعتبار، على الأغلب، الفعل الواعي والموجّه. يحكي مربّو الأولاد عن أبطال السنوات الغابرة والحالية، وعن أولئك الناس العظماء الممجدّين، وينظمون لقاءات مع أولئك الناس، الذين تعتبر حياتهم وعملهم مثالاً رائعاً لنا. مثل هذه الأمثلة ضرورية ومفيدة للتربية. بيد أن سيرة الحياة الرائعة تُدرك، بالعقل أكثر من القلب وخاصة في مرحلة الشباب الباكر، لأن مقارنتها مع حياتنا اليومية تبدو صعبة على الأغلب. تتراءى سيرة الحياة النموذجية من وجهة نظر الحياة اليومية كزخرف متناظر دقيق: كل شيء يجري ببساطة ومنطقية. ولكن عندما يدخل الإنسان إلى هذه الحياة، فإنه يصطدم في أغلب الأحيان ببعض الحالات التي ليس لها مدلول واحد: هل الناس محقون هنا أم غير محقين. ويحدث أحياناً أن تتحول النيّة الطيبة بشكل مفاجيء إلى هفوة، ويبتعد القول عن الفعل ولا يتطابق معه. كيف تسلك؟ ومهما كانت التصريحات التي تدلي بها صحيحة، فإن النظرة الثاقبة للفتيان يمكن مقارنتها هنا مع طلباتنا ونصائحنا الواقعية اليومية.

إذا ما حاول الأب أن يوبخ إبنه لأنه رافق فتاة إلى بيتها في ساعة متأخرة، ولم يتركها عند محطة المترو، وإذا سعت الأم إلى الحصول على تقرير طبّي كاذب، يقف حائلاً دون قيام إبنها الممتلىء صحة، بواجبه في الكلخوز مثل رفاقه الآخرين، فإن كلمات الرجولة والواجب، التي من الممكن أن تصلّب هذا الإنسان في وقت آخر، ستفقد معناها تماماً.

يجب أن نعـودّ أولادنا منذ الطفـولة بهـذا القـدر أو ذاك، على أن يتمسكوا بوجهات نظر واحدة، بمبادىء واحدة، وأن يروا الرابطة الصحيحة بين المثل العليا والأفعال اليومية وأن يشعروا بالإقتران بين مثل وأهداف المجتمع وبين أحلامهم وخططهم الخاصّة. يجب أن نساعد ورثتنا على أن يبقوا شجعاناً في مختلف ظروف الحياة، وألا يفقدوا الثقة في العدالة، وأن نعلمهم النضال من أجلها، مهما كان ذلك صعباً. إذا فهم الأهل إبنهم - فإنهم أهل جيدون، أما إذا لم يكتفوا بفهمه فقط، وإنما استطاعوا أن يضعوا أنفسهم مكانه - فإنهم أهل جيدون جداً. وإذا أصبحوا أصدقاء لأطفالهم - فإنهم أهل رائعون، ويمكننا أن نهنئهم على نجاحهم الحياتي الكبير، الذي لا يتاح لكل الآباء والأمهات.

فقط عن طريق الفهم المتبادل الكامل بين الجيل الكبير والصغير من الممكن أن نقوم بنجاح بواجبنا كأهل. الفهم المتبادل - ذلك كثير، ذلك نجاح كبير! ولكنه ليس كل شيء. هناك أيضاً واجب مقدّس على الأهل، وهو الأكثر صعوبة والأكثر أهمية. يدور الحديث عن سعادة الأطفال، وعن تعليمهم كيفية الوصول إلى السعادة. لقد صاغ / ب. آ سوخوملينسكي/ مبدأه التربوي على الشكل التالي: «كل مغزى نشاطي التربوي - في سعادة الأطفال». وأكد / أ. س مكارينكو/ قائلاً: «الإنسان لا يملك الحق في أن يكون تعيساً». وهو على حق، لأننا نوفر للأطفال كل الظروف الموضوعية، لنقدم لهم ليس فقط الطفولة السعيدة، وإنما المستقبل السعيد أيضاً . ولكن هل يتاح لنا ذلك دائماً؟ هنا تكمن المسألة.

هلمّوا نتكلم عن السعادة في الحياة الشخصية، عن السعادة ضمن الأسرة، عن التواصل مع الناس الأقرباء والأعزاء على قلوبنا. ولكي نحصل عليها، علينا أن لا نقضي عليها، وأن لا نضيعّها بين صغائر الحياة اليومية وفي متاهات العلاقات العائلية.

ينشأ في العائلات السعيدة، كما هو معروف، أطفال سعداء. ذلك ما

هو متعارف عليه. يكتب عن ذلك العلماء، علماء النفس، وعلماء التربية، وتشهد على ذلك الملاحظات اليومية البسيطة. لماذا؟ يعود السبب في ذلك إلى أن الطفل ينظر إلى ما حوله باهتمام ويتشرّب في ذاته كل ما يراه ويسمعه. إنه يتعلم تكتيك العلاقات العائلية، وقدرة الأهل على إحترام أحدهم الآخر، والتضحية بالنفس من أجل الآخرين، والترفّع عن الصغائر والإمتعاضات الفارغة ضمن الأسرة. ومهما كانت الأسباب التي تؤدي إلى إنحلال الأسرة، فإنها ستجر وراءها الضحايا.

إنهم الأطفال. حيث يشكل فقدان أحد الأبوين مأساة بالنسبة لهم. لا يوجد في مثل هذه المآسي من هو على حق، أو مَنْ هو مذنب، بل يوجد المعذبون فقط.

بهذا الشكل تطرح السؤال الصحفيّة / إيرينا أوفتشينكوفا/ ، وأريد أن أوجّه انتباه القارىء إلى المنحيين الإثنين اللذين يأخذهما حديثنا. يمكن صياغة المنحى الأول على الشكل التالي:

يتكون نموذج الحب القادم، الأسرة القادمة للفتيات والفتيان، في داخل ذلك البيت الذي ترعرعوا فيه. ولهذا السبب من المهم جداً أن يكون النموذج مكتملاً من جميع النواحي.

ويرتبط المنحى الثانيَ للنقاش بتحضير وعي الشبّان والشابات فيما يخصّ الزواج.

تبرهن / إيرينا أوفتشينكوفا/ بشكل مقنع، بأن عدم النضج السيكولوجي، وعدم الواقعية الحياتية، والتسرّع في إختيار شريك العمر أو شريكة العمر، واللهاث غير المتبصّر، منذ البداية، وراء شبح الحب الحقيقي لأطفالنا الكبار، كل ذلك يحمل في ثناياه، النزاعات والخلافات المستقبلية والهزات العائلية. يجب أن نتحاشى ذلك ونبعده في الوقت المناسب.

ايرينا أوفتشينكوفا

«أن تكون أباً لإبنة بالغة»

(فصل من كتاب «الأبّوة»)

قدمت لي أمي، في عيد ميلادي السادس عشر، هدية مدهشة، إنها رزمة سميكة من الرسائل، مشدودة بخيط مهترىء. هذه الرسائل كتبها والدي. في البداية كان زميلاً، وبعدها خطيباً، وأخيراً زوجاً. لقد كتبها لإنسانة واحدة: للزميلة في البداية وبعدها للخطيبة وأخيراً للزوجة. هذه الإنسانة هي والدتي. لم أفهم والدي جيداً، لأنه توفي ولم أكمل السادسة من عمري بعد، وأصبحت رسائله بالنسبة لي إحياءً وعودة إلى حياتي. ولا أبالغ إذا قلت أن هذه الرسائل هي التي صنعتني. عندما أتأمل الآن قصة بل تاريخ صيرورتي الخاصة (وهذا التاريخ موجود عند كل شخص)، لا أجد فيه أجمل من اللقاء مع والدي، الذي ظلّ حياً في الكلمات التي وجّهها إلى والدتي. وبالطبع، يبقى الشخص في الرسائل بعيداً عن الأمور اليومية. وما يطفو على السطح هو المثل الأعلى، ومكنونات النفس، البعيدة عن ثقل الحياة الإعتيادية اليومية. ولكن إليكم شيئاً واحداً استرعى إنتباهي: فقد سافر والدي في مهمة لمدة ثلاثة أيام، وكان يكتب لأمي رسالتين يومياً، من غير أن يخشى أو يخطر على باله بأن رسائله يمكن أن تصل معه في وقت واحد عند عودته إلى البيت. هذه التجربة في الحياة لم تلهمنا إياها لا الأفلام ولا الكتب، ولكنّ غنى الحياة، كفيل بأن يقدم لنا أشياء من هذا القبيل. هل تريد أن يجري معك ذلك أيضاً؟

لا تستسلم، إبحث، فتش.

لقد قام والدي بعمل يحلم بعمله الكثير من الآباء، ولكن ذلك ليس في متناول الجميع للأسف، حيث لم يبلغه إلا البعض: أنا مدينة لوالدي بسعادة كل حياتي اللاحقة، لأني دخلت في خضمّ هذه الحياة، وأنا أعرف بالضبط مع من أريد أن ألتقي.

من المتعارف عليه، بأن شخصية الأب تكتسب أهمية خاصة في تربية الولد. بيد أنَّني عندما أُراجع في ذاكرتي بعض العائلات المعروفة لي، التي لا يسودها جوّ (الحب)، فإنني لا أستطيع أن أشير إلى أية فتاة استطاعت أن تخرج من هذا الجو الخالي من (الحب) كائناً منسجماً بشكل تام. من المحتمل أن أكون مخطئة، ولكن إذا ما انطلقنا من هذه الملاحظات الحياتية فإن الفتاة المترعرعة في مثل هذه الأسرة ـ على ما يبدو ـ غالباً ما تخطىء في اختيارها الخاص. إليكم رسالة من أكثر الرسائل غنى في محتواها، وقد تلقيتها منذ فترة. الفتاة التي كتبت الرسالة عمرها ثمانية عشر عاماً. لقد شبّت في أُسرة يمكن أن نسميها مثقفة. الأب ضابط متقاعد والأم مربية وعندها أخت أصغر منها. تتميز حياتهم بالرفاهية التامّة، ولكن السعادة مفقودة. جاء في رسالتها: «ليس في مقدورك إختيار الأهل ولا محاكمتهم. بيد أنك تشعر في بعض الأحيان، بأنك لست محقاً في محاكمتهم فقط، بل في إدانتهم بقسوة أيضاً. من أجل ماذا؟ سيبدو الأمر تافهاً، إذا اختصرناه في عدة كلمات، فوالدي لا يحترم أسرته. إنه سيندهش، بلا ريب لو سمع رأيي هذا. فمن الطبيعي بالنسبة له أن يأتي إلى البيت غاضباً ومتوتراً، وأن يتكلم معي ومع أختي بصوت مرتفع، وأن يجعل أمي تبكي عندما يسخر منها. سوف يندهش، فيما لو سمع مني الملامة في أنه لطيف ومتأدّب مع النساء الأُخريات، على أنه بالمقابل لم يدعُ أُمّي أبداً إلى السينما، ولم نره مرة يُهدي باقة ورد إليها، ولم يمسك بيدها أبداً وينزل معها إلى الشارع. أُمّي بالنسبة له خادمة فحسب، وهو يتحمّلها ولا يطلقها قصد إِزعاجها فقط. حتى ولو لم يقل ذلك في لحظات عدم الحظوة الخاصة، فالعلاقة بين الأب والأم على حدّ

سواء، تتأرجح في الهواء وتفسده. ويقول لها بكل بساطة، وجهاً لوجه: «اني ألعن الساعة التي رأيتك فيها».

تصوروا أن هذا الكلام موجه لزوجته التي اختارها ليعيش معها كل حياته.

(اختارها). حقاً إنها كلمة سامية تدوّي بشكل ساخر، وتراودني أحياناً فكرة فظيعة: وماذا لو لم يكن هناك حبٌ ولا حتى إختيار بل مجرد مصادفة. أحدهما حالفه الحظ أكثر من الآخر. من الممكن جداً أن لا تدركوا ماذا أقصد من وراء ذلك. لقد كان عندنا أنا وأختي كل شيء. لم يرفضوا لنا طلباً، لا في الطعام اللذيذ، ولا في الألبسة الحديثة، لقد كنا مغبونين في شيء واحد رئيسي: لم نر البسمة أبداً على وجه أمنّا، ولا السعادة تعلو محياها، حتى لم يخطر ببال والدنا أن يمرر يده على شعرها ملاطفة، ولا أن يقول لها كلمات معسولة. ولكن إذا قدّم الإنسان لزوجته، أمّ أطفاله، كل شيء عدا السعادة، ألا يمكننا أن نعتبر ذلك سرقة ونهبا لها ولنا أيضاً نحن الفتيات؟»

نتاشا، التي كتبت هذه الرسالة إستجابة لإحدى مقالاتي، طلبت مني المساعدة. إنها لا تفهم بعد وهي في الثامنة عشر من العمر، بأن مشكلتها من المشاكل التي لا يكمن حلها بيدها. لقد كتبت لها رسالة أكدت لها فيها بإنها يمكن أن تخطىء في تعميمها، ويمكن أن تجري الأمور على غير ذلك، وحتى عندها، هي بالذات، يمكن أن تجري الأمور بخلاف ذلك. لا أعرف إن كانت رسالتي قد واستها. هل يمكننا أن نرفع عنها بقوة الكلمات عبء التجربة الحزينة؟ الفتيات اللواتي احتملن مثل هذا الاختيار في مرحلة المراهقة سوف يمررن بتجارب خطيرة في مرحلة الشباب. إذا كان الأب يتجول ضمن الشقة السكنية وهو في حالة فوضوية، مفترضاً أنه لا يمكن الخجل من زوجته وابنته، وإذا كان لا يحلق ذقنه أيام الآحاد، متبعاً بذلك مبدأ معيناً (لا يوجد أحد لكي يغويه)، وإذا كانت صيغة تعامله مع زوجته

وابنته هي صيغة الأمر (أعطني، اجلبي)، فهل يحتاج أولُ شاب متغندر إلى مزيد من العناء لكي يغزو عقل هذه الفتاة المترعرعة في بيت يدير شؤونه رجل مضاد للرجال؟ (هو) دائماً متهندم، (هو) يلبس من أجلها ربطة العنق، (هو) يقدم لها يده بكل لطف عندما ينزل من الباص، ويسألها، إن كان يمكنه التدخين. أليس ذلك أميراً أسطورياً؟ لا يخطر على بال الفتاة بأن هذا السلوك هو السلوك الطبيعي والمألوف، وأنه لا يمكن أن تجري الأمور بشكل آخر. فهي لم تر شيئاً من هذا القبيل، لأنها كانت ترى أمها تقف على رؤوس أصابعها كي تصل إلى أعلى النافذة لتمسحها وتنظفها، (أما الأب، فكان يجلس، في هذه اللحظة على الديوان). وكانت تسمع دائماً وبشكل عابر كلمة (غبيّة) التي أصبحت من البدهيّات.

كيف كان الأب سابقاً، هل كان متأدباً ولطيفاً؟ إنها لا تعرف ولم تر. ولذلك فإن متطلبات هذه الفتاة إلى ذلك الشاب ستكون في حدّها الأدنى. وكلها ستبدأ، على الأرجح بـ«لا». لا يشرب (إنه على الأقل، لا يأتي الى اللقاء وهو مخمور)، لطيف المعشر ومهذب (على الأقل أمامها) ولا يقاطعها أبداً. ماذا تتمنى أكثر من ذلك؟

تذكروا بأن نتاشا ترتاب: أليس ممكناً أن يكون حبها غير موجود على الإطلاق، اخترعه لها مؤلفو الروايات والأفلام. إنها المرحلة المرعبة من اليتم الروحي.

تبني الإبنة، نموذج الحب اللاحق والعائلة المستقبلية في داخل ذلك البيت الذي ترعرعت فيه. ذلك حتمّي لأنها مهما حاولت أن تصنع لها حباً وعائلة على نقيض ما واجهته في بيتها، فنادراً ما تفلح في ذلك. فحدود أحلامها ترتبط بشكل حتمّي بما عاشته واختبرته في يقظتها. سترتبط إحدى نهايات السلسلة غير المتحققة وغير التامة، بكل تأكيد بذلك الشيء غير الموجود حتى الآن، وغير المتكون حتى الآن. وبالعكس.

منذ الطفولة وأنا أراقب إبنة أحد أصدقائي المقربين لي، الذي حافظ بشكل مدهش، وحتى في سن متأخرة حتى غزا الشيب رأسه، على (بريق العيون والمشاعر الجيّاشة). ستواجه هذه الفتاة على الأرجح، بعض الصعوبات في اختيار شريك حياتها، لأن مستوى تصوراتها عالٍ جداً. كيف يجب أن يكون، وكيف يحدث ذلك الخ. . ما يشكل عيداً في حياتها اليومية هو كيفية إستقبال الأهل بعضهم بعضاً بعد العمل، حيث يشكل هذا اللقاء جزءاً من حياتها الواعية. إنها تعرف الآن كيف يستقبل أبوها أمها بعد عودتها من العمل. وتعرف أن أباها كان مستعداً لأن يلغي أية سفرة له خارج البلاد أو أي لقاء مع الأصدقاء، وأية دعوة ا، إذا لم تكن لدى الأم رغبة في ذلك. وهي تعرف أيضاً بأن ما (يعجب) الأم، وما (لا يعجب) الأم، هو لسنوات طويلة يشكل قانوناً بالنسبة للأب. وهي بالطبع تريد أن تجري حياتها بهذا الشكل أيضاً.

أكّد الكثيرون لي أن ذلك غير ممكن. فالموهبة العائلية تشبه أية موهبة أخرى: فهي إما أن تكون موجودة، أو لا تكون. إبنة تترعرع في البيت. ستكون زوجة وأماً. يجب عليها أن تعرف وتثق، بأن دور الأم والزوجة الذي ستقوم به لاحقاً شيء رائع. وللأب الدور الأكبر في تعزيز هذه الثقة عند إبنته.

أولاد من دون آباء

بالإضافة إلى الخبرة أو التجربة الحياتية البسيطة، تؤكد الأبحاث الجدية بأن: الطفل الناشيء ضمن أسرة غير ناجحة وغير موفقة، سيتضرر بلا شك. تلحق النزاعات العائلية حتى المخفية منها ضرراً لا يعوض، في الحالة النفسية للطفل، وبكل طبعه المتشكل. وكل من يتجرأ على أن يشغل هذا المنصب الهام، من بين المناصب الموجودة في العالم، ألا وهو منصب الأهل، مجبر على إدراك ذلك.

مجبر . . . بيد أننا نعرف كم من الأسر تتهدم، وهذا يعني، كم من الأطفال يغدون من دون آباء. وكما يقال، عشنا ورأينا، حتى معلمو المدارس الابتدائية لا يتجاسرون على إعطاء الأطفال موضوعاً إنشائياً بعنوان (أبي)، ويحاولون تجنب الإستفسار عن مهنة الأب ومكان عمله. ورد في إحدى الجرائد الأدبية نوع من المزاح الساخر، وفي الوقت نفسه مزاح مرير وخطير، وهو أن الأم تغدو أكثر فأكثر أباً للعائلة مع مرور الأيام.

إن عواقب هذه الظاهرة هي أخطر مما نتصور. لا وجود للأب في البيت. لا يوجد سوى الأم والجدّة. وفي المدرسة أيضاً. يجدر بنا أن نحني رؤوسنا أمام تفانيهن وشجاعتهن. وبالرغم من ذلك يجب أن نحاول إدراك الظاهرة الخطيرة: جيل من الأولاد ينمو من دون أن يختبر التأثير الأبوي، ومن دون أن يرى أمثلة من السلوك الأبوي. والسؤال الهام الذي يطرح نفسه: من أين لهم أن يكتسبوا تلك السمات الضرورية لجنديّ المستقبل، ومن أين لهم أن يتعلّموا ما يلزم لزوج المستقبل وأب المستقبل؟

وهكذا تتشكل لدينا حلقة مفرغة حتمية، من جراء وجود مرب وحيد - وهي الإمرأة الأم التي تسعى إلى صيانة ولدها من العواصف الحياتية، وإبعاده عن التجارب وعن المخاطر.

تصوروا أن الأم أو الجدة تصطحب إبنها أو حفيدها إلى المدرسة وتحمل له حقيبة المدرسة. يركض الإبن ملوحاً بيديه والجدة تحمل له حقيبة الظهر وأشياء أخرى. وما إن يقتربوا من المدرسة حتى يقرع الجرس. وتبدأ الأم، بيدين ترتجفان، تفك له وشاحه وتحل له إحدى ربطات حذاءه وتشد الأخرى. مسكين ذلك الولد الذي يستسلم للإرادة النسائية، حتى من دون أن يشعر بالخجل. ومسكينة تلك الفتاة التي ستصبح زوجة له في المستقبل. والأنكى من ذلك أن يتجرأ ويقدم على الزواج. فالأولاد الذين يترعرعون في محيط نسائي كامل، غالباً ما يقعون أسرى حالة يطلق عليها علماء النفس بحالة (فوق التبعية).

أليست هذه الحالة هي السبب في أن بعض الرجال وإن بلغوا الأربعين من العمر لا يستطيعون التخلص من فكرة أنهم الإبن المدلل الوحيد لأمهم، حيث بمجرد وصولهم يجب أن يكون طعام الغداء جاهزاً وساخناً، والقميص مكوياً، والبنطال نظيفاً، والأزرار مخاطة، والبيت مرتباً، وكل ما في البيت متكيفاً مع ذلك الوثن المسيطر في داخله، ذلك الوثن الذي يصبو إلى كل أنواع الراحة والطمأنينه.

سيتحول هذا الإبن الذي ترعرع في كنف أمه (إبن أمه)، وللأسف، إلى ظاهرة إجتماعية كبيرة، منتشرة ومفعمة بالعواقب الوخيمة. إنهم آباء لأولاد لم يولدوا بعد، وأزواج لزوجات لم يُعْرَفْنَ بعد. أما إذا أصبحوا أزواجاً وآباء، فانك بالتأكيد، وكما قلنا سابقاً، سوف لا تحسد لا شريكة حياتهم ولا أولادهم. إنهم يحملون ضمنياً تلك السمات التي تدمّر الأسرة، لأنهم غير مستعدين لكي يقدموا، وإنما ليأخذوا فقط، وغير مستعدين لأن يكونوا مصدراً للحب والرعاية. إذا أعوزتنا القدرة للتغلب على التصورات المكتسبة من التربية الأمومية، فعلى الدينا السلام، بمعنى أن لا ننتظر خيراً من هذا الشخص. فهولاء الأولاد يبقون أولاداً حتى آخر أيامهم، ويطلبون من زوجاتهم طلبات تفوق طلباتهم من أمهاتهم. كيف يجب على الولد، الناشيء في بيت يخلو من الرجال، أن يتخلّق بأخلاق الرجال، ويقتبس أساليبهم ووعيهم بقوّتهم الذاتية، وتسامحهم مع الضعيف وتساميهم الروحي، وازدرائهم لتوافه بل لصغائر الأمور، وسعيهم لأن يعيشوا بسمعة حسنة؟

أليس من الغرابة، نحن النساء، أن نتذّمر قائلين بأن خصائص الرجال الخالصة تصبح شحيحة أكثر فأكثر. ولكن ألم يكن هؤلاء في يوم من الأيام أولاداً، وأبناء. أو أننا نحن النساء من أنشأهم على هذه الشاكلة، وليس على شاكلة أخرى. هذه حلقة أخرى من حلقات الدائرة المفرغة.

وهناك حلقة ثالثة أيضاً. تصوروا أن الرجل ليس ركيزة العائلة ولا سندها، بل هو عبء على العائلة، حيث تبدأ الزوجة بالبحث عن مختلف الأساليب لتتخلّص من هذا العبء؟

تميل الأسرة الحديثة على الأغلب، نحو إنجاب ولد واحد أو بنت واحدة، ممّا يسهل إمكانية إنحلال الأسرة، فالامرأة الواعية المتبصّرة تفهم، بأن في مستطاعها وحدها أن تطعم إبنها الوحيد وأن تلبسه، وتعلمه. فإذا لم يكن باستطاعة الرجل أن يسعدها كزوج وأن يكون رباً للأسرة فهو غير لازم لها بكل تأكيد. وعلى العكس من ذلك، فإن غيابه يوفر عليها الكثير من العناء. والأطفال؟ ما هي الخبرة التي يخرجون بها من جراء إنقسام الأسرة إلى قسمين، ومن كونهم أصبحوا، يتامى، على أن السبب لا هو الموت، ولا هي الحرب؟ وما هو السبب إذن؟ هل كان بالإمكان إصلاحه؟ وهل توجد إمكانية للإحتفاظ بالأب من أجل الأطفال؟

تحدوني رغبة عارمة في الحديث عن هذه المسألة تحديداً. عن الضرورة الملّحة في إختراق هذه الحلقة المفرغة، وأن نرغم ولو جيلاً واحداً من الرجال على الرجوع نحو واجباتهم المحددة وغير المشروطة، نحو تربية أبنائهم ضمن الأسرة، وفي الشارع وفي المدرسة وفي الملعب، وفي كل مكان يترعرع فيه الأولاد والبنات.

من الخطأ الفادح أن نتصور، بأن الأب كذكر النحل لا يلزم إلاّ من أجل أن يظهر الولد إلى الوجود، يمكننا الإستغناء عنه لاحقاً. ولكي نفهم ذلك علينا أن نبدأ منذ البداية. لنحاول أن نحلّل المجموع الذي يشكل السعادة إلى عناصره.

عناصر السعادة

يتزوج الشباب، وتتزوج الشابات، وكلهم ثقة بأن ذلك عن حبّ، ولا توجد أية حوافز مادية كانت أم طبقية، أو على العكس، لا توجد أية

عوائق، وبالرغم من ذلك فإن الكثير من الزيجات كانت غير سعيدة، بالرغم من أن الأسباب الإجتماعية لعدم السعادة غير موجودة. هذه المسألة تشغل الآن بال الكثير من علماء النفس وعلماء الإجتماع، الفلاسفة والكتّاب. هل من المعقول أن لا تكون السعادة البشرية هي الهدف النهائي لجميع الجهود المكرسة لتغيير العالم وتحديث بناه الإجتماعية. ولكن أيّ تحديث هذا، يسأل القارىء، طالما يوجد المهجورون، المظلومون والمحبطون؟ تجعلني طبيعة عملي أنشغل بهذه المسائل ليل نهار. ويردني الكثير من الرسائل التي تحمل إليّ عدداً لا نهائياً من الآلام، والمصائب والأشجان، حيث أقرأها يوماً بعد يوم، شهراً بعد شهر، سنة بعد سنة. لقد احترقت يداي من ذلك، وأني أتساءل عن السبب: لماذا، لماذا، يحدث ذلك في الحقيقة؟

لا توجد على ما أعتقد، إجابة محددة. هناك أخبار فقط أو معلومات تكفي للتأمل وللتبصّر. وكما يحدث غالباً، فإن الكثير من الفضائل لها ذيول على شكل نواقص. فحقوق المرأة في المساواة مع الرجل - هي إحدى الإنجازات الإجتماعية الكبيرة. إننا نعلّم الفتاة منذ الصغر ولسنوات طويلة لتكتسب المعلومات والمهارات، أو لتتعلم مهنة معينة. وهناك أفكار وآراء وجيهة، عن الترقّي في الخدمة، في العلم، في العمل المحبوب أو المرغوب، الذي يملأ حياتك حتى النهاية. كل ذلك يتجذّر في الوعي النسائي الناضج.

قالت لي إحدى صديقاتي من لينينغراد تعمل معلمة في الأدب الروسي، بأن المواضيع الإنشائية التي تكتبها التلميذات عندها، تدور أكثر الأحيان عن العطاء من دون حدود، وتكريس الجهود لتطوير الطبّ (أو المسرح أو التربية) على أن الذي يغيب عن الذهن هي: الأسرة. هذا يعني حسب ملاحظاتها، بأن البنت تحضّر في المدرسة وفي البيت، وأيضاً بعد أن تصبح فتاة، للقيام بدورها الإجتماعي والإنتاجي أكثر من دورها العائلي.

وما هي النتيجة؟ إليكم النتيجة: «إبني - طالب طبّ تزوج من طالبة طب في صفه. عمرها واحد وعشرون عاماً، فهي ليست طفلة إذاً. ولكن

يبدو أنّ عندها تصورات غريبة عن الحياة العائلية. فهي تثب من فراشها صباحاً، وتأكل بسرعة، وتسرع إلى المعهد، ولا يخطر ببالها أن زوجها يريد أن يتناول فطوره أيضاً. فهذا الأمر لا يشغلها على الإطلاق، وحتى أنها لا تغسل الأطباق أو ترتب فراشها. تعود من المعهد متأخرة، تأكل شيئاً ما، وتغرق في الدراسة من جديد. ونتساءل هنا، لماذا تزوجت يا ترى؟ لماذا. . . . لأنها وقعت في الغرام وحان الوقت لذلك. وأخيراً لأنها تصورت الزواج إمتداداً طبيعياً للحب اللطيف مع ما يرافقه من تسليات ورحلات ونزهات ومسرات.

كل فتاة ستصبح زوجة، تعرف بالطبع واجباتها اليومية الإعتيادية. يبدو أن هذه المعرفة سماعية فقط. ويبدو لها، بأن كل الأمور ستسير على ما يرام. بيد أن الأمور لا تسير في الحياة هكذا تلقائياً. كل شيء يتطلب جهداً. أما هنا فالأمر يتعقد حيث الشباب (وخاصة في المدينة. فالأمر مختلف في الريف) غالباً ما يبدؤون حياتهم الزوجية وهم في كنف أهلهم. هذا يعني أن الأمور المعاشية ستقع على عاتق الكبار. ولكن كم عمر ذلك الانسان الكبير؟! بين الأربعين والخامسة والأربعين. هذا يعني أن هؤلاء الناس ما زالوا في ريعان شبابهم ويعملون على قدم المساواة وليس أقلّ من جيل الشباب.

وهكذا تزداد الحساسية بين الأهل وإبنهم وتتراكم المشاكل.

ولكن حاول إن استطعت أن تنوّه إلى أنّ تنظيم السعادة العائلية، هي قضية نسائية أبدية، وبأنه يجب على المرأة أن تكون الروح الطيبة التي تشدّ من أزْر الأسرة، وتؤسس العش العائلي، والراحة البيتية.

لقد نشرنا رسالة لإحدى المعلمات الطاعنات في السن، التي قامت بمراقبة طويلة الأمد لطلابها السابقين، وكيف سارت أمورهم، وحاولت أن تحلل سبب تحطم وإنهيار حياتهم العائلية. كان حديثها، يتخذ هذا المنحى

أيضاً وهذه الروحية، فالمرأة مهما كانت عاملة جيدة فإن رسالتها الأصيلة منذ القدم هي أن تكون زوجة وأماً، وأن تحافظ على البناء العائلي - وهي مسؤولة بالدرجة الأولى عن الإنسجام الزوجي.

ماذا نشب هنا؟ لقد وصلني مئات من الرسائل. ليست النساء فقط هنّ اللواتي كتبن هذه الرسائل، واللواتي جُرِحْنَ من الإعتداء على حقوقهن، ولكن الرجال أيضاً، غير المرتاحين لادعاءات زوجاتهم في تحويلهم إلى طباخات فحسب ووصيفات.

بعد قراءة هذه الرسائل لم تعتمد كليةً على حيوية التأكيدات من نوع: «أنا لم أرغب في أن أرى زوجتي مشغولة تماماً في المشاغل المنزلية». هذا يعني أن صدق هذه المقولة لا يستدعي أي شك في النظرية.

ولكنها عملياً أكثر تعقيداً.

ويتولد هذا التعقيد بسبب دخول جيل (ويبدو لي أن إحدى الأسباب الجدية الأخرى، هي التوقعات غير المتحققة) جديد من الأولاد الوحيدين إلى عش الزوجية. يعاني الولد الذي يترعرع وحيداً في الأسرة منذ الصغر، من صعوبات جدية في تخطّي عادة أن يكون في مركز الإهتمام، وأن يخضع جميع أعضاء الأسرة لمزاجه وميله وذوقه.

مع من سيدخل هذا الإبن الوحيد أو الإبنة الوحيدة، عقد الزواج؟ إنها مسألة هامة جداً. وماذا سيحدث إذا صدق أن كان الزوجان وحيدين، ولا يستطيعان أن يمنعا شيئاً عن أنفسهما، أو أن يتحدّدا بشيء، ولا يستطيعان أن يجدا لغة مشتركة عندئذ لا يستطيع إنقاذ هذه الأسرة الفتية من الإنهيار، سوى المشاعر العميقة جداً.

الزواج - هو إختيار بشكل عام. ليس شهامة منك أن تهب نفسك بلا مقابل، أو بلا غرض، بحيث تكون سعيداً بما يأخذونه منك، أو أن يكون لديك شيء ما ضروري للآخرين. إنه إختبار للإحتياطي، لثقافة التواصل

المتشكلة، لمهارة التنازل من غير أن تتراجع عن الشيء الرئيسي عندك، والمزج الدائم المتدرج لعاداتك وتصوراتك مع عادات وتصورات الإنسان الآخر. يفترض هذا الاختبار، وبشكل أدقّ، هذه الاختبارات الإستعداد السيكولوجي المتشرب بكل الخبرة السابقة للحياة. بيد أن الأسرة والمدرسة سرعان ما تغرس في الإنسان السعي نحو تأكيد الذات، وتهذّب إحساسه بالكرامة الذاتية، وتغرس أيضاً السمات العظيمة بذاتها، ولكن هذه السمات لا تساعد دائماً على الرفاهية العائلية، وعلى تحويل الحياة المشتركة إلى نضال مستمر من أجل عزّة النفس.

أنا أعرف بعض الناس الشباب الذين تعارفوا أثناء رحلة إلى جبال الألب. لقد تعرضوا هناك أكثر من مرة لمواقف صعبة، ساعدتهم على إختبار متانة بعضهم البعض وتبيّن أنه لا علاقة لهذا الإختبار ولو من بعيد، بالحياة الزوجية. لقد حصل إصطدام بين شخصيتين قويتين، ولم يتراجع أحد منهما عمّا في نفسه (أو أنه لم يقدر) بحيث أعاق ذلك من توحيد عالميهما في عالم واحد.

وما يعيق من توحيد هذين العالمين، هو أن أحد الزوجين مولع جداً بمهنته. كان يجب على هذا الولع، نظرياً، أن يُغْني مجال الحياة الشخصية. وبالمناسبة، هذا ما يحدث في حالة الإتحاد الناجح للناس العاملين في مجال واحد تقريباً، للناس الذين تتطابق عندهم الإهتمامات المهنيّة. ولا بد من الإشارة هنا إلى بعض المخاطر التي يمكن أن تنشأ من تحقيق أحدهم نجاحات ملحوظة، بسعيه نحو القمّة، ومعاناة الآخر من الإخفاق. وتبقى القوالب السيكولوجية القديمة في الوعي بشكل راسخ، فيما يتعلق بنجاح الزوج في المجال المهني، الذي لن يؤثر التأثير المؤلم على التوازن العائلي. وماذا لو كانت الزوجة أكثر نجاحاً؟..

منذ عدة سنوات تعرفت على ثنائي فتي جداً وأنيق جداً. لقد أنهيا

المعهد سوياً، وعيّنا في المصنع نفسه وحتى في القسم ذاته وكل شيء سار بشكل رائع. لقد حصلا على شقة سكنية. وولدت لهما إبنتان رائعتان، وأتت أمّه من القرية لتساعدهما في أعمال البيت. وصدف أن عينوا هذه الإمرأة الشابة والجيدة جداً، في مركز مسؤول. وبدأت تحضر الإجتماعات واللجان، والمؤتمرات. وتُدعى إلى الإجتماعات الإحتفالية دون زوجها وتُرْسَل في مهمات خارج البلاد، تاركةً زوجها وحيداً مع الأطفال. وكانت تهتف لزوجها أحياناً عندما تتأخر في العمل لتذكره بشراء المواد الغذائية من المخزن، وبمساعدة البنت الكبرى في تحضير دروسها، وباحضار بعض الثياب من الرداء النظيف، وبنقع البياضات من أجل غسيلها في اليوم التالي - إنها باختصار، تقود الأعمال المنزلية المعقدة عن بعد.

وبدأت الدعامات العائلية تنهار بالتدريج، نتيجة هذه الحالة من عدم الإستقرار.

تارة الحسد الغامض المبهم، وتارة أخرى البرهنة على إستقلاليته، والدفاع عن حريته وعدم إرتياحه، أجبرت الزوج إما أن يتأخر عن قصد، عن روضة الأطفال لإحضار الطفلتين، وإمّا أن يذهب إلى أصحابه الذين لم يكن يذهب إليهم سابقاً. كانت كل مهمّة لزوجته إلى العاصمة سابقاً مدعاة للفخر، أما الآن، فعلى العكس من ذلك، فإنها تثير التذمّر والسخط: أنا لست حاضنة عندكِ، ولست عاملة في البيت. وبإختصار، لقد انتهت العائلة ولم يعد لها وجود. وتألم الإثنان ألماً شديداً، ولم يستطيعا العودة إلى سابق عهدهما، ولم يستطيعا إصلاح البنيان العائلي المهتزّ.

هذه المسألة من المسائل الشائكة جداً. فالكاتب الموهوب فاسيلي بيلوف، أولاها عناية خاصة، حيث أفرد لها بعض القصص القصيرة.

هذه القصص كانت تدور عن التضحية بحرية المرأة والصراع المستمر من أجل الإستقلالية الذي تخوضه الزوجة، مدافعة عن حقها في الحياة

ضمن الحياة الزوجية، حتى من غير أن تأخذ بعين الاعتبار، ذوق زوجها، وعلى سبيل المثال، إذا لم تعجب الزوج تسريحة الشعر عند زوجته، أو طريقة مكياجها، فإنها تلجأ عن عمد، إلى صبغ شعرها بألوان غير مألوفة، ليس لأن هذه هي تصوراتها عن الجمال بل لأنها تريد أن تؤكد من خلال هذا الأسلوب على حقها وحريتها المطلقة.

بيد أن الزواج والإستقلالية، الزواج والحرية المطلقة - مفاهيم متناقضة، وغير متوافقة: فالزواج يعني إرتباطاً فوق العادة لأحدهما مع الآخر - وإلاّ أين نجد وحدة الآراء، والمعاناة المشتركة. بيد أنه، في ظروفنا الحالية - يكتسب هذا وذاك مغزىً خاصاً، حيث الوحدة الروحية هي ذلك الأساس الذي يقوم عليه الزواج. في هذا الزواج لا يضطر الزوجان لأن يضحّيا بإهتماماتهما وبأذواقهما وبإستقلاليتهما، وإنما يتكيّف أحدهما مع الآخر بكل سرور، لأن الهدف الوحيد لكل منهما ينحصر في إرضاء أحدهما الآخر. ذلك هي، على ما يبدو، صيغة مستفيضة للسعادة الزوجية، التي تعني ضمن ما تعني الإستعداد والرغبة في أن تصبح جزءاً من الكل.

إننا نادراً ما نوحي، للشبان والشابات الذين يدخلون عمر الزواج، شيئاً شبيهاً بذلك والسبب في ذلك هو تربية الأفكار والتصوّرات الرومانتيكية المتطرفة عن الحب عند الشباب والشابات، التي أصبحت تقليدية في الأدب الروسي وفي علم الأخلاق.

هل يعني هذا، أنه على الشباب والشابات أن ينتظروا بصبر وعناد مواجهة تجسيد مثَلهم الأعلى في الحياة؟ لا، بالطبع. إننا نواجه هنا مصادفات كثيرة. هناك عامل هام يجب أن نوجّه الإهتمام نحوه. إنه العامل الديمغرافي (السكّاني). فالفتيات يعانين من الخوف من أن يبقين وحيدات، ويعانين من الوحدة، نتيجة زيادة عدد النساء على الرجال.

ويعانين من الإنخفاض الحادّ في مستوى القدرة على الإختيار، حيث يسود المنطق التالي: على الرغم من أن الأمور لم تَسِرْ كما أرغب تقريباً، وبالشكل الذي أريد، فذلك أفضل من لا شيء. هكذا تبدو الأمور حتى هذه اللحظة، حيث الزواج لم يتّم بشكل رسمي بعد ويبدأ الكثيرون، بعد الزواج بالمعاناة الشديدة نتيجة استعدداهم لتسليم «مصيرهم أو قدرهم للرحمة»، وهنا يبدأ المثال الأعلى غير المتحقق بالعمل على تحطيم الزواج، وتؤدي أولى الصعوبات السيكولوجية المعاشية، المادّية، وعدم التطابق والتوافق مباشرة إلى قرار سريع وحاسم: إعلان الرغبة في الطلاق. إن الإنفعال والسرعة، التي تتخذ بها مثل هذه القرارات، مدهشة جداً. إن كلمة (طلاق) هي تهديد بحدّ ذاتها (سأفترق عنك، سأطلقك)، حيث يتلفظ بها البعض أحياناً من دون أي سبب جدّي إلى حد كاف، إذ يعتاد الناس تدريجياً على إمكانية اللجوء الى مثل هذا الحلّ كمخرج من الصعوبات. وماذا سيكون مصير الأطفال والأولاد؟ هل أملك الحق في التطاول على القيمة الممنوحة لهم، لماذا لا نحافظ عليهم ونبعدهم عن المشاجرات التافهة، التي تقوّض دعائم العائلة.

تقرأ الرسائل، تسمع إعترافات الناس، تراقب العلاقات بين المتزوجين حديثاً، أو الذين لهم فترة لا بأس بها في الزواج، وتفكّر بالرعونة والنزق الغريب غير المفهوم تجاه العلاقة بأعزّ شيء بالنسبة لك في الحياة البشرية وهي العلاقة بالبيت، حيث يترعرع الأطفال.

* * *

الخاتمـة

لقـد قلبنا الصفـحة الأخـيرة من الكتـاب. ومرّت أمـامنا سلسلة من مصائر الكبار والصغار السعداء والتعساء، وعرضنا عليكم أمثلة من الأخطاء الدراماتيكية، والمصادفات السعيدة في التربية العائلية.

وتعـرفـتم على نصـائح علمـاء التـربيـة ذوي الخبـرة، وعلـمـاء الـنفس والأطباء، والكتاب واغتنت معارفكم في مجال التربية. وهذا الشيء يسمح لكـم، من دون شك بـالتـعـامل بشكل أفـضل مع أطفـالكم ومع أنفـسكم بالذات.

أردت أن أوجّه تحذيراً منذ البداية. تقول العامّة: «بنفس الفأس الذي تقطع به الشـجـرة يمكن أن تصنع ملعـقة». أمـا أنا فـأضـيـف: من المـمكن أن نخلق بنفس الفـأس تحـفاً فنية خـشـبيـة رائعـة، ومن الممكن أن نزرع الموت والدمار: كل شيء يتعلّق باليد التي تستعمل ذلك الفأس.

والتربية كذلك الأمر - لا يوجد هنا وسائل وطرق رديئة جداً أو جيدة. فـالـعـقـوبة يمكن أن تسـاعـد في صـيـرورة المواطن، ويمكن أن تـخلق منه سيكولوجية العبد. إن إهتمام الأهل الدائم وملاطفتهم يمكن أن تفسد روح الطفل، وكذلك اللامبالاة، وإهمال إهتماماته ومصالحه.

ولذلك نرجو من قرائنا - الأهل، الجدّات، الأجداد، ألاّ يتبعوا بشكل أعمى ومن دون تفكير ما جاء في هذا الكتاب من نصائح وإرشادات، وحتى الأكثر حدة منها وذكاءً، التي حاولنا أن نملأ بها محتوى كتابنا هذا. يجب أن نمررها عبر موشور خبرتنا الخاصة، وعبر قلبنا وروحنا. وأكرّر: التعلّم من

الأخطاء ممكن، وحتى من نجاحات العائلات الأخرى، وليس عبثاً المثل القائل: «مثال الغير - علم للآخر». من أجل هذا، تمّ وضع الكتاب، لكي يساعد الأهل في التعليم التربوي، ولكي يحذرهم من الأخطاء المحتملة، ويعطيهم النصيحة، لتفادي الشعاب الصخرية في العمل الصعب في تربية الأطفال.

يجب أن يكون حذرنا هنا دقيقاً، وعلاقتنا متبصرة في كل خطوة نخطوها. يجب أن لا نأخذ بشكل ميكانيكيٍّ التجارب الناجحة للأسر الأخرى، ونُدخلها ضمن خطتنا في التربية. حاول أن تنقل شجرة مزهرة من مكانها إلى مكان آخر، حيث يسود مناخ آخر وتربة أخرى، فإنك ستلاحظ بأنها إما أن تذبل وتموت وإما أن تتأقلم إذا توفرت لها الرعاية اللازمة، وتَمّ إبعاد الضرر والأمراض عنها. على الأهل أن يقوموا بهذا العمل نفسه مع الأطفال.

بيد أن الطفل ليس بذرة أو نباتاً. فالطبيعة قد وضعت فيه، ما تطلق عليه السيكولوجية بـ«فعالية الشخصيّة». إنه لا يستقبل فقط، ولكنه يعدّل من تأثير الوسط، ويصوغ وضعه الخاص. يرتبط نجاح جهودنا، وكل عملنا التربوي، في السياق النهائي بعلاقة الطفل بكلماتنا وبأفعالنا. لا تنسوا ذلك، عندما تحاولون إختيار هذا الأسلوب أو ذلك من أساليب التربية.

عادة ما يقارنون الطفل بالشمع، والمربّي بالنحّات، أعتقد أن ذلك غير دقيق. فالطفل ليس شمعاً ولا معدناً ولا خشباً. إنه شخصية إجتماعية، يجب علينا إحترامه، وأن لا ننسى بأن هذا (المعدن) لا مثيل له. إن لديه (مقاومة) لا تحوز الطبيعة على مثيل لها. في ذلك يكمن إستنتاجنا المهم الثاني من حواراتنا.

نريد أن نقدّم نصيحة أخرى أيضاً: لا تنظروا إلى هذا الكتاب كجواب على كل المسائل التربوية، وكمجموعة من النصائح الحكيمة، تصلح لكل أمور وأحداث الحياة. كتاب كهذا لا يوجد ولا يمكن أن يوجد. لا تتسرعوا

بالقياس على تجارب الآخرين: «أنظر كيف يعيش الناس وأنا سأفعل الشيء نفسه....». لقد سخر عالم النفس السوفيتي / ل. س. فيغوتسكي/ ، حتى في الثلاثينات من هذا القرن، من هذه الصيغة، منتقداً محاولات بعض الأهالي نسخ حياة أخرى بأسلوب حياتي ساذج.

كل عائلة ـ ظاهرة مدهشة وفريدة من نوعها، يمتزج فيها عالمان: العالم الخارجي العظيم، وعالم الإنسان الداخلي المخلص الودّي، مقاييسها عظيمة ـ من الفضاء الخارجي وحتى الشعرة التي على رأس الإنسان. وتتشابك فيها بشكل عجيب القواعد والمعايير الإجتماعية للسلوك مع قوانين التواصل ومع التقاليد الشخصية والعائلية، غير المعروفة حتى النهائية.

يوحّدنا، نحن الأهل المربين، هدف نبيل واحد هو تربية إنسان حقيقي، متطور بشكل متناغم، محبّ للعمل، وسعيد بشكل دائم. وبالرغم من أن أهدافنا واحدة فإن أساليب تحقيقها لا يمكن إحصاؤها. لكل عائلة أسلوبها الفريد الذي لا يتكرر. حيث من الممكن أن تكون المهام أكثر أهمية ومسؤولية من البحث عن تلك الطرق والأساليب. ولكن علينا إيجادها بالتأكيد، لكي نربّي المواطن المفيد والصالح للمجتمع.

هذا هو هدفنا الذي نتجّه نحوه لبلوغه.

انتهى الكتاب

* * *

الفهرس

٢٠٠٠ ط ١ / ١٠ / ١٩٩٧

الكتاب هذا بحجمه المحدود هو موسوعة في تربية الأهل لأولادهم وضعها علماء وحكماء خبروا تربية الأطفال نظرياً وعملياً، في الدراسات وفي حياة كل منها الأسرية. نصوصهم جمعها ناشر الكتاب ونسقها بحيث تتكامل فتقدم للقارئ العربي بلغة سهلة موجزة ومحكمة، الأهم من المشكلات التي تطرحها أو قد تطرحها على الأهل تربية أطفالهم منذ بداية العمر حتى المراهقة.

يتميز الكتاب هذا عن الكتب الأخرى بخصائص ثلاث هي:

١- معالجة مشكلات وقعت حقاً وكثيراً ما أدت إلى طريق مسدود فكيف أمكن حلها؟

٢- النظرة المستقبلية. فالطفل هو رجل الغد.

٣- الثقة بالطفل فلا يحق لك أن تضعه تحت الوصاية بل أرشده واتركه يحل مشكلاته بنفسه.

٤- أضف الوضوح والعمق.

نذكر بالمناسبة أن روسيا السوفييتية والأمم التي كانت تابعة لها، كلها تميزت أكثر ما تميزت بكتبها التربوية والقصص التي كانوا يعدونها للأطفال.

وقد ترجمت مديرية التأليف والترجمة وغيرها من دوائر النشر عدداً من هذه القصص.

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٧

سعر النسخة داخل القطر ٣٥٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل ٧٠٠ ل.س